COLLEEN HOOVER

مكتبة

TOO LATE

كولين هوفر

بعد فوات الأوان

رواية



ترجمة: هزار مخايل



بعد فوات الأوان





00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

- العنوان الأصلي: TOO LATE
- العنوان العربي: بعد فوات الأوان
- طُبِع بواسطة: CreateSpace Independent Publishing Platform, 2016

- ترجمة: هزار مخايل
- تحرير: محمد المتيم
- تدقيق لغوي: محمد عبد العال
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- الطبعة الأولى: يناير / 2024م
- رقم الإيداع: 2023/26675م
- الترقيم الدولي: 978-977-992-346-8



COLLEEN HOOVER



TOO LATE

كولين هوفر

بعد فوات الأوان

رواية



ترجمة: هزار مخايل

الفصل الأول

سلوان

أصابع دافئة مشبوكة بأصابعي، تضغط يديَّ بشكلٍ أعمق أغطيةَ السرير، أشعر أن جفنيَّ ثقيلان جدًّا، ممَّا يصعِّب عليَّ فتحهما، وذلك بسبب قلة ساعات نومي خلال الأسبوع المنصرم، بل قلَّة ساعات نومي خلال الشهر بطولِهِ حقيقةً. يا للجحيم! لقد كانت هذه السنة بأكملها سنةً سيئةً.

تثاءبتُ وحاولت أن أحشر ساقيَّ معًا، لكنني لم أستطع. هنالك ضغط على جسدي في كل مكان؛ على صدري، وفوق خدِّي، وبين ساقيَّ. لقد تطلب الأمر بضع ثوانٍ لكي أوقظ دماغي من غياهب النعاس، ولكنني كنت واعية بما يكفي لأستوعب ما يجري، فتمتمت بغضب: «ابتعد عنِّي يا آسا».

دفع ثقله فوقي على نحو متكرِّر، وراح يتأوه في أذني، وذقنه غير المحلوقة تخز خدِّي، وقال بينما أنفاسه تلتطم بعنقي: «كدت أنتهي يا حبيبتي».

حاولت أن أسحب يديَّ من تحته، لكنه ضغط عليهما أكثر، مذكِّرًا إياي بأنني مجرَّد سجينة في سريري الخاص، وأنه هو سجَّان غرفة النوم هذه. لطالما امتلك آسا طريقته الخاصة التي تولِّد لدي الشعور بأن جسدي طوع أمره. لم يكن يومًا مزعجًا أو عنيفًا، لكنه فقط متطلِّبٌ وهذا بالتحديد ما أجده متعبًا أحيانًا، مثلما هو الآن، في الساعة السادسة من الصباح اللعين.

يمكنني تخمين الوقت من خلال أشعة الشمس المنسرِبَة من الشق أسفل الباب، وبالاعتماد على حقيقة أن آسا قد خلد إلى الفراش للتَّوِّ بعد حفل الليلة السابقة، في حين أنني، على الطرف الآخر، يجب أن أكون في صفِّي خلال أقل من ساعتين. ليست هذه الطريقة التي كنت لأختارها -إن أتيح لي الاختيار- للاستيقاظ بعد نوم لم يزد عن ثلاث ساعات.

لففتُ ساقيَّ حول خصره، وبي أملٌ أن يقتنع أنني مثله أريد هذا، فعندما أُظهر له القليل من الاهتمام ينتهي الأمر بسرعة. كوَّر نهدي الأيمن براحة يده، فاستجبتُ بالأنَّة المتوقَّعة لفعلٍ كهذا، وتزامن ذلك مع بدء اهتزازه فوقي، وقد دفن وجهه في شعري، وهو يهتزُّ ببطء، ويئنُّ: «اللعنة!».

بعد مرور عدَّة ثوانٍ انهار فوقي، وتنهَّد بثقل، ثمَّ قبَّل خدي وتدحرج إلى جانبه من السرير. نهض وخلع الواقي الذكري ورماه في سلة القمامة، ثمَّ تناول زجاجة ماء من على الطاولة المجانبة للسرير، ورفعها إلى شفتيه وهو يمسح جسدي العاري بعينيه، لتنكشف شفتاه عن ابتسامة كسولة، وقال: «أحبُّ أنني الشخص الوحيد الذي ولَجَ «هذا»».

وقف بثقة وهو عارٍ قرب السرير، وعبَّ من الماء حتَّى آخر قطرة. من الصعب أن تتقبلي الإطراء من شخص يشير إلى جسدكِ بكلمة «هذا».

بعيدًا عن وسامته، فإنه لا يخلو من العيوب. في الحقيقة، قد يكون مظهره الخارجي هو الشيء الوحيد الذي لا يمكنني أن أشير إلى عيب فيه. إنه متعجرفٌ وصعب المراس، وأحيانًا يصعب احتماله، لكنه يحبُّني، يحبني حبًّا جمًّا، وسأكون كاذبة لو قلت إنني لم أبادله الحب. هنالك العديد من الأشياء التي أرغب بتغييرها فيه لو أمكنني ذلك، ولكنه الآن كل ما لديَّ، لذا أتقبَّله على حاله. لقد آواني حينما لم يكن لدي مكان أذهب إليه، ولا أحد آخر ألجأ إليه، لهذا السبب فقط أقمت معه، لم يكن أمامي خيار آخر.

رفع يده ومسح فاه، ثمَّ رمى العبوَّة الفارغة في سلة المهملات، مرَّر يده في شعره البني الكثيف وغمز لي بعينه، ثمَّ ارتمى مجدَّدًا على السرير، وانحنى نحوي وقبَّل شفتيَّ برِقَّة، وقال وهو ينقلب على ظهره: «تصبحين على خير يا حبيبتي».

قلتُ: «تقصد صباح الخير!».

سحبتُ نفسي على مضض من السرير، وكانت بلوزتي متجمِّعة عند الخصر، لذا مطَطتها لأسفل وجذبت سروالًا وبلوزة أخرى. مشيت عبر الممشى نحو حمَّام الطابق العلوي، وأنا أشعر بالراحة لأنه كان شاغرًا، لم يشغله أحد شركاء السكن غير القابلين للعد، وفي أثناء ذلك تحققت من الساعة على شاشة هاتفي، وانكمشت عندما أدركت أن الوقت لن يسعفني لأتوقف من أجل فنجان قهوة. اليوم سيبدأ درسي الأول في الفصل الدراسي الجديد، وكنت قد خطَّطت أن أستغلَّه لأعوِّض نقص النوم. هذا لا يبدو جيدًا.

ما من احتمال أن أتمكن من الاستمرار على هذه الحال. لم يلتزم آسا يومًا ولو بصفٍّ واحد على نحو متواصل، ومع ذلك فهو يجتاز اختباراته بدرجة قريبة من التميز، بينما أنا أكافح لأنجح، إذ إنني لم أتخلَّف عن حضور صفٍّ واحد خلال الفصل الدراسي السابق. حسنًا، لم أتخلف عن الحضور الجسدي على الأقل، إذ إننا، ولسوء الحظ، نتشارك منزلنا مع العديد من الأشخاص، لذا لا يمكنك أن تحظى نهائيًّا بلحظة هدوء واحدة، وبسبب ذلك فقد وجدت نفسي أغط في نوم عميق في الصف، وقد تعدَّت المرَّات التي غالبني فيها النعاس هناك تلك التي كنتُ فيها يقظةً، فهو المكان الوحيد الذي أحظى فيه بالسكينة والهدوء، إذ يبدو أن الحفلات في منزلنا لا تتوقف مطلقًا طوال الليل والنهار، مستثنى منها من لديهم صفوف في الصباح التالي، كما أنهم لا يفصلون بين أيام العطلة والأيام العادية، ولا يقع على عاتق سكَّان هذا المنزل الالتزام بدفع أي نوع من بدل الإيجار.

لا أعرف في كثير من الأحيان من يسكن هنا، المنزل ملك لآسا، ولكنه يحب أن يكون محاطًا بالأشخاص، لذا فقد اعتمد سياسة السكن المجاني للجميع. لو كانت لديَّ الإمكانات اللازمة لحصلت على منزلي الخاص برفة عين، لكن لا قدرة لديَّ، هذا يعني أنه ما زالت أمامي سنة واحدة فقط من الجحيم المطلق قبل أن أتخرج.

سنة واحدة فقط قبل أن أصبح حرةً.

خلعت بلوزتي ورميتها على الأرض، ثمَّ سحبت ستارة الحمام، وما إن مددت يدي لأمسك بالخرطوم، حتَّى أطلقت صرخة مدوِّية بأقصى ما تستطيع

رئتاي، ففي الحوض رأيت زميل سكننا الجديد؛ دالتون، مغمًى عليه وهو في كامل ملابسه. استيقظ مذعورًا وخبط جبينه بالصنبور فوقه، فصدرت عنه صيحة ألم. مددت يدي إلى الأرض والتقطت بلوزتي، وكان ذلك في اللحظة التي شُقَّ فيها الباب واندفع عبره آسا وصاح بلهفة: «هل أنتِ بخير يا سلوان؟».

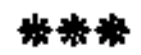
ودار حولي ليتحقق من سلامة جسدي وأنني لم أصب بأي أذًى، فأومأت بشكل محموم، وأشرت إلى دالتون في حوض الاستحمام.

تمتم دالتون: «لستُ بخير».

وضع راحة يده على جبهته المصابة حديثًا وحاول أن يسحب نفسه خارج حوض الاستحمام. نظر آسا نحوي، وإلى جسدي العاري المغطى بالبلوزة التي أحملها بين يدي، ثمَّ نقل نظره إلى دالتون، خِفْتُ أن تتشكل لديه فكرة خاطئة حول ما حدث، فبدأت بشرح الموقف له، لكنه قاطعني منفجرًا بضحكة صاخبة غير متوقعة، وأشار إلى رأس دالتون قائلًا: «هل تسببتِ له بهذا؟»، فهززت رأسي بالنفي وأجبت: «لقد خبط رأسه بالصنبور عندما صرخت».

ازدادت ضحكة آسا صخبًا، ومدَّ يده نحو الأسفل ليمسك بها دالتون، ثمَّ سحبه مخرجًا إياه من الحوض، وقال: «هيا يا رجل، إنك بحاجة إلى كأس من الجعَّة، علاج جيد لصداع الثمالة».

دفع دالتون خارج الحمام، ثمَّ لحقه، وأغلق الباب خلفه. تجمَّدت في مكاني، وكنت ما أزال أشد بلوزتي إلى صدري. المحزن في الأمر أنها لم تكن المرَّة الأولى، بل للمرَّة الثالثة يحدث الأمر ذاته، وأجد غبيًّا مغمًى عليه داخل الحوض، ممَّا جعلني أسجل في عقلي ملاحظة حول ضرورة التحقق من الحوض في المرَّة القادمة قبل أن أتعرَّى من ملابسي.





الفصل الثاني

كارتر

أخرجت ورقة جدول الحصص من جيبي، وفتحتها لأعرف رقم غرفة الصف، وقلت عبر الهاتف: «هذا محض هراء! لقد تخرجت في الكلية قبل ثلاث سنوات، لم أنضم إلى القسم لأكلَّف بأداء وظائف منزلية».

ضحك دالتون بصوتٍ عالٍ، وأجبرتني ضحكته الصاخبة على إبعاد الهاتف عن أذني بضع بوصات، وقال: «تبًّا لك يا رجل، لقد أُجبرت على النوم في حوض الاستحمام الليلة الماضية، تبًّا لك، اعتبر هذا جزءًا من عملك».

- من السهل عليك قول هذا، لقد سُجِّلت في صف واحد أسبوعيًّا، أما أنا فلديَّ ثلاثة، لماذا رضي يونغ بأن يعطيك واحدًا فقط؟

- ربما أُعطي انطباعًا بأنني أفضل منك.

نظرت إلى ورقة الجدول ثمَّ رفعت نظري إلى الرقم المدوَّن على باب الغرفة أمامي، ووجدتهما متطابقين.

- يستحسن أن أغلق، ها هو صف الإسباني.

- انتظر يا كارتر.

أصبحت نبرته أكثر جدية. نظف دالتون حنجرته، وتجهز ليُلقي «خطاب الشريك الحماسي»، إنني أعاني من هذه الخطابات بشكل يومي منذ أن بدأنا العمل معًا. وقال: «حاول أن تستمتع بالأمر يا صاحبي، لقد اقتربنا كثيرًا من الحصول على كل ما نريده... ستقضي هنا شهرين على الأكثر، اعثر على شريكة مقعد مثيرة، سوف تسهل عليك الأمر وتجعل النهار ينقضي بسرعة».

نظرت عبر نافذة باب غرفة الصف، كانت عمليًّا مشغولة المقاعد بشكل كامل ما عدا ثلاثة مقاعد فارغة، وقعت عيناي مباشرةً على فتاة تجلس في مؤخرة الصف بقرب أحد الكراسي الشاغرة. كان شعرها الداكن متدلِّيًا على وجهها بينما رأسها مرتاح على ذراعيها. إنها نائمة. يمكنني الجلوس قرب النيام، أما كثيرو الكلام فهم نوعية البشر التي لا يمكنني احتمالها.

- انظر إلى هذا! لقد وجدت بالفعل فتاة مثيرة لأجلس بقربها. سوف أتواصل معك بعد الغداء.

أغلقت الخط، ودفعت باب الصف ليتأرجح مفتوحًا، بينما فعَّلتُ الوضع الصامت في هاتفي. رفعت حمالات حقيبة ظهري نحو كتفيَّ وأنا أشق طريقي عبر الغرفة صاعدًا الدرج باتجاه مؤخرة الغرفة، انكمشت على نفسي وأنا أتجاوزها نحو الكرسي الشاغر، ووضعت حقيبتي على الأرض، وهاتفي على منضدة المقعد أمامي، وقد أيقظ الصوت الذي سبَّبَه ارتطام هاتفي بخشب المقعد الفتاة من نومها. عدَّلَت جلستها في الحال، وعيناها مفتوحتان على اتساعهما، نظرت حول الغرفة حائرة ومسعورة، ثمَّ أعادت نظرها إلى الأسفل نحو دفتر الملاحظات الموجود على المقعد أمامها، فسحبتُ الكرسي وجلست بجوارها، حدَّقَت إلى هاتفي المرمي على المقعد أمامنا، ثمَّ نظرت إليَّ.

كان شعرها فوضويًّا بشدَّة، وثمة خيط من اللعاب يلمع ممتدًّا من زاوية فمها إلى ذقنها، وهي تحدِّق إليَّ وكأنني قد قاطعت دقيقة النوم الوحيدة التي سبق أن حظيت بها. سألتها: «أتأخرتِ بالسهر؟». وانحنيتُ وفتحت حقيبة ظهري، ثمَّ أخرجت كتاب اللغة الإسبانية، والذي بإمكاني أن أتلوه عن ظهر قلب، فضيَّقت عينيها وحدقت إلى الكتاب الذي وضعته أمامنا على المنضدة، وسألت: «هل انتهى الصف؟».

- حسب.

- حسب ماذا؟

- حسب المدة التي استغرقها نومكِ. لا أعلم تمامًا أي صفٌ كنت تقصدين، لكننا الآن في حصّة العاشرة وهي صف الإسباني.

رمت كوعيها على المقعد أمامها، وأنّت وهي تمسح وجهها بيديها، وقالت: «أنمت لخمس دقائق؟ فقط؟». ثمَّ أرجعت ظهرها إلى المقعد، وسحبت جسدها لأسفل، وأراحت رأسها على ظهر كرسيها، وقالت: «أيقظني عندما تنتهي الحصّة، حسنًا؟». ها هي تنظر إليَّ، منتظرةً أن أوافق على كلامها، فنقرت بإصبعي على ذقني، وقلت: «ثمة شيء ما على وجهكِ هنا».

مسحت فمها، ثمَّ سحبت يدها لتعاينها، ظننت أنها ستحرج من حقيقة وجود لعاب يسيل على وجهها، لكنها عوضًا عن ذلك، دوَّرت عينيها، ودسَّت كُمَّ سترتها تحت إبهامها، ومسحت قطرات اللعاب عن المقعد بكمها، ثمَّ انغمست مجدَّدًا في مقعدها، وأغلقت عينيها.

سبق أن عشت حياة الكلية، وأعلم كيف يكون الأمر في ظل الليالي الطويلة، والحفلات، والدرس، وكيف أنه لا يوفر لديك أبدًا الوقت الكافي للقيام بكل ذلك معًا، ولكن هذه الفتاة تبدو متوترة لأبعد حدٍّ، أتساءل ما إذا ما كان مَرَدُّ ذلك إلى نوبة ليلية، أو إلى الاحتفال على نحو مبالغ به.

مددت يدي إلى حقيبة ظهري، وأخرجت شراب الطاقة الذي كنت قد ابتعته في طريقي إلى هنا هذا الصباح، أعتقد أنها بحاجة إليه أكثر مني. وضعته على المنضدة أمامها، وقلت: «إليكِ، اشربي هذا».

كافَحَت وببطء فتحت عينيها، وكأن كل جفن من جفنيها يزن ألف كيلوجرام، ونظرت إلى المشروب، ثمَّ جذبته بسرعة إليها، وفتحت الغطاء، وعبَّت محتويات العبوَّة على نحو محموم، وكأنها أول شيء تشربه منذ أيام. ضحكتُ وقلت لها: «على الرحب والسعة».

أنهت المشروب، وأعادت العبوَّة الفارغة إلى مكانها على المنضدة، ومسحت فمها بالكم ذاته الذي استخدمته سابقًا لمسح اللعاب. لن أكذب؛ سلوكها الهمجي العفوي أثارني جدًّا بطريقة غريبة.

أبعدت شعرها عن عينيها، وهي تقول لي: «شكرًا».

نَظَرَت نحوي وابتسمت، ثمَّ مدت ذراعيها خلف جسدها وتثاءبت. فُتح باب غرفة الصف وتحرَّك الجميع في مقاعدهم مشيرين إلى دخول المعلم، لكنني لم أستطع أن أحيد بنظري عنها بما يكفي ولو حتَّى للتحقق من دخوله.

مررت أصابعها بين خصلات شعرها، وكان ما يزال رطبًا بعض الشيء، وقد فاحت منه رائحة شامبو الاستحمام بعطر الأزهار، عندما أرجعته إلى خلف كتفيها. شعرها طويل وداكن وكثيف، ورموش عينيها تتمتع بالسمات ذاتها، حدَّقت نحو مقدمة غرفة الصف، وفتحت دفترها، ومثلها فعلتُ مكررًا حركاتها.

حيَّانا الأستاذ بالإسبانية، ورددنا عليه جميعًا بإجابات متلعثمة، كان قد بدأ بإعطاء تعليمات على فقرة ما عندما أضاءت شاشة هاتفي على الطاولة بيننا، نظرت إلى الأسفل وقرأت الرسالة التي وصلتني من دالتون «هل تملك هذه المرأة ذات القوام المثير التي تجلس بقربها اسمًا؟». بسرعة قلبت الهاتف على المقعد، آملًا أنها لم تقرأها، فإذ بها رفعت يدها إلى فمها لتغطي ضحكتها!

اللعنة. لقد قرأتها.

- امرأة ذات قوام مثير، أليس كذلك؟
- أنا أعتذر. إنه صديقي... وهو يظن نفسه مضحكًا، كما أنه يحب أن يحوِّل حياتي إلى جحيم.

قوست أحد حاجبيها، وبرمت نحوي، وقالت: «إذَنْ أنت لا تعتقد أنني أملك قوامًا مثيرًا؟».

باستدارتها نحوي بكامل رأسها، تمكنتُ من رؤيتها للمرَّة الأولى بوضوح، ودعوني أقول فقط إنني فعلًا وقعت بحب هذا الصف الآن. رفعت كتفي وقلت: «مع فائق احترامي، لقد كنتِ جالسة منذ أن التقينا، لم أتحقق من قوامك حتَّى الآن».

ضحكت مجدَّدًا، وقالت وهي تمدُّ يدها لمصافحتي: «سلوان».

أخذت يدها بيدي، وكان ثمَّة ندبة هلالية الشكل على إبهامها، مررت إبهامي فوق ندبتها، ورحت أقلِّب يدها ذهابًا وإيابًا متفحصًا الندبة. كررت، تاركًا اسمها يتردد على طرف لساني: «سلوان».

- عادةً في هذه النقطة من المحادثة يذكر الطرف الآخر اسمه.

- كارتر.

عرَّفت بنفسي طبقًا للشخصية التي يُفترض أنني أؤديها، لقد عانيت من صعوبة كبيرة للتعود على مناداة راين بدالتون، لكنني اعتدت على الأمر، أما تسمية نفسي كارتر فتلك قصة أخرى، لقد زلَّ لساني أكثر من مرة، وكدت أذكر اسمي الحقيقي.

أجابت بالإسبانية، وتقريبًا بلكنة مثالية، محوِّلةً انتباهها إلى مقدمة الفصل: «سررتُ بمعرفتك».

قلتُ: «لا، أنا من سُرَّ بمعرفتكِ. صدقيني».

أوعز الأستاذ للصف بأن يستدير كل طالب إلى الشريك الأقرب منه، وأن يُدلي بثلاث حقائق عن شريكه بالإسبانية. هذه سنتي الرابعة في صف الإسباني، لذا قررت أن أدع سلوان تبدأ، وذلك كي لا أرعبها، استدرنا نحو بعضنا، وأومأت برأسي اتجاهها، وقلت بالإسبانية: «السيدات أولًا».

- لا، سوف نتبادل الأدوار. أنت أولًا، هيا أخبرني حقيقةً عن نفسك.

- حسنًا.

ضحكتُ من طريقتها في السيطرة، وقلت بالإسبانية: «شريكتي مسيطرة».

- هذا رأي، لا حقيقة. لكنني سأسمح لك بهذا.

أومأت برأسي نحوها وسألتها: «أفهمتِ ما قلتُه للتو؟».

أومأت وأجابت: «إن كنت ترغب بأن تنعتني بالتسلط، فأجل قد فهمت».

ضيَّقت عينيها، لكن ابتسامة صغيرة شقَّت طريقها عبر عبوسها، وقالت: «دوري الآن»، ثمَّ أضافت بالإسبانية: «شريكتك في الصف جميلةٌ».

ضحكتُ، هل مدحت نفسها للتَّوِّ عبر إخباري بالإسبانية أن شريكتي في الصف جميلة؟ أومأتُ بموافقة صريحة، وقلت بالإسبانية: «زميلتي على حق».

وعلى الرغم من اسمرار بشرتها، إلا أنني تمكنت من رؤية خديها يحمرَّان. سألتني: «كم عمرك؟».

- ما تقولينه سؤال، لا حقيقة، وبلغتك الأصلية أيضًا. هذا كثير!

- عليَّ أن أسأل السؤال لأصل إلى حقيقة. تبدو أكبر بقليل من معظم طلبة صف الإسبانية.

- كم تظنين عمري؟

- ثلاثة وعشرون، أربعة وعشرون؟

لم تبتعد كثيرًا، فعمري هو خمسة وعشرون، ولكن لا حاجة لأن تعرف هذا. أجبتها: «اثنتان وعشرون سنة». فقالت بالإسبانية، مشيرةً إلى حقيقةٍ تتعلق بي: «زميلي عمره اثنتان وعشرون سنة».

- يا لك من غشَّاشة!

- عليكَ أن تقول هذا بالإسبانية إن كنت تتذكر حقيقةً عني.

قلت بالإسبانية: «أنتِ غشَّاشة».

يمكنني التنبؤ من خلال طريقة رفعها لحاجبها أنها لم تكن تتوقع أن أعرف هذه الكلمة بالإسبانية، وقالت: «لقد قلت ثلاث حقائق».

- ما زال لديكِ حقيقة واحدة.

أجابت بالإسبانية: «أنت كلب».

ضحكتُ وقلت: «لقد نعتِّني الآن بالخطأ بأني كلب».

هزت رأسها قائلةً: «لم يكن ذلك بالخطأ».

ارتجَّ هاتفها المحمول، فأخرجته من جيبها وصبَّت كل اهتمامها عليه، فأرجعتُ ظهري إلى كرسيَّ والتقطت هاتفي، متظاهرًا بصبِّ اهتمامي عليه، جلسنا صامتَيْن بينما تابع بقية الطلاب مهمتهم. راقبتها بزاوية عيني وهي تقوم بالمراسلة عبر هاتفها، وكان إبهامها يتحرك بسرعة فوق شاشة الهاتف. إنها لطيفة، ويعجبني أنني أصبحت أتطلع بشوق لهذا الصف الآن، وأصبَحَت -فجأةً- ثلاثة أيام بالأسبوع غير كافية.

بقي ما يقارب خمس عشرة دقيقة حتّى نهاية الدرس، وأنا أبذل قصارى جهدي لمنع نفسي من التحديق إليها، لم تقل أي شيء منذ أن نعتتني بكلب. رحت أشاهدها وهي تخربش في دفترها، دون أن تعطي أي أهمية لكلام الأستاذ، إما أن الملل قد نال منها، وإما أن عقلها في مكان آخر تمامًا. انحنيت نحو الأمام محاولًا أن أحظى برؤية أفضل لما كانت تكتبه، راودني شعور بأنني متطفل، لكنني تذكرت أنها قد قرأت الرسالة النصية التي وردت إلى هاتفي سابقًا، وبالتالي يمكنني اعتبار فعلي هذا عادلًا.

كان قلمها يتحرك بسرعةٍ على الورق، ربما بسبب شراب الطاقة الذي تجرعته سابقًا. قرأتُ الجمل وهي تدوِّنها على الدفتر، لم تكن جملها منطقية مطلقًا، حتّى بعد أن قرأتها عدَّة مرات.

«سرقت القطارات والباصات أحذيتي، والآن عليَّ أن آكل حبَّارًا نيئًا».

أضحكتني عشوائية الجمل الممتدة عبر صفحة دفترها، ورفعت نظرها لتحدق إليَّ، التقت نظراتنا وضحكتْ بخبث. أنزلت نظرها إلى دفترها، ونقرت بالقلم عليه، وهمست: «لقد ضجرت، ليس لدي قدرة على التركيز لفترة طويلة».

في العادة تكون عندي قدرة على التركيز لفترة طويلة، ولكن من الواضح أن ذلك لا يصح وأنا جالس بقربها. قلت: «أحيانًا أنا أيضًا لا أستطيع التركيز».

مددت يدي عبر المقعد، وأشرت إلى كلماتها، وسألت: «ما هذا؟ شفرة سرية؟».

هزت كتفيها، ورمت قلمها، ثمَّ أزاحت الدفتر عبر المقعد نحوي، وقالت: «إنها فقط أشياء غبية أحب فعلها عندما أشعر بالملل، أحب أن أرى كمية الأشياء العشوائية التي يمكنني التفكير بها دون أن أفكر حقًّا. كلما كانت هذه الأشياء غير منطقية أكثر كلما كان انتصاري أعظم».

- كلما كان انتصارك أعظم؟

سألتها ذلك آملًا في توضيح. هذه الفتاة لغز.

- كيف يمكن أن تخسري إن كنتِ أنتِ الطرف الوحيد الذي يلعب لعبتك؟

اختفت ابتسامتها، وأزاحت نظرها بعيدًا، وراحت تحدّق إلى الدفتر أمامها، وتتابع بحذر ممررةً إصبعها على حروف إحدى الكلمات. تعجبت ما الذي بحقِّ الجحيم قد قلته لتغيير سلوكها بحدة وسرعة. التقطت قلمها، وأعطته لي، مبعدةً الأفكار السوداء التي سيطرت على عقلها للتو، وقالت: «جربها. إنه أمرٌ مسبِّبٌ للإدمان بشدَّة».

أخذت القلم من يدها، وعثرت على بقعة فارغة في صفحتها، وسألتها: «إذَنْ، هل أكتب أي شيء؟ أي شيء يخطر ببالي؟».

- لا. بل عكس ذلك تمامًا. حاول ألا تفكِّر بالأمر، حاول ألا تدع أي شيء يخطر على بالك. اكتب فقط.

ضغطت القلم على الصفحة وفعلت تمامًا ما قالته، كتبت فقط «لقد أوقعت علبة ذرة في غرفة الغسيل، والآن أمي تبكي أقواس قزح»، ووضعت القلم وأنا أشعر بالقليل من الغباء، فغطَّت فمها لتخفي ضحكة انطلقت منها بعد أن قرأت ما كتبته، قلبت الصفحة وعلى واحدة فارغة، وكتبت «أنت موهوب بالفطرة». ثمَّ أعادت إليَّ القلم، فكتبتُ «شكرًا لكِ. يساعدني عصير «وحيد القرن» على التنفُّس عندما أستمع إلى الديسكو».

ضحكت مجدَّدًا، وأخذت القلم من يدي، في اللحظة التي أعلن فيها الأستاذ انتهاء الدرس، ورمى جميع الطلبة كتبهم في حقائبهم، وخرجوا من مقاعدهم متعجلين. خرج الجميع ما عدانا نحن الاثنان، بقينا نحدِّق إلى الصفحة، ونبتسم، ولا نتحرك.

وضعت يدها على الدفتر وأغلقته ببطء، ثمَّ سحبته على طول المقعد لينتهي به الأمر في حقيبتها، ونظرت إليَّ، وقالت وهي تقف: «لا تقم الآن».

- لماذا؟

- لأنك يجب أن تبقى جالسًا هنا بينما أسير مبتعدةً لتتمكن من تحديد ما إن كنتُ فعلًا ذات قوامٍ جميلٍ أم لا.

غمزت لي بعينها، ودارت حول نفسها.

يا إلهي! عضضت على أصابعي وفعلتُ ما قالته تمامًا، وتفحصتُ ببصري قوامها من أسفله لأعلاه. ويا لحظي، إنه قوام مثالي. كل جزء من جسدها مثالي، جلستُ متجمِّدًا في مكاني وأنا أراقبها تهبط السلالم.

من أين بحقِّ الجحيم أتتني هذه الفتاة؟ وأين بحقِّ الجحيم كانت طوال حياتي؟ لعنت حقيقة أنه مهما يكن ما حصل بيننا الآن هو كل ما سيكون يومًا. لا تبدأ العلاقات بشكل جيد عندما يتخلل الكذب البدايات. ولا سيَّما أكاذيب مثل أكاذيبي.

قبل أن تخرج من الباب نظرت من فوق كتفيها، وتركت عينيَّ تلتقيان بعينيها، ورفعت لها إبهاميَّ، فضحكت ثمَّ اختفت من غرفة الصف.

جمعت أشيائي ونويت أن أخرجها من رأسي، يجب أن أكون بكامل تركيزي الليلة، هناك أشياء كثيرة تعتمد على نجاحي الليلة، ممَّا لا يسمح لي بأن أتشتَّت بفعل قوام جميل ومثالي كهذا.

***



الفصل الثالث

سلوان

أنهي وظائفي اليومية في المكتبة، إذ أعلم أنني لن أتمكن من التركيز ما إن تطأ قدماي المنزل. عندما انتقلت إلى منزل آسا بداية، كنت على بعد ليلة واحدة من أن يتم إجلائي عن الكنبة التي أحتلها وأستعملها كسرير... ناهيك بمشكلاتي المالية الأخرى. لم يكن قد مضى على مواعدتنا سوى شهرين، لكنني لم أجد مكانًا آخر آوي إليه.

مضى على هذا الأمر أكثر من سنتين.

علمت بناءً على السيارة التي كان يقودها وحجم المنزل الذي يسكنه أنه من الأثرياء. ولكن الشيء الذي لم أعرفه على وجه الدقة هو ما إن كان قد ورث هذه الأموال، أم أنه تورَّط بشيء لم يكن عليه أن يتورط به. أملت أن تكون أمواله موروثةً، لكنني والأمل لم نكن يومًا على وفاق.

استطاع أن يخفي الأمر ببراعة خلال الشهرين الأولين، موهمًا إياي أن عادات صرفه المثيرة للشبهات ترجع إلى امتلاكه ميراثًا ضخمًا، صدَّقته لفترة، ولم يكن أمامي خيار آخر سوى أن أصدقه.

عندما بدأ أشخاص لا أعرفهم بالظهور في ساعات غريبة من الليل، ولم يتحدث معهم آسا إلا خلف الأبواب المغلقة، اتضح الأمر أكثر فأكثر. حاول

أن يقدم لي تبريراته، وأقسم أنه يبيع فقط عقارات «غير ضارة» لأشخاص سيجدونها في مكان آخر بطبيعة الحال، لم أرغب بأي شيء من هذا، لذا عندما رفض أن يتوقف غادرت.

المشكلة الوحيدة التي واجهتني هي أنه لم يكن لديَّ مكان أذهب إليه، تنقلت بين كنبات بعض الرفاق، لكن أحدًا منهم لم يكن لديه المكان أو المال اللازم للاستمرار بدعمي، كان بإمكاني العودة إلى ملجأ للمشردين قبل أن أعود إلى آسا، لكنني لم أكن قلقة على حياتي، بل على حياة أخي الصغير.

لم تكن حياة ستيفن سهلةً يومًا، لقد وُلِدَ محمَّلًا بكثير من المشكلات، على كل من المستويين العقلي والجسدي، كان يتلقى تمويلًا ماليًّا من الدولة، وتم إرساله إلى منزل جيد، حيث يمكنني أن أطمئن عليه، ولكن عندما انقطع التمويل لم أتمكن من المخاطرة به، وباحتمال إعادته إلى منزل أمي، إذ لا أريد له أن يعود إلى تلك الحياة، وسأفعل أي شيء لأتأكد من أنه لن يكون جزءًا منها مرَّة أخرى أبدًا.

بعد مضيٍّ أسبوعين على تركي لمنزل آسا لم يتبقَّ لدي أحد آخر ألجأ إليه، وكان دخولي من باب منزله وطلب المساعدة منه أصعب ما توجَّب عليَّ فعله يومًا، وكأن العودة إلى ذراعيه كلفتني كل احترامي لذاتي. سمح لي بالعودة إلى المنزل، ولكن ذلك لم يكن دون عواقب، الآن وقد علم تمامًا مقدار اعتمادي عليه توقَّف عن محاولة إخفاء أسلوب حياته عني، تزايد عدد الناس الذين يقصدون المنزل، وأصبحت الصفقات تتم على العلن عوضًا عن التستر خلف الأبواب المغلقة. الآن، وباستمرار، ثمَّة العديد من الناس الداخلين إلى المنزل، والخارجين منه، إلى درجة يصعب معها التمييز بين من منهم يعيش هنا، ومن منهم متطفل، ومن منهم غريب تمامًا. كل ليلة يقام حفل، وكل حفل هو كابوس بالنسبة إليَّ.

بمرور كل أسبوع يصبح جو المنزل أشد خطورةً، وتزداد رغبتي في الخروج منه أكثر، لقد سبق وعملت بنصف دوام في مكتبة الحرم الجامعي، لكنني لم أجد مكانًا شاغرًا هذا الفصل، اسمي موضوع على قائمة الانتظار، كما أنني تقدَّمت لوظائف أخرى، محاولةً باستماتةٍ أن أزيد رصيدي من الأموال التي أجمِّعها للهرب من المنزل. ما كان الأمر ليكون بهذه الصعوبة

لو أنني أتحمل مسؤولية نفسي فقط، ولكن بوجود ستيفن، فإن الأمر يتطلب أموالًا لا أملكها، أموالًا لن أتمكن من جَنْيِها قريبًا.

في الوقت الحالي، عليَّ الاستمرار بالتظاهر بأنني مدينة بحياتي لآسا، بينما في الحقيقة، فإنه هو من يدمر حياتي. لا تسيئوا فهمي؛ إنني أحبه فعلًا، أحب الشخص الذي اعتاد أن يكونه، الشخص الذي ما زالت تظهر منه لمحات عندما نكون بمفردنا، أحب الشخص الذي أعلم أنه يمكن أن يكونه مجدَّدًا يومًا ما، لكنني في الوقت ذاته لست ساذجةً، رغم كل الوعود التي قطعها لي حول محاولته تقليص اضطلاعه بعمله، تمهيدًا للتخلُّص منه نهائيًّا، فإنني أعلم أنه لن يفعل ذلك. حاولت أن أعيد إليه الرشد بالحديث معه، لكنك عندما تملك القوَّة بين يديك، والأموال في جيبك، فمن الصعب أن تتوقف. لن يتخلى عن عمله يومًا، بل سيستمر به إلى أن ينتهي به الأمر إما في السجن... وإما ميتًا، وأنا لا أرغب أن أكون موجودة عند حدوث أي من الأمرين.

لم أعد أحاول بعد الآن حتَّى التعرف على السيارات المركونة في مدخل البيت، فكل يوم هنالك واحدة جديدة. ركنت سيارة آسا وجمعت حاجياتي، ثمَّ توجهت إلى داخل المنزل مهيأةً نفسي لليلة أخرى من الجحيم.

عندما دخلت المنزل كان هادئًا على نحو مخيف، أغلقت الباب خلفي وابتسمت، مستمتعة بحقيقة أن الجميع خارج المنزل في حوض السباحة. لا تتاح لي الفرصة عادةً لأختلي بنفسي، لذا انتهزت هذه الفرصة، ووضعت سماعات الأذنين وبدأت بتنظيف المنزل. أعلم أن ذلك قد لا يبدو ممتعًا، ولكنه بالنسبة إليَّ فرصتي الوحيدة للهروب من الواقع. ذلك بعيدًا عن حقيقة أن المنزل متسخ كحظيرة خنازير.

بدأت من غرفة المعيشة، ورميت زجاجات بيرة فارغة بما يكفي لملء حاوية قمامة بسعة ثلاثين جالونًا. عندما دخلت المطبخ ولاحظت جبل الأواني المتسخة المتكدسة في الحوض ابتسمت في الحقيقة، سيستغرق منِّي تنظيفها ساعة على الأقل، نظَّمت الأطباق المتسخة على يسار حوض الجلي، وبدأت بملء الحوض بالماء، ورحت أتمايل مع الموسيقى التي تتسرَّب إلى أذني عبر السماعات. لم يسبق أن شعرت بسلام كاليوم في هذا المنزل منذ

انقضاء أول شهرين عشتهما هنا، عندما كنت محاطةً بالنسخة الجيدة من آسا.

ما إن ملأت الذكريات عن آسا الذي وقعت في حبه عقلي، حتَّى شعرت بذراعيه تلتفان حولي من الخلف، وبدأ بالتمايل معي على لحن الموسيقى، ابتسمت وأبقيت عينيَّ مغمضتين، ولففت يدي حول يديه، ثمَّ أسندت ظهري على صدره. قبَّل أذني، ثمَّ شبَّك أصابعه بأصابعي وأدارني لأواجهه، عندما فتحت عينيَّ كان يبتسم لي بتعبير حلو عذب، لم أرَ هذه النظرة على وجهه منذ وقت طويل، وقد جعلت قلبي يتألم، نتيجة معرفتي بمقدار الشوق الذي أحسه له.

ربما كان يحاول، ربما هو أيضًا قد تعب من نمط حياته.

أمسك وجهي بين يديه وقبلني، قبلني قبلةً طويلةً شغوفةً كنت قد نسيت أنه يستطيع الإتيان بمثلها، فمؤخرًا اقتصرت قبلاته لي على تلك التي يمنحني إياها عندما يكون معي في السرير. لففت ذراعي حول عنقه وبادلته القبلة، قبَّلته على نحو يائس، قبَّلت آسا القديم، غير عارفة كم من الوقت سأتمكن من الحفاظ عليه هنا معي على حاله هذه.

تراجع ونزع السماعات من أذني، وقال: «ثمة من يرغب باستئناف ما حدث هذا الصباح، أليس كذلك؟».

قبلته مجدَّدًا وابتسمت، وأنا أومئ برأسي، إن كانت هذه النسخة من آسا هي التي سترافقني إلى السرير، فإنني في الحقيقة أرغب بذلك.

وضع يديه على كتفيَّ، وضحك قائلًا: «ليس أمام الآخرين يا سلوان».

آخرون؟ زممت عينيَّ، خائفةً من أن أستدير، غير منتبهة إلى أننا كنا مراقبين. وقال: «هناك من أرغب أن تقابليه».

أدارني، وفتحت إحدى عيني، ثمَّ الأخرى، وكلي أمل ألا تكون الصدمة التي شعرت بأثرها في معدتي قد ظهرت على وجهي. كان يقف مستندًا إلى إطار الباب، وذراعاه معقودتان فوق صدره، بنظرة قاسية في عينيه، وبطوله البالغ ستة أقدام، إنه كارتر.

صدرت عنِّي شهقة، وكان سببها غالبًا أنه آخر شخص في العالم توقعت رؤيته هنا. أصبحت فجأة رهبة الوقوف أمامه هنا أعظم من رهبة الجلوس بقربه في الصف هذا الصباح. إنه أطول بكثير ممَّا ظننت، حتَّى إنه أطول من آسا. جسده غير محدد العضلات مثل آسا، ولكن آسا يتمرن بشكل يوميٍّ، وبناءً على حجم عضلاته فإنه على الأرجح بناها بمساعدة الستيرويدات[1]. أما كارتر فشكلُ جسده طبيعيٌّ أكثر، بشرته أكثر دُكْنَة، وكذلك شعره، وفي هذه اللحظة له عينان شديدتا السواد يشع منهما الغضب.

لطَّف كارتر تعابير وجهه بابتسامة، ثمَّ مدَّ يده لمصافحتي، دون أن تبدو عليه أي علامات للتعرف عليَّ، وقال: «مرحبًا».

أدركت أنه يتظاهر بعدم معرفتي من أجل مصلحتي، أو ربما مصلحته هو، لذا صافحته بالمقابل، وقدمت نفسي إليه للمرَّة الثانية اليوم.

وقلت على نحو مرتعش، وأنا آمُل ألا يشعر بنبضي المتسارع عبر راحة يدي: «أنا سلوان».

قطعت المصافحة بسرعة، وتراجعت ثمَّ سألته: «إذَنْ كيف تعرفان بعضكما أنت وآسا؟».

لست أكيدة من رغبتي بمعرفة الإجابة، ولكن السؤال قد خرج من بين شفتي بطبيعة الحال.

وضع آسا يده على خصري، وأدارني بالاتجاه الآخر، بعيدًا عن كارتر، وقال: «إنه شريكي الجديد، ولدينا الآن عمل لتسييره، لذا اذهبي لتنظيف مكان آخر».

رَبَّتَ على مؤخرتي، محاولًا أن يهشَّني كما يهشُّ كلبًا، استدرت وعبست في وجهه، ولكن تعابير وجهي كانت لا شيء مقارنة بنظرة الكراهية العنيفة التي انبعثت من عيني كارتر وهو يراقب آسا.

في العادة لا أصعِّد الأمور مع آسا، خاصة أمام الآخرين، لكنني لا أستطيع السيطرة على عصبيتي الآن، إنني محتدة من تصرفه الفجِّ حول إحضار أحد

---

(1) الستيرويدات البنائية anabolic steroids: هرمونات تعزز نمو العضلات وتزيد من القوَّة والطاقة، ولها آثار جانبية عديدة. (المحرر)

جديد، على الرغم من حقيقة أنه وعدني بأنه يعمل على الخروج من الأمر برمته، كما لا يمكنني نكران حقيقة انزعاجي من كونه كارتر. إنني غاضبة من نفسي، لأنني طورت انطباعًا أوليًا خاطئًا عنه في الصف اليوم، ظننت أن قدرتي على قراءة الناس أفضل من هذا، ولكن حقيقة تورطه مع آسا بينت لي أنني لا أفقه مقدار ذرة لَعِينة في مجال قراءة الناس. إنه ببساطة مثله مثل الآخرين، ولكن يجب أن أكون قد توقعت ذلك بحلول الآن.

شعرت بالغباء لأنني سبق وحاولت بشدَّة، سبق وشعرت بصعوبة ترك منزل طفولتي رغبة بالابتعاد عن نمط الحياة هذا ذاته، كل ذلك لينتهي بي الأمر بالعودة إلى نوعية الحياة نفسها. كيف يمكن أن أتلهف وأعمل سعيًا لحياة طبيعية بكل هذا الجد، ورغم ذلك يستمر الأمر بالانتهاء بي في هذا الهراء ذاته؟ إنها لعنة حقيرة.

- آسا لقد وعدتني.

أملت رأسي باتجاه كارتر، وتابعت: «توظيف أشخاص جدد لا يقود إلى الخلاص... بل يزيدك تورطًا في الأمر».

أشعر أنني منافقة عندما أطلب منه أن يتوقف عمَّا يفعله، إذ إنني كل شهر أسأله أن يرسل شيك إلى راعي ستيفن، من الأموال الوسخة ذاتها التي أتمنَّى أنه ما كان يجنيها. سوف أقبل بالحصول على المال بأقذر الطرق إن كان ذلك يعني أن يحصل أخي الصغير على العناية التي يحتاجها.

ادلهمَّت عينا آسا، وتقدم منِّي خطوة، ووضع يديه بلطف على ذراعيَّ، وراح يفركهما صعودًا وهبوطًا، أحنى فمه إلى أذني وأحكم قبضته على ذراعيَّ، وراح يشدُّ عليهما بكل قوته إلى أن رمشت من شدَّة الألم. وهمس بصوت منخفض جدًّا بحيث لا يمكن لأحد غيري أن يسمعه: «لا تحرجيني». ثمَّ خفف قبضته، وأنزل يديه إلى كوعيَّ، وقبَّلني بلطف على خدي من أجل العرض، وتابع: «اذهبي وارتدي ذلك الفستان الأحمر المثير، سنقيم حفلًا الليلة».

تراجع إلى الخلف، وأفلت قبضته تمامًا، ونظرت نحو كارتر، الذي كان ما يزال واقفًا في المدخل، ينظر إلى آسا بنظرة وكأنه على وشك اقتلاع رأسه

عن جسده في أية لحظة. حوَّل عينيه نحو عيني، وللحظة أحببتُ نظرته، لكنني لم أطل النظر إليه بما يكفي لأكون متأكدة من ذلك، استدرت وركضت صاعدةً السلالم نحو غرفة النوم، خبطت باب الغرفة خلفي وارتميت على السرير، وكانت عضلات ذراعيَّ تنبض من الألم، وحاولت أن أتخلص من الألم بتدليكهما. إنها المرَّة الأولى التي يؤذيني فيها جسديًّا أمام أحد ما، ولكنَّ جرح كرامتي آلمني أكثر بكثير. ما كان ينبغي عليَّ أن أتهمه أمامه، إنني أعلم ذلك جيدًا.

ولكنني أعلم أيضًا أنني لا أستحق ما فعله بي لتوه، لا أحد يستحق هذا. أريد أن أحزم حقائبي، وأجمع كل شيء أملكه، أريد أن أرحل وألا أعود أبدًا. أريد الرحيل، أريد الرحيل. أريد أن أذهب، أريد الرحيل.

لكن لا يمكنني المغادرة، فذلك لن يؤثر عليَّ وحدي.

***

الفصل الرابع

كارتر

استدار آسا نحوي وقال: «أعتذر بشأنها».

أرخيتُ قبضتي، وحاولت أن أخفي شعوري بالاشمئزاز. مضت على معرفتي به ثلاث ساعات فقط، لكنني احتقرته أكثر من أي أحد آخر في حياتي كلها. أجبت: «لا بأس».

مشيت نحو البار، وأرحت نفسي على نحو عرضي على أحد الكراسي الموجودة حول الطاولة، على الرغم من حقيقة أنني كنت أرغب أن أركض إلى الطابق الأعلى لأتأكد من أن سلوان بخير. ما زال عقلي مضطرب من حقيقة أن سلوان متورطة في هذا، كانت آخر شخص توقعت رؤيته هنا، رؤية آسا يقبِّلها بتلك الطريقة، ورؤيتها تستجيب له كما استجابت، كل ذلك جعلني أندم على قبولي لهذه المهمة. لقد أصبح الأمر برمته جحيمًا شديد التعقيد. سألته: «هل تعيش معكَ؟».

ناولني آسا زجاجة جعَّة من الثلاجة، فتحت الغطاء ورفعتها إلى فمي، بينما أجابني: «أجل. وسوف أجرِّدك من ذكورتك إن نظرت إليها بطريقة خاطئة».

حدجته بنظرة قاسية، ولم يُنزل نظره، أغلق باب الثلاجة، وسار نحو كرسيه على الجانب الآخر من البار، وكأن كلامه الذي قاله لم يغادر شفتيه.

حيرتني بشدَّة قدرته على إيذائها جسديًا كما فعل للتو، وفي الوقت ذاته التظاهر وكأنه مهتم بها على الإطلاق. تجتاحني الرغبة بأن أحطم زجاجة البيرة اللعينة على رأسه، لكنني عوضًا عن ذلك أحكمت قبضتي عليها، محاولًا الحفاظ على رباطة جأشي.

فتح زجاجة البيرة خاصته، ورفعها عاليًا وقال وهو يضربها بزجاجتي.

- نخب المال.

- نخب المال.

«ورؤية الحقراء يحصلون على ما يستحقونه».

دخل دالتون مقاطعًا إيانا بالتوقيت المناسب، نظر إليَّ وأومأ، ثمَّ حوَّل انتباهه إلى آسا، وقال: «مرحبًا يا رجل، يريد جون أن يعرف كيف يتصرف بشأن الكحول. هل سيكون الحفل بأسلوب «أحضر مشروبك معك»، أم أننا سنقدم المشروب؟ إذ ليس لدينا أي مشاريب».

خبط آسا زجاجة البيرة بقوَّة على الطاولة، ثمَّ سحب كرسيه إلى الخلف، ووقف وهو يقول: «أخبرت ذلك الغبي أن يحضر المشروب أمس».

واندفع خارجًا من المطبخ. أشار دالتون برأسه نحو الباب الأمامي، فنهضت وتبعته إلى الخارج، ما إن أصبحنا وحيدَين في منتصف الباحة الأمامية، استدار نحوي، ورشف من زجاجة البيرة خاصته، وذلك من أجل الاستعراض فقط، إذ إنه يكره البيرة. وسألني: «كيف سار الأمر؟ أتعتقد أنك تمكنت منه؟».

هززت كتفيَّ، وأجبت: «أعتقد ذلك. إنه بأمس الحاجة إلى شخص يمكنه التحدُّث بالإسبانية. أخبرته أنني جيد بها، ولست فصيحًا».

حدَّق دالتون بي، وسألني: «بهذه البساطة؟ لم يسألك عن أي شيء؟». ثمَّ هزَّ رأسه غير مصدِّقٍ، وتابع: «يا إلهي، إنه لأحمق كبير. لماذا يعتقد هؤلاء الجدد أنهم محصَّنون لا يمكن المساس بهم؟ يا لهم من حقراء ملاعين!».

وافقتُهُ بكل جوارحي.

- لقد حذرتك من هذه المهمة يا لوك. عيشك بهذه الطريقة سيعبث برأسك. أمتأكد من رغبتك بالقيام بالأمر؟

لا يمكنني التراجع الآن، بعد معرفتي بمدى قرب دالتون والآخرين من هزيمته، فأجبت: «لقد دعوتني لوك للتو».

- تبًّا!

ركل دالتون الأرض بحذائه، ثمَّ نظر إليَّ، وقال: «آسف يا رجل. أما يزال اجتماعنا في الغد قائمًا؟ يريد يونغ أن يحصل على تقرير مفصَّل بعد أن أصبحت جزءًا من الأمر الآن».

- بعضنا لديهم صفوف غدًا.

قلت ذلك متعمدًا الإشارة إلى حصولي للمرَّة الثانية على النهاية اللعينة للمهمة، وتابعت: «لكنني سأخرج بحلول الظهيرة».

أومأ دالتون، واستدار تجاه المنزل، وقال: «أدعوت فتاة الصف ذات القوام المثير إلى حفل الليلة؟».

- لا، هذا ليس جوَّها.

بعيدًا عن ذكر أنها ليست بحاجة إلى أن تُدعى، فهي منخرطة تمامًا بهذا الهراء. أومأ، معبرًا عن إدراكه أن دعوة أحد ما إلى أسلوب الحياة هذا ليس الشيء الذي قد أفعله. يمكن لدالتون أن يؤدي دوره وينغمس فيه ببراعة لم يسبق لي أن شاهدت لها مثيلًا، لقد دخل في علاقات طويلة الأمد وهو يؤدي دوره السِّرِّيَّ، حتَّى أنه تقدَّم لخطبة إحداهنَّ مرَّة فقط ليحافظ على الدور الذي يؤديه. ما زال هنالك جزء كبير منِّي يعلم أن أي شخص أقابله بينما أنا أؤدي دور كارتر، يبقى كما هو... إنسان، إذ لا أرغب بتضليل أي أحد على نحو غير ضروري، لذا أحافظ على تركيزي، ولا أسمح للأشياء أن تغوص في العمق.

أغلق الباب خلفه، وبقيت وحيدًا في الباحة الأمامية، ورحت أحدق إلى المنزل الذي أصبح منذ اللحظة مهمتي لشهرين على الأقل. لم أنضم إلى السلك من أجل العمل السِّرِّيِّ، لكن اتَّضح أنني جيد به. لسوء الحظ، يتملكني شعور سيئ تجاه هذه المهمة. ولم يمضِ على وجودي هنا سوى يوم واحد.

أمضيت الساعتين التاليتين بقيادة آسا وهو يدخلني إلى غرفة ويخرجني من أخرى، بينما صافحت ما لا يمكنني عده من الأشخاص. في البداية حاولت أن أدوِّن في عقلي ملاحظات حول كل من أقابله، وطريقة تصرفهم مع آسا،

ولكن بعد زجاجة البيرة الرابعة توقّفت عن المحاولة. سيتاح لي الكثير من الوقت لأتعرف إلى الجميع، لا حاجة إلى أن أحافظ على تركيزي الآن. ما زلت جديدًا على هذا الحشد، ولا أريد أن أُعطي أحدهم سببًا ليشكك في أمري.

وأخيرًا تمكنت من الابتعاد عن الحشد لأذهب بحثًا عن مرحاض، وعندما وجدت واحدًا، كان يشغله الشاب الذي أصبحت أعرفه الآن باسم جون، ومعه فتاتان لا يمكن أن تكون أعمارهما أكثر من تسع عشرة سنة. أغلقت الباب بأسرع ممًا فتحته، وتوجهت إلى الطابق العلوي آملًا بالعثور على مرحاض لا يُستخدم كبيت دعارة.

بقيت في المرحاض لعشر دقائق، وهو وقت أطول ممًا أحتاج، سكبت زجاجة البيرة في الحوض، وملأت الزجاجة بمياه الصنبور، إذ تجاوزت مخصصاتي الشخصية من الكحول لهذه الليلة. يجب أن أقضي الأسابيع القادمة وأنا بكامل وعيي.

حدَّقت إلى وجهي في المرآة، آملا أن أتمكن من نزع الصورة من رأسي. أنا لست من هذه المنطقة، لذا لا يقلقني احتمال أن يتعرف أحدهم علي. أما ما يقلقني حقًا فهي حقيقة أنني لست مثل دالتون، لا يمكنني أن أتخلص من الأشياء بسهولة مثله. فالأشياء التي أراها هنا تعاودني عندما أغلق عيني وأحاول النوم، وبناءً على ما رأيته اليوم بين سلوان وآسا، فلن أحظى بالكثير من النوم.

مررت منشفة تحت ماء الصنبور، ورحت أبلل وجهي آملًا أن أستعيد كامل وعيي قبل أن أخرج من المرحاض. رميت المنشفة في سلة الغسيل، وحدَّقت إلى السلة التي ملأتها الملابس المتسخة حتّى الحافة، وتساءلت ما إن كانت سلوان هي الفتاة الوحيدة التي تعيش هنا، إذ إنني أفترض أنها على الأرجح تقع على عاتقها مهمة تنظيف الملابس، ناهيك ببقية المنزل.

عندما صادفناها أنا وآسا تنظف المطبخ عصر اليوم، وقف هو في المدخل وراقبها وهي تنظف للحظة، كنت أقف خلف كتفيه، مصعوقًا من حقيقة أنها كانت فتاة الصف ذاتها التي قابلتها هذا الصباح... ولكن ما أدهشني أكثر هو جمالها الأخَّاذ وهي تتمايل مع الموسيقى. وكانت كلمات أغنية ريك

سبرينغفيل الأيقونية «فتاة جيسي» تتردد في عقلي وأنا واقف خلف آسا، أراقبه وهو يراقبها. أردت أن أكون أنا الشخص الذي يراقبها كما يفعل.

أن أراقبها وكأنها لي.

سحبت نفسًا عميقًا وفتحت باب المرحاض، وقعت عيني على الهيئة الواقفة في المدخل عبر الممر، استدارت عندما سمعت صوت فتح باب المرحاض، واستدار معها فستانها الحريري، وعندما توقَّفت لم أستطع أن أزيح عيني عن فستانها، إذ إنه يضيق على جسدها في الأماكن المثالية، وهو مزوَّد بشريطين رفيعين يحملان جزأه العلوي الذي بالكاد موجود، والذي يضغط ثدييها معًا، ويشدُّ عليهما بما لا يدع مكانًا لأي نوع من حمالات الصدر. أغضبني أنني في عقلي كنت أشكر آسا لإخبارها أن ترتدي هذا الفستان.

تنفس يا لوك، تنفس.

في النهاية تمكنت من رفع عيني إلى مستوى عينيها، ولم تكن النظرة في عينيها تطابق الفستان المثير الذي يوحي بالثقة، إذ بدا أنها كانت تبكي. مشيت خطوة باتجاهها، وسألتها: «هل أنتِ بخير؟».

حدَّقت إلى الدرج، ونظرة خوف تكتسح عينيها، ثمَّ أعادت نظرها إليَّ، أومأت وبدأت بالتوجه نحو السلالم، لذا مددت يدي وأمسكت يدها، ساحبًا إياها نحوي، وقلت: «انتظري يا سلوان».

أصبح وجهها قبالة وجهي، الفتاة التي أنظر إليها الآن ليست الفتاة ذاتها التي قابلتها في الفصل، هذه الفتاة هشَّة، وخائفة، ومكسورة.

خطت نحوي خطوة، وهي تعقد ذراعيها فوق صدرها، حدَّقت إلى الأسفل إلى الأرض بيننا، وهي تعضُّ على شفتها بأسنانها، وسألت: «لماذا أنت هنا يا كارتر؟».

لا أعلم كيف أجيبها، إذ لا أريد أن أكذب، ولكنني أيضًا لا يمكنني أن أقول لها الحقيقة. فأنا متأكد أنه من المستهجن إخبار حبيبة الشخص الذي أعمل على الإيقاع به سبب وجودي هنا. فقلت: «لقد دُعيت».

رفعت رأسها استنكارًا، وقالت: «تعلم قصدي، لماذا أنت مضطلع بهذا كله؟».

- إنك تودين معرفة السبب الحقيقي لوجودي هنا.

قلت هذا مشيرًا إلى تورطنا المشترك مع آسا.

- إنه عمل فقط.

دوَّرت عينيها، وكأنها قد سمعت هذا العذر من قبل، على الأرجح من آسا، ولكن الفرق بين إجابتي وإجابة آسا هي أنني أقول الحق فعلًا، هي فقط لا تعلم كم أن جوابي صادق، وأنه فعلًا مجرَّد عمل. تنهدت، محاولًا أن أزيح بعض التوتر الذي نشأ بيننا، وقلت: «سلوان، أتوقع أنه من الجيد القول إن كل منا قد تجنب الحديث عن بعض الحقائق في الفصل اليوم».

ضحكت ضحكة أليمة، وأجابت: «أجل، كان يجب على المعلِّم أن يطلب منا الكشف عن أكثر من ثلاث حقائق، أعتقد أن خمسًا كانت لتفي بالغرض».

- أجل. فخمس حقائق على الأرجح كانت ستعطيني فكرة عن كونك تملكين حبيبًا.

رفعت نظرها إليَّ، وذقنها محنيٌّ، وقالت بهدوء: «أنا آسفة».

- على ماذا؟

أحنت كتفيها، وخفضت صوتها أكثر، وقالت: «أعتذر عن طريقة تصرفي في الفصل اليوم، عن مغازلتي لك، ما كان يجب أن أقول بعض الأشياء التي قلتها. أقسم إنني لست من هذا النوع من الفتيات، ما كنت أبدًا لـ ...».

قاطعتها، وأنا أحشر أصابعي تحت ذقنها، ورحت أنظر إلى الأسفل محدِّقًا إليها، وأنا أعلم جيدًا أنني يجب أن أنزل يدي، وأبتعد عنها، وقلت: «سلوان، لا أفكر بكِ بهذه الطريقة أبدًا، كان فعلك فعل استمتاع مسالم، هذا كل ما في الأمر».

طافت كلمة «مسالم» في الهواء، كغيمة سوداء مشؤومة. كلانا يعلم أن آسا من الممكن أن يكون أي شيء ما عدا «مسالم». الحديث معها في الفصل، والوقوف معها في هذا الممر... هذه اللحظات غير المؤذية ومثيلاتها، إن استمرت لوقت كافٍ، سوف تتحول لتكون أكثر بكثير من مجرَّد لحظات غير مؤذية. تكرر تهديد آسا لي في وقت سابق من اليوم في عقلي، كل شيء في

هذه الفتاة محرَّم، لقد وضَّح آسا هذا بشدَّة، كما أن عملي يوضِّحه أيضًا. لماذا لا يمكنني أن أرى الأمر بوضوح؟

كنت قد بدأت بإنزال يدي عندما جاء صوت من خلفنا قفزنا على إثره نحن الاثنان.

- إنَّك تفوِّت عليك الحفل يا رجل.

استدرت ورأيت دالتون يقف على الدرجة العليا من السلالم، يرمقني بنظرة وكأنه على وشك أن يمزقني إربًا، وإذا أخذنا بعين الاعتبار الفوضى التي كنت على وشك أن أقحم نفسي بها، فلديه كل الحق بتمزيقي.

- أجل.

سحبت نفسًا عميقًا واستدرت لأواجهها مجدَّدًا، وهمست: «سنتكلم في الفصل».

أومأت وزفرت، وقد أراحتها فكرة أن الصوت الآتي من أعلى السلالم هو صوت دالتون لا آسا، ولم تكن الوحيدة التي ارتاحت لهذا. استدارت وعادت نحو الغرفة، بدلًا من أن تهبط إلى الطابق السفلي. يمكنني أن أفهم الآن بناءً على المناخ المحيط بها في مكان سكنها لماذا لا تحظى بالنوم.

ما إن أُغلق الباب خلفها، حتَّى استدرت وأصبحت مواجهًا لدالتون، كان الدخان يتطاير من فتحتي أنفه، إشارة إلى رغبته الحقيقية بضربي، دفعني إلى الحائط، وحشر يده بين صدري وحلقي، وقال باهتياج: «لا تفسد هذا الأمر». وخبط قبضته قرب رأسي، وتابع: «العب بذكاء».

***

الفصل الخامس

آسا

عقدت ذراعيَّ خلف رأسي واستندت إلى الوسادة، وقلتُ: «اخلعي سروالكِ».

ابتسمت ومالت إلى الأمام، وأقحمت إبهاميها في سروالها وهي تنزله ببطء كاشفةً عن ردفيها. أما ثدييها فكانا مرفوعين على نحو جميل بحمالة صدر سوداء شفافة، وقررت ألا أطلب منها نزعها.

- تعالي إلى هنا.

أحنت جسدها فوق السرير، وزحفت باتجاهي، وكان شعرها الأشقر الطويل يلامس ساقي وهي تصعد ببطء، ثمَّ أخذت وضعيتها فوقي. هذه الفتاة تعرف جيدًا ماذا تفعل، وهذا يمكن أن يكون جيدًا وسيئًا في الآن ذاته. أحب الفتاة التي تجيد المضاجعة، ولكن ذلك أيضًا يجعلني أتساءل عن عدد الرجال الذين ضاجعتهم لتصل إلى هذه النقطة من الخبرة. مددت يدي إلى الطاولة بقرب السرير وأحضرت واقيًا ذكريًا، ثمَّ ناولته إليها، وأمرتها: «ضعيه».

أبقت عينيها مثبتتين على عيني وهي تفتحه، ثمَّ ضحكت، وبدأت بإنزال رأسها عندما سمعتُ صوت وقع الأقدام، ثمَّ أُدير مقبض الباب دون أن يُفتح. اللعنة.

صاحت سلوان من خلف الباب: «افتح الباب يا آسا».

- اللعنة!

دفعتُ الفتاة عني، ثمَّ وقفتُ وتناولتُ سروالي، وارتديته بينما كانت الفتاة تنقل نظرها بيني وبين الباب. التقطتُ ملابسها عن الأرض، ورميتها في خزانة الملابس، مشيرًا إليها أن تذهب وتختبئ. وقفتْ وهي تهزُّ رأسها ساخرةً من أمري لها بأن تختبئ. إن كانت هذه اللعينة تظن أنها ستخرج من باب الغرفة بينما سلوان تقف على الجانب الآخر من الباب، فإنها تهذي تمامًا. أمسكتها من كتفيها ودفعتها نحو الخزانة، وهمستُ: «بضع دقائق فقط».

بدأت تعترض، لذا قاطعتها مقبِّلا فمها، سأفعل كل ما يلزم لإسكاتها. دسست يدي بين ساقيها، وأنا أشعر بها تستند عليَّ بحثًا عن التوازن بعد أن بدأت ركبتاها تضعفان ولا تقويان على حمل جسدها. ما من حاجة لأشير إلى أن غضبها بدأ بالتلاشي مع كل رعشة، أنَّت في فمي، ودفعتها داخل خزانتي، في اللحظة التي طرقت فيها سلوان على الباب للمرَّة الثانية، وهمست لها: «دقيقتان فقط، سأتخلَّص منها».

قبَّلتها مجدَّدًا، ثمَّ أغلقت باب الخزانة. أحضرت منشفة ومسحت يدي، ثمَّ مشيت إلى باب غرفة النوم وفتحته، تجاوزتني سلوان وهي تسأل: «إنها الرابعة بعد الظهر، لماذا أنت نائم؟».

كانت تتجه نحو الخزانة، لذا أمسكتها من خصرها، وسحبتها إلى السرير، مجيبًا عن سؤالها: «لقد كان لدي صفوف طوال اليوم، إنني أشعر بالتعب».

كنت أعلم أن كذبتي هذه ستُلَيِّن من إصرارها. وقد فعلتْ. استرخت، وتكوَّرت على صدري، وقالت: «أذهبت حقًّا إلى الصف اليوم؟».

أومأتُ ووضعت يدي على وجهها، ثمَّ أزحت خصلة شعر عشوائية عن عينها، ودسستها خلف أذنها، أدرتها لتستلقي على ظهرها، وتأرجحت فوقها، وقعت عيني على آثار الكدمات على ذراعيها، وتذكَّرت أنني لم أعتذر عن حادثة المطبخ.

مررت يدي على العلامات التي تركتها على ذراعيها، وقلت كاذبًا: «لقد ذهبت إلى الصف. إنني أتعامل مع الأمر بجدية يا سلوان. كل ما وعدتك بِه، أريد أن أجعل كل شيء أفضل».

انحنيت وقبَّلتُ الكدمات التي تركتها أصابعي على ذراعيها، وقلت برقة: «إنني أحبُّك يا حبيبتي. لم أتعمَّد أن أوذيكِ، أنسى أحيانًا كم هي رقيقة بشرتك».

شدَّت شفتيها معًا على شكل خطٍّ مستقيم، وابتلعت ريقها، ولاحظت أنها تحاول ألا تبكي. سيتطلب إرضاؤها جهدًا أكثر ممَّا توقعت.

- يا إلهي، إنني لا أستحقُّكِ يا سلوان. أقسم لكِ إنني سأجعل كل شيء أفضل، سأجعله أفضل لكلينا، ما رأيكِ؟

ضممت وجنتيها براحتي يدي، وقبَّلتها بشدَّة، أعلم أن الفتاة تحب ذلك، عندما يضم الرجل وجهها وهو يقبِّلها، وكأن رغبته كلها محصورة في تقبيلها فقط، وهذا هراء، إذ لو أُتيح للشباب أن يفعلوا الأمر بطريقتهم، ما كانت أيديهم أبدًا لتصعد أعلى من الأثداء.

كررت قولي وأنا أدع يدي تنزلق إلى خصرها: «إنني أحبكِ».

من بين كل الفتيات الكثيرات اللواتي كنت معهن، يمكنني القول بصدق إن سلوان تثيرني كما لا تستطيع أي منهن. لا أعلم ما الذي أجده جذابًا فيها أكثر بكثير منهن جميعًا، فنهداها ليسا كبيرين، وجسدها ليس فيه انحناءات. أعتقد أن براءتها هي عنصر الإثارة الأكبر بالنسبة إلي، إذ أحب معرفتي أنني الأول والوحيد الذي ضاجعها، وأحب معرفتي أنني سأكون الشخص الوحيد الذي سيضاجعها يومًا.

دسستُ يدي تحت بلوزتها، وأنزلتُ شريط حمالة صدرها، وهمست لها: «دعيني أعوِّضك عمَّا بَدَرَ مني». وضغطت فمي فوق البلوزة الرقيقة وعضضت عليها بأسناني، فأنَّت وقوَّست ظهرها، ولكنها أيضًا راحت تدفعني من صدري، وقالت: «لقد خرجت للتَّوِّ من النادي الرياضي يا آسا، إنني مبللة بالعرق، دعني أستحم أولًا».

أفلتُّ بلوزتها من بين أسناني، وأنا متعمد أن أجعلها تغير رأيها من خلال مدِّ يدي إلى أكثر مناطق جسدها حساسية، وقلت وأنا أقبِّل عنقها المبلَّل بالعرق: «أنتِ مثالية».

تصلَّبت، فزدتُ من قوَّة ضغط يدي، وهمستُ: «استرخي».

قاوَمَت الأمر، ولكن أمكنني الشعور بها تذوب ببطء على يدي، وبدأت تستسلم لفعليَ القسريِّ، وأرختْ ذراعيها فوق رأسها. جلست على رُكبتيَّ

وفكَّت أزرار بنطالها، وكان ما كان... إلى أن تأوَّهتْ وشدت ملاءات السرير، جامعةً إياها على شكل عقدة بين راحتيها البيضاوين، ورحت أداعبها بإبهامي.

ألقيت نظرةً خاطفة على جسدها بينما كنت أزيد من سرعة حركة يدي عليه، وما إن شعرت بالاهتزازات ترتفع في جسدها حتّى غطَّيت فمها بفمي، وقبَّلتها بقوَّة، فأطلقت صرخةً كُتِمت تمامًا بفمي، يا إلهي كم أحب صراخها داخل فمي!

انزلقت أنفاسها المتقطعة داخل حلقي، مختلطةً بأنفاسي، وتابعت حركة يدي إلى أن تصلَّبت سلوان، وحاولت أن تبعد يدي. فرفعت يدي إلى وضعها السابق، وقلت لها: «يمكنكِ أن تستحمِّي الآن».

قبَّلتها مجدَّدًا، وأمسكت وجهي، ثمَّ دفعتني على ظهري وتدحرجت فوقي. مدَّت يدها لتفتح سحاب بنطالي، وهي تسألني: «ماذا عنك؟».

أمسكت يدها وأبعدتها قائلًا: «إنني مدين لك بواحدة. والآن اذهبي واستحمي، سنخرج من المنزل اليوم».

ابتسمت وسألتني: «كموعد أو شيء من هذا القبيل؟».

- ليس شيئًا من هذا القبيل، بل موعدًا غراميًّا.

ابتسمت، وقفزت من فوقي متجهةً نحو الباب، قلت لها: «أوصدي الباب بطريقكِ».

توقَّفت مكانها، واستدارت قائلةً: «لماذا؟».

أشرتُ بيدي إلى البروز في بنطالي، وقلت: «عليَّ أن أنهي ما بدأتِه».

جعَّدت أنفها، ودوَّرت عينيها، لكنها في النهاية أوصدت الباب خلفها. قفزتُ وتحققتُ من القفل، ثمَّ استدرت في اللحظة التي خرجت فيها تلك المرأة أيًّا كان اسمها، وهي تحتج من الخزانة. رفعت إصبعها في وجهي وكانت تطلق السُّمَّ من فمها، وهي تقول: «أيها المريض الملعون!».

جذبت يدها المرفوعة في وجهي وأدرتها، لافًّا ذراعها خلف ظهرها، وأحنيت رأسي إلى أذنها، قائلًا بهدوء، محاولًا تهدئتها: «اهدئي.. على رسلِكِ».

مررت أصابعي على خدها، وقبلت شفتيها برقة، وأنا أقول: «لقد احتفظتُ بالجزء الأفضل لكِ».

رميتُها على السرير دافعًا مؤخرتها أولًا، وخلعت بنطالي وركلته بعيدًا، ثمَّ أخذت الواقي الذكري ووضعته، واستلقت الفتاة على ظهرها، كاشفةً عن مفاتنها.

يا لها من عاهرة لعينة!

ركعتُ على السرير فوقها، ودسستُ ذراعيَّ تحت ظهرها لأخرجهما من فوق كتفيها، ممسكًا بهما بشدَّة، انتظرت بصمتٍ سماع صوت الماء -حيث تستحم سلوان- عبر الردهة، عندما وصل إلى مسمعي صوت الماء أحكمت قبضتيَّ على كتفيها، واندسست داخلها بقوَّة كبيرة، فصرَخَت، فوضعت يدي من فوري فوق فمها وأكملت ما أفعله، لم أستطع تمييز ما إن كانت تصرخ داخل يدي بسبب المتعة أم الألم، وحقيقة أنني لم أستطع التمييز زادت من إثارتي.

لم أحتج للكثير من الوقت، فحقيقة أنني جعلت سلوان تصرخ في هذه البقعة ذاتها قبل أقل من دقيقتين كانت كافية لأنتهي دون الحاجة إلى التوغل عميقًا داخل جسد هذه الغاوية. أغمضت عيني وفعلتُها مرَّة أخيرة، في أعماقها لعدة ثوانٍ، بينما كانت أنَّاتها ما تزال مكبوتةً براحة يدي.

استندت إلى صدرها وانسحبت منها، ونشجت وهي تضغط وركيها على جسدي راغبةً بالمزيد. فكرة أن أجعل فتاتين تبلغان النشوة تحت أطراف أصابعي بفارق دقائق فقط بين الاثنتين شيء لم أحققه يومًا من قبل. رميت الواقي الذكري في سلة القمامة، ثمَّ استلقيت بقربها، وأبعدتُها، واستخدمتُ أصابعي لإكمال المهمة.

ضغطت خدي على خدها، ورحت أحرك أصابعي، وهمست في أذنها: «أيعجبكِ هذا؟».

أصدَرَت أنينًا، ومن أنفاسها المتقطعة أدركت أنها تحب ما أفعله.

استمررتُ بحك جسدي بجسدها، وعندما اقتَربَت أخيرًا من بلوغ النشوة، وشعرت بصراخها يكاد يبارح شفتيها، فعلت معها كما فعلت مع سلوان؛ غطيت فمها بفمي، وتركتها تصرخ لذتها، بينما كانت ترتجف وترتعد تحتي، أغلقت عينيَّ، وأصدرت أنينًا وأنا أرفع جسدي ببطء. عندما هدأ جسدها أخيرًا تحتي، تدحرجت من فوقها، وناولتها بلوزة عن الأرض لتمسح نفسها بها، وقلت: «ارتدي ملابسكِ. لدي موعد الليلة».

***

الفصل السادس

سلوان

تسلَّلتُ إلى المرحاض قبل بدء الدرس، لكي أتحقَّق من هيئة شعري ومكياجي. لم يسبق لي يومًا أن أعرت اهتمامًا لهيئتي وما إذا كان يبدو عليَّ أنني غادرت سريري للتو، ولكن معرفتي أن كارتر سيكون جالسًا على بعد بوصات منِّي طوال الساعة الآتية، معرفتي ذلك جعلتني أبدي اهتمامًا أكثر من المعتاد.

مصابيح الفلورسنت لا تدع مجالًا لإخفاء العيوب، فالأكياس المنتفخة تحت عينيَّ كفيلة بقول الحقيقة الكاملة عن ليلة أمس. بنظري إلى انعكاس وجهي في المرآة كل ما يمكنني أن أراه هو فتاة بقيت مستيقظة لوقت متأخر جدًّا في الليلة السابقة، قلقةً على الفتى الذي وعدها بالخروج في موعد غرامي، لكنه لم يظهر قط.

غادر آسا برفقة صديقه جون بينما كنت أستحم في الليلة الماضية، وأستعد للخروج في موعد غرامي معه للمرَّة الأولى منذ أكثر من خمسة أشهر. على الرغم من عدم وجود أي منهما في المنزل فإنه كان يعج بأشخاص آخرين. بقيت مستيقظة يراودني القلق حوله، إلى أن غلبني النوم، وعندما تسلل إلى السرير أخيرًا، وبدأ يزحف محاولًا اعتلائي، كنت مستاءة جدًّا، لذا شرعت بالبكاء.

لم يلاحظ بكائي حتَّى، أو أنه لاحظ لكنه لم يهتم.

ظللت أبكي طوال فترة وجوده فوقي، وهو يضاجعني وكأنه لا يعير أدنى أهمية ولا يعنيه في شيء من تكون المرأة التي يعتليها، ما دامت هناك امرأة تحته فذلك كافٍ. عندما انتهى، تدحرج عنِّي وغطَّ في النوم دون أن يقول كلمةً واحدةً؛ لا اعتذار ولا شكر ولا «أحبك». فقط استدار وغطَّ مباشرةً في النوم دون أن يؤنبه ضميره البتَّة، فأدرت ظهري وتابعت بكائي.

بكيت من حقيقة أنني أسمح له بفعل ما يفعله بي، بكيت من حقيقة أنني أشعر أن لا خيار لي، بكيت من حقيقة أنني ما زلت معه، على الرغم من تحوُّله إلى شخصٍ سيئ، بكيت من حقيقة أن لا سبيل أمامي للخروج من كل هذا، مهما تكن رغبتي بالرحيل عظيمة، بكيت من حقيقة أنه على الرغم من كل الأشياء المريعة فيه، فما زلت أقلق حتَّى الموت عندما لا يعود إلى المنزل، بكيت لإدراكي أنه كيفما يصبح، فهناك جزء منِّي ما يزال واقعًا في حبه... لأني لا أعرف كيف لا أحبه.

أبعدت نظري عن المرآة، واتجهت إلى الصف، لأنني لم أرغب أن أنظر إلى نفسي أكثر، بسبب شعور الخجل الذي يراودني من الشخص الذي أصبحت عليه.

عندما دخلت صف اللغة الإسبانية لمحت كارتر بطرف عيني جالسًا إلى طاولتنا المشتركة، ولكنني لم أرغب أن أنظر إليه. بعد أن قضيت ساعة من الوقت برفقته في الحصَّة السابقة، يمكنني الاعتراف أنني قد كوَّنت مشاعر إعجاب طفيفة نحوه، إذ شعرت بالدوار عند تفكيري بأنني سأقضي ثلاث ساعات من كل أسبوع برفقته، وهذا الشعور أصبح غريبًا عليَّ تمامًا، ولكن رؤيته في منزلي، وبرفقة آسا من بين كل الناس، قد حطَّمت كل الخيالات التي سرحت فيها.

لم أخطط لأن يحدث أي شيء بيني وبين كارتر، إذ كيف يمكن ذلك؟ فما من سبيل لي للخروج من علاقتي الحالية مع آسا، ولست شخصًا يمكنه أن يخون. كل ما كنت أبحث عنه ببساطة هو شخص يعجب بي، شخص يغازلني قليلًا، أردت فقط أن أشعر أنني مرغوبة. لكنني الآن وبعد أن عرفت إلى أيِّ حد يشبه كارتر آسا، الحد الذي لم أستطع حتَّى تخيله، الآن لم أعد أريد أيًّا من ذلك، لم أعد أريد أي شيء من كارتر. حقيقة أنه أصبح الآن مترددًا أساسيًّا

جديدًا على منزلنا قد جعلته خارج متناول يدي تمامًا، فلو راودت آسا بعض الشكوك حول محاولة شاب ما التحدث معي، فإن مصير هذا الشاب سيكون الموت لا محالة، وكم أرغب لو بإمكاني القول إن كلامي هذا لم يُقصد حرفيًا، إلا أنه كذلك، فمعرفتي بانعدام ضميره، تجعلني متأكدة بنسبة مئة في المئة أن آسا مستعد لارتكاب جريمة قتل، وهذا بالتحديد ما يجنبني أن أجرَّ كارتر إلى هذا الوضع. أستمر بإخبار نفسي أن كارتر ليس إلا نسخة من آسا، بثياب مختلفة، وذلك لا يستحق المخاطرة. سأتعامل مع حالة كارتر تمامًا كما هي: مجرَّد عقبة أخرى في طريق خلاصي.

جلت ببصري في الغرفة بحثًا عن مقعد شاغر غير مجاور له، لا بُدَّ أنني أمضيت الكثير من الوقت في المرحاض، إذ إن غرفة الصف كانت شبه ممتلئة، ثمَّة مقعدان شاغران في الصف الثاني من الأعلى، لكنهما مباشرةً أمام المقعد الذي يشغله كارتر، تجنبت عينيه، ومشيت نحو المقعدين الفارغين مطأطئة الرأس، لا أعرف إن كنت سأنجح بمحاولة التظاهر بعدم رؤيتي له، ولكنني بالتأكيد سأحاول.

اخترت أحد المقعدين وجلست، ثمَّ أخرجت كتبي ووضعتها على الطاولة أمامي، فجأةً سمعت صوت ضوضاء من الصف الخلفي، ولم أستطع أن أمنع نفسي من الاستدارة، رأيت كارتر يتجاوز الطاولة ورائي وحقيبته في يده، قفز من فوق الطاولة، وسحب الكرسي الفارغ الموجود قربي، ثمَّ جلس، وسألني وهو يميل في كرسيه ليصبح مواجهًا لي: «ما كل هذا؟».

أجبته وأنا أفتح كتابي حيث توقفنا الاثنين الماضي: «ما كل ماذا؟».

يمكنني الشعور به يحدق إليَّ، لكنه لا يقول أي شيء. تابعت تظاهري بقراءة الكتاب، واستمر بالتحديق إليَّ بصمت إلى أن لم يعد بمقدوري احتمال ذلك، استدرت لأواجهه وسألت بامتعاض: «ماذا؟ ماذا تريد؟».

ظلَّ صامتًا، فأغلقت كتابي بقوَّة، وأدرت جسدي ليصبح قبالة جسده، لم تمر حقيقة تلامس ركبتينا بلا ملاحظة، أخفض بصره محدِّقًا إلى ساقينا، وأمكنني رؤية ابتسامة طفيفة تشق طريقها إلى زاويتي فمه. وقال: «حسنًا، لقد أحببت نوعًا ما الجلوس قربك في ذلك اليوم، لذا فكرت أنني أرغب بفعل ذلك مجدَّدًا. لقد فهمت أنك لا ترغبين بالشيء ذاته، لذا...».

بدأ بحزم كتبه، وجزء منّي رغب بانتزاع الكتب من بين يديه وإجباره على البقاء هنا، حيث هو الآن، ولكن الجزء الأكبر منّي شعر بالارتياح لاستيعابه تلميحي. قذف كتبه داخل حقيبة الظهر، وحافظت على صمتي، إن قلت أي شيء فإنني أعرف أنه لن يكون سوى استجداء مثير للشفقة ليبقى حيث هو.

قال أحدهم بصوت أجشّ رتيب: «أنت تجلس في مكاني».

رفعنا كارتر وأنا أبصارنا لنجد شابًا واقفًا أمامنا، مخفضًا بصره ليحدّق إلى كارتر ويعتلي وجهه تعبير بارد. رفع كارتر حقيبته عن الطاولة، وأجاب: «لقد كنت مغادرًا للتو».

- ما كان عليكَ أن تجلس هنا بداية. هذا مكاني.

استدار الشاب نحوي، وبسط ذراعه أمامه مشيرًا إليّ، وتابع: «وأنتِ أيضًا هذا ليس مكانكِ. جلست فتاة أخرى هنا يوم الاثنين، لذا لا يمكنكِ البقاء في هذا المقعد».

بدا وجه الشاب متكدرًا، وقد أزعجه كثيرًا جلوسنا في مقاعد مختلفة عن الحصّة السابقة، شعرت بالأسف حياله، إذ ذكّرتني تقاسيمه ببعض تقاسيم وجه أخي، ولكن ما إن بدأت بإخباره أننا سنبدل مكان جلوسنا، وأنه بإمكانه العودة إلى مكانه، حتّى تصدى له كارتر غاضبًا، وقف وقال للشاب: «أنزل إصبعك من أمام وجهها».

أعاد الشاب تركيز انتباهه على كارتر وأجاب: «غادرا مقعدي».

ضحك كارتر ورمى حقيبته على الأرض، وقال: «يا رجل! ما كل هذا؟ هل نحن في حضانة أطفال؟ اذهب وابحث لك عن مقعد لعين».

أنزل الشاب ذراعه، ونظر إلى كارتر مصعوقًا، حاول أن يجد جوابًا، لكنه أغلق فمه، ومشى نحو الصف الخلفي مغلوبًا على أمره، وهو يتمتم: «ولكن هذا مقعدي».

أعاد كارتر إخراج دفتره من حقيبة ظهره، ووضعه على الطاولة أمامه، وقال: «أعتقد أنكِ محتجزة معي هنا. فمن غير الممكن أن أبدل مقعدي الآن بعد ما حدث».

هززت رأسي وانحنيت نحوه، وهمست له: «كارتر، دعه وشأنه، أعتقد أنه مصاب بمتلازمة أسبرجر، لا يمكنه التحكم بتصرفاته».

أدار كارتر رأسه باتجاهي بسرعة، وقال: «ماذا بحقِّ الجحيم؟ هل أنتِ جادة؟»

أومأت، وأجبت: «أخي يعاني من هذه المتلازمة. أعرف أعراضها تمامًا».

مرر يديه على وجهه، وتنهد، ثمَّ وقف بسرعة وأمسك يدي في أثناء وقوفه، فوقفت معه، وقال مشيرًا إلى حقيبتي ودفتري: «اجمعي أشياءك».

استدار ورمى أغراضه على الطاولة خلفه، ثمَّ أمسك حقيبة ظهري ورماها أيضًا، وبعدها رفع نظره إلى الشاب، وأشار إلى الكرسيين اللذين شغلناهما للتو، قائلًا: «آسف يا رجل. لم أستوعب أنهما كانا مقعديك، سوف نبدل مكان جلوسنا الآن».

مشى الشاب بسرعة عائدًا إلى صف المقاعد حيث نقف، واحتلَّ مقعده قبل أن يغير كارتر رأيه. على الرغم من إدراكي أن معظم الصف الآن يشاهد الجلبة الحاصلة بين ثلاثتنا، فلم أستطع منع نفسي من الابتسام. لقد أحببتُ ما فعله الآن.

مشينا نحو المقاعد التي جلسنا عليها يوم الاثنين، ثمَّ وضعنا أشياءنا على الطاولة مجدَّدًا.

قلت له: «أشكرك على ما فعلته».

لم يُجِب، بل منحني شبه ابتسامة، ثمَّ ركَّز ناظريه في هاتفه إلى أن بدأ الدرس.

مع بدء المحاضرة أصبح الوضع غريبًا، فعدم رغبتي بالجلوس قربه جعلته يشكك بي، إنني متأكدة من ذلك، لأنه يكتب بخط أسود واضح أمامي، وما إن حدقت إلى الورقة التي أزاحها على المقعد باتجاهي حتَّى قرأت «لماذا لم ترغبي بالجلوس قربي؟».

ضحكت ضحكة خافتةً من سذاجة سؤاله، فالتَقَطتُ قلمي، وكتبت جوابي «يا رجل! ما هذا؟ حضانة أطفال؟».

قرأ إجابتي، ويمكنني القسم إنني رأيت عبوسًا يعلو وجهه، كنت أحاول أن أكون مضحكة، لكنه لم يلتقط حسِّي الفكاهي، راح يكتب شيئًا ما، شيئًا طويلًا، ثمَّ أزاح الورقة باتجاهي، وقرأت «إنني جاد يا سلوان. هل تجاوزتُ أيًّا من الحدود في الليلة الماضية؟ أنا آسف إن كان الأمر هكذا، إنني أعلم أنك

مرتبطة بآسا، وهذا شيء أحترمه. إنني بصراحة أجدكِ ظريفة، وأريد فقط أن أجلس بقربك. صف الإسباني يصيبني بملل فظيع، وجلوسي بقربك يجعل رغبتي بفقء عينيَّ أقل إلحاحًا».

حدقت إلى ما كتبه لوقت أطول ممَّا يلزم لأقرأه، لديه خط باهر بحق بالنسبة إلى خط شاب، والأكثر إبهارًا قدرته على تسريع نبضات قلبي.

إنه يجدني ظريفة. هذا إطراء بسيط، ولكنه يؤثر بي بشدَّة وأكثر ممَّا أتمنَّى. ليس لدي أدنى فكرة كيف أرد عليه، لذا ضغطت قلمي على الورقة، وكتبت دون حتَّى أن أفكر بما أكتبه «الناس في وايومنيغ غير موجودين، ولا يمكنني أبدًا أن اختار اللباس المناسب عندما أتسوق بحثًا عن بطاريق».

مررت الورقة إليه، وعندما ضحك بصوتٍ عالٍ وضعت يدي على فمي، لأغطي ابتسامتي. أحب أنه يفهم حسِّي الدعابي، ولكنني أكره ذلك في الآن ذاته. كل ثانية أقضيها معه تجعلني أرغب بثانيتين أخريين أقضيهما معه.

أعاد الورقة أمامي، وقرأت «تهمس البراغيث: لا شيء حلو في أسطوانة القرود الخاصة بي، والتي تأخذ وقتًا طويلًا لتحضر إليَّ البيتزا التي طلبتها».

ضحكتُ، ثمَّ تحسست معدتي، فرؤية كلمة «بيتزا» ذكرتني بالجوع الشديد الذي أشعر به، لقد كنت مستاءة جدًّا ليلة أمس، فأحجمت عن تناول العشاء، لذا فقد مضت عليَّ أكثر من أربع وعشرين ساعة منذ أن تناولت آخر شيء. كتبتُ «تبدو البيتزا جيدة».

وضعت قلمي، لكنني لم أمرر له الورقة، لا أعرف لماذا كتبت شيئًا كنت أفكر به فعلًا هذه المرة. قال بصوت مسموع: «أجل، تبدو جيدة».

رفعت نظري إليه، وكان ينظر نحوي مبتسمًا ابتسامة آلمتني حقًّا، إنه كل ما أرغب، وكل ما لا أحتاج، وهذا أمر يسبب لي حرفيًّا ألمًا جسديًّا. همس: «سأصحبك لتناول البيتزا عند انتهاء الحصَّة».

خرج الكلام من بين شفتيه بسرعة كبيرة، وكأنه يعلم أنه لا ينبغي عليه قول ذلك، ناهيك بفعله.

لكنني أومأت بالموافقة.

اللعنة، لقد أومأت.تأتأ

***

الفصل السابع

كارتر

مشت بقربي بعد انتهاء الدرس باتجاه المرآب، وبدا لي من طريقة قبضها على حقيبتها، وكيفية تلفُّتها المستمر إلى الخلف أنها على وشك الانسحاب، وعندما توقَّفت على الرصيف والتفتت إليَّ لم أمنحها حتَّى الفرصة للكلام، بل قلت: «إنه وقت الغداء يا سلوان، وعليكِ أن تأكلي شيئًا ما. سأصحبك لتناول البيتزا، توقفي عن محاولة إعطاء الأمر أكبر من حجمه، حسنًا؟».

اتسعت عيناها من الصدمة، وعلمت تمامًا بماذا كانت تفكر، ضغطت شفتيها معًا وأومأت، ثمَّ هزت كتفيها على نحو اعتباطي محاولةً إقناع نفسها أن الأمر عاديٌّ ومقبولٌ تمامًا، وقالت: «إنها وجبة غداء. أنا أتناول الغداء، وأنت كذلك، ما الأمر الجلل إن تناولناه في الوقت ذاته؟ وفي المطعم ذاته؟».

- تمامًا.

ظهرت الابتسامات على وجهينا، ولكن الخوف في عيوننا كان أوضح.

إننا نتخطَّى حدًّا، كلانا يعلم هذا.

عندما وصلنا إلى سيارتي، مشيت على نحو طبيعي باتجاه بابها لأفتحه لها، لكنني تراجعت ومشيت مباشرةً باتجاه باب السائق. كلَّما قلَّلتُ من معاملتي معها وكأنها في موعد غرامي معي، كلما قلَّ إحساسنا بأننا في

موعد. لا أريد أن أزيد توترها من «غدائنا العادي» أكثر ممَّا تشعر به أساسًا. في الحقيقة، إن التوتر الذي يعتريني كافٍ لكلٍّ منا، لا أعلم ما الذي بحقِّ الجحيم أفعله، ولكن كلما كنت قريبًا منها فالشيء الوحيد الذي يستحوذ على تفكيري هو رغبتي بقضاء وقت أطول بالقرب منها.

أغلق كلٌّ منا بابه، وشغَّلتُ محرك السيارة، وقدت بالطريق المؤدي إلى خارج المرآب. الابتعاد عن الكلية وهي معي، ونحن وحدنا في سيارتي، أعطاني شعورًا مشابهًا لشعور لعب الروليت الروسي، معرفتي أن وجودي معها الآن يعني ضرب مستقبلي المهني بعرض الحائط جعلت نبضي يتسارع، وجفَّفت فمي، ناهيك بما قد يحدث إن عرف آسا بالأمر.

أخرجت آسا من عقلي، ونظرت إليها، وفي لحظتها خرجت بقرار مفاده أنه ولو كان هذا الفعل يعني أنه اليوم الأخير لي على الأرض، فإنني سأحصر تركيزي عليها وأستمتع بكل لحظة أقضيها معها.

قالت وهي تنظر إليَّ محرجةً: «لدي اعتراف».

- ما هو؟

ربطت حزام الأمان في مكانه، وطوت يديها في حجرها، وقالت: «لا أحمل معي أي نقود».

أردت أن أضحك من اعترافها، لكنه في الحقيقة جعلني أشعر بالحزن عليها، فقلت: «على حسابي». وذلك ما كان سيحدث بجميع الأحوال، وتابعت: «ولكن لو أنني لم أدعوكِ للغداء اليوم، كيف كنتِ ستأكلين؟».

هزَّت كتفيها، وأجابت: «في العادة لا أتناول وجبة الغداء. الغداء يتطلَّب نقودًا، وفي الوقت الحالي ليس لدي وفرة من المال. إنني أدَّخر من أجل شيء أكثر أهمية».

حوَّلت نظرها عني، وراحت تتطلع من النافذة، كإشارة واضحة إلى عدم رغبتها بالحديث عمَّا تدخر من أجله. لم أضغط عليها لأعرف، ولكنني أصررت على معرفة سبب عدم امتلاكها مالًا لتأكل.

- لماذا لا تطلبين مالًا من آسا؟ لديه الكثير منه، وأنا واثقٌ أنه لو علم بإحجامك عن تناول الغداء، سيحرص على تزويدك بالمال.

هزت رأسها، وقالت: «لا أريد أمواله القذرة». ثمَّ بصقت، وتابعت: «أفضِّل أن أتضوَّر جوعًا».

لم أُجِب. لم أرغب بتذكيرها أنها تحت انطباع أنني أعمل مع آسا، وبالتالي سأدفع ثمن غدائنا من الأموال القذرة ذاتها. عوضًا عن ذلك غيَّرت مجرى الحديث إلى موضوع أخف وطأةً، وقلت وأنا أحرف مسار السيارة باتجاه الطريق السريع: «أخبريني عن أخيكِ».

- أخي؟ أي أخ؟

- أخوكِ المصاب بمتلازمة أسبرجر؟ لا أعلم الكثير عن هذه المتلازمة، في موطني الأصلي؛ ساكرامتون، كان لدى جيراني طفل مصاب بها، ولكنني لم أكن أعلم أنها مرض يمكنكِ التغلُّب عليه، إلا أنك قلتِ إن أخاكِ كان مصابًا بها... وكأنكِ تتحدثين عن شيء في الماضي.

أخفضت بصرها إلى حجرها، وشبكت أصابعها معًا، وقالت بهدوء: «ليست شيئًا يمكنكَ الشفاء منه».

ولكنها ذكرتها بسياق الزمن الماضي، أو... أعتقد أنها قد ذكرت أخاها بسياق الماضي. يا لي من أحمق عديم الشعور! لماذا بحقِّ الجحيم أتيتُ على ذكر هذا الموضوع؟

مددت يدي وضغطت قليلًا على يدها، وقلت: «أنا آسف. أنا آسف حقًّا».

سحبت يدها من بين يدي، وأعادتها إلى حجرها، ثمَّ نظَّفت حنجرتها، وقالت: «لا بأس»، وأجبرت نفسها على الابتسام، وتابعت: «لقد كان هذا منذ زمن بعيد، وللأسف لم تكن متلازمة أسبرجر هي المرض الوحيد الذي عانى منه».

عند ذكرها هذه الملاحظة الأخيرة كنا قد وصلنا إلى المطعم. ركنت السيارة في بقعة مخصصة للركن، وأطفأت المحرك. لم يتحرك أيٌّ منا، أعتقد أنها كانت تنتظرني لأخرج من السيارة، ولكنني أشعر وكأنني قد كدَّرت مزاجها الجيد، فقلت: «لقد جرَّدت الرحلة رسميًّا من أي متعة. ألديكِ أي اقتراحات لتحسين الوضع؟».

ضحكت ضحكة صادقة، تجعَّد وجهها على إثرها، وقالت: «يمكننا أن نرقى بلعبة الكتابة إلى مستوى آخر بمحاولة تعديل المزاج قليلًا. عوضًا عن كتابة أشياء عشوائية دون تفكير، يمكننا أن نقضي فترة الغداء ونحن ننطق أشياء عشوائية دون تفكير».

أومأت، ونظرت إلى المطعم أمامنا قائلًا: «من بعدكِ. لقد شوشت أنياب حيوان الفظ رؤيتي كأنه حلوى بالشوكولاتة».

ضحكت وفتحت بابها، وقالت: «القروش النمرية ذوات الرجل الواحدة أفضل لك من الخضروات».

***

الفصل الثامن

آسا

- جون!

يكاد هاتفي يتحطم بين يديَّ، وأنا أشدُّ عليه إلى درجة لن أُفاجأ معها لو تفتَّتَ في قبضتي. سحبتُ شهيقًا عبر أنفي وزفرته من فمي لأهدئ نفسي، محاولًا أن أعتبرها بريئةً إلى أن تثبت إدانتها.

- جون!

وأخيرًا سمعت صوت وقع أقدامه وهو يصعد السلالم، وتأرجح باب غرفتي، ثمَّ دخل جون وهو يقول: «ما الأمر بحقِّ الجحيم؟ لقد كنت أتغوط».

نظرت إلى هاتفي متحققًا من تقرير برنامج تحديد الموقع (جي بي إس)، وسألته: «ماذا يوجد في الموقع رقم 1262 على طريق ريكر؟».

رفع نظره إلى السقف، وهو ينقر بأصابعه على إطار الباب، وكرر: «طريق ريكر... أعتقد أن تلك المنطقة في معظمها عبارة عن مطاعم فقط». ثمَّ فتح هاتفه، وأدخل العنوان وهو يسأل: «لماذا؟ هل لدينا شحنة؟».

- لا. سلوان هناك الآن.

رفع جون رأسه، وسأل: «هل تعطلت سيارتك؟ أتحتاج سلوان توصيلة إلى مكان ما؟».

دوَّرتُ عينيَّ، وأجبت: «إنها لا تحتاج توصيلةً لعينةً أيها الأحمق. بل هي على طريق ريكر في حين ينبغي أن تكون في الكلية. أريد أن أعرف ماذا بحقِّ الجحيم تفعل هناك، ومع من».

بدت أخيرًا علامات الفهم على محياه، وقال: «أوه، اللعنة. أتريد أن تذهب للتحقق من الأمر؟»، وتابع التقليب بهاتفه، وأكمل: «يبدو كأنه مطعم إيطاليٌّ. مكان يُدعى «مي أمور»».

رميت هاتفي على السرير، ونهضت ورحت أذرع الغرفة جيئة وذهابًا، وقلت: «لا. إنه يبعد مسافة تستغرق نصف ساعة، وإذا وضعنا الزحام المروري بالحسبان سنحتاج إلى خمس وأربعين دقيقة. سترحل قبل وصولنا».

تنفَّست بعمق، وقرصت جسر أنفي بأطراف أصابعي محاولًا أن أحافظ على رباطة جأشي.

إن كانت تضاجع غيري سأعرف، وإن عرفت سينتهي بها الأمر ميتةً لا محالة، واللعين الذي تضاجعه سيكون حظه مثل حظها.

قلت لجون: «سأحل الأمر. الليلة».

***

الفصل التاسع

سلوان

فتح كارتر الباب، وتركني أمرُّ قبله. هذه هي المرَّة الأولى التي أدخل فيها مطعمًا منذ أشهر، لقد نسيت كم أن رائحة المطاعم جيدة. ظلت فكرة أن يعرف آسا بوجودي هنا تقتحم عقلي، على الرغم من بذلي قصارى جهدي للتركيز على حقيقة أنني هنا فقط لتناول الغداء، وحاولت أن أفكر بالموضوع ببراءة شديدة لأستطيع التظاهر بذلك إن عرف آسا بالأمر...

لا أريد حتَّى أن أفكر مجرَّد تفكير بما قد يفعله إن عرف.

ابتسمت المضيفة لنا، وأحضرت قائمتي طعام قائلةً: «طاولة لشخصين؟».

أجاب كارتر: «أجل لو سمحتِ». وأضاف بوجهٍ ثابتٍ: «يحب الموز الماء المغلي في رينو».

أفلتت من بين شفتي ضحكةٌ، فنظرت المضيفة إلى كلينا نظرة شخصٍ مرتبكٍ، ثمَّ هزت رأسها وقالت: «اتبعاني».

أنزل كارتر يده وأمسك يدي، وسحبني إلى الأمام. لم يمسك يدي فقط بدافع قيادتي إلى الطاولة، بل شابك أصابعه بأصابعي وابتسم لي، ممَّا جعل قلبي يدقُّ كالطبل.

أوه يا إلهي ما نفعله خاطئ. خاطئ. خاطئ.

عندما وصلنا إلى طاولتنا وسحب يده من يدي ليجلس في كرسيه، شعرت بألمٍ حقيقيٍّ في قلبي. انزلق كلانا إلى مقعده، وأرحنا مرفقينا على الطاولة أمامنا. نظرت إلى يديه... إلى اليد التي كانت قبل لحظة تمسك يدي. لا يمكنني تحديد شيء مميز فيها، من الغريب كيف يمكن للمسة واحدة منها أن تحدث كل هذا الاضطراب في قلبي. إنها مجرَّد يد، ما هو، بحقِّ الجحيم، المميز جدًّا في هذه اليد؟

- ماذا؟

أخرجني صوته من شرودي، ورفعت نظري إليه، كان رأسه مائلًا قليلًا ونظراته مركزة عليَّ بشدَّة، وكأنه يحاول أن يقرأ أفكاري.

أعدت سؤاله متظاهرةً بالتجاهل: «ماذا؟».

أرجع ظهره إلى المقعد، وعقد ذراعيه فوق صدره، وقال: «كنت فقط أتساءل عمَّا يجول في خاطركِ الآن. لقد كنتِ تنظرين إلى يديَّ وكأنك ترغبين ببترهما».

لم أكن أدرك أن تعبير وجهي كان واضحًا إلى هذه الدرجة، شعرت بالحرارة تصعد إلى خدِّي، ولكنني رفضتُ أن يبدو عليَّ الحرج. أرجعت ظهري إلى المقعد، واستندت إلى الجدار، بحيث لا أجلس أمامه مباشرةً. أسندت قدميَّ إلى المقعد الموجود قربه، وعقدت كاحليَّ معًا لأحصل على الراحة في جلستي. وأجبت: «كنت أفكر فقط».

أراح قدميه على المقعد المجاور لي، وشابك كاحليه مثلما فعلتُ، ولم أعرف إن كان فعله هذا بدافع الحصول على الراحة، أم بغاية تقليدي فقط.

- أعرف أنكِ كنتِ تفكرين فقط. أريد أن أعرف ما الذي كنتِ تفكرين به.

- هل أنتَ فضوليٌّ هكذا دائمًا؟

ابتسم، وأجاب: «عندما يتعلق الأمر بسلامة أطرافي... أجل».

- حسنًا، إن كان هذا يشعرك بالتحسن، فلم أكن أفكر برغبتي في بتر أطرافك.

أبقى عينيه مثبتتين في عينيَّ، وأراح رأسه بعفوية على مسند المقعد، وقال: «أخبريني».

- يا لك من لَحوح!

التقطت قائمة الطعام، ورفعتها أمام وجهي حاجبةً نظراته، إذ لا يمكن أن تقول لا لعينيه الداكنتين الحادتين، لذا اخترت ألا أنظر إليه بتاتًا.

مدَّ أصابعه من فوق حافَّة قائمة الطعام وأنزلها، لينظر بعينيَّ، وهو ما يزال منتظرًا إجابتي، وضعت القائمة جانبًا، وتنهدت قائلةً: «الأفكار الداخلية أفكارٌ خاصَّةٌ لسببٍ ما يا كارتر».

ضيَّق عينيه، وانحنى إلى الأمام، وقال: «أكان ينبغي ألا أمسك يدك؟ هل أزعجكِ فعلي هذا؟».

دغدغ صوته السلس الحسَّاس معدتي كأنه ريشة، ولكنني حاولت أن أقنع نفسي أن هذا تأثير الجوع فقط. فأجبت وأنا ما أزال ألتف حول رغبته بمعرفة الجواب: «لم تزعجني».

مشكلتي بكونه أمسك يدي تكمن في أنني أحببت ذلك، أحببته كثيرًا. لكنني لن أصرح بشعوري. قطعت تواصلنا البصري ورفعت القائمة أمام وجهي مجدَّدًا، لا أريد أن أرى رد فعله، قرأت الخيارات في القائمة لبعض الوقت، واعية بشدَّة للصمت الذي ساد بيننا، وقد قادتني حقيقة أنه لا يقول شيئًا للجنون، يمكنني الشعور به يحدِّق إليَّ بصمتٍ، وهو يتحداني لأنظر إليه. ولكي أكسر الصمت وأغير الموضوع، قلت: «أيمكنني أن أحصل على بيتزا؟».

وأخيرًا التقط قائمة الطعام خاصته، وقال: «اطلبي أيًّا كان ما ترغبين به».

- سجقٌ وزيتون.

أعدت قائمتي إلى الطاولة، وقلت: «وبعض الماء سيكون جيدًا. إنني ذاهبة إلى المرحاض».

انزلقت في المقعد لأخرج، ولكن قدميه كانتا ما تزالان ممدودتين على المقعد بقربي، تعيقان خروجي، فأجبرت على رفع نظري إليه، ولكنه استمرَّ بتثبيت نظره على قائمة الطعام، وببطء أنزل إحدى قدميه، ثمَّ الأخرى، وكانت ابتسامة صغيرة تتراقص على شفتيه طوال الوقت. خرجت من المقعد واتجهت إلى المرحاض، وأقفلت الباب خلفي. ضغطت ظهري إلى الباب، أغلقت عينيَّ، وأخرجت تنهُّدًا عميقًا مكبوتًا.

اللعنة عليه.

اللعنة عليه لجلوسه بقربي في الفصل.

اللعنة عليه لظهوره في منزلي.

اللعنة عليه لتورطه مع آسا.

اللعنة عليه لإحضاري إلى هنا.

اللعنة عليه لإمساكه يدي.

اللعنة عليه لكونه لطيفًا جدًّا.

اللعنة عليه، لأنه كل ما أتمنَّى أن يكونه آسا، وكل ما أتمنَّى لو بإمكاني الحصول عليه.

غسلت يديَّ بما لا يقلُّ عن عشر مرَّات، ولكنني ما زلت أشعر بلمسته. ما زلت أشعر بأصابعه مشبوكةً بأصابعي... وببشرة راحة يده الصلبة وهي تضغط يدي... كيف سحبني خلفه، وهو يقودني عبر المطعم... الخدر في راحة يدي، والذي لن يختفي مهما فركتها.

صببت مزيدًا من الصابون على يديَّ وغسلتهما للمرَّة الحادية عشرة، ثمَّ استجمعت شجاعتي لأخرج -أخيرًا- من المرحاض، وأعود إلى مقعدي.

أشار كارتر إلى عبوَّة الصودا الموضوعة أمامي وقال: «ظننت أنكِ قد ترغبين ببعض الكافيين».

ظننُّه في مكانه. اللعنة عليه.

رفعت علبة الصودا إلى فمي، ووضعت القشَّة بين شفتيَّ، وقلت: «شكرًا».

رفع ساقيه على المقعد قربي سادًّا عليَّ الطريق مجدَّدًا، ثمَّ ابتسم لي ابتسامة لا تخلو من الإغواء، بل إنها مغرورة قليلًا، وقال: «على الرحب والسَّعة».

انتبهت إلى أنني كنت أحدِّق إلى شفتيه لفترة ليست قصيرة، واتسعت ابتسامته.

- لا تبتسم لي هكذا.

أزعجتني حقيقة أنه يصعِّب الأمر على كلينا بمغازلاته العابرة هذه. أرجعت ظهري إلى المقعد، ورفعت ساقي معيدة إسنادهما إلى المقعد بجواره.

اختفت الابتسامة عن شفتيه، وأنزل عينيه مركِّزًا بصره على ذراعيَّ، عاد الغضب إلى عينيه عندما لاحظ آثار الكدمات الواهية عليَّ، وكأنني قد وسِمت بعلامة تجارية.

هذا هو الشعور التي تخلفه فيَّ هذه العلامات بطبيعة الحال.

مررت يديَّ على ذراعيَّ لأغطِّي تلك الكدمات، وقد شعرت فجأةً وكأنني عارية.

اعتلى وجهه تعبير يدل على ارتباكه، وسألني: «لا تريدينني أن ابتسم لكِ؟».

- لا. لا أريدك أن تبتسم لي هذه الابتسامة وكأنك معجب بي. لا أريدك أن تجلس بقربي في الفصل. لا أريد أن تمسك يدي. لا أريد أن تغازلني. لا أريد حتَّى أن تدفع ثمن غدائي، ولكنني أشعر بجوع شديد الآن ولن أفكر بهذا الأمر.

ثم رفعت مشروبي إلى فمي لأجبر نفسي على السكوت. أخفض نظره وركز عينيه على كأسه، ومرَّر يديه عليها ليمسح عنها البخار المتكاثف. سحب نفسًا بطيئًا، وهو يحدِّق طوال الوقت إلى كأسه، ثمَّ أخرجه بزفير عميق. بعدها رفع نظره إليَّ، واعتلى وجهه تعبيرٌ باردٌ، جعلني بالكاد أتعرف عليه، وقال: «إذَنْ، أتريدينني أن أكون سيئًا معكِ؟ أتريدينني أن أعاملك باحتقار؟ كما يعاملك آسا؟».

ثم أرجع ظهره إلى المقعد، وعقد ذراعيه فوق صدره العريض، وتابع: «هذا مضحكٌ. لم أكن أعتقد أنكِ من الصنف الخانع».

بادلته نظرته المتقدة بنظرةٍ مشتعلةٍ مثلها، وقلت: «هذا مضحكٌ. لم أكن لأصنفك كتاجر مخدرات».

ظللنا نحدِّق واحدنا إلى الآخر، ورفض كلٌّ منا أن يكون أول من يخفض ناظريه. رمقني بنظرة متعجرفة، وقال: «أعتقد أن هذا في صالحي. تاجر؟ محقِّق. أحمق؟ محقِّق. ماذا يتطلب الأمر أيضًا يا سلوان؟ ماذا عليَّ أن أفعل أيضًا كي أجعلك تضاجعيني؟ أتريدين أن أصفعكِ قليلًا؟ يبدو الأمر كذلك لأن هذا ناجح تمامًا مع آسا».

جاءت كلماته القاسية كضربة على معدتي، أخرجت كل الهواء من صدري، وقلت عبر أسناني المصطكَّة: «عليك اللعنة».

- لا.. شكرًا، من الواضح أنه عليَّ أن أضربك أولًا قبل أن أضاجعكِ، وهذا ليس أسلوبي.

عضضت شفتي، وحبست أنفاسي، مقاومةً رغبتي بالبكاء. لقد قضيت السنة والنصف الفائتة أدرِّب نفسي على ألا أبكي أمام الحقراء، وقد نجحت.

- أعدني إلى سيارتي.

أغمض عينيه، وفرك وجهه بيديه، ثمَّ تنهَّد باستياء وصفَّق يديه معًا خلف عنقه.

- سأعيدكِ بعد أن تأكلي شيئًا ما.

تنحَّيت جانبًا في المقعد إلى أن لَمَسَ وركاي قدميه المرفوعتين بقربي.

- لست جائعة، دعني أخرج.

لم يحرِّك قدميه، لذا رفعت قدميَّ ووقفت على المقعد، ثمَّ قفزت من فوقه، واتجهت نحو الباب. في حياتي كلها لم أرغب بأن أهرب من أمام أحدهم بسرعة كما الآن. ناداني: «سلوان. سلوان!».

فتحت الباب وخرجت، صفعت هبَّة ريح وجهي بينما كنت أشهق لأدخل الهواء إلى رئتي، انحنيت، ووضعت يديَّ على رُكبتيَّ، وأنا أسحب النفس بأنفي وأخرجه من فمي مرارًا وتكرارًا. عندما خفَّت حدة الحاجة إلى البكاء، وقفت ومشيت نحو سيارته، رنَّ المنبه مرتين ثمَّ فُتح قفل الباب. استدرت، لكنه لم يكن خلفي، بل ظلَّ في المطعم.

اللعنة عليه. لقد فتح قفل السيارة من أجلي.

بعد أن صعدت إلى السيارة صفقت الباب خلفي بكل ما أوتيت من قوَّة، وانتظرته أن يخرج، لكنه لم يفعل. مرَّت بضع لحظات، وأدركت أنه لا ينوي اللحاق بي، بل في الواقع سيتناول الطعام أولًا. إنه أكثر حماقةً ممَّا توقعت حتَّى.

تناولت قبعة البيسبول من على لوحة التحكُّم ووضعتها على رأسي، وأنزلتها فوق عيني لتحجب عنِّي الشمس. إن تعيَّن عليَّ انتظاره ليتناول طعامه قبل أن يقود بي إلى حيث تركت سيارة آسا، فسأستغل الوقت لأحظى بقيلولة.

***

الفصل العاشر

كارتر

مررت مشروبينا إلى النادلة، وسألتها: «أيمكننا أن نضعها بأكواب خارجية؟ وكذلك البيتزا؟».

- سأحضرها لك حالًا.

ابتعدت النادلة، وانحنيت إلى الأمام، ممسكًا رأسي بين راحتي يدي. لا أعلم ماذا أصابني، لم يسبق أن سمحت لفتاة أن تتمكن منّي هكذا، ناهيك بفتاة لا أواعدها حتّى، ولكن اللعنة عليها! إنها مُحبِطة للغاية، لا أفهم كيف يمكنها أن تكون عنيدة وواثقة من نفسها هكذا وهي معي، ولكنها في منزلها ليست سوى خاضعة لعينة لآسا. ثم، ومن العدم، توبخني لأنني أعاملها بلطف؟ ما هذا بحقِّ الجحيم؟ أعرف أن بعض النساء ينجذبن إلى رجال مثل آسا، لقد أمضيت في مهنتي ما يكفي من الوقت لأدرك ذلك، لكن سلوان مختلفة، إنها أذكى من ذلك، وهذا بالتحديد يجعل التنحي جانبًا ومراقبتها تغوص في الأمر مؤلمًا للغاية، لأنني لا أعلم ما الذي يجعلها تبقى هناك. حتّى وإن كان ذلك خارج صلاحياتي، لا يمكنني ألا أستغل فرصة وجودي معها وحدنا دون أن أحاول إقناعها بأنها أفضل من ذلك. بالإضافة إلى ذلك، فأنا متأكد تمامًا

أن نعتي لها بالخانعة، وقولي للهراء الذي تلفَّظتِ به ليست طريقة مناسبة لإقناعها على الإطلاق. يا لي من أحمق لعين!

مدَّت النادلة يدها لي بالفاتورة، وقالت: «طلبك جاهز عند طاولة الاستقبال».

أخذتها من يدها، ودفعت قيمتها، ثمَّ توجهت إلى الخارج ومعي طعام سلوان. عندما وصلتُ إلى السيارة توقَّفت قبل أن أفتح الباب، كانت سلوان تجلس في مقعد الراكب، وقدماها مسنودتان إلى لوحة القيادة، كانت تضع قبعتي وتنزلها فوق عينيها، وشعرها الأسود ملموم فوق كتفها اليمنى، ومنسدل على ذراعيها المعقودتين فوق صدرها.

رؤيتي لها تلك الليلة بالفستان الأحمر عبثت برأسي بشدَّة، ولم أستطع النوم ليلتها. ولكن رؤيتها هنا... نائمةً في سيارتي... وهي ترتدي قبعتي الرياضية؟

لا أعتقد أنني سأتمكَّن من النوم أبدًا من الآن وصاعدًا.

فتحتُ الباب، فأنزلت قدميها عن لوحة القيادة، ولكنها لم تبعد القبعة عن عينيها، حرَّكت جسدها مقتربةً من باب الراكب أكثر، وقد أفزعتني حركتها تلك.

لقد آذيتها. إنها متضرِّرة للغاية، وقد زدت من أذيتها.

مددت يدي إليها بالكوب، وقلت: «لكِ».

رفعت طرف القبعة ورفعت نظرها إليَّ، فوجئت عندما رأيتُ أن عينيها ليستا حمراوين، إذ كنت قد افترضت أنها استخدمت القبعة لتخفي دموعها، لكنها في الحقيقة لم تذرف دمعةً واحدةً.

تناولت الكوب من يدي، لذا مددت لها صندوق البيتزا، أخذته، وصعدت أنا إلى مقعد السائق. فتحت في الحال غطاء صندوق البيتزا، وتناولت قطعة، ودفعتها إلى فمها، أدارت الصندوق لتصبح البيتزا قبالتي، ثمَّ وضعته لآخذ قطعة، أخذتُ واحدة وهممت بالابتسام لها، لكنني تذكَّرت أنها أمرتني ألا أبتسم في وجهها، لذا عوضًا عن الابتسام قضمت قطعتي وشغَّلت محرك السيارة.

لم نتحدث خلال رحلة عودتنا إلى الكلية، كانت تنهي قطعتها الثالثة عندما توقفنا في المرآب بالقرب من سيارتها، شربت رشفة طويلة من كوبها، ثمَّ أغلقت غطاء صندوق الطعام ووضعته على المقعد الخلفيِّ. فقلت لها: «خذي البيتزا معكِ».

جاءت كلماتي كحفرة مزقت الصمت والارتباك القائم بيننا.

وضعت كوبها في حامل الأكواب، ونزعت قبعتي الرياضية، ثمَّ مسَّدت شعرها الأسود، وقالت بهدوء: «لا أستطيع. سيتساءل من أين أحضرتها».

أمالت جسدها نحوي ثمَّ مدت يدها بيننا لتحضر حقيبتها من المقعد الخلفي، ثمَّ استدارت إلى الأمام ودسَّت حقيبتها تحت ذراعها. وقالت: «كنت لأشكرك على الغداء، ولكنه قد خرَّب يومي كله تمامًا».

فتحت باب السيارة، وخرجت على عجل قبل أن أدوِّر كلماتها في عقلي، عندما صُفِعَ الباب خلفها، أطفأت المحرِّك وخرجت من السيارة، وقلت وأنا ألفُّ حول السيارة لأصل إليها: «سلوان».

رمت حقيبتها في سيارتها وأغلقت الباب الخلفي، ثمَّ فتحت باب السائق واستخدمته كحاجز بيننا، وقالت دون أن ترفع نظرها إلي: «لا يا كارتر. لا تعتذر، لقد وضَّحت وجهة نظرك، لكنني مستاءة للغاية الآن ولا يمكنني أن أسمع اعتذارات، لذا فقط لا تعتذر».

يمكنها أن تقول لي ألا أعتذر قدر ما تشاء، ولكن من غير الممكن أبدًا أن أدعها تركب تلك السيارة قبل أن أبوح بما عندي. لذا قلت على كل حال: «أنا آسف. لم يكن ينبغي أن أقول ما سبق وقلته، أنتِ لا تستحقين هذا. ولكن اللعنة يا سلوان! أنتِ أفضل من هذا. قدِّري نفسكِ قليلًا».

رفضت أن ترفع وجهها إليَّ، فوضعت يدي تحت ذقنها، ورفعت وجهها ليصبح مقابلًا لوجهي، حركت عينيها بسرعة إلى اليمين، رافضةً بعناد أن تلتقي نظراتنا، حصرت نفسي بين باب سيارتها وسيارتي واستدرت إلى أن أصبحت أمامي مباشرةً، أمسكت وجهها بين يدي الاثنتين، مستميتًا لأن تنظر إليَّ، أريدها أن تستمع جيدًا لما سأقوله، وقلت متوسِلًا رافضًا أن أفلت وجهها: «انظري إليَّ. أنا آسف، لقد تجاوزت حدودي».

ظلَّت تنظر بعينيَّ، بينما انحدرت دمعةٌ وحيدةٌ رقيقةٌ من عينها، وسالت على خدها، مسحتها بظهر يدها قبل أن أتمكن من ذلك، وقالت: «ليست لديك أي فكرة عن عدد المرَّات التي سمعت فيها هذا الاعتذار الرسميَّ ذاته».

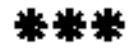
ما تزال يداي على وجهها، وهي تنظر إلى صدري، متجاهلةً نظراتي، حاولت أن أرفع وجهها نحوي، لكنها رفضت أن تستجيب.

- إنني لست مثله يا سلوان، لا يمكنكِ مقارنتي به.

رفعت عينيها إلى السماء، وضحكت، محاولةً أن تحبس المزيد من الدموع، وقالت: «لست أفضل منه. الفرق الوحيد بينكما أنه لم يسبق لكلام آسا أن جرحني يومًا كما فعلت كلماتك اليوم».

أبعدت يدي عن وجهها، وصعدت إلى سيارتها، مدت يدها إلى مقبض الباب، ثمَّ أعادت نظرتها إلي وقالت: «أنت لست مختلفًا يا كارتر، لذا إياك أن تجرؤ على الحكم عليَّ. اذهب وانتقد أحدًا غيري».

أغلقت الباب، وأُجبرت على اتخاذ خطوة إلى الخلف، ورأيتها وهي تنهار تمامًا في سيارتها. لم تنظر إليَّ مجدَّدًا، لكنني تمكنت من رؤية الدموع التي انهمرت على خديها، وهي تشغِّل السيارة، وقلت مجدَّدًا بينما كانت تبتعد: «أنا آسف».



الفصل الحادي عشر

آسا

بعد كل ما فعلته من أجلها، وبعد كل ما أفعله من أجلها، يستحسن أن يكون لديها عذر مقنع بشدَّة لأن تجعلني أمُرُّ بشيءٍ كهذا.

إنها لا شيء من دوني، لقد استقبلتها في منزلي عندما لم يكن لديها مكان آخر تذهب إليه، لو لم أساعدها كان سيتعيَّن عليها أن تعود زاحفةً إلى تلك العاهرة المريعة؛ أمها. أعرف بالاستناد فقط إلى ما حكته لي عن طفولتها، أعرف أنها بحال أفضل هنا معي، وهي تعلم هذا. أترغب بالعودة إلى أمٍّ تحضر كلَّ شهرٍ زوجًا خسيسًا آخر؟ أرغب برؤيتها تعود إلى هذا الهراء.

ولكن إن كانت تضاجع آخرين هنا وهناك، فسيكون ذلك هو المكان الأول الذي سأقودها إليه، سأكون أول من يرميها على عتبة بيت أمها العاهرة السيئة، سأعيدها إلى تلك التجربة المريرة لتعاني تعاقبَ أزواج الأم الذين يختبئون في الخزانة ليراقبوها وهي تبدِّل ثيابها.

أعادت جيس تركيزي إلى اللحظة الحالية، بقولها: «أتريدني أن أجرب شيئًا آخر؟».

كانت جاثية على ركبتيها عند حافة السرير، وأضافت: «إنك لا تُثار».

رفعتُ جسدي بالاستناد على مرفقيَّ، وقلت: «لم تعرفي كيف تثيريني على النحو الصحيح».

وقفتُ ودفعتها بضع بوصات على الأرض، ثمَّ أسندتُ يديَّ إلى الحائط، أغلقتُ عينيَّ وتخيلت أن سلوان هي الراكعة أمامي الآن، ولكنني تخيَّلتها تبكي، وتتوسل إليَّ لأبقيها، تناشدني لأنقذها كما فعلتُ في المرَّة الماضية عندما اقترفت فعلًا بهذا الغباء.

شعرت بالإثارة بمجرَّد تفكيري بسلوان، فأسندت إحدى يدي إلى الجدار، بينما شبكت الأخرى بشعر جيس وتركتها تقوم بعملها.

من ذا الذي سيصطحب سلوان إلى الغداء وهو بكامل قواه العقلية، في حين يعلم أنها تخصُّني؟ تخصُّ آسا جاكسون؟ أيًّا من يكن، لو علم ما الذي يمكن أن أفعله به، ما كان ليصطحبها، ما من أحد يتمنَّى الموت بهذه الطريقة.

تأجج الغضب في داخلي، وقد فرغت هذا الشعور بممارسة الجنس مع جيس على نحو همجيٍّ، خالٍ من الاحترام، وأنا أمسكها من شعرها، في النهاية تركت رأسها ورحت أشاهدها وهي تستند إلى يديها منحنية على الأرض، تسعل وتشهق لإدخال الهواء إلى رئتيها.

رفعت سروالي وأغلقت أزراره، وقلتُ لها: «بلِّغي جو شكري لمشاركتي بكِ. إن حبيبك كريمٌ جدًّا ويفوقني كرمًا».

مسحت فمها ووقفت، وقالت: «إنك نذلٌ لعينٌ».

ثم خرجت، وصفعتِ الباب خلفها، فتمتمتُ في إثرها: «عاهرةٌ لعينةٌ».

***

عندما نزلت إلى الطابق السفلي، رأيت جون جالسًا إلى البار مع كل من دالتون وكارتر، أخرجت زجاجة بيرة من الثلاجة وانضممت إليهم، وقلت لجون وأنا أفتح غطاء الزجاجة: «لم تخبرني أنها جيدة إلى هذا الحدِّ. يا لك من نذلٍ محظوظٍ!».

حدَّق جون إليَّ وهو يرجع ظهره إلى كرسيه، وقال: «لم أكن أعلم أنها كذلك».

ضحكت، وأجبته: «حسنًا، لا أعتقد أنها هي نفسها كانت تعلم قبل خمس دقائق من الآن تقريبًا».

تنهَّد جون وهزَّ رأسه قائلًا: «اللعنة عليك يا آسا، سبق وأخبرتكَ أن تترفق بها».

ضحكت ورشفت رشفةً من البيرة، ثمَّ وضعت الزجاجة على الطاولة، وقلت: «الفتاة الوحيدة التي أترفق بها هي سلوان».

رفع كارتر الزجاجة إلى فمه، وثبَّت عينيه بعينيَّ، في حين أرجع رأسه إلى الخلف وابتلع البيرة. هذا الفتى لديه مشكلة لعينة بالتحديق. أعاد جون تركيزي إليه بقوله: «بالحديث عن سلوان، متى سترد لي الجميل؟».

ضحك، وابتلع جرعةً كبيرةً من البيرة.

أيضحك هذا اللعين؟ أيعتقد أنه ألقى دعابةً لعينةً؟ أرجعت ساقي إلى الخلف، ثمَّ ركلت كرسيه بكل ما أوتيت من قوَّة، فأوقعته هو وزجاجته على الأرض المبلَّطة بالسيراميك، وقفتُ ونظرت إليه على الأرض، ثمَّ جمعت قبضتي مستعدًا لضربه، وصحت: «سلوان ليست عاهرةً رخيصةً!».

رفع جون نفسه عن الأرض، واستمر بدفعي لفقدان صبري بغبائه، حيث قال: «ليست عاهرة؟ أعتقد أنكَ عرفت سبب وجودها في ريكر اليوم. ألم تكن هناك تضاجع أحدهم كما ظننتَ؟».

اندفعت إلى الأمام، ولكمته على فمه القذر البذيء، سقط على الأرض فركلتُ أضلاعه، نزلت على رُكبتيَّ وحاولت أن ألكمه مجدَّدًا، ولكن سحبني دالتون وكارتر قبل أن أتمكن، فتراجع مبتعدًا عني، ومسح فمه المُدمى، ثمَّ نقل بصره بين الدم على يده وبيني، وقال: «نذلٌ لعينٌ».

- هذا مضحكٌ، لقد دعتني حبيبتك بالمِثل عندما انتهيت من الاستمتاع بها.

سارع جون بالوقوف على قدميه، ثمَّ اندفع إلى الأمام مجدَّدًا، لذا تقدمت لأتلقى لكمته، وسمحت له أن يصيب فكِّي، وقف كارتر بيننا، ودفعه مثبِّتًا إياه على الثلاجة، في حين أحكم دالتون قبضته على ذراعيَّ. وقال كارتر له: «اذهب إلى الأعلى! اذهب لتطمئن على جيس، وهدِّئ من روعك».

أومأ جون، فتركه كارتر، ولم يفلت دالتون قبضته عن ذراعيَّ إلى أن صعد جون السلالم واختفى عن مرمى البصر.

رفعت يدي إلى فكي، وفرقعت عنقي، وقلت: «أنا في الساحة الخلفية. أعلموني فور وصول سلوان».

***

الفصل الثاني عشر

كارتر

خرج آسا من الباب الخلفيِّ، وأمسكت أنا بعنقي من الخلف، ثمَّ ضغطّته، وقلت: «اللعنة!».

أجابني دالتون: «أجل اللعنة».

ولم تكن لديه أدنى فكرة عمَّا يدور في رأسي في تلك اللحظة. قلتُ له: «يجب أن أُجري مكالمةً هاتفية. انتظرني هنا، واحرص على ألا يتعاركا من جديد».

خرجت من الباب الأمامي، ومشيت مباشرةً إلى سيارتي، أخرجت هاتفي من جيبي، ورحت أقلِّب بين الأسماء بحثًا عن رقم سلوان. سبق وأخبرني دالتون أنه قد أدرج أرقام كل الموجودين في هذا المنزل في هاتفي لحظة كُلِّفت بالمهمة. قلَّبت بين الأسماء التي تبدأ بحرف السين، لكنني لم أرَ اسمها، وما إن كنت على وشك أن أرمي هاتفي بسبب الغضب، وقع نظري على جهة اتصال مسماة «فتاة آسا»، ضغطت على الاسم، ضغطت مرارًا وتكرارًا لعلَّ الاتصال يتم بسرعةٍ أكبر.

وضعت الهاتف على أذني، وسمعته يرن، وفي الرنة الرابعة أجابت أخيرًا: «مرحبًا؟».

- سلوان!

- من هذا؟

- إنه لو... كارتر. هذا أنا كارتر.

تنهدت بثقلٍ عبر الهاتف، فقلت آملًا أن تنتظر قليلًا لتدرك أنني لا أطلبها لأعتذر منها مجدَّدًا: «لا، لا تغلقي. إنه يعرف، يعرف أنكِ ذهبتِ لتناول الغداء في شارع ريكر».

مضت بضع لحظاتٍ من السكون ولم تنطق بشيء، إلى أن سألت أخيرًا، بصوت ملؤه الألم: «هل أخبرته؟».

- لا، لا، لم أكن نهائيًّا لـــ... سمعت جون يقول شيئًا حول بحث آسا مع من ذهبتِ لتناول الغداء. إنه لا يعلم أنني أنا من كنتُ معكِ.

نظرتُ إلى الخلف لأتحقق من عدم وجود أحد، كان دالتون واقفًا قرب النافذة يراقبني، سألتني والخوف واضحٌ في صوتها: «ولكن... كيف له أن يعرف؟».

- ربما تعقَّب هاتفكِ. أين أنتِ؟

- لقد غادرت النادي الرياضي للتو، إنني على بعد خمس دقائق من المنزل. ماذا سأفعل يا كارتر؟ سوف يقتلني.

جعلني الخوف في صوتها أندم على كل لحظة من هذا اليوم، ما كان ينبغي قط أن أضعها في وضع كهذا.

- اسمعيني، ما يزال صندوق البيتزا على المقعد الخلفي في سيارتي، سأحرص على إبقاء آسا في الساحة الخلفية، عندما تصلين، خذي صندوق البيتزا وأحضريه معكِ إلى هناك، تصرفي وكأنكِ لا تُخفين شيئًا. أخبريه أنكِ شعرتِ بالجوع، لذا قصدتِ مطعمًا وطلبتِ البيتزا، وادعينا لتناول بعضها. إن ذكرتِ الموضوع قبله، فكل شيء سيكون على ما يرام.

قالت وهي تتنفَّس بصعوبة: «حسنًا. حسنًا».

- حسنًا.

مرت بضع لحظات من الصمت، وبدأ نبضي ينتظم، فقلت لها: «سلوان؟».

همست: «أجل».

- لن أدعه يؤذيكِ.

سكتت للحظةٍ، سمعتها تتنهد ثمَّ انتهت المكالمة. نظرت نحو الأسفل إلى هاتفي، ثمَّ تنهدت وتوجهت إلى المنزل.

عندما دخلت من الباب نظر إليَّ دالتون نظرةً فضولية، وسألني: «من كان هذا؟ فتاة صف الإسباني المثيرة؟».

- أجل. سأعود للساحة الخلفية، أتريد أن تساعدني بتهدئة آسا؟

مشى دالتون خلفي بخطوةٍ، وقال: «يبدو أنكَ أنت من يحتاج إلى تهدئة».

فتحت الباب، وكان آسا جالسًا على كرسي التمدد قرب المسبح، وهو يقرع بأصابعه على ركبتيه. جلست على المقعد المجاور له، وركلت قدميَّ إلى الخلف محاولًا الظهور بمظهر الهادئ قدر الإمكان، وبمقدار ما يتيح لي توتري. لا يهمني إن علم أنني أنا من كنت معها على الغداء، لا يهمني إن نفَّذ تهديده حقًّا، كل ما أهتم به هو ألا يمسَّ سلوان بأذى.

أبقينا أنا ودالتون آسا في الباحة الخلفية من خلال الحديث عن صفقةٍ قادمةٍ كان يرغب بعقدها، وبعد مرور القليل من الوقت سمعنا صوت سيارة سلوان وهي تركنها في المرآب، رأيت التوتر يتصاعد لدى آسا، وقد سكت في منتصف جملته، بدأ بمحاولة النهوض، وافترضت أنه على وشك الذهاب لملاقاتها في الباحة الأمامية، لذا حاولت فعل أي شيء يلزم لإلهائه، وقلت: «إذَنْ، ما الوضع مع هذه الفتاة؛ جيس؟».

استدار ناحيتي، وقال: «ماذا عنها؟».

- بدافع الفضول فقط، هل هي جيدة حقًّا كما ذكرت؟

حتَّى وإن كان اهتمامي بالأمر مجرَّد تظاهر فقد شعرت أنني سيئ للغاية.

ابتسم آسا، وما إن فتح فمه ليجيب حتَّى تأرجح الباب الخلفي، وخرجت منه سلوان وهي تحمل بين يديها صندوق بيتزا، شعرت بالغضب يتسرب إلى

آسا، حيث كوَّر يديه على شكل قبضتين. قالت سلوان وهي تمر من أمامنا: «مرحبًا يا رفاق. أيشعر أحدكم بالجوع؟ بقي لديَّ قليلٌ من البيتزا».

رفعت يدها بصندوق البيتزا، وأبقت ابتسامةً ملتصقةً على وجهها. قفز دالتون وتناول الصندوق من يدها، وقال وهو يأخذ قطعةً: «سحقًا، أجل».

مرر الصندوق إليَّ، فأخذت قطعة، ثمَّ ناولته لآسا في اللحظة التي جلست فيها سلوان بقربه على كرسي الحديقة، انحنت لتقبله، لكنه ابتعد، وسأل وهو يغلق الغطاء ليقرأ اسم المطعم: «من أين أحضرتِها؟».

هزَّت كتفيها، وتوخَّت الحذر بألا تنظر إلي، وأجابت: «من مطعمٍ إيطاليٍّ ما. لقد أُلغي واحد من صفوفي اليوم، وشعرت بالجوع، لذا أحضرت الغداء».

سألها وهو يضع العلبة على الأرض الأسمنتية قربه: «بمفردكِ؟».

ابتسمت وأجابت: «أجل. لقد سئمت من طعام الكلية».

مدت يدها إلى الصندوق وأخذت قطعة، وناولتها له، قائلةً: «تذوَّقها، إنها شهية فعلًا، لقد أحضرتها إلى المنزل لتتذوقها».

أخذ آسا القطعة من يدها ورمى بها في الصندوق، ثمَّ انحنى وأمسك يدها، وجرها نحوه. وقال وهو يسحبها إلى حضنه ويمسك مؤخرة رأسها ليقبلها: «تعالي إليَّ».

أبعدت ناظريَّ عنهما، كان عليَّ أن أبعدهما.

وقف آسا وكانت سلوان ما تزال متعلقةً به، أمكنني رؤيته بزاوية عيني وهو يرفعها ممسكًا بوركيها، ويقبِّل عنقها. مشى نحو المنزل، ورفعت نظري في اللحظة التي نظرت فيها سلوان إليَّ من فوق كتفيه. راقبتني بعينين متسعتين إلى أن أدخلها إلى المنزل وهو يحملها عبر الباب الخلفي، وغالبًا إلى سريره.

انحنيت في كرسيَّ، وتنهَّدت تنهُّدًا ثقيلًا، وأنا أمرر يدي عبر شعري. كيف يُتَوَقَّع منِّي أن أجلس هنا ببساطة، وأنا أعلم ما الذي يجري داخل هذا المنزل؟ قلت لدالتون: «أتمنَّى لو بإمكاننا القضاء عليه اليوم». فأجابني بفم ممتلئ بالبيتزا: «لا تعجبني طريقة نظرها إليك»، فنظرت إليه، وكان ما يزال يحدِّق إلى الباب الخلفي، وأضاف: «إنها مرتبكةٌ».

التقطت صندوق البيتزا، وأخذت قطعةً أخرى، وقلت: «أتشعر بالغيرة؟».

وضحكت محاولًا اصطناع اللا مبالاة حول تعليقه، وأضفت: «يمكنك دائمًا الحصول على جيس. سمعت أن جون أكثر كرمًا بكثير من آسا».

ضحك دالتون، وهز رأسه، قائلًا: «هؤلاء الأشخاص فاسقون للغاية».

ليس جميعهم.

أضاف دالتون: «أعتقد أنه يمكننا استغلالها»، فنظرت إليه، وشعرت أنه يدير الأمر في رأسه، فسألته: «كيف ذلك؟».

عدَّل جلسته في كرسيه، وأجاب: «إنها معجبةٌ بك. عليك أن تستغلَّ الأمر لصالحك. اقترب منها، إنها على الأرجح تعرف معلوماتٍ عن الأشخاص الذين يعمل معهم آسا أكثر بكثير ممَّا بمقدورنا اكتشافه من مواقعنا».

اللعنة، آخر ما كنت أريده هو أن أورطها بالأمر. قلت: «لا أعتقد أنها فكرةٌ سديدةٌ».

وقف دالتون، وقال: «هراء. إنه وضعٌ مثالي، هذه الفتاة هي باب الاختراق الذي نحتاجه لندخل عميقًا ونحلُّ القضية».

راح يطبع رقمًا على هاتفه، وهو يمشي نحو الباب الخلفيِّ.

استغلال امرأةٍ لحلِّ قضية ليس بالشيء الجلل بالنسبة إليه، فقد فعل ذلك تقريبًا في كل مهمة كُلِّفنا بها. إنه فقط شيء لا أستطيع أنا فعله، ولكن ربما لن يكون أمامي خيار آخر غير ذلك.

***



الفصل الثالث عشر

سلوان

قال آسا وهو يرميني بين الملاءات: «إن قلبك يدقُّ بسرعة».

بالطبع هو كذلك؛ فعلى الأرجح، تلك الدقائق التي لم أكن أعرف فيها بعد إن كانت كذبتي ستنجح أم لا، كانت أكثر خمس دقائق مخيفة في حياتي كلها، والفضل بنجاحها يعود لكارتر.

- لقد قبَّلتني طوال الطريق عبر المنزل، من المؤكد أنه يدقُّ بعنف.

انزلق آسا فوقي، وراح يقبِّل شفتيَّ بلطفٍ، مرر يده في شعري، واستمر بتقبيلي مارًّا بذقني فعنقي، إلى أن وصل إلى جذر حلقي، وتوقف ونظر إلى عيني، قائلًا: «أتحبينني يا سلوان؟».

جاء سؤاله هذا من العدم، وفاجأني، فابتلعت ريقي وأومأت بالإيجاب. رفع جسده مستندًا إلى راحتيه، وقال: «حسنًا إذَنْ، قوليها».

أجبرت نفسي على الابتسام ورفعت نظري إليه، وقلت: «إنني أحبك يا آسا».

حدَّق إليَّ للحظة، وكأنه يملك كاشف كذب داخليٍّ، وينتظر ليرى إن كنت سأتجاوز الاختبار. ثمَّ أرخى جسده ببطءٍ فوقي، ودفن رأسه في عنقي، وقال: «إنني أحبكِ أيضًا».

تدحرج إلى الجانب، ورفعني إليه، ثمَّ احتضنني وراح برقة يحرك يده بحركة دائرية على ظهري. لا يمكنني أن أتذكَّر آخر مرَّة لمسني في هذا السرير، دون أن تكون لمساته مرتبطة مباشرةً بممارسة الجنس. قبَّل جانب رأسي، وتنهد قائلًا: «لا تهجريني يا سلوان». وأضاف بحدة: «إياك أن تتركيني يومًا».

شلَّتني نظرته الحادة واليائسة في آنٍ معًا، فهززت رأسي وقلت: «لن أترككَ يا آسا».

مسح بعينيه كل شبرٍ من وجهي. مشاعري مضطربة وأنا مستلقية هنا بين يديه، أراه وهو يتطلع إليَّ بكل هذه الحماسة، لا أعرف إن كنت أشعر أنني محبوبة أم أشعر بالخوف. أعتقد أنه مزيج من الشعورين معًا.

قرَّب فمه من فمي، وقبلني بقوَّة، ثمَّ أقحم لسانه عميقًا في حلقي، وكأنه يحاول أن يحصل على كل جزء منِّي من الداخل إلى الخارج. لم تكن قبلاته تلك تحمل أي شيء من الحنان، وعندما أبعد فمه عن فمي راح يلهث ليتنفس. ارتكز على ركبتيه وخلع قميصه من فوق رأسه، وقال: «أخبريني مجدَّدًا». ومدَّ يده ونزع كل من بلوزتي وحمالة الثدي من فوق رأسي، وأضاف: «قولي لي إنك تحبينني يا سلوان، وإنكِ لن تهجريني يومًا».

همست: «أحبكَ، ولن أهجرك أبدًا». وفي قلبي كنت أصلِّي أن تكون العبارة الأخيرة قريبًا مجرَّد كذبة.

قرَّب فمه من فمي مجدَّدًا، ومرَّر يديه على معدتي نزولًا إلى أن وصل إلى بنطالي، راح يقبِّلني بكثير من الحماسة، بحيث واجهت صعوبةً في التقاط أنفاسي. حاول أن يُنزل بنطالي، ولكن بدا أنه لا يستطيع التوقف عن تقبيلي بما يكفي لإنزاله، أبعدت شفتي عن شفتيه وخلعت ملابسي. لقد أصبحت بالنسبة إليه كعاهرة.

إذ أليس هذا هو تعريف العاهرة؟ أليس العهر هو أن يتنازل أحدهم عن احترامه/ها لذاته/ها مقابل مكاسب شخصية؟ حتَّى وإن كانت مكاسبي غير شخصية، ولا تتعلَّق بي البتَّة، بل بأخي، فذلك لا يغير حقيقة أنني أمارس الجنس معه لقاء منفعة ما. والذي يجعلني تمامًا... عاهرة.

عاهرته.

ونظرة التملُّك التي أراها بعينيه تبيِّن أنه لن يسمح لي يومًا أن أكون أكثر من هذا.

الفصل الرابع عشر

كارتر

هناك القليل من الأشياء الأسوأ من إحساسي بالوقت. ما إن فتحت الباب الخلفي لأدخل إلى المنزل، حتَّى تناهت إلى مسمعي النخرة الأخيرة لآسا قادمةً من الطابق العلوي. توقَّفت في المطبخ، لست واثقًا حتَّى من سبب استماعي لما يفعله بها، فبمجرَّد التفكير بالأمر انقلبت معدتي، ولا سيَّما إن أخذتُ بالحسبان ما فعله بجيس قبل ما لا يتجاوز الساعتين.

أفقتُ من انغماسي بالأفكار على وقع خطوات في الأعلى، وصوت صفق باب المرحاض، ومشيت نحو البرَّاد. على الثَّلاجة ثمة لوح كتابة ممغنط قابل للمسح، وقد امتلأ بأرقام هواتف، تناولت قلمًا وضغطته على اللوح وشرعت بالكتابة. سمعت صوت خطوات تهبط الدرج، فأرجعت القلم إلى مكانه، واستدرت في اللحظة المناسبة لأرى آسا ينعطف عند الزاوية. قال: «مرحبًا».

كان حافي القدمين، والشيء الوحيد الذي يستر جسده هو بنطاله الجينز وبأزرار مفككة، وشعره فوضويٌّ، وثمة ابتسامة خسيسة على وجهه. سألته: «ما الأخبار؟».

انحنيت على البار وراقبته وهو يمشي نحو الخزانة لإحضار كيس من رقائق البطاطس، فتحه واستند إلى البار في الجهة المقابلة لي، وسألني: «كيف سار الأمر الليلة الماضية؟ لم تتح لي الفرصة لسؤالك».

- جيد. ولكنني كنت أتساءل: ماذا لو تمكَّنَّا من الوصول إلى مورِّده مباشرةً؟ ما من حاجة لوسيط بعد الآن، إن كنت فقط تحتاجه من أجل الترجمة.

دفع آسا رقاقة بطاطس أخرى إلى فمه، ثمَّ لعق أصابعه، وقال: «لماذا أحضرتك برأيك؟».

وضع كيس البطاطس جانبًا، ثمَّ استدار إلى حوض الجلي ليغسل يديه، وقال لي وهو يفرك يديه بالصابون: «اللعنة، طعم أصابعي كطعم فرج امرأة».

هذه واحدة من اللحظات القليلة في مسيرتي المهنية التي تمنيت فيها لو أنني اخترت مهنةً أخرى أقل سخفًا، مهنة أقل استنزافًا للعواطف، كان عليَّ أن أكون أستاذ شِعر. سألته: «منذ متى وأنت تواعد هذه الفتاة؟».

واحد من أسباب وجودي هنا هو البحث عن الأسرار، ولكن يبدو أن الأسئلة الوحيدة التي تثير اهتمامي وأرغب بمعرفة أجوبتها هي تلك المتعلقة بسلوان.

جفَّف آسا يديه باستخدام منشفة، وأحضر كيس البطاطس ثمَّ جلس إلى الطاولة، بينما بقيت في مكاني، وقال: «منذ مدة، سنتان ربما».

ملأ يده بالبطاطس وأفرغها في فمه، ثمَّ مسح راحته ببنطاله الجينز، قلت وأنا أخطو ببطء: «لا يبدو أنها توافق على ما تفعله. أتعتقد أنها يمكن أن تفضحك يومًا ما؟».

- بالطبع لا. أنا كل ما لديها، لا خيار أمامها سوى أن تتقبَّل ما أفعله.

أومأت وأمسكت حافة البار خلفي، لا أثق بكلمة تخرج من بين شفتيه، لذا فأنا آملُ حقًّا أن يكون واقع أنها لا أحد لها سواه مجرَّد كذبة أخرى من أكاذيبه.

- إنني أتأكد فقط. من الصعب عليَّ أن أثق بالناس، إن كنت تعلم ما أقصده.

ضيَّق آسا عينيه وانحنى إلى الأمام قائلًا: «إياك أن تثق بأحد يومًا يا كارتر. ولا سيَّما العاهرات».

قلت بتحدٍّ: «ظننت أنك ذكرت أن سلوان ليست بعاهرة».

أبقى عينيه مثبَّتتين بعينيَّ، بثبات وغضب، وللحظة شعرت بالقلق من أن يفعل بي ما فعله بجون في وقت سابق. ولكنه عوضًا عن ذلك أمسك ذقنه بيده وفرقع عنقه، ثمَّ أرجع ظهره إلى كرسيه مجدَّدًا. تلاشت ومضة الغضب من عينيه عند سماعه صوت وقع خطوت سلوان وهي تهبط السلالم. دخلت سلوان إلى المطبخ، وتوقَّفت في مكانها عندما رأتنا نحن الاثنان معًا.

أبعد آسا عينيه عنِّي ونظر إلى سلوان، ضحك ووقف ثمَّ شدَّها إليه، وقال ناظرًا من فوق كتفيها إليَّ: «على الآخرين أن يكسبوا ثقتي. سلوان استحقت ثقتي بها».

وضعت يديها على صدره ودفعته، لكنه لم يتركها، بل جلس حيث كان جالسًا من قبل وشدَّها إليه، بحيث جلست بين ساقيه وظهرها مسنود إلى صدره، ووجهها نحوي. لفَّ ذراعيه حول معدتها، وأراح ذقنه على كتفها، في حين أعاد تركيز نظره عليَّ، وقال: «إنك تعجبني يا كارتر. اهتماماتك محصورة بالعمل فقط».

أجبرت نفسي على افتعال نصف ابتسامة، في حين قبضت على البار بكل ما أوتيت من قوَّة محاولًا ألا أنظر في عينيها. لا يمكنني احتمال الخوف الذي أراه في عينيها كلما وضع يديه عليها، وقلت: «بالحديث عن العمل، سأعود خلال ساعتين من الآن، هناك بعض الأمور التي يجب عليَّ فعلها».

وقفت وتوجهت نحو الباب الأمامي متجاوزًا سلوان وآسا، وعندما فعلت ذلك رفعت نظرها إليَّ بنظرة توحي بالامتنان.

انحنى آسا وقبَّل عنقها، ثمَّ رفع إحدى يديه إلى صدرها، أغلقت عينها بشدَّة وتجهَّم وجهها، ثمَّ أدارت وجهها عني.

تابعتُ سيري، وتوجهت نحو الباب الأمامي، وأنا أشعر أنني مغلوب على أمري. عليَّ أن أذكِّر نفسي أنني هنا لسببٍ واحدٍ فقط لا غيره، وهي ليست هذا السبب.

***

راسلت دالتون قبل أن أخرج من المرأب، وأخبرته أنني ذاهب إلى القسم للقيام ببعض أعمال الكتابة، لكنني عوضًا عن ذلك شغّلت المحرك وبدأت بالقيادة، دون أن تكون لدي أدنى فكرة عن وجهتي. شغّلت الراديو وحاولت أن أبعد كل الأفكار الإجرامية التي تراودني عن آسا، ولكن كل أفكاري الأخرى تدور حول سلوان، وكل فكرة تخطر ببالي عن سلوان تعيدني بالضرورة إلى الأفكار الإجرامية حول آسا.

أدرك أن لديَّ واجبًا، وواجبي هو إنهاء المهمة التي أحصل على المال لقاء تنفيذها... والتي تقضي بالإمساك بأكبر حلقة متاجرة بالمخدرات في تاريخ الكليات. إذ تضاعفت مشكلة المخدرات في الجامعة المحلية عشرة أضعاف قدرها في السنوات الثلاث المنصرمة فقط. تدور الشائعات حول آسا وكونه المسبب الوحيد لهذا، آسا وكل من في دائرته، وهذا سبب وجودي أنا ودالتون هنا؛ تحديد اللاعبين الأساسيين. دالتون وأنا لسنا سوى جزء صغير من هذه العملية المدبَّرة بعناية، ولكننا الجزء الصغير الذي يشكِّل كُلًّا هائلًا، وكل عنصر من حلقتنا شديد الأهمية.

إن آسا يخرِّب حيوات لا يمكن إحصاؤها، وحياة سلوان ليست سوى واحدة منها، يمكنني إما أن أضع تركيزي على ما أنا هنا من أجله، وأساعد في الإيقاع به وبكل المتورطين في هذه العملية، والذي بدوره سينقذ حيوات الكثيرين... وإما أن أنقذ فتاة واحدة من حبيبها السيئ.

معرفتي أنه يجب عليَّ الفصل بين ما أنا هنا من أجله، وبين ما أرغب بفعله جعلت هذا الوضع يبدو مثل نظرية «باتون»؛ حيث يتحتم عليك أحيانًا أن تضحي بحياة القليلين لإنقاذ العدد الأكبر.

بدا وكأنني أضحِّي بحياة سلوان من أجل الآخرين الذين يعبث آسا بحيواتهم. ومجرَّد التفكير في ذلك يقتلني. وجدت نفسي أعيد التفكير فيما إن كنت سأتخلى عن إتمام هذه المهمة للمرَّة الثالثة خلال الأسبوع الأخير.

بعد ساعة من القيادة العشوائية، قررت أن أعود إلى منزل آسا. دالتون يقيم هناك معظم الوقت، لكنه أخبر آسا أنني أعيش في الكلية خلال محادثة أجرياها قبل شهرين. ولذلك، يجب عليَّ حقًّا أن أحصل على شقة في الكلية في حال قرر آسا يومًا ما أن يتحقَّق من أمري. إنني أقضي معظم وقتي في منزله،

فهناك سأتمكَّن في نهاية المطاف من تجميع أكبر قدر ممكن من المعلومات، وذلك إما من خلال الاحتكاك بـ «طاقمه»، وإما... من الممكن سلوان.

أعرف أن دالتون محقٌّ، أعرف أنه عليَّ استغلال سلوان من أجل مصلحة التحقيق، ولكن ذلك يعني أنه يتحتم عليها البقاء عالقةً في وضعها الحالي، وما أفضِّله أنا هو أن أدسَّ لها بعض النقود، وأجبرها على الهرب أبعد ما يمكنها عن آسا.

عندما اقتربت من الشارع الذي يسكن فيه آسا، وقعت عيناي على سلوان وهي تجلس على مقعد في حديقة، على بعد مربعين سكنين من بيتهما. تجلس وحيدةً مع دستة من الكتب الموضوعة أمامها على طاولة المتنزه. أبطأت السيارة، وركنت على جانب الطريق، ومسحت بعيني المنطقة لأتأكد من أنها وحيدةٌ.

جلست في سيارتي وراقبتها لبعض الوقت، أفكر بما يجب عليَّ فعله. لو كنتُ أذكى لكنت تابعت القيادة وأجبرت نفسي على تركيز تفكيري حيث يجب أن يكون. لو كنت أذكى، لم أكن لأغلق باب سيارتي، وأجهِّز نفسي لعبور الشارع.

لو كنتُ أذكى...



الفصل الخامس عشر

سلوان

لم يسبق لي في حياتي أن رأيت آسا يدرس، إنني أذاكر كل يوم، على الرغم من الأجواء المحيطة بي، والتي يمكن أن تكون مجنونةً بشدَّة، مثلما هي الآن، إذ اضطررت إلى مغادرة المنزل والمشي إلى المتنزه من أجل الحصول على السلام والهدوء.

كيف بحقِّ الجحيم يحصل على معدَّل وسطيٍّ بحدود 3.5؟ إن كان يدفع لأساتذته لقاء تلك العلامات فذلك ليس بالأمر المستغرب منه.

- مرحبًا.

أمسكت بمفاتيحي وبخَّاخ الفلفل معًا واستدرت ببطء، كان كارتر يمشي خلفي ويداه مدسوستان في جيبي بنطاله الجينز، لم يكن شعره الأسود مسرَّحًا، بل استرسل على جبهته ولامس عينيه.

توقف على بعد عدَّة أقدام مني، منتظرًا أن أعطيه الأذن لينضم إليَّ، لم يكن يبتسم لي هذه المرة، يبدو أنه قد فطن واستمع لرغبتي بألا يبتسم لي.

قلت على نحو قاطع: «مرحبًا»، وأعدت مفاتيحي إلى الطاولة، وسألته: «هل أرسلك آسا لاستدعائي؟».

مشى نحو مقعد الحديقة، وأرجح ساقه فوق حافة الجلوس ثمَّ جلس. ها هو قبالتي وجهًا لوجه ويداه ما تزالان في جيبيه. حدَّقت إلى دفتري ورفضت أن أرفع نظري إليه، فالإعجاب اللطيف الذي شعرت به نحوه في غرفة الصف، تحوَّل إلى ما كان يمكن أن يكون هراءً جديًّا بالمطلق بعد أن تناولت الغداء معه. يجب أن أحافظ على مسافة منه، لكن عندما أنظر إليه تختفي رغبتي في تلك المسافة.

- لقد كنت أقود سيارتي، ثمَّ رأيتك تجلسين هنا، ففكرت بالاطمئنان عليكِ.

أعدت تركيزي إلى الوظيفة التي أعمل عليها، وقلت: «إنني بخير».

شعرت أنه ربما عليَّ شكره لتنبيهي اليوم، فلو أنه لم يتصل بي، الله وحده يعلم كيف كانت ستنقلب الأمور، ولكن مجدَّدًا، قد يكون اتصاله بي نابعًا من خوفه على نفسه لا أكثر.

لكنني أعرف أن الأمر لم يكن كذلك، إذ شعرت بالاهتمام والقلق في صوته قبل أن أقطع الاتصال، لقد كان قلقًا عليَّ، لقد شعر بالخوف عليَّ، تمامًا كما شعرت بالخوف عليه.

سأل بتشكّك: «حقًّا؟ هل أنتِ فعلًا بخير؟».

حدقت إليه وفكرت «لا يمكنه أن يترك شيئًا على حاله، أليس كذلك؟». وضعتُ قلمي على الطاولة، والتفتُّ لأواجهه. إنه دائمًا ما يضغط عليَّ مطالبًا بالمزيد من الحقائق، يريد دائمًا أن يعرف ما الذي بحقِّ الجحيم أفكر به. إن كان هذا حقًّا ما يريده، فربما علينا أن ننتهي من الأمر هنا والآن. سحبت نفسًا عميقًا، وهيأت نفسي للإجابة على كل الأسئلة التي سألها يومًا، وحتَّى عن تلك التي لم يقترب من السؤال عنها بعد، وقلت: «أجل إنني بخير، لست على أحسن ما يرام، ولست بأسوأ حال، إنني بخير فقط. إنني بخير لأن ثمَّة سقفًا فوق رأسي، وحبيبًا يحبني، بعيدًا عن حقيقة أن خياراته خاطئة. هل أتمنَّى لو أنه كان شخصًا أفضل؟ أجل. لو أنني أملك الموارد اللازمة، هل كنت لأهجره؟ أجل، بالطبع. هل أتمنَّى لو لم يكن هناك الكثير ممَّا يحدث على نحو مستمر في منزلي، بحيث يمكنني أن أجد مكانًا هادئًا لأداء وظيفتي، أو، لا قدر الله، أن أحظى ببعض النوم؟ يا للنعيم، أجل. هل أتمنَّى لو بإمكاني التخرج

أسرع، والخروج من كل هذه الفوضى؟ أجل. هل أنا محرجةٌ من الطريقة التي يعاملني بها آسا؟ أجل. هل أتمنَّى لو أنك لم تكن جزءًا من هذا؟ أجل. هل أتمنَّى لو بإمكانك أن تكون الشاب الذي ظننتك عليه عندما التقيت بك للمرَّة الأولى في الصف؟ أجل. هل أتمنَّى لو بإمكانكَ إنقاذي؟ .....».

أطلقت تنهُّدًا قصيرًا مهزومًا، وأخفضت نظري إلى يديَّ، وهمست: «كثيرًا يا كارتر. إنني أتمنَّى وبشدَّة لو بإمكانكَ أن تنقذني من كل هذه الفوضى. ولكنك لا تستطيع. لم أختر هذه الحياة من أجلي، لو كان الأمر متعلقًا بي، وبي فقط، لكنت غادرت منذ زمن بعيد».

كيف يمكنه أن ينقذني من هذه الحياة؟ إنه جزء منها. إن هربت من آسا، ولجأت إلى ذراعي كارتر، سأكون قد انتقلت إلى نمط حياة مشابه تمامًا للذي أنا فيه الآن... ستختلف فقط الذراعان اللتان تمسكان بي. وكارتر لا يعرف أن السبب الوحيد لبقائي هنا لا يتعلق بي حتَّى، أو بالمشاعر التي سبق وشعرت بها نحو آسا. هززت رأسي بسبب هذا الوضع التعيس الذي نعيش به، وحاولت أن أحبس دموعي، بينما تابعت كلامي: «لقد هجرته مرةً، في البدايات، عندما اكتشفت الطريقة التي يجلب بها أمواله، لم يكن لدي مكان أقصده، لكنني هجرته لأنني علمت أنني أستحق أفضل من هذا».

توقَّفت للبحث عن الكلمات المناسبة، وعندما رفعت نظري إليه، كان أول ما لاحظته عليه هو القلق الحقيقي في عينيه. يا له من شعور غريب أن تضع ثقتك بشخص بالكاد تعرفه، في حين أن الشخص التي تشاركه سريره لا يمكنك الوثوق به.

- سبق وحظيتُ بشقيقين أصغر مني، توأمين. عند ولادتهما كان عمري سنتين فقط. كانت أمي مدمنة، لذا وُلِدَا يعانيان من مشكلات كثيرة، مات درو بعمر العشر سنوات، أما الآخر؛ ستيفن، فهو بحاجة لكثير من العناية، عناية لا يمكنني أن أزوِّده بها إن أردت أن أبني حياةً أفضل لكلينا. عندما بلغ السادسة عشرة، قُبِلَ أخيرًا في منشأة اجتماعية، حيث يمكنه أن يعيش ويحظى بالرعاية اللازمة على مدار أربع وعشرين ساعة باليوم، وبذلك يمكنني الذهاب إلى الكلية ومحاولة صنع حياة أفضل لنا. كانت الأمور تسير على خير ما يرام، لتبدأ بالتعقد بعد أسبوعين

من قراري الانفصال عن آسا، سحبت الحكومة تمويلها عن ستيفن، ولم يكن لدي مكان لإيوائنا، مكان يمكنه تقديم العناية اللازمة له، خياري الوحيد الآخر كان بدفع الرسوم من حسابي الخاص، والذي كان عبارة عن آلاف الدولارات في الشهر. لم أستطع توفير المال، ولكنني لم أُرِدْ له بتاتًا أن يُجبر على العودة إلى منزل والدتي، فالمكان هناك ليس آمنًا له. عندما أدركت الوضع الذي جررتُ كلينا إليه، لم أعرف إلى من أو أين سأتوجه، وحين ظهر آسا وهو يتوسل إليَّ لأعود إليه، ويعدني بأنه سيتكفل بدفع رسوم ستيفن لم أستطع الرفض، وانتقلت للعيش معه، والآن عليَّ أن أتظاهر بكونه كافيًا بالنسبة إليَّ، وتظاهرت بغض النظر عن الأشياء المريعة التي يفعلها، وبالمقابل فإنه يرسل كل شهر شيكًا بتكاليف العناية بستيفن. ولهذا ما أزال هنا يا كارتر، لأنني لا أملك خيارًا آخر.

حدَّق كارتر إليَّ وهو صامت تمامًا، وللحظة شعرت بالندم لأنني فتحت قلبي له على مصراعيه، إذ لم يسبق لي أن شاركت أحدًا آخر ما شاركته معه الآن. بقدر معرفتي أن آسا لا يستحقني، إلا أنني ما زلت أشعر بالعار لبقائي معه فقط لقاء المساعدة التي يقدمها لي، ومن المحرج بالنسبة إليَّ أن أعترف بهذه الحقيقة لأحد.

شعرت وكأن الغداء معه كان على بُعد عالم آخر من اللحظة الحالية، فقد عاينت الكثير من الأحداث في الوقت الممتد بين الصباح وبين هذه اللحظة. يبدو مختلفًا الآن؛ مخالف لكارتر اللعوب الذي رأيته في الفصل هذا الصباح، ومخالف لكارتر المعتذر الذي عرفته بعد غدائنا معًا اليوم.

يبدو الآن... لا أعرف... وكأنه شخصٌ مختلفٌ تمامًا، وكأنه كان يحاول التظاهر بكونه شخصًا آخر ليس هو، وها هو الآن للمرَّة الأولى ينظر إليَّ، وتظهر بنظراته حقيقته التي سبق وحاول إخفاءها.

نظر بعيدًا للحظة، ورأيت حركة حلقه وهو يبتلع ريقه، ثمَّ تكلَّم قائلًا: «إنني أحترم ما تفعلينه من أجل أخيكِ يا سلوان. ولكن ما الخير الذي ستقدمينه له إن انتهى بكِ الأمر ميتةً؟ هذا المنزل غير آمن لكِ. آسا ليس آمنًا لكِ».

تنهَّدتُ ومسحتُ دمعةً متمرِّدةً، وقلت: «إنني أفعل ما باستطاعتي يا كارتر. لا يمكنني أن أقلق حيال الاحتمالات وما يمكن أن يكون».

تابعت عيناه الدمعة المنحدرة على خدِّي، ثمَّ رفع يده إلى وجهي، ومسح دمعتي. على الرغم من كل الدموع التي بكيتها مع آسا، فإنه لم يمسح دموعي بيده ولو لمرَّة واحدة. أمسك كارتر بيدي، وقال: «تعالي إليَّ».

سحبني نحوه، وجرَّ جسده مقتربًا مني، نظرت إلى الأسفل إلى يده الممسكة بيدي، وحاولت أن أسحب يدي، فشدَّ قبضته على يدي، وأمسك مرفقي بيده الأخرى، وقرَّبني منه، هامسًا لي بهدوء: «تعالي».

لفَّني بذراعيه، وأمال رأسي على كتفه، وشدني إليه بقوَّة، محتضنًا رأسي بإحدى يديه، ثمَّ ضغط خده الدافئ على قمة رأسي، وضمني.

هذا كل ما فعله.

لم يقدِّم أعذارًا، لم يكذب ويدَّعي أن كل شيء سيكون على ما يرام، لأن كلانا يعرف أن ذلك غير صحيح. لم يقطع وعودًا لا يستطيع الوفاء بها كما يفعل آسا. اكتفى بأن احتضنني فقط، ولم يكن ذلك إلا بدافع الرغبة بمنحي بعض المواساة، وكانت هذه هي المرَّة الأولى التي أشعر فيها بهذا الشعور.

اقتربت منه أكثر، وأرحت رأسي على صدره وأنا أسمع صوت نبضات قلبه تدقُّ بسرعة داخل صدره، أغمضت عيني وحاولت أن أستدعي في خيالي ذكرى لمرَّة شعرت فيها في حياتي التعيسة البائسة أن ثمَّة من يعتني بي، لكنني لم أوفَّق لإيجاد لحظةٍ كهذه في ماضيَّ. لقد عشت حتَّى الآن عشرين سنة على هذه الأرض، وهذه هي المرَّة الأولى التي أشعر فيها أن ثمَّة من يهتم لأمري.

شددت قميصه بقبضتي، وحاولت أن أقترب منه أكثر، أردت أن أتكوَّر على نفسي داخله، وأن أستمتع بهذا الشعور إلى الأبد، أبعد رأسه ووضع شفتيه برقة على قمة رأسي.

بقينا متشابكين معًا، ممسكين واحدنا بالآخر وكأن مصير العالم يعتمد على هذا الحضن.

تبلَّل قميصه الرقيق بالدموع التي كانت تنحدر من عينيَّ إلى خدَّيّ. لا أعرف حتَّى لماذا أبكي، ربما لأنني، وحتَّى هذه اللحظة، لم أعرف يومًا معنى أن يقدر أحدهم قيمتك، معنى أن يحترمك أحدهم. حتَّى هذه اللحظة، لم تكن لديَّ أدنى فكرة عن الشعور الذي يعتريك عندما يعتني أحدهم بك.

لا ينبغي لأي أحد أن يختبر حياةً لا يشعر فيها بتاتًا أنه مُعتنًى به، ولا حتَّى من قِبَل أهله الذين أنجبوه، ورغم ذلك فقد اختبرت هذا النوع من الحياة لمدة عشرين سنة.

حتَّى هذه اللحظة.

***

الفصل السادس عشر

كارتر

أغلقتُ عينيَّ، وأنا أحتضنها، بينما كانت تبكي بهدوءٍ على صدري. احتضنتها إلى أن تحوَّل الغسق إلى ظلام، وابتلعت النجوم ما بقي من أضواء النهار.

احتضنتها إلى أن سمعت صوت سيارةٍ على وشك الانعطاف إلى الشارع، رفعت نظري لكن السيارة استدارت وعادت في الاتجاه المعاكس. ظلَّت تضغط نفسها على قميصي، ولكن فكرة أن يراني آسا أو حتَّى دالتون هنا معها الآن، سيطرت على تفكيري، وحجزت لنفسها الصف الأمامي في عقلي.

وجودي هنا وأنا أواسيها لن يفيد بشيءٍ سوى بزيادة مشكلاتها لا أكثر. إنَّها على حق؛ لا يمكنني إنقاذها، على الرغم من رغبتي العظيمة في ذلك، إلا أنَّ كلينا عالقٌ هنا. لا يمكنني المخاطرة بتخريب شيء أكبر منا نحن الاثنين، لا يمكنني التضحية بما أنا هنا من أجله في سبيل مساعدتها على الرحيل. هذا شيء يجب عليها أن تفعله بنفسها، وعندما تتمكن ماديًّا منه.

وكل لحظة أحتضنها فيها، كل مرَّة أمسك بيدها، كل مرَّة أجلس بقربها في الصف، كل مرَّة أشدُّها أكثر وأكثر إلى هذه اللحظات غير المؤذية، فإنني في

الحقيقة أدفعها أقرب وأقرب إلى حافة جرفٍ، وإن لم أتعلم كيف أبتعد عنها... سينتهي بي الأمر وأنا أشاهدها تهوي من على الحافة.

أبعدت يدي عنها وتراجعت إلى الخلف، ولكنها ظلت متعلقةً بقميصي، أمسكت يديها وسحبتهما بعيدًا عني، فرفعت رأسها ونظرت إليَّ، كانت عيناها حمراوين ومبللتين بقدر ما تمنيت فجأةً أن تكون شفتاها كذلك.

توقف عن التفكير بهذه الطريقة يا لوك.

وقفت، فأمسكت بقميصي لتعيدني إليها، والارتباك يكبر أكثر وأكثر في عينيها، همست لها: «دعيني».

أسقطت يديها إلى حجرها، وقطعت تواصلها البصريَّ معي، ثمَّ رفعت ساقيها على المقعد، واحتضنت ركبتيها، وراحت تبكي بين ذراعيها. الابتعاد عنها الآن سيتطلب كل ما أملكه من قوَّة.

قلت وأنا ابتعد: «أنتِ على حقٍّ يا سلوان، لا يمكنني إنقاذكِ».

استدرت ورحت أمشي نحو سيارتي، وأنا أشعر أن كل خطوة أصعب من سابقتها، لم أستدر عندما فتحت الباب، بل صعدت إلى السيارة وقُدتُ عائدًا إلى منزلها، دون أن ألتفت ولو لمرة واحدة إلى الخلف.

***

عندما دخلت من الباب الأمامي أدركت بناءً على حالة المنزل، والضجة القادمة من الباحة الخلفية، أن هذه الليلة ستكون ليلةً طويلةً.

مشيت في المنزل باتجاه الباحة الخلفية. رأيت بعض الأشخاص مبعثرين هنا وهناك، لم يرفع أحدٌ منهم بصره حتَّى عندما خرجت إليهم. ثمَّة أربع فتيات في حوض السباحة يؤدين عرضًا، اثنتان منهن تحملان الأخريين على أكتافهما، في حين تحاول الفتاتان في الأعلى أن توقع كل منهما الأخرى في الماء. أما جون ودالتون فواقفان قرب البركة، وكل منهما يحمل بيده زجاجة بيرة، ويشجع أيًّا كانت الفتاة التي راهن على فوزها.

رأيت آسا جالسًا على جانب الحوض، وقد دلَّى قدميه في الماء، لم يكن يحدِّق إلى الفتيات، بل يحدق إليَّ مباشرةً، بعينين قاسيتين متشككتين، أومأت له وكأنني لم أنتبه لتلك النظرة في عينيه.

رآني دالتون، ونادى باسمي: «كارتر!».

وراح يسير متعجِّلًا على جنب البركة، وهو يترنح، ويضحك طوال الوقت، وقد سكب نصف الزجاجة على الأرض. عندما وصل إليَّ طوَّق كتفي بذراعه، وانحنى إليَّ، قائلًا: «لا تقلق، فأنا لستُ منهارًا كما أبدو. هل حصلت على أي معلومات من سلوان؟».

ابتعدت قليلًا ونظرت بعينيه، قائلًا: «كيف علمت أنني كنت مع سلوان؟».

قهقه بخفَّة، وأجاب وهو يضغط على كتفي: «لم أكن أعلم، ولكن أحسنت صنعًا. إنك تعمل بسرعة، أعتقد أنها تعرف أكثر بكثير ممَّا نظن أنها تعرف».

هززت رأسي بالنفي، وقلت: «لا أعتقد أنها تعرف أي شيء. تركيزنا عليها سيكون مضيعةً لوقتنا».

نظرت من فوق كتفَيْ دالتون، ورأيت آسا يحدِّق إلينا، وبينما كنت ما أزال أنظر أخْرَجَ قدميه من بركة السباحة، ووقف، فقلت لدالتون: «إنه آتٍ إلى هنا».

رفع دالتون أحد حاجبيه، ثمَّ تراجع قليلًا، رافعًا زجاجة البيرة في الهواء، وضحك ودار حول نفسه، قائلًا: «أراهنكم على مئة دولار أنه يمكنني البقاء تحت الماء أكثر من أي أحد منكم أيها الملاعين!».

وافق جون على الفور على مراهنته، رميا زجاجتي البيرة جانبًا وغاصا في البركة.

مشا آسا باتجاهي، ثمَّ تجاوزني قاصدًا المنزل دون أن ينظر إلى عينيَّ ولو مرة. لا أعرف ما الذي أثار حفيظتي أكثر؛ حقيقة أنني متشكك في كل حركة يقوم بها، أم حقيقة أنه يبدو متشككًا فيَّ.

***

الفصل السابع عشر

سلوان

استغرق الأمر منّي نصف ساعةٍ بعد أن رحل كارتر لأستجمع رباطة جأشي بما يكفي، وأجمع أشيائي وأعود إلى المنزل. مرت عشر دقائق منذ أن وصلت إلى الحافة المظلمة لمرأب البيت، كنت أحدق إلى الرصيف، أتابع الممر الذي تعصف فيه الريح بعينيَّ، سيكون من السهل جدًّا أن أستمر بالمشي، ما من شيء أريده في هذا المنزل، ما من شيء سبق واحتجته حتًّى، يمكنني أن أستمر بالسير على الرصيف إلى أن أصبح بعيدة جدًّا ولا يمكنني العودة.

كم أتمنّى لو أن الأمر بالسهولة التي يبدو عليها، ولكن، مجدَّدًا... إنه لا يتوقف عليَّ فقط، ولا أحد سواي سيتمكن من تغيير أي شيء من هذا.

لا يمكن لكارتر أن ينقذني، وبالتأكيد، لن ينقذني آسا، يتحتم عليَّ أن أستمر بادِّخار المال إلى أن أتمكن من إنقاذ نفسي، وإحضار أخي ليعيش معي.

خطوت خطوةً على العشب باتجاه المنزل، ولكنني ترددت، فهذا المنزل هو آخر مكان أتمنَّى أن أكون فيه الآن. أريد العودة إلى المتنزه، وإلى المقعد وذراعَيْ كارتر، أريد ذلك الشعور مجدَّدًا، ولكنني أخجل من أن أعترف بأنني

أريد ما هو أكثر من ذلك أيضًا؛ أريد أن أعرف كيف يكون شعور أن يتم تقبيلي من قبل شخص يحترمني.

بمجرَّد أن خطرت الفكرة ببالي شعرت بالذنب على نحو شديد، فآسا، على حد علمي، مخلصٌ لي، كما أنه ينفق عليَّ، ويعتني بمتطلبات أخي الماديَّة، وهذه مسؤولية لا تقع على عاتقه حتَّى. إنه يفعل هذا لأنه يحبني، ويعرف أنني أريد أن أرى أخي سعيدًا، لا يمكنني أن أقلل من أهمية فعله، فهو أكثر ممَّا فعله أي أحد من أجلي في حياتي كلِّها.

رميت حقيبتي وما فيها من وظائف أنجزتها على المقعد الخلفي من سيارة آسا، ودخلت من الباب الأمامي. استمررت بالسير إلى أن وصلت إلى المطبخ، حيث سأفعل ما أفعله كل ليلة؛ أحضر شيئًا لآكله وشيئًا لأشربه وأصعد بهما إلى غرفتي، حيث أبقى هناك وحدي محاولةً أن أنام، في ظلِّ صوت الموسيقى والضحك، وأحيانًا الصرخات العابرة المكتومة، سأنام وآمل أن يمنحني آسا أربع ساعات من النوم الجيد قبل أن يوقظني مجدَّدًا.

ضبطتُ المايكروويف، وملأت كأسي بالثلج، ثمَّ أغلقت الثلاجة، وتوجَّهت لأفتح باب البرَّاد، عندما وقعت عيني على اللوح القابل للمسح، والكلمات المكتوبة عليه بخط يد مألوف، وانقطعت أنفاسي عندما قرأت «تتدفق المخاوف من شفتيها، مثل الكلمات العشوائية التي تتدفق من بين أناملها. أمدُّ يدي وأحاول أن أمسك تلك المخاوف، أن أقبض عليها بقبضتيَّ، وأنا لا أرغب بشيءٍ أكثر من الإمساك بها جميعها».

نظرت إلى كلماته المكتوبة بوضوح بمكانٍ حيث يمكن لأي أحد أن يقرأها، ولكنني علمت أنها موجهةٌ لي فقط. من الواضح أنه لعب اللعبة بطريقةٍ خاطئةٍ، إذ فكر حقيقةً بما يرغب في قوله قبل أن يكتبه هنا. غشَّاش.

مسحت الكلمات، ولكن ليس قبل أن أطبعها في عقلي، ثمَّ التقطت القلم وشرعت في الكتابة على اللوح.

***

الفصل الثامن عشر

آسا

يداي رطبتان بسبب العرق، لقد تعطَّل مكيِّف الهواء مجدَّدًا، والجو شديد الحر بما لا يسمح بالخروج، مررت راحتي المبللتين بالعرق على ذراعيَّ الكرسي المصنوعتين من الجلد، تاركًا خلفي علامات من العرق حيث مرت يداي.

أتساءل من أين يأتي العرق؟

أتساءل من أين يأتي الجلد؟

أخبرتني أمي أن الجلد يُصنع من الأبقار، ولكنني أعلم أنها كاذبة، لذا لا أصدِّقها. كيف يمكن أن يُصنع الجلد من الأبقار؟ لقد سبق لي أن لمست بقرةً من قبل، وكانت موبَّرة نوعًا ما، لا تبدو الأبقار بالنسبة إليَّ مشابهةً للجلد، إذ يبدو الجلد وكأنه مصنوع من الديناصورات لا الأبقار.

إنني أراهن على حقيقة أن الجلد صُنع من الديناصورات، لا أعرف لماذا تكذب أمي عليَّ دائمًا، كما أنها تكذب على أبي أيضًا. أعرف أنها تكذب عليه، لأنها عانت الكثير من المتاعب بسبب ذلك.

لطالما أخبرني أبي ألا أثق بالعاهرات، لا أعرف ما هي العاهرة، ولكنني أعرف أنها شيء يكرهه والدي. أحيانًا عندما يغضب من أمي يدعوها بالعاهرة،

ربما تكون كلمة «عاهرة» مرادفًا آخر لكلمة «كاذبة»، ولذلك يكره العاهرات كثيرًا.

أتمنَّى لو لم تكن أمي عاهرةً، أتمنَّى لو أنها تتوقف عن الكذب، ممَّا يجنِّبها الوقوع بالمتاعب كثيرًا، إذ لا يروق لي أن أراها تقع بالمتاعب، لكن أبي يقول إن هذا جيد لي، يقول إنني إن رغبت أن أكبر وأصبح رجلًا، يجب أن أعرف كيف تبدو المرأة عندما تبكي. يقول والدي إن دموع النساء تضعف الرجال، وكلما شاهدت دموعهن وأنا صغير، يقل احتمال أن تنطلي عليَّ أكاذيبهن عندما أكبر. أحيانًا عندما يضرب أمي لكونها عاهرة، يجعلني أشاهدها تبكي، وذلك برأيه مفيد لأنني سأكبر وأنا أعرف أن العاهرات يبكين، ولا ينبغي أن يزعجني هذا. لطالما قال لي: «لا تثق بأي أحد يا آسا. لا سيَّما العاهرات».

***

شددت الحزام الجلدي المعقود على ذراعي، وسحبته لتزداد قوَّة قبضه، ثمَّ صفعت جلدي. إنني أدرك الآن أن الجلد لم يُصنع من الديناصورات.

لم تكذب أمي بهذا الشأن على الأقل.

لا يحضر إلى ذاكرتي الشيء الكثير عن العراك الذي دار في غرفة نومهما تلك الليلة. لقد أصبح الصراخ حدثًا يوميًّا، لذا لم يكن جديدًا عليَّ، أما ما كان شديد الاختلاف في تلك الليلة فهو الصمت، لم يسبق أن عمَّ الهدوء المنزل هكذا. أتذكر أنني كنت مستلقيًا في السرير، أستمع إلى صوت أنفاسي، لأن المنزل خلا من كل الأصوات باستثناء تنفسي. لقد كرهت الهدوء. إنني أكره الهدوء.

لم يعرف أحد بما فعله بها إلا بعد مرور عدَّة أيام. لقد عثروا على جثتها ملفوفةً بملاءةٍ ملوثةٍ بالدم، ومدفونةٍ في الأرض تحت المنزل، ونصفها مغطًّى بالتراب. أعرف ذلك لأنني تسللت إلى الخارج ورأيتهم يسحبونها من تحت الأرض.

بعد أن اعتقلت الشرطة والدي، ساقوني إلى منزل عمتي، حيث عشت هناك إلى أن هربت من المنزل بعمر الرابعة عشرة. أعرف أنه في السجن بمكانٍ ما، ولكنني لم أبحث عنه يومًا. لم أرَ أو أسمع شيئًا عنه منذ تلك الليلة.

أعتقد أنك أيضًا لا يجب أن تثق بالرجال الذين يتزوجون العاهرات.

أدخلت رأس الحقنة في ذراعي وضغطتها قليلًا، ما إن ثقبت بشرتي، حتَّى أطلت العملية قدر استطاعتي، فالإدخال الأولي والوخز هما الجزء المفضل بالنسبة إليَّ.

ضغطت إبهامي على مكبس الحقنة، وأنا أشعر بالحرق الدافئ يسير من مكان الإدخال نزولًا نحو رسغي، وصعودًا ليصل إلى كتفي.

سحبت الحقنة من يدي، ورميتها على الأرض، ثمَّ حللت الحزام الجلدي وتركته يسقط ويلحق بالحقنة. رفعت يدي إلى صدري وأمسكتها باليد الأخرى وأنا أرجع رأسي لأسنده إلى الحائط. أغلقت عينيَّ وابتسمت، ممتنًا لأنني لم أنتهِ كعاهرة مثل أمي.

تفكيري اليوم باحتمال أن تكون سلوان برفقة شاب آخر، جعل سبب كره والدي للعاهرات واضحًا لي بشدَّة. لا أظن أنني قد فهمته حقًا حتَّى تلك اللحظة، عندما شعرت أن الكره الذي شعرته تجاه سلوان هو ذاته ما شعره أبي تجاه والدتي.

إنني سعيد للغاية لأن سلوان ليست عاهرة.

تركت يدي تسقط بارتخاء فوق الملاءات.

اللعنة، هذا شعورٌ جيدٌ جدًا.

سمعت صوت وقع خطوات سلوان وهي تصعد السلالم.

ستغضب لأنني أفعل هذا في غرفة نومنا. إنها تعتقد أنني ببساطة أبيع المخدرات دون أن أختبرها حقيقةً.

بعد ما وضعتني به اليوم، من الأفضل لها ألا تقول كلمةً لعينةً عن هذا عندما تدخل إلى غرفة النوم.

اللعنة... هذا جيد جدًا.

***

الفصل التاسع عشر

كارتر

عادت إلى المنزل قبل عشر دقائق، أدركت ذلك برؤيتي لضوء المطبخ يضيء.

كنت أجلس قرب المسبح مع جون ودالتون وشاب ما يُدعى كفين. كانوا منهمكين بمشاهدة بث حي لمباراة بوكر على شاشة حاسوب محمول سبق ووضعه كفين على الطاولة. من الواضح أنهم، وبطريقة ما، قد وضعوا رهانًا على هذه اللعبة.

إنني على علم بأن دالتون يسجل الملاحظات في عقله، ويتابع المحادثات باهتمام، وكأنه يتابع مباراة بينغ بونغ، لذا تركت الأمر له، فدماغي منهكٌ ولا قدرة له على تتبع المحادثات بدقةٍ بعد أحداث اليوم، بالإضافة إلى انشغالي بالقلق حيال مكان اختفاء آسا، وما الذي تفعله سلوان الآن.

نظري مثبَّت على المنزل، ها أنا أراقب النوافذ متابعًا حركتها داخل المطبخ، وهي تعدُّ لنفسها شيئًا تأكله. ما إن بدا لي وكأنها غادرت المطبخ إلى الطابق العلوي انتهزت الفرصة لأحظى بمتنفس لنفسي، أحتاج أن ألملم شتات نفسي، أن أعيد تركيزي إلى المحادثات الجارية حولي، ولأفعل ذلك

يجب أن أختلي بنفسي لبضع دقائق. بعض الأشخاص يعيدون شحن طاقتهم من خلال طاقة الأشخاص المحيطين بهم.

أنا لست من أصحاب هذا الطبع.

قرأت يومًا أن الفرق بين الشخص المنفتح والمنطوي لا يُحدَّد بكيفية تصرفك في أثناء وجودك ضمن مجموعة، بل فيما إن كان وجودك في مجموعة يعطيك طاقةً، أم يستنزف طاقتك. يمكن أن يبدو الشخص الانطوائي منفتحًا ظاهريًا، والعكس صحيح، ولكن الأمر كله عائد إلى طريقة تأثير هذه التفاعلات عليك داخليًا.

إنني بالتأكيد شخصٌ انطوائيٌّ، إذ إن الناس يستنزفون طاقتي، والآن أشعر أنني بحاجة للبقاء وحيدًا كي أعيد شحن نفسي.

سألت دالتون: «أترغب في زجاجة بيرة؟».

هز رأسه، فوقفت واتجهت إلى الداخل قاصدًا المطبخ. لم أرغب أصلًا في البيرة، بل رغبتي كانت محصورة في الصمت فقط. كيف تستطيع سلوان أن تعيش في حالةٍ كهذه يوميًا، وتستمر بأداء وظائفها على نحو لا يُصَدَّق!

دخلت عبر الباب الخلفي، وكان أول ما استحوذ على نظري في المطبخ هو الجملة الجديدة المكتوبة على اللوح، اقتربت خطوةً وقرأت «أرخى قبضته وأوقع مخاوفها، غير قادر على الإمساك بها من أجلها. لكنها التقطت مخاوفها مجدَّدًا ونفضتها. إنها تريد أن تكون قادرةً على القبض عليها بنفسها».

قرأت الكتابة مرارًا وتكرارًا، إلى أن صُفِقَ باب غرفة النوم في الطابق العلوي موقظًا إيَّاي من الشرود. ابتعدتُ خطوةً عن الثلاجة، في اللحظة التي دخلت فيها سلوان من زاوية المطبخ. توقَّفت فجأةً عندما رأتني، رفعت يديها بسرعة إلى وجهها ومسحت دموعها، رأيتها تنقل بصرها بين كلماتها المكتوبة على البرَّاد وبيني.

وقفنا نحن الاثنان بصمت، على بعد خطوتين واحدنا من الآخر. كانت عيناها متسعتَيْن وصدرها يعلو ويهبط بتثاقل مع كل نفس.

ثلاث ثوانٍ.

خمس ثوانٍ.

عشر ثوانٍ.

فقدت القدرة على إحصاء الوقت الذي مَرَّ ونحن نحدِّق إلى بعضنا فقط، دون أن تعرف هي أو أنا ما الذي نفعله بشأن هذا الحبل غير المرئي الذي يربطنا معًا، يجذبنا ويسحبنا واحدنا للآخر بقوَّة تفوق قوَّة إرادتنا.

شهقت وأراحت يديها على وركيها، بينما أسقطت نظرها إلى الأرض، وهمست: «إنني أكرهه يا كارتر».

يمكنني، ومن خلال الألم في صوتها، أن أدرك أن ثمَّة شيئًا حدث في الطابق العلوي، رفعت نظري إلى السقف حيث توجد غرفتهما فوقي، متسائلًا ما الذي يمكن أن يكون قد حصل. عندما أعدت نظري إليها كانت تحدِّق إليَّ، وقالت: «لقد أغمي عليه. إنه يتعاطى مجدَّدًا».

لم يكن ينبغي أن أشعر بالراحة لأنه قد أغمي عليه، لكنني شعرت بذلك.

- مجدَّدًا؟

مشت خطوتين باتجاهي، ثمَّ أسندت ظهرها إلى البار، وعقدت ذراعيها معًا. مسحت دمعةً أخرى انحدرت من عينيها، وشرعت بالكلام: «إنه ...».

أخرجت زفيرًا، وفهمت أنه من الصعب عليها أن تتحدث بالأمر، مشيت نحوها ووقفتُ بقربها، فتابعت: «إنه يُصاب بالريبة. بدأ يشعر أنه على وشك أن يُقبَض عليه، وازداد الضغط كثيرًا بالنسبة إليه. إنه يعتقد أنني لا ألاحظ مثل هذه الأمور، ولكنني ألاحظها. ولذلك عاد للتعاطي، وعندما يحدث هذا فإن الأمور... الأمور تصبح سيئة بالنسبة إلينا جميعًا».

إنني أصارع نفسي في هذه اللحظة؛ جزء منِّي يريد أن يواسيها، وجزء آخر يريد أن يضغط عليها بأنانية للإدلاء بمعلومات أكثر.

- جميعنا؟

أومأت وأجابت: «أنا وجون، والشباب الذين يعملون لصالحه». ثمَّ أمالت رأسها نحوي، وأضافت: «أنتَ».

قالت هذه الكلمة الأخيرة بمرارةٍ مضاعفةٍ، وضغطت أسنانها العليا على شفتها السفلى وهي تنظر إلى الاتجاه الآخر، ظللت أحدِّق إليها، كانت يداها مضمومتين داخل أكمام بلوزتها، وهي تحضن نفسها وتشُدُّ على جسدها

أكثر وأكثر. لم تعد تبكي الآن، بل تملّكها الغضب، ولست متأكدًا ممًّا إن كانت غاضبة من آسا، أم مني.

نظرت مجدَّدًا نحو الكلمات المكتوبة على اللوح «أرخى قبضته وأوقع مخاوفها، غير قادرٍ على الإمساك بها من أجلها. لكنها التقطت مخاوفها مجدَّدًا ونفضتها. إنها تريد أن تكون قادرة على القبض عليها بنفسها».

أصبح المعنى أوضح بقراءتي لكلماتها، ورؤيتي لها في هذه اللحظة؛ كنت قلقًا عليها طوال الوقت، معتقدًا أن دماغها قد غُسل، وأنها لا تعرف أي نوع من الأشخاص يكون آسا، وأخبرتها: «لقد كنتُ مخطئًا بشأنك».

نظرت إليَّ مجدَّدًا، وهذه المرَّة كانت شفتاها مضمومتَيْن معًا، والفضول قد عقد حاجبيها معًا، فأوضحت لها: «لقد ظننت أنكِ بحاجة للحماية. ظننت أنكِ ربما تكونين ساذجة عندما يتعلق الأمر بآسا. ولكنكِ لستِ كذلك. إنكِ تعرفينه أكثر ممًّا قد يعرفه أي شخص. لقد ظننت أنه يستغلك... ولكنكِ أنتِ من تستغلينه».

تصلَّب فكُّها عندما سمعت كلماتي، وقالت وهي تكز على أسنانها: «أنا أستغله؟».

أومأتُ، فتحول فضولها إلى غضب وهي تضيِّق عينيها وتقول: «لقد كنت مخطئةً بشأنكِ أيضًا. ظننتكَ مختلفًا، ولكنكَ وغد مثل بقيتهم». واستدارت لتبتعد، لكنني أمسكتها من مرفقها، وسحبتها نحوي، لتشهق وأنا أديرها وأمسكها من ساعديها، قائلًا: «لم أُنْهِ كلامي بعد».

ملأت الصدمة عينيها، فأرخيت قبضتي على ساعديها، ورحت أمرر إبهامي عليها برفق صعودًا وهبوطًا، آملًا بالتخفيف من حدة غضبها، وسألتها: «هل تحبينه؟».

تنفَّسَت ببطء، لكنها لم تحر جوابًا، فقلت مجيبًا عوضًا عنها: «لا. أنتِ لا تحبينه. بل على الأرجح اعتدتِ في وقت سابق أن تحبيه، ولكن الشيء الوحيد الذي يعوِّل عليه الحب ليستمر هو الاحترام، وأنتِ لم تحصلي عليه منه».

بقيت صامتة بانتظار أن أكمل توضيح وجهة نظري، فتابعتُ: «أنتِ لا تحبينه، أنتِ ما زلت هنا ليس لأنكِ ضعيفة جدًّا لترحلي، بل لأنكِ قوية جدًّا

لتفعلي ذلك. إنكِ تحتملين هذا الهراء لأنك تعلمين أن الأمر لا يتعلق بكِ، ولا يتعلق بسلامتكِ أنتِ، إنكِ تفعلين هذا من أجل أخيكِ. كل شيء تفعلينه، تفعلينه من أجل الآخرين. لا يملك الناس جميعًا هذا النوع من الشجاعة والقوَّة يا سلوان. إنه لأمرٌ مدهشٌ فعلًا».

تباعدت شفتاها، وأدخلت دفعة هواء إلى رئتيها. بناءً على رَدِّ فعلها يمكنني القول إنها غير معتادة على تلقِّي الإطراء، وهذا أمر محزن. قلت لها: «أعتذر لأنني قلت تلك الأشياء عنكِ في المطعم. أنتِ لستِ ضعيفة، أنتِ لستِ خانعة لآسا، أنتِ ...».

تطايرت دمعة من عينها اليسرى، وشقت طريقها نزولًا فوق خدها، رفعتُ يدي عن ذراعها، ووضعتُها على خدها لتسقط دمعتها على إبهامي، ولم أمسحها عنه، في الواقع إن كان ثمَّة ما أرغب به فهو أن أضع تلك الدمعة في زجاجة وأحتفظ بها. هذه على الأرجح أول دمعة تسقط من عينيها نتيجة تأثرها بمديحٍ لا بإهانةٍ.

سألتني بصوت ملؤه الرقة والأمل: «أنا ماذا؟».

رفعت نظرها إليَّ، وهي تريد، وتحتاج منِّي أن أنهي جملتي. أنزلت بصري إلى شفتيها، وانقبض صدري من تفكيري بطعم شفتيها، وكيف يمكن أن يكون شعوري بهما وهما تمُرَّان على شفتيَّ. ابتلعت ريقي بصعوبة، وأكملت جملتي التي أعرف تمامًا أنها بحاجة لتسمعها: «أنتِ واحدة من أقوى الأشخاص الذين قابلتهم في حياتي. أنتِ كل شيء لا يستحقه آسا، و ...».

اقتربت منها خطوة، ورفعت رأسها بينما انحنيت نحوها، وهمستُ: «وكل شيء أريده».

تنهَّدت برقةٍ، وكنا قريبين جدًّا بحيث تمكنت من الشعور بأنفاسها على شفتيَّ، كنا قريبين جدًّا لدرجة أنني تمكنت حقيقةً من تذوُّقها. مررت يدي بشعرها لأسحبها إليَّ، ولكن في اللحظة التي كادت فيها شفتانا أن تلتقيا، فُتح باب المطبخ الخلفي. ابتعدنا عن بعضنا، وأدار كل واحد منا وجهه بالاتجاه المعاكس للآخر، فتحت البرَّاد في لحظة دخول جون إلى المطبخ،

أشحت بنظري عنه، ولكن ليس قبل أن ألاحظ نظرة المعرفة التي رمقني بها، نظرة الاتهام.

اللعنة.

سمعت صوت تحرُّك مفصلة خزانة خلفي بفعل فتح سلوان لها، ومددتُ يدي إلى داخل البرَّاد وسألت جون وأنا أناوله زجاجةً: «أتريد بيرة؟».

مشى نحوي خطوتين متعمِّدًا التحرُّك ببطء، وهو يثبِّت عينيه بعيني بقوَّة، وأخذ الزجاجة من يدي، ونظر ورائي إلى سلوان، وهو يفتح غطاء الزجاجة، وقال: «ما الذي قاطعتُهُ للتو؟».

انتظرت لأرى إن كانت سلوان ترغب بالإجابة، لكنها لم تقل شيئًا، بل ساد صمتٌ طويلٌ مربكٌ. أخذت زجاجةً أخرى من الثلاجة، ثمَّ أغلقت بابها، وأنا أنظر باتجاه سلوان، كانت تدير ظهرها لكلينا وهي تملأ لنفسها كوب ماءٍ من الصنبور.

كان يمكنني التصرُّف وكأن جون يبالغ، كان يمكنني التظاهر بالبراءة، ولكنني أدركت أنه قد علم الكثير بالفعل، أعرف كيف بدا الأمر عند دخوله المطبخ؛ استدار كل منا باتجاه معاكس للآخر، تباعدنا، وبدونا مذنبين.

جون لا يعرفني، فكل ما يعرفه عنِّي محصورٌ باعتقاده أنني مثله، لذا فإن ظنَّ أنني لا أبالي بالعواقب ذلك على الأرجح سيكسبني احترامه أكثر ممَّا إن حاولت التظاهر بالبراءة. جَعْلُه يعتقد أنني أفكر بسلوان وكأنها فقط مجرَّد «عاهرة» كما قد يقول آسا، سيكون أفضل من وجهة نظره من حقيقة أنني لا أعتبرها كذلك.

أعدت نظري إلى جون واصطنعت ابتسامةً وأنا أمشي نحوه، وقلت له: «لا ترغب بأن تعرف».

غمزت له بعيني وأنا أتجاوزه، فاتحًا أمامه الطريق ليفكر بأي شيءٍ يريده.

مشيت بثقة إلى الخارج، وما إن أُغلِق الباب خلفي، ضغطتُ يديَّ على الجدار، وأخرجت زفيرًا قويًّا.

أستطيع أن أشعر بتأثير كل ما حدث في كل جزء مني؛ اندفاع الدم إلى رأسي، بينما رئتاي تسترجعان كل الهواء الذي أخذته منِّي سلوان في ذلك

المطبخ، أو الأصح، الهواء الذي أخذته من لوك، لأنني كنت لوك بكل جوارحي وكامل وجداني هناك، أسحبها نحوي وأرغب بملامسة شفتيَّ لشفتيها، وهذه الرغبات لا صلة لها بسبب وجودي هنا.

وقد حصلت على ما أستحقُّه تمامًا لسماحي بحدوث ذلك، جون يعلم أنه قد قاطع شيئًا ما بدخوله، والآن عليَّ أن أعرف كيف أُصلح الأمر قبل أن يعرف آسا.

اللعنة لقد أصبح الأمر حقيقيًا جدًّا.

***

الفصل العشرون

سلوان

كانت يداي ترتعشان وأنا أرشف الماء، أعرف أن جون ما زال في المطبخ، واقفًا في مكان ما خلفي، ولكنني لا أرغب بالاستدارة. إنه يشعرني بالقرف تقريبًا بنفس درجة آسا، وأعرف أنه يعتقد أن رؤيته شيئًا يحدث بيني وبين كارتر تعطيه الأفضلية. إنني أعلم كيف يفكر، فأنا لست غبية.

وضعت الكوب من يدي ونظرت خلفي، كان جون مستندًا إلى الثلاجة، يحدِّق إلى الكلمات التي كتبتها، رفع يده وراح يتابع الكلمات مستخدمًا إصبع السبابة، ثمَّ مرَّر إصبعه على الكلمات ماسحًا إياها، وقال وهو يعيد نظره إليَّ: «ما الذي بحقٍّ الجحيم تعنيه هذه الكلمات؟».

أصبحت الآن أمامه وجهًا لوجه، وقد عقدت ذراعيَّ فوق صدري. أكره كيف تتفحَّص عيناه جسدي، أكره كيف ينظر إليَّ؛ وكأنني الشيء الوحيد الذي لا يمكنه الحصول عليه. الآن فقط، وهو يعتقد أن كارتر كاد أن يحصل عليَّ، بدوت على نحو ما أسهل بالنسبة إليه.

بدا وكأن قلبي قد صعد إلى حلقي، يمكنني الشعور بنبضاتي تقرع عنقي حين خطا جون باتجاهي، وسألني وعيناه تطوفان على صدري عوضًا عن وجهي: «أين آسا؟».

- في غرفة نومنا.

أردته أن يعرف أن آسا هنا في المنزل، لم أذكر أمامه أنه قد أغمي عليه، وأنه على الأرجح لن يستيقظ قبل عدَّة ساعات.

من المضحك كيف تسير الأمور أحيانًا؛ إنني أخشى آسا أكثر من أي أحد آخر، ولكنه في الآن ذاته مصدر الحماية الوحيد بالنسبة إليَّ في وجه الأشخاص في هذا المنزل.

حدَّق جون إلى السقف، وسألني: «أهو نائم؟».

- لا، لقد نزلت لأعدَّ له شيئًا يشربه.

يمكنني أن أرى في عينيه عدم تصديقه لي، إنه يعلم أنني أحاول فقط حماية نفسي، تقدَّم خطوةً أخرى إلى أن أصبح أمامي تمامًا. تغيَّر شيءٌ ما في تعابير وجهه، وتمكَّنت من رؤية نظرة الخبث في عينيه، نظرة الحقد. فتحت فمي لأصرخ، أردت أن أصيح لكارتر كي يعود إلى الداخل، أردت أن أصيح لآسا كي ينزل إلى الطابق السفلي، لكنني لم أستطع، لأن يد جون قد أمسكت بحلقي، وخنقت صوتي.

سألني وهو يحدِّق إليَّ، ويشد من قبضة يده أكثر: «أتريدين أن تعرفي ما الذي سئمت منه؟».

عيناي متسعتان، لكنني لا أستطيع أن أومئ أو أهُزَّ رأسي، أمسكت بيده المشدودة على عنقي وأنا أحاول أن أبعدها عني، بينما قال: «لقد سئمت من أن آسا يستطيع الحصول على كل ما يريده، ولا يدعني أحصل على شيء».

أغلقت عيني بقوَّة. سيدخل أحدهم قريبًا، كارتر، أو دالتون، أحدهم سيوقف هذا.

ما إن عبرت هذه الفكرة برأسي، حتَّى فُتح الباب الخلفي، وغمرني الارتياح، فتحت عينيَّ، واستدار جون إلى الخلف وهو ما يزال ممسكًا بعنقي. التقت عيناي المفتوحتان على اتساعهما بعينيَّ كفين، توقف في المدخل، وهو يحدِّق إلينا. بالكاد أعرفه لأنه لا يظهر كثيرًا في المنزل، ولكن ذلك لا يهم. إنه هنا، وقد قبِضَ على جون للتَّوِّ، سيكون مجبرًا على إطلاق سراحي.

زمجر جون في وجه كفين: «اخرُج من هنا».

فحص كفين المشهد أمامه بنظرة عامة: جون يضغط عليَّ، إحدى يديه ملتفَّة حول وركيَّ، والأخرى تقبض على عنقي، والخوف يصرخ في عينيَّ. حاولت أن أهُزَّ رأسي لأتوسَّل لكفين بصمت ألا يرحل، لكنه قرأ الوضع على نحو خاطئ، عرفت ذلك من ضحكته، أو... ربما لم يخطئ، ربما هو ببساطة لا يهتم، ربما هو مجرَّد معتوه آخر مثل جون. رفع كفين يديه وقال: «أعتذر يا رجل».

وخطا عائدًا إلى الخارج.

ما هذا بحقِّ الجحيم؟

أدارني جون ودفعني خارج المطبخ، باتجاه غرفة المعيشة، حاولت أن أصرخ، ولكن صوتي لم يطاوعني، حيث إن يده ما تزال تقبض على حلقي.

غرفة المعيشة مظلمة وفارغة، وأنا أحاول أن أفلت من قبضته، ولكنني أصبح أضعف وأضعف مع كل نَفَس يحرمني من إدخاله إلى رئتيَّ، يمكنني الشعور بنوبة الهلع تتصاعد في داخلي، لكنني أجبرها على العودة من حيث جاءت، إذ لا يمكنني أن أفقد السيطرة على نفسي الآن.

دفعني على الكنبة، وما إن أرخى قبضته عن عنقي حتَّى شهقت وشهقت لأدخل الهواء إلى رئتيَّ، وأنا أسعل وأبصق إلى أن ملأتهما بكمِّية من الهواء تكفي لأصرخ، ولكن قبل أن أتمكَّن من ذلك، شعرت بشيء بارد على عنقي، شيء حاد.

أوه، يا إلهي!

أغلقت عينيَّ بشدَّة ما إن بدأت يد جون الأخرى بإبعاد رُكبتيَّ عن بعضهما، لم يسبق لي في حياتي كلها أن شعرت بالرعب مثلما أشعر الآن، سبق أن وُضِعتُ في مواقف خطيرة من قبل، وعادةً بين يدي آسا، ولكن لم يسبق أن شعرت بالخوف على حياتي بين يدي آسا.

جون مختلفٌ؛ قد يؤذيني لمجرَّد أن يعاقب آسا.

مرَّر يده صعودًا على فخذيَّ، وصولًا إلى ما بين ساقيَّ، يمكنني الشعور بارتعاش ساقيَّ نتيجة الخوف الذي سيطر على جسدي بالكامل. قرب فمه من أذني وقال: «يعتقد آسا أن حبيبات الآخرين كلهنَّ طوع رغباته، ولكنه الوحيد

الذي سيحصل على قطعة من هذا! إنه مدين لي ببعض الخدمات يا سلوان، وأريدك أن تسدِّدي شيئًا من الدين الآن».

خرجت الكلمات من فمي مخنوقةً: «جون. أرجوك توقف، أرجوك».

قرَّب فمه من فمي، وقال: «قولي رجاءً مرَّة أخرى».

توسَّلت إليه مرَّة أخرى: «أرجوك».

- أحبُّ عندما تتوسلين لي.

ضغط فمه على فمي، وفي الحال شعرت بالرغبة بالتقيُّؤ تتصاعد عبر حلقي، ما من شيء لطيف في فمه، وهو يحشر لسانه بالقوَّة بين شفتيَّ، كلما قاومت أكثر لتحرير نفسي منه، ازداد ضغطه للسكين على عنقي. في ظل الخوف الشديد والمقاومة اللذين كنت في خضمهما، استطعت أن أسمع، بطريقة ما، صوت طقَّة مسدس.

تجمَّد جون فوقي، وعندما فتحت عينيَّ رأيت مقدمة مسدس معدنية مصوَّبة عن قرب إلى جمجمته. وقال كارتر: «ابتعد عنها عليك اللعنة».

أوه يا إلهي، شكرًا لك يا كارتر، شكرًا لك، شكرًا لك.

أبعد جون يده بهدوء عن حلقي، ووضعها على ظهر الكنبة، وقال لكارتر: «سوف تندم على هذا».

رفعت نظري إلى كارتر، ورأيت في عينيه، وهو يحدق إلى جون، شيئًا لم يسبق لي أن رأيته فيهما. وقال له بصوتٍ ثابتٍ: «أنت مخطئٌ. الشيء الوحيد الذي سأندم عليه هو عدم إطلاقي للرصاص على رأسك قبل ثلاث ثوانٍ من الآن».

ابتلع جون ريقه، وبدأ بالابتعاد عنِّي بهدوء، لم يبعد كارتر المسدس عن رأسه ولو للحظة، بينما هو يعدل وضعيته إلى وضعية الجلوس، نقل كارتر المسدس إلى جبين جون، وحدق إليه، قائلًا: «اعتذر منها».

لم يضِع جون لحظةً واحدةً، وبالحال قال لي بصوت مرتعش: «أنا آسف».

سحبتُ ساقيَّ بعيدًا عنه، وتهافتت لأنزلهما عن الكنبة. قفزت مبتعدةً عن الكنبة لألتجئ إلى كارتر وأقف خلف ظهره، ثمَّ رفعت يدي إلى حلقي ورحت

أدلِّكه لأخفِّف الألم الذي سبَّبته قبضة جون. ابتعد كارتر خطوة عنه، دون أن يبعد سلاحه، بل أبقاه موجهًا صوبه، وقال: «أعتقد أننا كلينا أصبح لدينا أسرار نحرص على إخفائها عن آسا. أنت لم ترني في المطبخ مع سلوان، وأنا لم أرك تدفع نفسك بالقوَّة فوقها. موافق؟».

لا أستطيع أن أحدد شعوري حيال هذا؛ شعوري حول كوني أداة مقايضة بينهما، لكنني أعرف أنه لو نقل جون شكوكه لآسا حول ما رآه بين كارتر وبيني في المطبخ فإن آسا سوف يؤذي كارتر، وهذا آخر ما أريده.

أومأ جون قائلًا: «لم أرَ شيئًا البتَّة».

- جيد، الآن نحن متفقان.

أعاد ضغط مقدمة المسدس على جبين جون، وهو يدفع رأسه على ظهر الكنبة، وقال: «ولكن إن لمست سلوان مجدَّدًا، لن أزعج نفسي بإعلام آسا حتَّى، لأنني سأقتلك بيديَّ».

استخدم كارتر كل قوته ليضرب جانب رأس جون بالمسدس، فلم تتسنَّ الفرصة للأخير كي يجيب، سقط على ذراع الكنبة، وجسده كله متصلب، فاقدًا الوعي من جرَّاء الضربة التي أصابت رأسه.

كنت أحدِّق إلى جون مصدومةً، عندما شعرت بكارتر يمسك وجهي بين يديه، رفعت نظري إليه، وكان يتفحَّصني بحثًا عن إصابة ما، وقال: «هل أنتِ بخير؟».

أومأت، وما إن فعلت ذلك حتَّى بدأت الدموع بالانحدار من عينيَّ، سحبني كارتر إليه، وراح جسدي كله يرتعش وأنا أبكي.

مرَّر يده على مؤخرة رأسي، وقرَّب شفتيه من أذني، قائلًا: «إنني أكره أن أطلب منكِ هذا يا سلوان، لأن المكان الأخير الذي أريد أن تكوني فيه الآن هو مع آسا. ولكنكِ ستكونين بأمان أكثر هناك في الطابق العلوي. اذهبي إلى غرفتكِ، ولا تخرجي منها حتَّى طلوع الصبح، حسنًا؟».

وافقتُ بإيماءةٍ لأنني أعرف أنه على حق. أحيانًا يكون آسا الشيطان بعينه، ولكنه على الأقل لن يسمح لأي أحد في المنزل بإيذائي، بالإضافة إلى أنه فاقدٌ للوعي، مثل جون.

رافقني كارتر حتَّى وطيدة الدرج، وسألني: «هل هاتفكِ معكِ؟».

- أجل.

قال وهو يمرِّر يده برقة على خدي: «كلِّميني إن احتجتِ إليَّ الليلة، وإلا سأراكِ في الصباح».

لقد نسيت أمر الغد تمامًا، لدي دروس غدًا، صفٌّ مع كارتر. فكرة أن أقضي الوقت معه في الفصل، بعيدًا عن كلِّ هذا الهراء، هي الشيء الوحيد الذي يجب أن أتطلع إليه الآن.

- حسنًا.

صوتي ما يزال مرتعشًا نتيجة ما حدث في النصف ساعة الأخيرة.

انحنى نحوي وطبع قبلةً على جبيني، ثمَّ تركني. بدأ جون يتحرك على الأريكة، لذا أشار كارتر برأسه إلى السلالم، راغبًا بأن أغادر الغرفة قبل أن يستيقظ جون، استدرت لأصعد السلالم وأنا تحت وطأة الصدمة بسبب اختلاف الحياة بين جدران هذا المنزل، بمقارنتها مع الحياة خارجها.

في العادة، عندما يتعرض أحدهم لاعتداء، يتم إعلام الشرطة بذلك، ولكن في هذا المنزل يتم التعامل مع الأمر داخليًا، ويستخدم الاعتداء كأداة مقايضة. وعوضًا عن الذهاب إلى الشرطة، أذهب إلى الطابق العلوي، إلى الشاب الأخطر بعشرات المرَّات من ذاك الذي أوشك أن يغتصبني.

لا يتبع هذا المنزل القواعد ذاتها التي يمشي على أساسها العالم الخارجي، هذا المنزل عبارةٌ عن سجن، وله قواعده الخاصة، وآسا هو السجَّان، لطالما كان هو. إنني فقط لا أعتقد أنِ آسا يدرك أنه بوجود كارتر هنا الآن، فإنه يمكن ببساطة الإطاحة به. آمل ألا يدرك ذلك أبدًا، لأن إدراكه لن يؤتي نتائج جيدةً لأيٍّ منا.



الفصل الحادي والعشرون

آسا

فمي شديد الجفاف، وطعمه كما لو أنني كنت أمصُّ منشفةً لعينةً طوال الليل.

تدحرجتُ لأصل إلى إحدى زجاجات الماء التي تبقيها سلوان دومًا بجانب السرير، لا أستطيع فتح عينيَّ، لأنني أشعر وكأن رأسي بأكمله على وشك الانفجار، لذا رحت أتحسَّس الأشياء الموضوعة على طاولة السرير الجانبية إلى أن وجدت زجاجة ماء. يداي ترتعشان، إنني بالفعل بحاجةٍ إلى جرعةٍ أخرى، سأتصرف بذكاء هذه المرَّة، ولن أتعاطاها وأنا تحت وطأة تأثير الويسكي، فأفقد وعيي، وأبدِّد شعور النشوة كما فعلت ليلة أمس.

قربت زجاجة الماء من فمي، وأفرغت محتواها كله بجرعتين كبيرتين، ثمَّ رميت الزجاجة الفارغة عبر الغرفة، وأرجعت رأسي إلى الوسادة.

ما زلت أشعر بالعطش!

مططت ذراعيَّ، وضربت سلوان بالخطأ على الكتف، نظرت باتجاهها ولكن دماغي كان يترنَّح بشدَّة بحيث يصعب عليَّ التركيز، أصدرت صوتًا خفيفًا لكنها لم تستيقظ، نظرت إلى ساعة المنبِّه بعينين نصف مغمضتين وكانت تشير إلى الرابعة والنصف فجرًا، لديها ساعتان قبل أن تنهض وتستعد للذهاب إلى الصفوف.

منحت نفسي دقيقةً لأعتاد الظلام، إلى أن أصبح بمقدوري رؤيتها جيدًا، ثمَّ استلقيت على جنبي وشاهدتها وهي نائمة.

إنها تنام على ظهرها، لم يسبق لها أن نامت على جنبها، أو بطنها. عندما كنت طفلًا اعتاد أبي النوم على ظهره دائمًا، حتَّى عندما يفقد وعيه على الكنبة من جرَّاء تأثير المادة التي تعاطاها أيًّا تكن. سألته مرَّة لماذا ينام بهذه الطريقة، فأجابني: «عندما تنام على ظهرك، فإنك تكون جاهزًا لأي شيء. هذه الوضعية تجعل استيقاظك أسهل وبالتالي قدرتك على حماية نفسك أكثر فعالية. إن نمت وأنت مرتاح جدًّا ستفقد تلك القدرة».

طرحت هذه الذكرى تساؤلًا في عقلي مفاده ما إن كانت سلوان تنام على ظهرها انطلاقًا من نظرية الحماية، وقادني إلى تساؤلٍ آخر وهو ما إن كانت تنام على ظهرها لتحمي نفسها مني.

لا. إنها لا تخشاني بهذه الطريقة، بل إنها تعبدني.

لكنها في السابق كانت تنام على بطنها، ربما يجب عليَّ فقط أن أشتري ملاءات جديدة، فربما هي ببساطة لا تحب هذا السرير.

كما أنها اعتادت في السابق أن تنام عارية، وهذا شيء لم تفعله منذ أكثر من سنة. لقد عزت الأمر إلى وجود الكثير من الناس في هذا المنزل، وذلك لا يشعرها بالراحة. وقد أزعجني الأمر مرارًا عندما أزحف فوقها في الليل، لأجد أنها ترتدي بيجاما لعينة، ولا يمكنني الانزلاق داخلها قبل أن أنزع عنها لباسها. بعد أن تذمَّرت بما فيه الكفاية من ذلك رضيت بالمساومة، وأصبحت الآن تنام بالقميص فقط. وصول أسهل، ولكنني ما زلت أفضل أن تنام عارية تمامًا.

أنزلت الغطاء عن جسدها بهدوء وحذر كي لا أوقظها، أحيانًا أحب فقط أن أراقبها وهي نائمةٌ، أحب أن أفكر أنها تحلم بي. أحيانًا ألمسها برقةٍ شديدةٍ بما يكفي لئلا أوقظها، ويكفي لأجعلها فقط تئنُّ في نومها.

اللعنة إنها جميلة جدًّا، كل هذا الشعر الطويل الداكن، وهذه الرموش، وهذا الفم، إنني وبصراحة لم يسبق أن رأيت فتاةً بجمالها طوال حياتي، ومنذ

اللحظة التي وقعت فيها عيناي عليها علمت أنها ستكون ملكي، لم أستطع أن أترك لامرأةٍ بهذا الكمال خيارًا أن تكون مع غيري.

لكنني لم أسمح لنفسي بملاحقتها حالًا، لأنني أحببت الطريقة التي تنظر بها إليَّ، رأيت البراءة في عينيها وهي تحدِّق إليَّ في الفصل، جعلتها تشعر بالفضول، وعلى الرغم من تظاهري بعدم ملاحظتي لها، إلا أنها أثارت فيَّ الفضول. وعلمت أنها مختلفةٌ عن أي فتاة سبق وكنت معها يومًا.

لا يخيفني شيءٌ، ولم أشعر بالخوف منذ أن كنت طفلًا، ولكن هوسي بالتفكير بها اقترب كثيرًا من أن يكون مرعبًا لي. فكرة أن أفسد شيئًا جميلًا كهذا، جعلتها تحظى بحيزٍ كبيرٍ من تفكيري، حيز لم يسبق أن أتيح لأي شيء آخر في حياتي.

قبل سلوان، لم أكن من نوع الرجال الذين يقعون بحب فتاة، ليس بالمعنى التقليدي بأي حال. كنت أستغل النساء للحصول على الشيء الذي تجيده معظمهن؛ علاقة عابرة في وقت متأخر من الليل، وأحيانًا لمضاجعة قبل الإفطار، ولكن لا شيء يحدث بعد الثامنة صباحًا، أو قبل الثامنة مساءً. «الشباب الذين يسمحون بوجود الفتيات في حياتهم خلال الساعات الممتدة من الثامنة صباحًا حتَّى الثامنة مساءً أدمغتهم مصنوعة من الخراء».. ذلك اقتباس مستقًى مباشرةً من كلام والدي.

اعتدت أن أذكِّر نفسي بهذا في كل مرَّة أنظر فيها إلى سلوان، قبل أن تكون ملكي، في كل مرَّة كنت أقبض عليها تحدِّق إليَّ في الفصل، كانت الرغبة بها تتأجج في داخلي.

أدمغة مصنوعة من الخراء.

كلما راقبتها أكثر ازدادت شكوكي حول والدي، وما إن كان يعرف أم لا ما الذي بحقِّ الجحيم يتكلَّم عنه عندما كنتُ أصغر. على الأرجح لم يسبق له أن اختبر علاقةً مع فتاة مثل سلوان، فتاة لم يسبق أن أُفسِدت من قِبل رجل آخر. فتاة شديدة الخجل بحيث لا تعرف كيف تغازل شابًّا، فتاة لم تتح لها الفرصة بعد لتصبح عاهرةً.

أخبرت نفسي أنني سوف أختبرها، لأرى ما إن كانت الاستثناء في القاعدة. التقيت معها في يوم ما بعد الصف، وسألتها إن كانت ترغب بالذهاب إلى الغداء معي، كانت تلك المرَّة الأولى التي أطلب منها أن ترافقني في موعد، وبالتفكير بالأمر توقَّعت أن تبتسم وتمنحني موافقة خجولة، لكنها عوضًا عن ذلك تفحَّصتني ثمَّ استدارت وتابعت سيرها.

هنا أدركت أنني كنت مخطئًا بشأنها، ليست خجولةً، وليست جاهلةً بمدى القسوة التي يمكن أن يكون عليها البشر، إنها تعرف تمامًا كم هو العالم وحشيٌّ، ولهذا حافظت على مسافة من الجميع.

لم تكن تعلم أن عدم اكتراثها بي جعلني أرغب بها أكثر، جعلني أواظب على ملاحقتها إلى أن ترغب بكل جزء مني... حتَّى وحشيتي. تجاهلها جعلني أرغب بأن تتوسل إليَّ لأكون معها.

لم يكن الأمر بالصعوبة التي اعتقدت، من المذهل كم يمكنك الحصول على أشياء بمظهرك الجميل وحس الدعابة. و... أخلاقك، من يعلم؟

تمسك بابًا لعينًا لفتاة فتظن حالًا أنك رجلٌ خلوقٌ، تظن أنك من نوع الشبان الذين يعاملون أمهاتهم كملكات. ترى الفتيات الشباب ذوي الأخلاق، ويظننَّ أنهم يستحيل أن يكونوا خطرين.

فتحت كل باب لعين أمكنني العثور عليه لسلوان، حتَّى أنني، مرَّةً، حملت لها مظلَّةً. وعلى الرغم من أن هذا كان منذ وقت طويل، في الماضي عندما كانت تنام على بطنها، عارية.

أحيانًا أتساءل ما إن كانت سعيدةً كما اعتادت أن تكون، لقد هجرتني مرَّة وكرهتُ ذلك جدًّا، في كل ثانية من غيابها شعرت وكأنني أتحوَّل إلى كل شيءٍ خشي والدي أن أكبر لأصبح عليه. أحمق مريض بالحب، بدماغ مصنوع من الخراء.

لكنني أحبها، اللعنة عليه، وعلى فلسفته السخيفة الغبية في الحب. إنها أفضل ما حدث لي يومًا، وعندما تركتني أدركت ذلك.

علمت أنها إن رحلت على نحوٍ نهائيٍّ، فإنها حالًا ستجد شخصًا آخر. لم أستطع تحمُّل فكرة أن يقبِّل فمها رجل آخر، أو أن يضع يديه عليها، في حين أن جسدها لم يسبق له أن استقبل غيري. لقد كانت ملكي.

فعلت ما وجب لاستعادتها، حتَّى ولو أنها لا تدرك أن الأمر يتعلق بي بأي شكل من الأشكال، لأنني أحبها، وأعرف أنها تحبني. عندما رجعت إليَّ وطلبت مساعدتي شعرت بأنني فخور بنفسي كما لم يسبق لي أن كنت، لأنني علمت في تلك اللحظة أن الأمر قد تم؛ لقد أصبحت ملكي إلى الأبد.

لكن ما تزال هناك هذه الثغرة الصغيرة في علاقتنا، والتي تجعلني أشكك بديمومتها؛ إنها ترفض أن تتقبَّل نمط حياتي، وتجعلني أقطع لها الوعود دائمًا بأنني سأخرج من هذا النمط يومًا ما، على الرغم من أن كلينا يعرف أن هذا لن يحدث، إنني جيد بما أقوم به، ولكن أعتقد أنه ربما يجب أن أثبت لها أنه باستطاعتي فعل الأمرين معًا؛ أن أكون ما تحتاج، دون أن يَمَسَّ ذلك نمط حياتي.

يجب أن أحرص على ألا تذهب إلى أي مكان، أحتاج أن أجعلها جزءًا من حياتي بصورة دائمة.

يمكنني أن أتزوجها، يمكنني أن أشتري لها منزلًا، حيث سنعيش نحن الاثنان فقط، بالطبع سأبقى في هذا المنزل (الذي نعيش فيه حاليًا) في الفترة بين الثامنة صباحًا والثامنة مساءً، بما أنني أبدو وكأني الشخص الوحيد الذي يعرف كيف يدير الأمور بشكل لائق هنا.

لكن سلوان يمكنها أن تكون في المنزل الذي نتشاركه معًا، تربي أطفالنا، وعندما أعود إلى المنزل في الليل يمكنها أن تطعمني، وسوف نمارس الحب، سأنام وهي بجانبي، وسوف تنام هي على بطنها.

لم يسبق لي أن فكَّرت بالزواج، أتساءل لماذا طرأت هذه الفكرة الرائعة الآن فقط على بالي.

لم تفتح حديث الزواج من قبل، لست واثقًا حتَّى من أنها ستوافق عليه، ولكن إن حملت بطفل، لن يكون أمامها خيار. للأسف، فإنها تستخدم وسائل منع الحمل بانتظام، ودون تهاون. ليس وكأن وسائل منع الحمل الخاصَّة بها

شيء يمكنني العبث به، لكنها أيضًا تجبرني على ارتداء واقٍ ذكريٍّ لعين في كل مرَّة أمارس الجنس معها.

ولكن... الواقيات الذكرية شيء مختلف، ويمكنني التلاعب بها.

أتساءل كيف سيكون شعوري بمضاجعتها بلا واقٍ، إنها تسمح لي بولوجها لبضع ثوانٍ في بداية العلاقة، ذلك لأجهِّزها قبل أن أضع الواقي، ولكنني لم أُنْهِ يومًا داخلها. أرغب بتجربة شعور أن أكون داخلها دون حاجزٍ بيننا.

أصدرتُ أنينًا بمجرَّد التفكير بالأمر. اللعنة، هذا جيد جدًّا؛ مشاهدتها والتفكير بولوجها، يجب أن ألمسها. انحنيت إلى الأمام، وقربت فمي من صدرها العاري. أحاول في العادة ألا أوقظها، ولكنها لن تكون المرَّة الأولى التي ستستيقظ فيها على شيء كهذا.

مررت لساني على صدرها وتذوَّقته، وأنا أصنع دوائر حوله ببطء. مدَّت ذراعها على الوسادة وأنَّت، أحب أنها ما تزال نائمة، أحب أن أرى إلى مدى يمكنني جعلها تقترب من بلوغ النشوة قبل أن أوقظها.

أنَّت مجدَّدًا، وقالت بصوتها النعس متقطع الأنفاس: «أمم. كارتر».

ارتخى فكَّايَ بينما ما تزال شفتاي ملتصقتَيْن بجسدها اللعين. ما الشيء اللعين الذي قالته للتَّوِّ بحقِّ الجحيم؟

ابتعدت عنها في الحال، أخفضت نظري إلى وجهها اللعين، لقد تبخَّرت رغبتي في الحال بمجرَّد أن خرج ذلك الاسم من شفتيها.

ما هذا بحقِّ الجحيم؟

ماذا.

بحقٌ.

الجحيم؟

آلمني صدري، شعرتُ وكأن أحدًا قد حطَّمه، ورماه بحجر، بل رماه ببناية لعينة كاملة. في مكان ما بين همسها باسمه واستعادة وعيها، أنزلت سلوان قميصها فوق صدرها. في مكان ما بين همسها باسمه واستعادة وعيها، لففت

يدي على حلقها. ها هي تحدِّق إليَّ، عيناها متسعتان من الخوف، إنني متأكد أنه لأمر مخيف أن تستيقظ ويد حبيبك تمسك بحلقك. ولكنها يجب أن تكون محظوظة لأنها لا تشعر بما أشعر به الآن.

- هل تضاجعينه؟

تطلَّب الأمر منِّي كُلَّ جهدٍ أملكه كي لا أصرخ بهذه الكلمات لها. بدلًا من ذلك كان صوتي هادئًا ومتماسكًا، على عكس كل جزء آخر مني. إنني لا أضغط على حلقها بأي قوَّة تُذْكَر.

ليس بعد.

إنني ببساطة أضع يدي عليه فقط، لذا يجب عليها أن تجيبني الآن، إنها قادرة على الكلام، لكنها لا تتكلَّم. العاهرة اللعينة تحدِّق إليَّ فقط وكأنها قد قُبِضَ عليها للتَّوِّ.

- سلوان، هل تضاجعين كارتر؟ هل ولج جسدكِ؟

بدأت سلوان حالًا بهزِّ رأسها، ضغطت يديها على الملاءات وبدأت برفع جسدها لتستند إلى مسند الرأس في السرير، وخلال ذلك لم أبعد يدي عن حلقها. قالت: «ما الذي تتحدث عنه؟ لا. بالطبع لا. يا إلهي، لا».

إنها تنظر إليَّ وكأنني مجنون، إنها مقنعة للغاية. لقد كانت أمي مقنعةً أيضًا، انظر أين قادها ذلك.

شددت قبضتي على حلقها، وأنا أراقب وجهها يكتسب ببطء ظِلًّا ورديًّا، وبدأت عيناها تمتلئان بالدموع.

من الجيد أن والدي علَّمني ألا أنخدع بدموع امرأة.

انحنيت باتجاهها، إلى أن أصبحت على بعد ما يقارب البوصتين منها، مررت نظري إلى عينيها، وفمها، وكل جزء لعين كاذب من وجهها اللعين.

- لقد قلتِ اسمه للتَّوِّ يا سلوان، وأنا أقبِّلك وأحاول إسعادكِ. لكنك بعد ذلك همستِ باسمه اللعين، لقد قلتِ كارتر.

هزَّت سلوان رأسها، وكانت مُصِرَّةً على الأمر، هزَّت رأسها بقوَّة. أرخيت قبضتي على حلقها لتتمكَّن من الكلام، بعد أن أدخلت بعض الهواء إلى

رئتيها، قالت: «لم أقل كارتر أيها الأحمق اللعين. لقد قلت أقوى (هاردر)، كنت مستيقظة وشعرت بك تقبِّلني، أردت أن تقبِّلني بقوَّة أكبر».

حدَّقت إليها. تركت كلماتها تستقر. تركت تبريرها يدلِّك صدري إلى أن تمكَّنت من التنفُّس مجدَّدًا.

ببطء أنزلت يدي عن حلقها إلى أسفل عنقها.

اللعنة.. لقد أصبحتُ شديد الريبة.

لماذا قد أظنُّ يومًا أنها تحلم بشاب آخر وهي نائمة بقربي؟ لن تخونني، لا تستطيع. ليس لديها أحد سواي. ستكون تلك أكبر غلطة ترتكبها في حياتها، وهي تعرف هذا.

يجب أن أخرجها من هذا المنزل، بعيدًا عن كل هؤلاء الأشخاص. أنا متأكد الآن أكثر ممَّا كنت عليه قبل عشر دقائق من أنه يجب أن أجعلها أمًّا. أن أجعلها زوجةً، وأمنحها منزلًا خاصًّا بنا، بحيث لا مكان فيه لأي من الرجال الآخرين، ولا الريبة التي يسببونها لي.

انحنت سلوان إلى الأمام، وأمسكت طرف بلوزتها ثمَّ خلعتها ساحبةً إياها من فوق رأسها، ورمتها على الأرض، ثمَّ دفعتني إلى الخلف إلى مسند السرير، وانزلقت إلى حضني.

وبمجرَّد حدوث هذا فقط، تملَّكتني الرغبة بها مجدَّدًا.

ضغَطَتْ صدرها على فمي، عارضةً نفسها عليَّ، تناولتُ نهدها بفمي مجدَّدًا، وأعطيتها ما تريده، بقوَّة شديدة إلى درجة إيلامها، أريدها أن تشعر بالألم الذي تركه فمي عليها لبقية اليوم اللعين.

مررت يديها في شعري، وسحبتني نحوها، وهي تئن وتقول اسمي، تقول: «آسا».

قالته ثلاث مرات.

اسمي.

يا إلهي، إنها تبدو جيدة، يكون الأمر جيدًا جدًّا عندما لا أكرهها. قلت وأنا أمرِّر شفتيَّ على عنقها صعودًا إلى فمها: «أنتِ ملكي يا سلوان».

همست: «ملككَ يا آسا».

أدخلت لساني في فمها إلى أن أنَّت، ثمَّ انسحبت منها. أمسكت بحلقها مجدَّدًا بيدي اليمنى، ورحت أحرِّك وركيها صعودًا وهبوطًا باستخدام اليسرى. تغضَّن وجهها قليلًا عندما ضغطت على حلقها، ممَّا جعلني أتساءل ما إن كنت قد آذيت عنقها سابقًا، أبعدت يدي ورأيت بالفعل آثار أصابعي على عنقها، وثمة كدمات أيضًا.

اللعنة، لقد فعلتها. لقد آذيتها أكثر بكثير ممَّا قصدت.

انحنيت وقبلتها برقة على عنقها، معتذرًا منها بصمت، ثمَّ نظرت إلى عينيها وهي فوقي، وقلت: «أريد أن أتزوجك يا سلوان. أريد أن أجعلكِ ملكي إلى الأبد».

لم تقُل شيئًا، تصلَّب جسدها بكامله، وكفَّت عن التحرُّك فوقي، وسألتني بصوت مرتعش: «ماذا قلتَ؟».

ضحكت، ومررت يديَّ نزولًا على ظهرها، ثمَّ تشبَّثت بجسدها، وقلت: «قلت تزوجيني يا حبيبتي. كوني زوجتي».

رفعتها من فوقي ورميتها على السرير على ظهرها، وولجت جسدها مجدَّدًا، مستمتعًا بحقيقة أنني لا أرتدي الواقي الذكري، تحرَّكت دخولًا وخروجًا، متلذِّذًا بكل شعور بينما هي ترفع نظرها محدقةً إليَّ، غير قادرة على الكلام.

- سأبتاع لكِ خاتمًا خلال فترة وجودكِ في الكلية اليوم، أكبر خاتم أستطيع العثور عليه. إنني فقط أحتاج أن تقولي إنك موافقة بداية.

تطايرت دمعة من خدها، وهنا تأكدت تمامًا من حبها لي، ففكرة إمضائها لبقية حياتها معي جعلتها تبكي.

بطريقة ما تمكَّنت من دفع نفسي أعمق داخلها هذه المرَّة، وقد علت وجهها تكشيرة ألم. أريد أن أتعمَّق داخلها بقدر ما يمكنني، أريدها أن تشعر بكل جزء مني، أريدها أن تشعر إلى أي مدى أحبها. غرزت أصابعها بلحم ذراعيَّ وهي تدفع جسدها إليَّ، ذلك كان رد فعل جسدها طبيعيًّا على الضغط بين ساقيها. لا يهمني عدد المرَّات التي فعلنا بها هذا، إنني أعرف أنه ما زال يؤلمها أحيانًا، على الأرجح لا يجب أن أحب الأمر عندما تتألَّم، ولكنني أحبه.

إنني أحب الأمر كثيرًا عندما تتألَّم بسببي، أحب معرفتي أنه حتَّى وبعد انتهائنا من ممارسة الجنس، ستظل تشعر بي داخلها لساعات مع كل حركة تقوم بها.

يا إلهي، إنني أحب هذه الفتاة.

تكلَّمت بين الدفعات، وأنا أحدِّق إلى الأسفل، بعينيها الممتلئتين بالدموع: «أحبك يا سلوان، أحبك كثيرًا. أحتاج أن أسمع موافقتك».

أصدرت أنينًا، وأنا أشعر باقتراب انتهائي، لأختبر شيئًا معها لم يسبق لنا أن اختبرناه معًا. قبَّلت جانب رأسها، ثمَّ قربت فمي من أذنها، وقلت: «أحتاج أن أسمعك تقولين موافقة يا حبيبتي».

وأخيرًا أطلقت كلمتها بهدوء: «موافقة».

أسعدتني كلمتها سعادةً لا توصف، تطلب الأمر منِّي دفعة واحدة أخيرة لأنتهي، وأطلقت نفسي داخلها، عميقًا داخلها، داخل خطيبتي.

ساقاي ترتعشان، وجسدي كله ينتفض فوقها كما لم يسبق لي أن اختبرت الأمر. اهتزَّ جسدي، بل بالأحرى ارتعش عندما انتهيت، ولكنها كانت ما تزال مصدومة، ظلَّت ثابتةً في مكانها تمامًا، غير قادرة على التحرُّك أو الكلام تحتي، علمت أن الأمر كان جيدًا بالنسبة إليها تمامًا كما كان جيدًا لي، إنها ما تزال تحت وطأة الصدمة لأنها لم تكن تتوقَّع أن أتقدَّم لخطبتها، ولا سيَّما في منتصف الليل اللعين، أو الصباح، بحسب ما تسميه.

شعرت بالفعل بالرغبة في مضاجعتها مجدَّدًا، ولكن يمكن لهذه الرغبة أن تنتظر، الآن أريد فقط أن أوصلها إلى نشوتها ثمَّ أنام بالقرب منها، بالقرب من خطيبتي، خطيبتي العارية التي ستبدأ بالنوم على معدتها اللعينة.

أغمضت عينيها وأنا ألمسها، أغلقتهما بشدَّة في الواقع. راقبت وجهها بينما أنا مستمرٌّ بتحريك يدي، منتظرًا أن أسمع التأوه يخرج من بين الشفتين اللتين نطقتا كلمة «موافقة» عندما طلبت يدها للزواج.

لم أحتج حتَّى لإقناعها، اتضح أن الأمر أسهل بكثير ممَّا توقَّعت أنه سيكون.

آسا وسلوان، سعادة لعينة دائمة.

اللعنة على والدي وفلسفته الغبية عن الحب.

***

الفصل الثاني والعشرون

كارتر/ لوك

- لن أقول هذا مجدَّدًا، لا أريد توريطها في الأمر.

جمع دالتون (رايان) قبضتيه، وأرجع ظهره إلى كرسيه وهو مستاء مني، وقال: «إنها متورِّطة بالفعل يا لوك. إنك لا تضعها في موقف خطر، إنها تعيش هنا من قبل أن نعنى نحن بالأمر حتَّى». وانحنى إلى الأمام مجدَّدًا، وأضاف: «لم يشكِّل الأمر مشكلة في المهمة الأخيرة، أتتذكَّر كاري؟».

إنني أتذكَّر كاري. أجبته: «لقد كانت كاري مشروعكَ أنتَ. لا مشروعي. لم يسبق لي أن تورَّطت مع فتاة من أجل مهمة يا رايان».

رفع أحد حاجبيه، وقال: «ولكنك قد تتورَّط مع إحداهن في أثناء تأديتك لمهمة، ولكن ليس لصالح المهمة؟ ستسمح لمشاعرك تجاهها أن تضعنا نحن الاثنان في خطر؟».

دفعت كرسيَّ إلى الخلف، ووقفت قائلًا: «إنني لا أعرِّض كلينا للخطر، لا شيء يحدث بيننا، لا أعرف كم مرَّة عليَّ أن أكرِّر لك هذا».

أكره أنه على حق، لكنني لن أعترف أبدًا بهذا له. نظرت إلى الزجاج العاكس من ناحية واحدة لغرفة التحقيق، وحدَّقت بانعكاسي، بدوت متعبًا. مررت يدًا عبر شعري، وأغمضت عينيَّ. قال رايان: «هل تظنُّ حقًّا أنه أيًّا كان

ما يجري بينكما فهو شيء بريء؟ وأنه لن يضعنا في وضع خطر بطريقة ما؟ ألم تهاجم جون، صديق آسا المقرَّب، في الليلة الماضية لأنه كان يقبِّل سلوان؟».

نظرت بانعكاسه على المرآة وحدَّقت بقسوة إلى عينيه، وقلت: «يقبِّلها؟». ثمَّ استدرت لأواجهه، وتابعت: «كان على وشك أن يغتصبها يا رايان! ماذا كنت تريدني أن أفعل، أن أعود إلى الخارج وأضاعف مراهنتي على لعبة البوكر اللعينة؟».

استدرت لأواجه المرآة مجدَّدًا، وراقبته، إنه يعلم أنه كان ليفعل الشيء نفسه لو أنه دخل ورأى ذلك.

من المناسب أن نجري هذه المحادثة في غرفة تحقيقات في قسم قريب، لأن مراجعات هذه القضية بدأت تبدو وكأنها مجرَّد تحقيقات.

ظللنا كلانا صامتين لبعض الوقت، مسحت وجهي بيديَّ، وتنهَّدت قائلًا: «كيف سيساعد إقناعي لهذه الفتاة بأنني أكنُّ مشاعر لها في سير القضية؟».

هزَّ رايان كتفيه، وأجاب: «لا أعلم. قد لا يفيد بشيء، ولكنه أمر يستحق المحاولة، لا سيَّما وأنه يبدو أنك بالفعل قد طوَّرت نوعًا من الصداقة معها، صداقة تحظى بالتقدير من طرفها. سوف تتخلى عن حذرها معكَ، قد تخبرك، بدافع الثقة، معلومات لم نكن نعلم عنها شيئًا».

وقف، ومشى حول الطاولة، ثمَّ انحنى مستندًا إليها.

إنه رئيسي عمليًا، أحتاج أحيانًا إلى تذكير نفسي بالأمر في ظل الطريقة التي يتعيَّن علينا أن نتصرَّف بها، والأدوار الكثيرة التي لعبناها في مهامنا المختلفة معًا. لقد كان في هذا العمل قبلي لمدة خمس سنوات، وأعلم أنه يعي جيدًا ما الذي يقوله، بمقدار عدم رغبتي بالاعتراف بذلك.

قال رايان: «لا أطلب منك أن تقع بحب هذه الفتاة، ولا أطلب حتَّى أن تتظاهر بحبك لها. كل ما أسألك إيَّاه هو أن تستفيد من مشاعرها تجاهك لصالح القضية».

سألته: «وكيف أفعل هذا؟ آسا موجود حولنا دائمًا، وذلك سيزيد من خطورة وضعنا إن ورَّطناها».

- هناك طرق لذلك، لديك صف معها اليوم، ابدأ منه. أعرف أنها تذهب لزيارة أخيها أيام الآحاد، رافقها هذا الأحد.

ضحكت قائلًا: «أجل، أنا متأكد من أن آسا سيرحِّب بهذا».

- لن يعرف. لقد ذكر أمام جون شيئًا عن ذهابنا جميعًا إلى الكازينو يوم الأحد. سنكون غائبين عن المنزل طوال اليوم، تظاهر فقط أن لديك شيئًا تفعله، واعرض على سلوان أن ترافقها عوضًا عن ذلك، ستحصل على يوم كامل برفقتها، دون مقاطعة أو مراقبة أي أحد يعرف آسا.

أعرف أنه يجب أن أرفض ذلك، ولكن الحقيقة هي أنني سأعرض على سلوان أن أذهب معها سواء أكان ذلك سيفيد القضية أم سيضرُّها. لهذا الحدِّ أصبحت مثيرًا للشفقة بأداء عملي مؤخرًا. لا شيء يجب أن يسبق المهمة من حيث الأولوية، ولا سيَّما شخص يقف على الطرف الآخر منها.

قلت: «حسنًا».

سحبت معطفي، ولبسته، وقبل أن أفتح الباب لأخرج، توقَّفت واستدرت ببطء لأواجهه وأسأله: «كيف علمت أنه لديَّ صفٌ معها اليوم؟».

ضحك رايان قائلًا: «إنها الفتاة المثيرة من صف اللغة الإسبانية يا لوك. أنا لستُ غبيًّا». وأمسك معطفه ورماه عليه، وتابع: «لماذا بحقِّ الجحيم تظن أنك سُجِّلت في هذا الصف؟».



الفصل الثالث والعشرون

سلوان

كنت ما زلت أرتعش وأنا أدخل إلى المبنى، لقد مرَّت ساعات على الحادث مع آسا، ولكنني ما زلت مضطربةً منها. لم يسبق لي أن شعرت بكل هذا الخوف، ولا حتَّى في الليلة السابقة عندما كان جون فوقي، وسكينه مشدود إلى حلقي.

لا يمكنني أن أصدِّق حقيقة نطقي لاسم كارتر وأنا نائمة، فذلك لم يكن ليضعني أنا فقط في وضع جدِّيٍّ وخطيرٍ مع آسا، بل كان من الممكن أن أكون المسؤولة عن أي شيء قد يفعله بكارتر.

لم تكن لدي فكرة كيف سأخرج نفسي من هذه المصيبة إلا أنني قد تمكنت من ذلك، وأحمد الله أن اسم كارتر اللعين يملك اللحن ذاته لكلمة أقوى (هاردر).

ولكن هناك شيء لا أشعر بالراحة تجاهه، وهو ما حدث تاليًا؛ الأشياء التي قالها آسا لي، وذكره لموضوع الزواج.

عدم استعماله لواقٍ ذكري.

لا أعرف ما الذي يفعله آسا عندما لا أكون بقربه، لم يسبق أن علمت بخيانته لي باستثناء ما ذكره جون في الليلة الماضية، ولكنني لا أعرف حتَّى

ما الذي قصده بكلامه. كما أنني لم يسبق لي قط أن أمسكت به يخونني، لكنني لا أثق به بما فيه الكفاية لأخاطر بصحَّتي وحياتي.

إلا أنَّ الأمر قد حدث هذا الصباح، وما يزال حاضرًا في مقدمة عقلي. في اللحظة التي بلغت فيها الساعة الثامنة صباحًا اتصلت بطبيبي، وحجزت موعدًا في الأسبوع القادم لأخضع لاختبار. إنني آخذ دواء مانع حمل بانتظام، لذا لست قلقة مطلقًا من احتمال أن يكون قد جعلني حاملًا، ولكنني قلقة من كل شيء آخر من الممكن أن يكون قد نقله إليَّ.

سأحاول أن أدع التفكير بالأمر إلى الأسبوع القادم، وسأفعل كل ما بوسعي لأحرص على ألا يتكرَّر ما حدث مجدَّدًا، لقد كنت فقط، وبصراحة، قلقة جدًّا على حياتي لأتمكَّن من قول أي شيء هذا الصباح. لم يسبق أن رأيته ينظر إليَّ بكل هذا الكره، كما حدث عندما ظنَّ أنني أئنُّ باسم كارتر.

عندما سمعني وأنا أئنُّ باسم كارتر.

قبل أن أدخل إلى الصف وأواجه كارتر، توقَّفت في المرحاض وحاولت أن أهدئ نفسي، والآن وما دمت لست في المنزل ذاته مع آسا، يمكنني التنفُّس بسهولةٍ أكثر. ولكن لا فكرة لديَّ كيف سأحرص على ألا أتكلم في أثناء نومي مجدَّدًا، إن كان ذلك يتطلب ألا تغفو لي عين نهائيًّا بحضور آسا، فسأجد طريقة لتنفيذ ذلك.

عندما انتهيت وخرجت من المرحاض إلى الممر، كان أول ما رأيته هو كارتر، مستندًا قرب باب الصف.

إنه ينتظرني.

عندما رآني استقام وانتظر أن أصل إليه. سألني وعيناه قد هبطتا مباشرةً إلى عنقي: «أنتِ بخير؟».

ثمة بضع كدمات على عنقي ناتجة عمَّا فعله بي جون الليلة الماضية، ولكنها على الأرجح ستزداد سوءًا بنهاية اليوم، وذلك بفضل ما فعله بي آسا هذا الصباح.

يا إلهي! ما هذه الحياة اللعينة التي أحياها الآن، بحيث أتعرض للخنق من قبل رجلين مختلفين خلال اثنتي عشرة ساعة؟

أجبت على نحو غير مقنع: «أنا بخير».

رفع كارتر يده ولمس بإصبعه حلقي قائلًا: «هناك كدمات على عنقكِ، هل لاحظ ذلك آسا؟».

مرَّر ظهر إحدى أصابعه على عنقي، أعرف أنه فعل ذلك بدافع القلق، ولكنه كلما لمسني بأي طريقة، ولأي سبب، أنتبه إلى أنني قد نسيت إلى أي مدى أمتلك حساسية عالية بالأشياء. لقد تعلَّمت أن أخدِّر مشاعري على مدى السنتين الأخيرتين مع آسا، وكارتر ينسف كل جهودي تلك.

- لقد انتبه لكنه لم يشُك بشيء، إذ اعتقد أنه فعلها بنفسه.

أجفلت كلماتي كارتر، ورفع عينيه بسرعة لتلاقي عينيَّ، وهمس وهو يهز رأسه: «سلوان».

سحب يده بعيدًا عن عنقي ومرَّرها بشعره، وانتبهت إلى حركة حلقه وهو يبتلع ما بدا وكأنه حقد صافٍ وغضب من فكرة أن يمد آسا يده عليَّ. من الواضح أنه قلق عليَّ، وهذا ما أفهمه تمامًا، لكنه يعلم أيضًا السبب الذي يدفعني إلى البقاء، ولا يبدو أنه يطلق عليَّ الأحكام بشأنه. إنه في الحقيقة يتفهَّم وضعي، ويتعاطف معه. أحب هذا الشيء فيه؛ التعاطف.

هذا الشعور الذي على الأرجح لم يسبق لآسا أن أحسَّه تجاه أي أحد في حياته كلها.

وضع كارتر يده بلطف على مرفقي، وقال: «هيا بنا، لنجلس في مقاعدنا».

حاول أن يوجهني نحو الباب لكنني تراجعت وقلت له: «انتظر يا كارتر».

استدار ليواجهني مجدَّدًا، وتنحَّى جانبًا ليسمح لطالبين بالمرور، مسحت الممر بعينيَّ يمينًا ويسارًا، وقلت: «يجب أن أخبرك بشيء ما».

أطاح القلق بأي بقية من شعور الغضب الذي سبق وشعر به، أومأ وقادني عبر الممر، بعيدًا عن الباب، باحثًا عن مكان ما أكثر خصوصية، قطعنا بابًا آخر، وتحقق من النافذة، ثمَّ من مقبض الباب وعندما وجده غير مقفل، فتح الباب وقادني إلى الداخل.

كانت الغرفة عبارة عن قاعة موسيقى فارغة، أحد جدرانها مرصوف بالآلات الموسيقية، وثمة العديد من الكراسي المنظمة على هيئة دائرة في

منتصف الغرفة. عندما أُغلق الباب خلفنا وحظينا أخيرًا بالخصوصية، توقَّعت أن يسألني كارتر ما الشيء الذي أحتاج أن أخبره به، ولكنه عوضًا عن ذلك وما إن استدرت، حتَّى سحبني إليه، ولفَّ ذراعيه بشدَّة حولي، وضم رأسي إلى صدره.

لقد احتضنني.

هذا كل ما فعله، ضمَّني بقوَّة دون أن ينطق بكلمة، رغم ذلك يمكنني الشعور بكل شيء يقوله صمته، وقد أدركت منذ أن رآني هذا الصباح أنه منذ الليلة الماضية، بعد كل شيء حدث مع جون، أدركت أنه على الأرجح كان قلقًا عليَّ بشدَّة، أنه ربما أراد أن يحتضنني لحظتها ويطمئنني، ولكن المعانقات البسيطة ليست بسيطةً في عالمي.

لففت ذراعيَّ حوله، ودفنت وجهي في قميصه، وتنشقت رائحة عطره الطفيفة، رائحته كرائحة الشاطئ، أغمضت عينيَّ وتمنيت لو أننا كنا هناك، بعيدًا عن كل هذا الهراء.

بقينا على حالنا صامتين لعدَّة دقائق، لم يتحرَّك أيٌّ منا، وبعد برهة لم أعد أعرف من الذي يحتضن من، من الذي يحمل من. بدا الأمر وكأننا كلانا بالكاد مُعلَّقَيْن، متشبِّثين واحدنا بالآخر، خائفين من أننا سنقع إن ترك أي منا الآخر.

همست مخترقةً الصمت حولنا: «لقد قلتُ اسمكَ في نومي».

ابتعد كارتر في الحال ونظر إليَّ قائلًا: «هل سمعكِ؟».

أومأت بالإيجاب، وقلت: «أجل. لكنني أعتقد أنني موَّهت الأمر بطريقة جيدة للغاية. أخبرته أنه أخطأ سمعي، وأنني قلت شيئًا آخر. ولكنه كان غاضبًا بحق يا كارتر بعد أن حدث الأمر، أكثر غضبًا ممَّا سبق لي ورأيته في حياتي، وأنا فقط... ظننت أنه يجب أن تعلم. أعتقد أنه يجب أن نكون أكثر حذرًا، أعني، أعرف أنه ما من شيء يحدث بيننا حقًّا، ولكن ...».

قاطعني كارتر قائلًا: «أليس ثمَّة ما يحدث بيننا مع ذلك؟ أعرف أننا لم نتصرَّف بناءً على ذلك، ولكن هذا ليس بالشيء البسيط يا سلوان. إن عرف آسا يومًا أنني أحضر صفًّا معكِ ...».

- تمامًا.

أومأ كارتر مدركًا لما يعنيه هذا، لا يمكنه أن يتحدَّث معي في المنزل، اللعنة، لا يجب عليه حتَّى أن ينظر باتجاهي بعد الآن، بعد ما حدث باكرًا هذا الصباح سيكون آسا متشكِّكًا، على الرغم من أنه قد صدقني. آخر ما أرغب به هو أن أسبب المتاعب لكارتر، ولكن يبدو أنني بالفعل قد فعلت ذلك. قلت له: «أنا آسفة».

- لماذا تعتذرين؟ لأنكِ رأيتني في حلمكِ؟

أومأت بالإيجاب.

رفع كارتر يدًا إلى خدي، وتحركت زاوية فمه راسمةً ابتسامة، وقال: «إن كنا سنعتذر عن شيء كهذا، فأنا مدين لكِ بآلاف الاعتذارات».

عضضت على خدِّي لأخفي ابتسامتي، أنزل يده وضغطها على الجزء السفلي من ظهري، قائلًا: «سنتأخَّر إن لم نتحرَّك على عجل».

أضحكتني قليلًا فكرة أن نتأخَّر، فأي أهمية تشكِّلها مشكلة أن نتأخَّر عن الفصل بالمقارنة مع كل الهراء الآخر الذي يحدث في حياة كلينا؟ أهمية صغيرة جدًّا جدًّا. لكنه على حق.

تبعته لنخرج من الباب إلى الممر، ثمَّ إلى غرفة الصف، وقبل أن ندخل انحنى وهمس: «إن كان يهمُّك أن تعرفي فأنتِ تبدين غاية في الجمال اليوم، وإنني نوعًا ما أعجز عن التقاط أنفاسي».

استمرَّ بالمشي، على الرغم من حقيقة أن كلماته قد جمَّدت قدميَّ على الأرض.

هذا كل ما كان؛ كلمات. بضع كلمات بسيطة منسوجة معًا، ولكنها تحمل من القوَّة ما كان كافيًا ليعيقني فيزيائيًّا عن متابعة طريقي.

رفعت يدي إلى فمي بينما أنا أشهق بصمت، أجبرت نفسي على إيقاف الابتسامة التي كانت تشقّ طريقها إلى وجهي، وبطريقة ما أجبرت قدميَّ على متابعة المشي للدخول إلى غرفة الصف. رفعت نظري ورأيت كارتر يسحب كرسيين في الصف الأعلى، لذا صعدت إليه.

شعرت وكأن رُكبتيَّ على وشك أن تنهارا تحتي. هكذا يجب أن يكون الأمر، هذا هو الشعور الذي يجب أن يمنحه الشبان للفتيات.

لماذا بحقِّ الجحيم قد أعرت آسا اهتمامي يومًا؟

عندما وصلت إلى مقعدي، كان ما يزال واقفًا بانتظار أن أجلس أنا أولًا، منحته ابتسامة سريعة كتعبير عن شكري ثمَّ جلست. أخرجت كتبي من حقيبتي، وفعل هو المثل، وبمجرَّد أن استقررنا في أماكننا دخل المدرِّس، استدار إلى السبورة وبدأ يكتب عليها «لقد صرخت زيادة بعض الشيء في مباراة كرة القدم ليلة أمس، فبُحَّ صوتي. اقرؤوا الفصل 8-10 وسوف نتابع المحاضرة الأسبوع القادم».

ضحك نصف الحضور على ملاحظته تلك، وتأوه النصف الآخر. فتح كارتر كتابه على الصفحة المطلوبة، وانحنيت وفتحت كتابي وبدأت بالقراءة. لم أكن قد قرأت الكثير عندما أمسك كارتر بقلم وبدأ بكتابة ملاحظة، أصابني الترقب بالدوار، آملةً أنه يكتب شيئًا لي وليست مجرَّد ملاحظة متعلِّقة بالدرس.

إنني لا أشعر بالذنب حتَّى، يجب أن يراودني شعور بالذنب، خاصَّةً بعد أن تقدَّم آسا لخطبتي نوعًا ما هذا الصباح، وقد أُجبرت على الموافقة خوفًا على حياتي.

هذا أمر سيئ جدًّا، سوف أذهب إلى الجحيم.

في الحقيقة... قد أكون الآن في الجحيم. معظم الوقت تبدو حياتي هذه وكأنها عقاب أتلقَّاه بسبب شيء مريع لا بُدَّ أنني اقترفته في حياة سابقة، لطالما كان شعوري تجاه حياتي هكذا إلى أن ظهر فيها كارتر على الأقل. لا يمكنني تذكُّر شيء قد جعلني يومًا متحمسة لحياتي قبل أن يدخلها هو مؤخَّرًا.

مرَّر كارتر الملاحظة إليَّ، وكانت مطوية من المنتصف، لذا فتحت الورقة وقرأت ما كتبه. توقعت أن أقرأ شيئًا عشوائيًّا، كاللعبة التي اعتدنا أن نلعبها في الفصل سابقًا، ولكن عوضًا عن ذلك قرأت طلبًا بسيطًا:

ضعي يدكِ تحت الطاولة.

قرأت الملاحظة مرَّتين قبل أن أنظر إلى يديَّ، الملاحظة عشوائية قليلًا، ولكنها لا تشبه اللعبة التي علَّمتها له. إنها عشوائية فقط لأنني ارتبكت حيالها.

دسست الورقة تحت كتابي ثمَّ أنزلت يدي تحت الطاولة، وانتظرت أن يعطيني أيًّا كان الشيء الذي ينوي إعطاءه لي.

ويا للمفاجأة! لم يعطني أيَّ شيء، بل انزلقت راحة يده الدافئة على راحتي ولفَّ أصابعي بأصابعه، لتستقر يدانا معًا على فخذي.

ثم أعاد تركيزه إلى كتابه، متابعًا قراءته وكأنه لم يحاول الآن أن يولَع بي. هذا تمامًا ما كان عليه شعوري بينما يدي بين يده، وهو يلمس ساقي، أشعر وكأن على أحدهم أن يخمد حرائقي بالماء. بدأت نبضات قلبي بالتسارع، وشعرت وكأن جسدي كله مخدَّر.

إنه يمسك بيدي.

يا للمسيح!

لم أكن أعرف أن شبك الأيادي يمكن أن يكون أفضل من قبلة. أفضل من ممارسة الجنس، ممارسته مع آسا على الأقل.

أغلقت عينيَّ وركَّزت على وزن يده على يدي، عرض أصابعه بين أصابعي، حركة إبهامه العرضية إلى الخلف والأمام.

بعد قرابة خمس عشرة دقيقة من تظاهري بقراءة الكتاب الموضوع أمامي، سحب يده من يدي، لكنه لم يتركني، بل بدأ برسم دوائر مستخدمًا رؤوس أصابعه على راحة يدي، وتابع بأصابعه كل جزء من يدي، من راحتي، من أصابعي، وما بينها. وبمرور كل لحظة كان عقلي يبدأ بالتساؤل كيف سيكون ملمس هذه الأصابع على ساقي. على عنقي، وعلى بطني.

ثقلت أنفاسي، وازداد تقطُّعها مع كل دقيقة تقترب بها الحصَّة من نهايتها.

لا أريد أن تنتهي الحصَّة، لا أريدها أن تنتهي أبدًا، أريدها أن تستمر إلى الأبد.

بعد أن أنهى اكتشاف كل جزء من يدي لمرَّتين متتاليتين، انزلقت أصابعه إلى ساقي، وبدأ ينقر بأصابعه على ركبتي، على بُعد قرابة ثلاث بوصات للأعلى من الجزء الداخلي لساقي، ثمَّ يعود إلى ركبتي. عيناي مغمضتان، وأنا أمسك الكتاب بيدي، استمر بفعل هذا لعدة دقائق أخرى، ممَّا قادني إلى

الجنون تمامًا، إلى درجة أنه ربما يتحتم عليَّ أن أنهض وأذهب إلى المرحاض لأرش ماءً باردًا على وجهي.

لكنني لم أفعل ذلك، لأنه وبطريقة ما وصلت دقائق الدرس الخمسون إلى نهايتها، وبدأ الجميع بحزم أشيائهم استعدادًا لمغادرة الصف.

استجمعت القوَّة بما يكفي لأن أفتح عينيَّ وأنظر إليه، كان يحدِّق إليَّ، بنظراته الضيقة وعينيه المتقدتين، وشفتيه المبللتين، اللتين لم يبدُ أنني أستطيع أن أبعد نظري عنهما. أمسك بيدي مجدَّدًا وشدَّ عليها، قائلًا: «أعلم أنه لا يجب عليَّ ...».

هززت رأسي، وقلت: «لا يجب عليك».

لست حتَّى متأكدةً ممَّا كان على وشك قوله، ولكن لدي فكرة عن مكان عقله الآن، لأن عقلي هناك معه.

- أعلم. أنا فقط... لا يمكنني أن أكون قريبًا منك هكذا دون أن ألمسك.

تنفَّس بعمق، ثمَّ زفر في اللحظة ذاتها وهو يترك يدي. جَمَعَ كتبه ورماها في الحقيبة، ثمَّ وقف ووضع حقيبته على كتفه، ورفعت نظري إليه وكان هو أيضًا يحدِّق إليَّ من الأعلى، انتظرت أن يقول وداعًا أو يمشي مبتعدًا، لكنه لم يفعل أيًّا من هذا.

ظللنا على هذه الحال لعدة ثوانٍ أخرى؛ يحدِّق واحدنا إلى الآخر، إلى أن رمى حقيبته وعاد للجلوس في مقعده، شبك يده بشعري وضغط جبينه على جانب رأسي، لا فكرة لدي عمَّا يفعله، ولكنني أجفلت من اليأس في ضغطه علي. همس وهو يلصق فمه مباشرةً بأذني: «سلوان. أريد كل شيء فيكِ، أريده بشدَّة. أريده لدرجة تعميني».

شهقت بسبب كلماته، وتابع: «رجاءً كوني آمنة، إلى أن أستطيع مساعدتكِ للخروج من هناك. لا أعلم متى سأتمكن من ذلك، ولكن رجاءً، كوني حذرةً جدًّا».

أغلقت عيني بشدَّة عندما طبع قبلةً على جانب رأسي، ما من شيء لا أعطيه لقاء أن تقبِّل هاتان الشفتان فمي الآن.

كيف يمكن أن أحمل كل هذه المشاعر لشخص بالكاد أعرفه؟ لشخص لم يسبق لي أن قبلته حتًّى؟ لشخص هو تقريبًا كل ما أريده، ولكنه أيضًا متورِّط مع كل شيء أحتقره؟

قال كارتر: «إن أتيت إلى منزلك الليلة، فإنني لن أنظر باتجاهك حتًّى، ولكن لتعلمي أنكِ كل ما أراه، أنت كل ما أراه، اللعنة يا سلوان».

ابتعد عنِّي بالسرعة ذاتها التي أمسكني بها، التقط حقيبته مجدَّدًا ووقف، سمعت صوت خطواته وهو يبتعد، في حين بقيت جالسة بلا حراك، وعيناي مغمضتان، وقلبي يتخبط داخل صدري.

أريد المزيد من هذه المشاعر التي يولدها لدي، لكنني أريدها بعيدًا عن هنا، بعيدًا عن هذه المدينة، بعيدًا عن آسا. أعرف أن كارتر يريدني أن أرحل وأنا أريد هذا أيضًا، أريده بشده، ولكنني يجب أن أكون أكثر جاهزية له كي أتمكن من تحقيقه، وإن تمكنت من الرحيل، فعلى كارتر أن يرحل أيضًا، ليس عليه فقط أن يقطع صلاته بآسا، بل عليه أن يقطع صلاته بنمط الحياة الفاسد هذا الذي خلقه آسا.

كلانا يجب أن يرحل.

قبل أن يفوت الأوان...

***

الفصل الرابع والعشرون

آسا

لم يسبق لي قط أن كنت من النوع الذي يضطرُّ إلى التعامل مع أي هراء فائض لا يقدِّم لي النفع، وهذه حكمة أخرى علَّمني إياها والدي.. «الشيء الذي لا يحقِّق لك المنفعة، لا يجب أن يكون ذا أهمية لعينة بالنسبة إليك».

ربما تكون هذه النصيحة هي أفضل ما قدَّمه لي من نصائح، وإنني أُطبِّقها على كل جانب من جوانب حياتي؛ صداقاتي، وأعمالي، وتعليمي، وإمبراطوريتي.

أجل، لقد قلت إمبراطوريتي، لم أصِل إلى ذلك تمامًا بعد، ولكن يجب أن أتحدَّث هكذا كنوع من التفكير الإيجابي وكل ذلك الهراء، أليس كذلك؟

لم أكن ذا شأن في بداية عملي بتجارة المخدِّرات، بعت ما استطعت، في الوقت المتوفر لي، ولأي من استطعت الوصول إليه. في معظم الأوقات بعت حبوب «إكستاسي» لشباب الكلية، والحشيش للمتسرِّبين منها. ما إن أدركت أنني لست في المكان الذي يُجنى منه المال، أو تُطال من خلاله السلطة، بدأت بالدراسة.

مع بدء سِنِيِّ الدراسية في الكلية قضيت عامًا كاملًا وأنا أذاكر في كُلِّ دقيقةٍ من كُلِّ يومٍ، وإنني لا أتكلَّم هنا عن دراسة الهراء الموجود في الكتب،

والذي يضمن لك وظيفةً مكتبية بدوامٍ كاملٍ، ودخلٍ سنويٍّ يكفي لشراء منزلٍ واحدٍ، وسيارةٍ واحدةٍ، وزوجةٍ واحدةٍ. بل أتكلَّم عن الدراسة الحقيقية؛ أن توسِّع دائرة معارفك، وتصبح الشخص الذي يرغب الناس بمقابلته. أن تجرِّب العقارات الجيدة كالهروين والكوكايين، لتعرف فقط نوع العقار المناسب أكثر لكلِّ ديموغرافية. أن تعرف كيف لا تصبح مدمنًا، وتطوِّر علاقتك بالشخص الذي يزوِّدك بالمواد، وتصبح بالتالي الصديق المفضَّل لمورِّده هو نفسه. أن تبني ثقة مع من يملكون القوَّة أكثر منك، وتتصرَّف بهدوء بحيث يفاجؤون عندما تتفوَّق عليهم بالقوَّة، ليدركوا أن المياه كانت تسير من تحت أقدامهم دون أن يشعروا بها.

تعلَّمت الكثير، وتعلَّمت بالطريقة الصعبة؛ الطريقة الصحيحة. من الحضيض إلى القمة.

لا أؤمِّن العقارات التافهة الآن، مثل: عقار إكس، والحشيش، والحبوب. ولا أتعامل على وجه الخصوص مع الحشيش، فهو مجرَّد فائض لا يقدِّم لي المنفعة. أتريد الحشيش؟ انتقل إلى كولورادو اللعينة، واشترِ لنفسك بطاقة هدية لمتجر الحلويات. لا تُضِع وقتي اللعين.

لكن إن كنت ترغب في الحصول على الأشياء الجيدة... العقارات التي تجعلك تشعر وكأنك تقبِّل وجه السماء؟ عندها يجب أن تقصدني. لن أبيع لك سيارة «فورد»، ولكنني سأبيعك أندر سيارة «بوغاتي» لعينة قد تقع عليها عينك يومًا.

ما زلت في مرحلة البناء، وسوف أظل أبني دائمًا، فاللحظة التي يشعر فيها شخص في موقعي أنه ليس هناك شيء ليتعلَّمه، هي اللحظة ذاتها التي ستتم فيها تنحيته من قبل الشاب التالي. ما دمت أواظب على الاكتراث والمتابعة، فلن يتبقَّى مجال لأحد ليتبوَّأ مكانًا أعلى من مكان آسا جاكسون في هذه المدينة. لديَّ فريق جيد يعمل تحت يدي، شباب يعرفون أحجامهم، شباب يعرفون أنني سأكون عادلًا معهم ما داموا هم عادلين معي.

ما زلت أتعرَّف على الشاب الجديد؛ كارتر. معظم الناس واضحون، ولكنه أشبه ما يكون بنهرٍ موحلٍ لعينٍ. معظم الناس، وخاصَّةً الذين يعملون

لصالحي، يتملقون لي لأنهم يعلمون أنه شيء جيد أن يتمكّنوا من العمل تحت إمرتي.

كارتر مختلفٌ، إذ يبدو أنه لا يهتم البتّة بشيء. اختلافه هذا هو ما يثير أعصابي، إنه يذكّرني بنفسي قليلًا، وأنا لست واثقًا تمامًا من أن هذا أمر جيد. هناك مكان واحد فقط لنسخة واحدة مني.

رجُلي الأقدم؛ جون، قد بدأ مؤخرًا يصبح قذرًا، لقد سبق وكان يومًا ذراعي اليمين، لكنه مؤخّرًا بدأ يصبح نقطة ضعفي.

ما يعيدني إلى نقطتي الأولى؛ إن كان لا يحقّق لك المنفعة، لا يجب أن يكون ذا أهمية لعينة بالنسبة إليك.

إنني أعاني لأعثر على منفعة جون لي بعد الآن، إذ يبدو أنه لم يعُد يبرع إلا بإثارة الهراء أينما حلّ، في الأسبوع المنصرم فقد واحدًا من أكبر عملائي لأنه لم يستطع أن يقاوم إغواء زوجة العميل. حتّى أنا أعرف كيف أضع الحدود بين رغباتي ومحفظتي.

على عكس جون، فإن كارتر يقدم لي منفعة، إنه مترجمٌ جيدٌ، وهادئٌ. يحضر في المكان الذي ينبغي عليه الحضور إليه، ويفعل ما أريده أن يفعله. وهذا هو السبب الوحيد الذي يدفعني لعدم التخلُّص منه بعد، على الرغم من شكوكي به. لم تنتهِ صلاحيته بعد.

أما جون، جون يتحوّل إلى حملٍ زائدٍ.

لكن جون يعلم الكثير، والذي بدوره يشكّل مشكلةً أكبر حتّى.

مشكلة لجون، وليس لي.

بعيدًا عن عملي، تخلّصت من كل الفوائض في حياتي، إلا فيما يخصُّ سلوان، فهي رغم ذلك أبعد ما تكون عن أن تنتهي صلاحيتها. إن حاولت مقارنتها بعقار، فستكون سلوان عقار الهيروين. الهيروين جميل، الهيروين يجعلك لينًا، وما دمت تتعاطاه بكمية جيدة، فسيكون الهروين شيئًا تحقن جسدك به بسعادة يوميًا لآخر يوم في حياتك.

ربما من الغريب أن تقارن الناس بالعقارات، ولكن عندما تكون معرفتك كلها محصورة بالعقاقير، فذلك طبيعي.

سيكون جون عقار «ميث»؛ إنه مغرور جدًّا، يتكلَّم كثيرًا، ومؤلم أحيانًا. مؤلم بحق.

أما دالتون فهو مثل الـ «كوكايين»؛ اجتماعي، وودود، ويجعلك ترغب بالمزيد من الكوكايين. إنني أحب الكوكايين.

بالنسبة إلى كارتر...

ماذا سيكون كارتر؟

لا أظن أنني أعرف كارتر بما فيه الكفاية لأعرف أي عقار يشبه. ولكن لقرابة دقيقتين في الليلة السابقة عندما ظننت أن سلوان قد نطقت باسمه اللعين، كان كارتر جرعةً زائدةً لعينةً.

لكنها لم تقل اسمه، إنها، وعلى حد علمي، لم يسبق لها حتَّى أن تكلمت معه. وإن كان ذكيًّا فهذا يعني أنه لن يتحدث إليها نهائيًّا باستثناء تقديمي أحدهما للآخر في المطبخ.

ولكنني قريبًا لن أشعر بالقلق حيال الشبان حولها، فهي لن تستمر بالعيش في هذا المنزل، بل ستعيش في منزلنا.

تبًّا.

اللعنة!

كان يجب أن أبتاع خاتمًا لعينًا اليوم، علمت أنني قد نسيت شيئًا ما.

فتحت خزانتي لأرتدي ثيابي، خطر لي أن أرتدي بزتي من ماركة «أرماني»، فكما تعلمون اليوم يوم مميز... إلى آخر هذا الهراء. ولكنني عوضًا عن ذلك أخرجت قميصًا بأزرار ذا لون أزرق داكن، أعرف أن سلوان تحبه، وبنطالًا قماشيًّا. لا يهم حقًّا أي ملابس أخرجها من الخزانة، فكل ملابسي رائعة، لطالما اعتدت أن أرتدي ثيابًا تتماشى مع كمية الاحترام التي أرغب بالحصول عليها.

ولا، لم يعلِّمني والدي اللعين هذا الأمر، ربما كان استطاع أن يحسِّن صورته في المجتمع لو أنه لم يكن يرتدي ثياب المتسولين كاشفًا عن حقيقته.

عندما وصلت إلى دكة الدَّرج، ونظرت إلى المطبخ، رأيت جون يقف عند الحوض وظهره لي، وهو يمسك بكيس ثلجٍ يضغطه على جانب رأسه.

- ما الذي حدث لك؟

استدار، وكان جانب رأسه الأيمن اللعين ملطَّخًا بأكمله بكدمات زرقاء وسوداء.

- يا للمسيح يا رجل، من الذي بحقِّ الجحيم فعل هذا بك؟

رمى جون كيس الثلج في الحوض، وأجاب: «لم يفعله أحد مهم».

مشيت إلى داخل المطبخ، وبدا وجهه عن قرب أكثر سوءًا، وإن كان يعتقد أنه لا يمكنه إخباري من فعل هذا به، فهو مخطئ. إن كان قد تسبَّب لنا بخسارة عمل آخر، فالجانب الأيسر من وجهه سيبدو أسوأ بكثير من الأيمن. التقطت مفاتيحي عن البار، وسألته مجدَّدًا: «من الذي بحقِّ الجحيم فعل هذا بك يا جون؟».

أرخى حنكه، وأبعد نظره عنِّي وأجاب: «وغد حقير قبض عليَّ مع فتاته في الليلة الماضية. ضربني على حين غرة. تبدو الكدمات أسوأ ممَّا كان عليه الأمر».

أحمق لعين. ضحكت قائلًا: «لا، أنا متأكد أن وجهك يبدو سيئًا بمقدار سوء الوضع».

مشيت إلى المخزن وتحقَّقت من رصيد الكحول لدينا، وجدته فارغًا كالعادة، صفعت باب المخزن، وقلت لجون: «سوف نحتفل الليلة، أريدك أن تبتاع الحاجيات اليوم، فأنا لدي عمل لإنجازه».

أومأ جون وسأل: «مناسبة خاصَّة؟».

- أجل، لقد خطبت. اجعل الأمر كلاسيكيًّا، لا تبتع أيًّا من الهراء الرخيص.

توجهت نحو الباب الأمامي، وسمعت جون يضحك، عندما استدرت كان اللعين ما يزال يبتسم، فسألته وأنا أعود إلى المطبخ: «أهناك ما يُضحك؟».

هزَّ رأسه وأجاب: «أهناك شيء لا يُضحك في حقيقة أنك ستتزوج يا آسا؟».

ضحكت، ثمَّ شوَّهت الجانب الأيسر من رأسه.

فائض لعين.

***

الفصل الخامس والعشرون

كارتر

نجحت، بطريقةٍ ما، في الوصول إلى سيارتي في المرأب، أمسكت بعجلة القيادة، وأرجعت رأسي إلى الخلف.

لا أملك أية فكرة أين هو الحد الذي لا يجب تجاوزه الآن، إنني مشوَّشٌ بشدَّة. أحاول أداء المهمة التي أنا هنا لأدائها، ولكن سلوان تجعلني أتساءل ما إن كانت هذه الحياة أصلًا هي الحياة التي أريدها حتّى. لا أعرف إن كان الشخص الذي تكلَّم توًّا مع سلوان هو كارتر، أم أن لوك قد استلم زمام الأمر بالمطلق. إن لوك يتحوَّل إلى كارتر.

إنني أقحم أجزاءً كبيرةً من نفسي الحقيقية في هذه المهمة، ولكنني لا أستطيع بأي شكل ألا أكون نفسي وأنا معها. كل الأشياء التي أريد أن أقولها لها، الأشياء التي أتمنّى لو بإمكاني فعلها لها، الحقيقة التي أتمنّى لو يمكنني مكاشفتها بها.

لكن إن أخبرتها حقيقة من أكون، وما الذي أفعله هنا، سأخاطر بكل شيء؛ حياتي، وحياة رايان، وربما حياتها. كلما قلَّ ما تعرفه كان ذلك أفضل.

ضغطت جبيني على عجلة القيادة، وحاولت أن أتخيل العاصفة الهوجاء التي تشق طريقها إلينا الآن لا محالة.

أريد أن أكون معها، أريد أن أكون معها بصفتي لوك، ولكن ذلك لا يمكن أن يتحقق قبل أن تصبح لدينا أدلةً تكفي لاتهام آسا، والتخلص منه نهائيًا، والذي بدوره لن يتحقق حتَّى يبدأ بارتكاب الهفوات، إنه حريص الآن، وأذكى ممَّا ظننت في البداية.

ولكن كلما طال الوقت الذي نحتاجه إلى الوصول إلى حيث نرغب في هذا التحقيق، كلما ازدادت بالتالي المخاطر التي تتعرض لها سلوان، وبناءً على ما أعرفه حتَّى الآن عن آسا، فإن هجرها له سيكون أسوأ ما قد تفعله، فمن المستحيل أن يدعها تعيش بسلام، سوف يؤذيها، ولن أستبعد منه محاولة إيذاء أخيها أيضًا.

إنها عالقة معه إلى أن نتمكن من الإيقاع به، وذلك قد يستمر لأشهر.

أرجعت ظهري إلى المقعد مجدَّدًا، والتقطت هاتفي، ورأيت ما جعلني أشعر وكأنني قد وقعت ضحية خدعة ما. وجدت رسالتين من آسا..

«أين أنت؟»

«قابلني في الظهيرة لنتناول الغداء معًا. إنني جائع بشدَّة».

حدقت إلى الرسالتين لبضع ثوانٍ، ليست المراسلة هكذا من طباعه، إنه لا يستعمل هاتفه العام للمراسلة عندما يتعلق الأمر بعمل ما... أيريد فعلًا أن يتناول الغداء معي فقط؟ أرسلت إليه ردًّا.. «سأكون عندك خلال عشر دقائق».

***

بعد اثنتي عشرة دقيقة كنت ألوِّح لآسا وأنا أشق طريقي عبر المطعم إلى طاولته، عندما وصلت إليه وجلست قبالته كان نظره مثبَّتًا على هاتفه، فقال دون أن يرفع عينيه إليَّ حتَّى: «أهلًا».

أنهى كتابة الرسالة على هاتفه ثمَّ وضعه جانبًا، وسألني: «هل أنت مشغول الليلة؟».

هززت رأسي، والتقطت قائمة الطعام وأنا أجيب: «لا، لماذا؟».

ألقيت نظرة على محتويات القائمة، ولم أكن بحاجة إلى أن أنظر إليه لأدرك أنه كان يبتسم، مد يده خلفه ثمَّ وضع شيئًا ما على الطاولة، أنزلت القائمة ووقعت عيناي على علبة.

علبة مجوهرات.

ما هذا بحقِّ الجحيم؟

فتح العلبة، ومدَّ يده بها إليَّ، حدَّقت إلى الخاتم، وشعرت بحكَّة في وجهي ناجمة عن الرهبة. هل سيتقدَّم لخطبتها؟

حاولت ألا أضحك، إنه واهم لعين إن كان يعتقد أنها ستوافق. كما أنه لا يعرف سلوان جيدًا كما يظن، لأن هذا الخاتم لا يشبهها في شيء، إنه مبهرج وصارخ، وسوف تكرهه كثيرًا.

- هل ستتقدم لخطبتها؟

أرجعت إليه العلبة، وتناولت قائمة الطعام مجدَّدًا، وكأن الأمر لا يعنيني بشيء.

- لا، لقد تقدمت لها بالفعل. اليوم سوف نحتفل.

طارت عيناي عن القائمة، وحطَّتا على عينيه مباشرةً، وقلت: «هل وافقت؟».

لم أتخيَّل يومًا أن الإيماءات يمكن أن تكون مغرورة إلى الآن. أجبرت نفسي على الابتسام، وقلت: «مبارك يا رجل. إنها تبدو كشخص قيِّم».

لماذا لم تأتِ على ذكر الأمر هذا الصباح؟ لماذا قد توافق على الزواج منه؟ أعتقد أنها تشعر أنها محاصرة، لا يمكنها حقًّا أن تجيب على طلب آسا بالرفض في ظل وضعها الحالي، جوابها بالموافقة على طلبه كان الشيء الأكثر أمانًا لفعله، حتَّى ولو كان يجعلني قلقًا عليها.

أنا فقط لا أعلم لماذا لم تخبرني.

أعاد العلبة إلى جيب معطفه، وقال: «إنها شخص قيِّم، إنها هيروين».

رفعت أحد حاجبيَّ، متسائلًا: «هيروين؟».

تجاهل سؤالي، ونادى على النادل قائلًا: «أريد بيرة. أيًّا كان النوع الذي لديكم، وكذلك أرغب بشطيرة تشيز برجر».

نظر النادل إليَّ فقلت: «الطلب ذاته».

أعدنا قائمتي الطعام إلى النادل، وشعرت برجة هاتفي في جيبي، هذا على الأرجح دالتون، لقد راسلته في طريقي إلى هنا لأخبره أنني سأتناول الغداء مع آسا، ليست لديَّ أيُّ فكرة عن سبب رغبته بتناول الغداء معي، ولكنني أردت أن أحرص على معرفة الفريق بمكاني، لا سيَّما بعد أن نطقت سلوان باسمي في نومها، إذ إنني قد توقعت نوعًا ما أن موافقتي على تناول هذا الغداء معه هي بمنزلة محاولة انتحار.

رشفت رشفة من الماء الموضوع بالفعل على الطاولة، وسألته: «إذَنْ، متى سيكون اليوم الكبير؟».

هز كتفيه وأجاب: «لا فكرة لديَّ. قريبًا. أريد أن أخرجها من هذا المنزل اللعين قبل أن تتأذَّى. إنني لا أثق بأي شخص لعين من المحيطين بها».

يا لوعيه! لكنه جاء متأخِّرًا يومًا واحدًا، إلا أنني متأكد من أن جون لم يخبره. كذبت عليه قائلًا: «ظننت أنها تحب الإقامة في هذا المنزل. أليست علاقتكما نوعًا ما من العلاقات المفتوحة؟ كيف ينجح هذا الأمر؟».

ضاقت عينا آسا، وقال: «لا، لسنا في علاقة لعينة مفتوحة. لماذا بحقِّ الجحيم قد تظن ذلك؟».

ضحكت، وذكرت، على نحو اعتباطي، كل الأسباب التي تدفع شخصًا يرى الأمور من مكاني ليفكر بشيء كهذا، على الرغم من أني أعرف أكثر ممَّا أذكر، وقلت: «جيس؟ الفتاة التي ضاجعتها في غرفة نومك الأسبوع الماضي؟ الفتاة في المسبح قبل ليلتين من الآن؟».

ضحك آسا، وأجاب: «أمامك الكثير لتتعلَّمه عن العلاقات يا كارتر».

أرجعت ظهري إلى كرسيَّ، حاولت أن تستمر هذه المحادثة دون أن أبدو شديد الاهتمام بها، لكنني أرغب بمعرفة كل تفصيل يتعلق بالسبب الذي يجعله يضيع وقت سلوان. وقلت: «ربما يكون كلامك صحيحًا. لقد افترضت أن معظم العلاقات تكون بين شخصين فقط، لكن يبدو أنني مخطئ. العلاقات تربكني، وكذلك تفعل علاقتك».

- وكذلك تفعل علاقتك؟ من بحقِّ الجحيم يتكلَّم بهذه الطريقة؟

قاطع حديثنا النادل الذي أحضر لنا البيرة، وتناول كلٌّ منا مشروبه، ثمَّ أزاح زجاجته إلى جانب الطاولة، وانحنى إلى الأمام، ونقر بسبابته على الطاولة، قائلًا: «دعني أعطيك بعض المعلومات عن العلاقات يا كارتر، لتنتفع منها في حال وجدت نفسك يومًا ما في علاقة».

ينبغي أن يكون هذا مثيرًا للاهتمام. سألني: «هل والدك على قيد الحياة؟».

- لا، لقد توفي عندما كنت بعمر السنتين.

هذه كذبة، إذ أن والدي قد وافته المنية قبل ثلاث سنوات من الآن.

- حسنًا، هذه هي مشكلتك الأولى؛ لقد تربَّيت على يد امرأة.

- هذه مشكلة؟

أومأ بالإيجاب، وتابع: «لقد علَّمتك امرأةٌ الحياة، الكثير من الرجال حدث معهم ذلك أيضًا، لا بأس بذلك. ولكن هذه هي مشكلة أولئك الرجال، يجب على الرجال أن يتعلَّموا على أيدي رجال، إننا نتصرَّف على نحو مختلف عمَّا يقود المجتمع النساء إلى تصديقه».

لم أرُدَّ بشيء، بل انتظرت أن يتابع هذا العرض النادر من العبقرية الخيرية.

- طبيعة الرجال غير مصمَّمة للالتزام بامرأةٍ واحدةٍ، إنه لأمر راسخ بنا أن ننشر ذريتنا، وذلك لاستمرار التعداد السكَّاني. إننا بالأصل ناسلون، وعلى الرغم ممَّا يحاول المجتمع فرضه علينا، إلا أننا سنبقى خالقين للحياة إلى أن نقتل أنفسنا بأنفسنا. ولهذا السبب فنحن نظل مثارين جنسيًا طوال الوقت.

نظرت إلى يساري، إلى سيدتين كبيرتين بالسن كانتا تجلسان وفميهما مفتوحان على اتساعهما، نتيجة استراقهما السمع إلى تعريف آسا لشخصية الذكور. قلت مشيرًا إلى حقيقة: «النساء هن من يلدن، ألا يعتبرن أيضًا خالقات للحياة؟ ألن تكون فكرة التكاثر مزروعة أيضًا في تركيبهن الكيميائي؟».

هزَّ رأسه، وأجاب: «إنَّهن مربِّيات، واجبهنَّ أن يحافظن على حياة النوع، لا أن يخلقنه. بالإضافة إلى أن النساء لسن مهتمَّات بالجنس كالرجال».

أتمنَّى لو أنني كنت أسجل هذا. سألته: «ألسن كذلك؟».

- اللعنة.. لا. إنهن يسعين إلى التعبير عن الأفكار والعواطف والمشاعر. يردن أن يشكّلن ارتباطًا... رابطًا على مدى الحياة. ولهذا يضغطن علينا للزواج، لأنه وبتركيبهنّ البيولوجي، فهُنّ تبحثن عن حامي ومزود، إنهنّ يردن الاستقرار، منزل ومكان ليربّين أطفالهنّ به. لا تملك النساء توقًا فيزيائيًا للعلاقات مثلنا نحن الرجال، لذا فمن العادل أننا نخلق العائلات للإناث، لكننا أيضًا يجب أن نوفر لنا منفذًا لتلبية حاجاتنا الطبيعية. عندما يضاجع الرجال إناثًا يمنةً ويُسرة فذلك مختلف عن أن تضاجع النساء رجالًا كيفما اتفق.

أومأت برأسي كتعبير عن أنني أفهم فلسفته، ولكن هذه الفلسفة جعلتني مستاءً من أجل سلوان، فسألته: «إذَنْ برأيك، فأنت تعتقد أن النساء ليس لديهنّ مبرِّرٌ بيولوجيٌّ لمضاجعة أكثر من رجل واحد، بينما الرجال فذلك مباح لهم؟».

- تمامًا. عندما يخون رجل امرأته فذلك أمر فيزيائي بحت. نحن ننجذب لأوراك النساء، لسيقانهن، ولمؤخراتهن، وأثدائهن، لذا فالأمر كله بالنسبة إلينا متعلّق بإقامة علاقة جنسية معهن. أما عندما تخون المرأة فذلك أمرٌ روحيٌّ تمامًا، إذ إنهن يشعرن بالإثارة بسبب العواطف، ومشاعرهن هي منبع إثارتهن. إن ضاجعت المرأة رجلًا فذلك ليس لأنها مثارة جنسيًا، بل لأنها ترغب بأن يقع في غرامها. ولهذا فأنا يمكنني أن أضاجع نساء أخريات غير سلوان، أما هي فمحرَّم عليها أن تضاجع أحدًا غيري. الخيانة بالنسبة إلى الرجل مختلفة عن خيانة المرأة، وهذه حقيقة، تثبتها الطبيعة الأم بنفسها.

يا للجحيم! الناس الذين يفكّرون بهذه الطريقة موجودون حقًا، ليساعدنا الله!

- وسلوان موافقة على هذا؟

- هذا هو الأمر يا كارتر؛ النساء لا يفهمن هذه الحقيقة وذلك لأنهن لم يُصنعنَ بالطريقة التي صُنعنا بها، ولهذا السبب فقد مُنح الرجال القدرة المميزة على الكذب ببراعة.

ابتسمت، في حين أن ما كنت أرغب حقًا بفعله هو أن أمدَّ يدي عبر الطاولة، وأن أضع نهاية لهذه القدرة على التكاثر، نهاية لقدرته على خلق

حياة وإنجاب طفل قد ينتهي به الأمر ليكبر ويصبح مثل أبيه. سألته: «إذَنْ ما الدور الذي تلعبه العشيقات في كل هذا؟».

ضحك على نحو مقزِّز، وأجاب: «لهذا السبب وُجِدَت العاهرات يا كارتر».

أجبرت نفسي على الابتسام، إنه محقٌّ بشأن أمر واحد فقط، فأنا كرجل يمكنني الكذب ببراعة شديدة، وقلت: «إذَنْ العاهرات من أجل تلبية الطبيعة الذكرية، والزوجات من أجل التربية».

ابتسم آسا بفخر، وكأنه قد علَّمني فعلًا شيئًا ما، رفع زجاجة البيرة، وقال: «نخب هذا».

طرقنا زجاجتينا معًا، ورشف رشفةً، وأضاف: «اعتاد أبي أن يقول لي أشياء مشابهة لهذا».

- هل ما زال على قيد الحياة؟

أومأ آسا بالإيجاب، لكنني لاحظت الشَّدَّ المفاجئ في فكِّه، وقال: «أجل. في مكان ما».

وصل طعامنا، ولكنني لم أعد متأكدًا من رغبتي في تناول الطعام بعد هذه المحاضرة الداروينية الملتوية. لقد فقدت رغبتي بالأكل حتمًا الآن بعد أن علمت أنني سأرى سلوان الليلة، في حفل خطوبتها اللعين.

- يجب أن ترفع نخبًا الليلة.

توقَّفت عن المضغ، وقلت: «عذرًا؟».

رشف آسا من مشروبه، وقال: «الليلة». ثمَّ أعاد الزجاجة إلى الطاولة، وتابع: «في الحفل، يجب أن ترفع نخبًا بعد أن أعلن خبر الخطوبة. إذ يمكنك أن تصوغ جملة على نحو أفضل بكثير من أي وغد سيكون هناك. اقترح لي نخبًا جيدًا، ستحب سلوان هذا الهراء».

أجبرت نفسي على تمرير اللقمة عبر حلقي، وقلت: «يشرِّفني ذلك».

ابن اللعينة.

***

الفصل السادس والعشرون

سلوان

أُبدِّد يوميًا كل ما أستطيعه من الوقت قبل العودة إلى المنزل، فكلما قلت مدة تواجدي هناك، كان هذا أفضل. بعد أن انتهت الحصص الدراسية لهذا اليوم، ذهبت إلى النادي الرياضي، ثمَّ إلى المكتبة. كانت الساعة قد تجاوزت السابعة عندما دخلت إلى منزلي من الباب الأمامي، كان جون جالسًا على الأريكة، يحدِّق إليَّ.

أسرعت الخطو عبر السلالم لأصعد إلى غرفتي بأقصى ما يمكنني من سرعة، ولكن لم يحدث ذلك دون أن ألاحظ الكدمات في وجهه، لا أعرف ما الذي حدث بعد أن تركته هو وكارتر في الليلة الماضية، ولكن من الواضح أن كارتر لم يكن قد انتهى منه بخروجي، لأن كلًّا من جانبَيْ رأسه ملطخان بالأسود والأزرق الآن.

حرصت على إقفال باب غرفة النوم خلفي، لا أعرف إن كان آسا هنا أم لا، لكنني لن أخاطر مجدَّدًا باحتمال أن أكون وحيدةً، وجون موجود في الأرجاء.

ما إن أصبحت آمنةً في غرفتي، حتَّى رميت حقيبة ظهري على الأرض، وفي الحال وقعت عيناي على الخزانة ذات الأدراج، وبالتحديد على علبة المجوهرات الملقاة عليها.

لقد اشترى لي خاتمًا. في العادة يقطع لي على نفسه الوعود تقريبًا بشكل يومي، ولا يفي بها البتَّة. المرَّة الوحيدة التي أردته فيها أن ينسى وعده، هي المرَّة الوحيدة التي تذكره فيها.

يا لحظِّي!

مشيت نحو الخزانة، وفتحت العلبة دون أن ألتقطها حتَّى، بل فقط ضغطت عليها بإصبعي وهي في مكانها لتفتح، غير راغبةٍ حقيقةً برؤية الخاتم.

بمجرَّد رؤيتي له تغضَّن وجهي، بالطبع سيرغب بشراء هذا الخاتم لي، فهو على الأرجح أكبر الخواتم الموجودة في محل المجوهرات، وهو عبارة عن ثلاثة فصوص من الألماس تغطِّي معظم الخاتم المصنوع من البلاتينيوم، وكل ألماسة منها متوَّجة بواحدة أصغر حجمًا.

إنه فعلًا قبيح كالقاذورات، هل سيتحتَّم عليَّ حقًّا أن أضع هذا الشيء في إصبعي؟

لا يمكن إخفاء هذا الأمر، عرفت أنه كان ينبغي عليَّ إخبار كارتر اليوم، لكنني فقط لم أعرف كيف سأخبر الشاب الذي بدأت أحس بمشاعر تجاهه أنني قد خُطِبتُ للتَّوِّ لشخص آخر، شخص يحتقره، حتَّى وإن كانت هذه الخطوبة لا تعني لي شيئًا.

سمعت صوت ضحك في الخارج، لذا ذهبت نحو شباك غرفة النوم لأرى ما الذي يحدث، هناك ثلاجات في كل مكان، وكارتر يقف قرب الشواية يقلب أقراص البرجر، ثمَّة العديد من الأشخاص الذين يتسكَّعون ويجلسون هنا وهناك، ربما يبلغ عددهم عشرين شخصًا، لا بُدَّ أن آسا قد سخَّن المسبح، فالحرارة في الخارج قرابة 18 درجة مئوية، وسيكون الماء شديد البرودة للسباحة، ولكن هناك بضعة أشخاص في المسبح بالفعل.

لا يسخِّن آسا في العادة المسبح إلا من أجل الحفلات الكبيرة.

اللعنة.

استدرت عندما طُرِقَ باب غرفة النوم، وناداني آسا: «سلوان!».

أسرعت إلى الباب وفتحت القفل، لأسمح له بالدخول. كان يبتسم حتَّى قبل أن ينظر في عينيَّ، وقال: «مرحبًا يا زوجتي المستقبلية».

من المضحك أن التعبير الذي يعتبره هو نوعًا من التحبُّب، أجده أنا مهينًا بالنسبة إليَّ.

- أهلًا... زوجي المستقبلي.

طوَّقني بذراعيه، وقبَّل عنقي، قائلًا: «أتمنَّى أن تكوني قد نمتِ بما فيه الكفاية الليلة الماضية، لأنكِ لن تنامي الليلة البتَّة».

سحب شفتيه على طول عنقي، ثمَّ توقَّف عند زاوية فمي، وسألني: «أتريدين الحصول على خاتمك الآن أم لاحقًا؟».

لم أستطع أن أقول له إني قد رأيت الخاتم بالفعل، وأنه مجرَّد إثبات آخر على كونه لم يعرفني قط. أعلمته برغبتي بالحصول عليه الآن، لأنني إن قلت لاحقًا فهذا يعني أنه سيضخِّم الأمر ويعطيه أكثر ممَّا يستحق، وهذا آخر ما أرغب به.

مدَّ يده إلى الخزانة، والتقط العلبة، ومرَّرها لي، لكنه بعد ذلك سحب يده، وقال: «انتظري، يجب أن أفعل هذا كما يجب».

ركع على ركبةٍ واحدةٍ، ورفع العلبة، وهو يقدِّم الخاتم إليَّ، قائلًا: «هل تمنحينني الشرف وتقبلي بأن تكوني السيدة آسا جاكسون؟».

جدِّيًّا؟ لا بُدَّ أن يكون هذا أسوأ عرض زواج في التاريخ، هذا إن لم تأخذ بالحسبان ذاك الذي قدَّمه لي هذا الصباح بعد أن كانت يده تقبض على حلقي. قلت له: «لقد سبق ووافقت بالفعل أيها الأحمق».

ضحك، ووضع الخاتم في إصبعي. نظرت إليه وأنا أرفعه نحو الضوء، لم أكن أعلم أن الجحيم برَّاق إلى هذه الدرجة.

وقف آسا ومشى نحو خزانة الملابس، ثمَّ خلع قميصه الأزرق الذي يرتديه، وشرع في اختيار لباس آخر. وقال: «يجب أن نرتدي ملابس متطابقةً اليوم. قميص أسود وفستان أسود».

سحب قميصًا، ثمَّ رمى فستانًا أسود ناحيتي، فالتقطته، وأضاف: «سأرتاح كثيرًا عندما نحصل على مكاننا الخاص قريبًا، ونتمتَّع بخزانتين منفصلتين».

شددت قبضتيَّ على الفستان، وقلت: «مكاننا الخاص؟».

ضحك وأجاب: «أنت لا تظنِّين أنني سأتزوَّجكِ وأبقيكِ في هذا المنزل، أليس كذلك؟».

- تبقيني؟

رفع القميص الأسود فوق رأسه، وبدأ يضحك من نفسه وهو يزرِّره، ثمَّ قال على نحو عَرَضِيٍّ في أثناء جلوسه على السرير: «تناولت الغداء مع كارتر اليوم».

الغداء؟ ماذا؟ لقد انتهى درسنا معًا في وقت الغداء. هل غادر كارتر الفصل بعد أن منحني تلك الأحاسيس التي شعرت بها، ثمَّ ذهب مباشرةً لتناول الغداء مع آسا؟

لماذا؟

جلست على الطرف الآخر من السرير، وقلت متصنِّعةً اللا مبالاة: «أوه، حقًّا؟».

كان آسا قد بدأ بسحب زوج من الجوارب عندما قال: «إنه ليس سيئًا جدًّا. بل يعجبني نوعًا ما. ربما أكون أيضًا قد طلبت منه أن يكون إشبينًا في عرسنا».

هل بدأ بالفعل بالتخطيط لحفل الزفاف؟

ارتدى آسا حذاءه، ثمَّ وقف واستدار نحو المرآة ومرَّر يديه الاثنتين في شعره، وهو يقول: «هل فكَّرتِ من التي ستكون إشبينتك؟ أنتِ ليس لديكِ حقًّا أي صديقات، أليس كذلك؟».

لقد جعلت أمر الحصول على صديقات صعبًا بالنسبة إليَّ يا آسا.

- لقد خُطِبنا هذا الصباح فقط، ثمَّ كان لديَّ صفوف طوال اليوم، لذا لم يتسنَّ لي الوقت فعلًا للتفكير بتفاصيل الزفاف.

- يمكنكِ أن تطلبي من جيس أن تكون وصيفتكِ.

أومأت، ولكنني كنت أضحك من الداخل، فجيس تكرهني، ولا أعرف سبب هذا، ولكن الفتاة لم تنظر تجاهي خلال ستة أشهر، مهما حاولت أن أتواصل معها.

- أجل، يمكنني أن أطلب ذلك من جيس.

فتح آسا باب غرفة النوم، وأشار إلى الفستان الذي ما زلت أشد قبضتيَّ عليه، وقال: «استحمِّي واستعدِّي، أريدكِ أن تكوني في قمة أناقتك الليلة من أجل الإعلان الكبير».

أُغلِقَ الباب خلفه، ونظرت نحو الأسفل إلى الفستان، وإلى الخاتم.

هذه الحفرة التي أحفرها لنفسي بدأت تصبح أعمق، وإن لم أجد قريبًا طريقةً لأتسلَّق وأخرج منها، سوف يسدُّها آسا بالأسمنت.

***

يفضِّل آسا شعري منسدلًا، أعرف ذلك لأنني سبق وحاولت أن أجعِّده مرَّتين من قبل، لكنه طلب منِّي أن أعيده إلى ما كان عليه. حدثت المرَّة الأولى بعد أن بدأنا بالمواعدة مباشرةً، وذلك عندما قدَّمني لكل من جون وجيس لأول مرَّة. والمرة الثانية في الذكرى السنوية لارتباطنا، عندما ذهبنا للعشاء في مطعم حيث حجزت طاولتنا بنفسي، عشاء الذكرى السنوية ذاك الذي اضطررت لتذكيره به قرابة ثلاث مرات.

قال إن أمه كان لديها شعر مجعَّد، وهو يفضِّل شعري منسدلًا.

لا أعرف شيئًا عن عائلته، سوى أنه ليس لديه عائلة. وأن تلك كانت الجملة الوحيدة التي ذكرها عن شعر أمه، هي المرَّة الوحيدة التي جاء بها على ذكرها طوال سنوات معرفتي به.

أجل... ها أنا ذا، أقف أمام المرآة وبيدي جهاز تجعيد الشعر، أجعِّد بعض الخصلات في شعري، وذلك ببساطة لأنني أعرف أن كارتر يحب شعري المجعَّد، إذ سبق وأمسكت به يحدِّق إلى شعري في المرَّات التي كان ثمَّة خصلات مجعَّدة فيه، وكأنه يتمنَّى لو بإمكانه لمسه، يتمنَّى لو بإمكانه أن يمرر يده كلها عبر شعري ويسحب وجهي إلى وجهه. وعلى الرغم من أنه سيكون في النهاية البعيدة عنِّي من الغرفة، ولن ينظر حتَّى تجاهي الليلة، على الرغم من هذا وذاك فقد جعَّدت شعري من أجله، من أجله.

لا من أجل خطيبي.

صوت الموسيقى عالٍ، والمنزل مكتظٌّ بالناس، وقد مضى على وجودي في مرحاضي لإتمام استعدادي للحفل ساعة ونصف، وبالطبع قضيت ساعة من هذا الوقت وأنا على الأرجح أحدِّق إلى انعكاس صورتي في المرآة، متسائلةً كيف بحقِّ الجحيم أوصلت نفسي إلى هذه النقطة في الحياة. ولكن يجب عليَّ أن أتوقَّف عن الإسهاب بالتفكير بكل القرارات السيئة التي اتَّخذتها في حياتي، وأبدأ بإيجاد طريقة لاتخاذ قرارات أفضل من الآن وصاعدًا.

أذهب لرؤية أخي يوم الأحد، والآن، وبما أن تكاليف العناية به تُدفَع على نحو خاص، لم أعد أجتمع مع العاملة الاجتماعية لتوقيع استماراته السنوية، ولكنني أعتقد أنني سأنظِّم لقاءً معها يوم الأحد القادم وأنا هناك، إذ أرغب بمعرفة كيف يمكنني أن أعيد استحقاقاته إلى وضعها السابق دون معرفة آسا بالأمر.

طرق أحدهم باب المرحاض، لذا وضعت جهاز التجعيد جانبًا وأطفأته، فتحت الباب لأجد آسا واقفًا وهو يمسك بإطار الباب، فحصتني عيناه من الأعلى للأسفل وبالعكس، وقال وهو يخطو إلى الداخل: «يا للجحيم!».

لف ذراعه حول خصري، ومدَّ يده الأخرى إلى فخذي، وهو يرفع فستاني باستخدام أصابعه، وقال: «كنتُ أخطِّط أن أنتظر إلى أن نصبح في سريرنا الليلة، ولكنني لست واثقًا من قدرتي على الانتظار».

تفوح رائحة الويسكي من أنفاسه، أشُكُّ أن الساعة قد بلغت حتَّى التاسعة مساءً، ورغم ذلك فها هو قد قطع نصف المسافة نحو الإصابة بالإغماء من تأثير السكر.

دفعته من صدره، وقلت: «حسنًا، يجب عليك أن تنتظر. لقد انتهيت للتَّوِّ من استعدادي للحفل، وإنني لأحب أن أكون قادرة على تعذيبك بهذا الفستان لعدة ساعات أخرى على الأقل».

تأوه ودفعني على القاطع، وهو يضغط نفسه بين ساقيَّ، وقال: «سلوان، كيف يمكن لرجل واحد أن يحظى بكل هذا الحظ؟».

أغمضت عينيَّ بينما كان يقبِّلني أسفل كتفيَّ. كيف يمكن لفتاة واحدة أن تنال سوء الحظ هذا كله؟

أمسك بخصري، وسحبني من على القاطع، ولكنه لم ينزلني على قدميَّ أيضًا، بل رفعني بين ذراعيه، وأُجبرت على أن ألفَّ ذراعيَّ حول عنقه لأثبِّت نفسي، وقبل أن نصل إلى ناصية الدرج، توقَّف، وأنزلني على قدميَّ، قائلًا: «انتظري هنا».

ثم اختفى من أمام ناظريَّ، نازلًا بقية السلالم، متوجهًا إلى المطبخ.

نظرت إلى غرفة المعيشة والأشخاص المجتمعين فيها، اللعنة، هناك الكثير منهم. وقعت عيناي على جيس وهي تحدق إليَّ، وابتسمت لها فأشاحت بنظرها عني، ولكنني متأكدة تقريبًا أنها قد انكمشت قبل أن تبعد نظرها.

لا فكرة لديَّ ما الذي فعلته لها، أو لماذا تكرهني كل هذه الكراهية. ولكنني وبصراحة، معتادة على الأشخاص الذين يعاملونني بهذه الطريقة. وقد توقَّفت عن شغل نفسي بمعرفة الأسباب أو فهمها قبل أن أصل حتَّى إلى المدرسة الثانوية.

استخدمت أصابع يدي اليمنى لأتحسَّس الخاتم الموضوع في اليد اليسرى، وأقلِّبه في إصبعي بعصبية. أعتقد أن الميزة الوحيدة في حجم هذا الخاتم الهائل، هو أنه يمكنني استخدامه في الدفاع عن النفس. قد يكون مفيدًا إن وجدت نفسي مجدَّدًا في وضع محرج بحيث أكون وحيدة مع جون.

شعرت بالقلق يزحف إلى معدتي قبل حتَّى أن أراه يحدِّق إليَّ. كان كارتر في الطرف الآخر من غرفة المعيشة، منحنٍ على الجدار بجانب دالتون، ذراعاه معقودتان معًا، وتنفيذًا لوعده، لم يكن ينظر إليَّ مباشرةً، بل كان نظره منخفضًا إلى مستوى يديَّ.

توقَّفت عن تقليب الخاتم في إصبعي، وعندما فعلت ذلك تحوَّلت عيناه إلى عينيَّ. كانت عيناه مغمضتين نصف إغماضة، وفكُّه مشدود بثبات، ودالتون يقف إلى جانبه يضحك ويتكلم وكأن كارتر منغمس بالحديث معه. ولكن كما سبق وقال كارتر؛ فهو لا يرى أي شيء آخر، إنه يراني فقط. لم تتزعزع تعابير وجهه، حتَّى عندما عاد آسا وبيده كأسان من الشامبانيا ودفع إحداهما بالقوَّة بين يديَّ، حتَّى عندما حدث ذلك لم يُشِح كارتر بنظره، بدا الأمر تقريبًا وكأنه يعذِّب نفسه لغاية ما.

حاولت أن أجنِّبه بعض الألم وأبعد نظري عنه أولًا، وعلى الأرجح لم أُسْدِ له أية خدمة بتحويل نظري إلى آسا، ما زلت أشعر بعينيه عليَّ عندما رفع آسا كأسه، وصاح: «أيها الأوغاد! أطفئوا الموسيقى».

انقطع صوت الموسيقى بعد بضع ثوانٍ. واستدار كل من في الغرفة نحونا، وفجأة وددت أن أركض عائدةً إلى الطابق العلوي وأختبئ. أجبرت نفسي على ألا أنظر إلى كارتر.

ما إن جذب آسا انتباه الجميع حتَّى قال: «معظمكم تعرفون بالفعل، بما أنني لم أستطع أن أبقي فمي اللعين مغلقًا منذ أن منحتني موافقتها». ثمَّ رفع يدي، وأضاف: «لقد وافقتْ!».

انطلقت مجموعةٌ من الصيحات والمباركات من الغرفة، ولكنها سرعان ما خمدت ما إن أدرك الجميع أنه لم يُنْهِ كلامه بعد.

- لقد مضى على حبي لهذه الفتاة الآن وقتٌ طويلٌ، إنها عالمي اللعين بأكمله. لذا قد حان الوقت لنجعل هذا الحب رسميًا.

ابتسم لي، وسأكذب إن قلت إنني وفي أعماقي لم أشعر بشيءٍ صغيرٍ نحوه، حتَّى وإن كان ذلك الشعور قد أصبح بحلول اللحظة الحالية مجرَّد شعور بالشفقة والتعاطف. ففي أعماقي السحيقة عرفت أن مَرَدَّ تصرُّفه على هذا النحو اليوم يعود إلى الطريقة التي عُومِلَ بها وهو طفل، جزء منِّي لم يستطع لومه على هذا. ولكن، وفقط لأن معظم أفعاله الشنيعة اليوم يمكن على الأرجح عزوها إلى الأشخاص المريعين الذين أحاطوه في فترة طفولته، فذلك لا يعني أنه مطلوب منِّي أن أكيِّف نفسي مع حياة خالية من السعادة فقط لأنه يحبني.

لأنه يحبني بالفعل. ربما يحبني بطريقته الملتوية في الحب، لكنه يحبني حقًّا، هذا واضح جدًّا.

أشار آسا بيده عبر الغرفة، وقال: «كارتر! يا صاحبي! قدِّم لنا نخبًا وساعدنا على الاحتفال بهذه المناسبة العظيمة!».

أغلقت عينيَّ. لماذا يقحم كارتر في هذا الأمر؟ لا يمكنني النظر. لا يمكنني.

صاح آسا: «فليعطِ أحدهم هذا اللعين كأس شامبانيا!».

فتحت عينيَّ، وببطءٍ صوَّبتهما عبر الغرفة إلى مكان وقوف كارتر، والذي كانت تعابير وجهه ما تزال ثابتة على حالها، الفارق الوحيد هذه المرَّة هو أنه كان قد أُعطي كأسًا من الشامبانيا، وكرسيًّا للوقوف عليه.

اللعنة على حياتي.

سحبني آسا نحوه، وقبَّل جانب رأسي بينما كنا كلانا نراقب كارتر وهو يصعد على الكرسي. أصبحت الغرفة هادئةً على نحو لا يُصدَّق، إنه يسيطر على المكان بطريقة لا يستطيع آسا نفسه أن يحقِّقها، هذا ولم يكن كارتر قد نطق ولو بكلمة واحدة بعد. بدا الأمر وكأن الجميع يعطون أهمية لما سيقوله كارتر أكثر من اهتمامهم بما لدى آسا. وهذا شيء آمل أن آسا لم يلاحظه.

لم ينظر كارتر إليَّ، بل غمز لآسا وقرَّب كأسه من فمه، وتجرَّعها بجرعة واحدة قبل أن ينطق بنخبه حتَّى. عندما فرغت كأسه، مدَّ يده به إلى دالتون، الذي كان يحمل زجاجة الشامبانيا، وأعاد ملء كأس كارتر، ثمَّ أمسكها كارتر قرب صدره، ونظر مباشرةً إلى آسا، وتمكَّنت من رؤيته ينفث نفسًا سريعًا مكبوتًا قبل أن يبدأ بالكلام: «من الصعب تصديق أننا بلغنا العمر الذي يخطب فيه الناس ويتزوَّجون ويشكِّلون عائلات. ولكن الأصعب من ذلك حتَّى هو حقيقة أن آسا جاكسون هو الشخص الذي سبقنا جميعًا إلى هذا».

انطلقت بضع ضحكات عبر الغرفة. وتابع كارتر: «لم يسبق لي حقيقةً أن اعتبرت نفسي من الشباب الميَّالين إلى الاستقرار. ولكن بعد أن قضيت وقتًا مع آسا، وتمكنت من معرفته على نحو جيد، ولاحظت من كثب كم يقدِّر علاقته بسلوان، قد يكون غير رأيي بذلك. لأنه إن تمكَّن هو من الانتهاء مع فتاة بروعتها، عندها ربما لم يفت الأوان بعد لبقيتنا».

بدأ الناس برفع كؤوسهم، ولكن كارتر لوح بيده في الهواء لإسكاتهم، يمكنني الشعور بآسا وهو يتوتَّر بجانبي، ولكنني شعرت بالتوتر منذ أن بدأ كارتر بالكلام، قال كارتر وهو يمسح الحشد بعينيه: «لم أُنْهِ كلامي بعد. يستحقُّ آسا جاكسون نخبًا أطول من هذا أيها الملاعين عديمي الصبر».

صدحت المزيد من الضحكات.

تجرَّع كارتر كأس الشامبانيا الثانية، ثمَّ انتظر أن يملأ له دالتون الكأس للمرَّة الثالثة. تسارعت ضربات قلبي على نحو جنوني، ورحت أصلِّي وأدعو ألا يمسك آسا برسغي ويشعر بنبضاتي المتسارعة. قال كارتر، وهو يحرص على ألا ينظر إليّ: «في حين أن سلوان جميلة أيَّما جمال، فإن الشكل الخارجي لا قيمة له في الحب. فالحب لا يوجد في الانجذاب الذي تشعر به نحو شخص ما، الحب لا يوجد في الضحكات التي تتشاركانها معًا، الحب لا يخلق حتَّى في كل الأشياء التي تتشابهان بها. فالحب ليس، ولا بأي طريقة، شكلًا أو صيغة ولا يمكن تعريفه بكثرة الفرح الذي يجلبه لحياة الشخصين».

تجرَّع الكأس الثالثة، وبنفس الروتين السابق ملأ دالتون كأسه للمرَّة الرابعة. رشفت رشفة من كأسي، إذ أن حلقي وفمي قد جفَّا تمامًا. تابع كارتر كلامه، وقد أصبح خطابه الآن متلعثمًا قليلًا، وانخفض صوته: «الحب، الحب لا يمكن العثور عليه، بل إنه هو الذي يعثر عليك».

تحرَّكت عينا كارتر عبر الغرفة، إلى أن وجدتا عينيّ، وتابع: «الحب يجدك في المسامحة عند نهاية عراك، الحب يجدك في التعاطف الذي تشعر به تجاه شخص آخر، الحب يجدك في العناق التالي لمأساة، الحب يجدك في الاحتفال التالي لعلاج مرض ما، الحب يجدك في الخراب التالي لاستسلامك لمرض».

رفع كارتر كأسه وقال: «إلى آسا وسلوان، عسى أن يجدكما الحب في كل مأساة تواجهانها».

تفجَّرت الهتافات في الغرفة.

تفجَّر قلبي في صدري.

عثر فم آسا على فمي وقبَّلني، ثمَّ ذهب. وضاع بين حشود الناس الذين كانوا يصيحون ويربتون على كتفه مهنِّئين إيَّاه، ومشبعين غروره.

تُركت وحدي على السلالم، أنظر إلى الرجل الذي ما يزال واقفًا على كرسيه، ينظر إليَّ.

ظل يحدق إليَّ لبضع ثوانٍ، ولم أستطع أن أشيح بنظري عنه، تجرَّع كأسه الرابعة من الشامبانيا، ومسح فمه، ثمَّ نزل عن الكرسي واختفى بين الحشد.

وضعت يدي على معدتي، وزفرت كل الأنفاس التي حبستها منذ أن بدأ خطابه.

الحب يجدكَ في المآسي.

هناك بالتحديد حيث وجدني كارتر، في قلب سلسلة من المآسي...

مسحت عيناي الحشد إلى أن عثرتا على آسا في الجانب الآخر من الغرفة، وهو يحدِّق إليَّ مباشرةً. تبدَّدت الابتسامة التي كانت ثابتةً على وجهه طوال فترة بعد الظهر، وحلَّت مكانها نظرات الريبة، ثبَّت عينيه بعينيَّ، بنفس الحدة التي كنت أنظر بها إلى عيني كارتر.

لم أستطع حتَّى أن أجد القوَّة لأصطنع ابتسامة.

تجرَّع آسا كأسه، ثمَّ مرَّرها على الطاولة بقربه، ليعيد كفين ملأها. تجرَّع الكأس التي مُلِئت أيضًا، وكأسًا تالية لها، دون أن تحيد نظراته عنِّي ولو للحظة.



الفصل السابع والعشرون

آسا

- كأسًا أخرى.

قال كفين: «ما تجرَّعته الآن كانت الكأس الخامسة يا آسا. بالكاد تجاوز الوقت التاسعة، سوف تفقد وعيك بحلول العاشرة إن تابعت الشرب هكذا».

أبعدت عيني عن سلوان، وحدَّقت إلى كفين، الذي أعاد التفكير بالأمر وملأ كأسي السادسة، وتجرَّعتها. عندما نظرت مجدَّدًا إلى السلالم كانت قد اختفت.

جُلْتُ ببصري في الغرفة، لكنني لم أرها، في الحال شققت طريقي عبر الحشود، وصعدت السلالم نحو غرفة نومنا.

عندما فتحت الباب، وجدتها هناك جالسةً على السرير، تحدِّق إلى الأسفل نحو يدها. رفعت نظرها إلي وابتسمت، ولكنها بدت ابتسامة أجبرت نفسها عليها. تبدو مجبرةً على الكثير من الأمور هنا مؤخرًا.

سألتها: «لماذا أنتِ هنا في الطابق العلوي؟».

هزَّت كتفيها، وقالت: «أنت تعلم أنني لا أحب الحفلات».

لقد كانت تحبها سابقًا، كما سبق واعتادت أن تنام عارية، وعلى بطنها.

خطوت خطوتين إلى أن أصبحت واقفًا أمامها مباشرةً، وأنظر إليها من فوق، وقلت: «ما رأيكِ بنخب كارتر؟».

بلَّلت شفتيها بلعابها، وهزَّت كتفيها مجدَّدًا، وأجابت: «وجدت بعض الصعوبة في متابعته. لقد كان مربكًا قليلًا في الواقع».

أومأت، وأنا أراقب تعابير وجهها بحذر، وقلت: «أكان كذلك؟ ألهذا كنتِ تحدِّقين إليه بعدما ابتعدت عنكِ؟».

أمالت رأسها قليلًا، وهي حركة يفعلها الناس عادةً عندما يشعرون بالحيرة، أو ربما تكون حركة يفعلها الناس عندما يتظاهرون بالشعور بالحيرة.

الشيء الوحيد الذي لا أحبه في سلوان هو أنها ذكية، أذكى من معظم الفتيات الأخريات، حتَّى أنها أذكى من الكثير من الرجال الذين أعرفهم. وقد تكون أيضًا كاذبةً بارعةً، لأنني لم يسبق لي حتَّى الآن أن كشفت أيًّا من أكاذيبها. أنزلت يدي تحت جانب من جانبي رأسها، وأملته لتلاقي نظرتها نظرتي وقلت: «لقد سألتكِ بالفعل هذه المرَّة، وستكون الأخيرة يا سلوان».

لو لم تكن معرفتي جيدة، لقلت إنها كانت ترتعش، ولكن قد يكون ذلك مجرَّد تأثير اندفاع كحول الكؤوس السِّتِّ التي شربتها إلى دمي. مرَّرت أصابعي على عظم خدِّها، وتوقَّفت عند شفتيها، ثمَّ مرَّرت أصابعي بهدوء عليهما، وأنا أقول: «أتريدين مضاجعته؟».

تصلَّب عنقها، وسحبت وجهها بعيدًا عن يدي، وهي تقول متجاهلةً سؤالي: «آسا، لا تكن سخيفًا».

هززت رأسي، وأجبت: «أنا لست غبيًّا يا سلوان، لذا لا تعامليني على هذا الأساس. لقد رأيت كيف كنتِ تنظرين إليه في الأسفل. وما زلت غير متأكد من اقتناعي بأنك لم تذكري اسمه بين تنهداتك في الليلة الماضية. لذا أخبريني... أتريدين مضاجعته؟ أتفكرين بطعم شفتيه على جسدك؟».

هزَّت رأسها، وقالت: «لا تفعل هذا مجدَّدًا يا آسا. أنت سكران، وبالتالي مضطرب».

وقفت لتصبح أمامي وجهًا لوجه، وانزلقت يدي إلى خصرها، بينما هي تنظر بحدَّة في عيني، وتقول: «لا أبالي البتَّة بشأن كارتر، أنا لا أعرفه حتَّى. لا

فكرة لديَّ عن السبب الذي يدفعك للاستمرار بذكره، ولكن إن كان يزعجك إلى هذه الدرجة، فاطرده. لا تسمح له بالوجود في منزلنا مجدَّدًا، هذا آخر ما أهتم به يا آسا، وإن كنت تشعر بأنه مصدر تهديد كبير لكَ، فلتتصرف. أما أنا فإن أردت أي أحد آخر غيرك، فما كنت لأضع هذا الخاتم في إصبعي».

رفعت يدها اليسرى وابتسمت، لتقول معبِّرةً عن حبها للخاتم: «إنه جميل بالمناسبة. لقد خانتني الكلمات سابقًا، لذا نسيت أن أخبرك كم هو مثالي».

إما أن أكون أنا واهم لعين، أو أنها فعلًا أبرع كاذبة التقيتُها في حياتي. إن أجبرت على الاختيار بين هذين الأمرين، لاخترت الخيار الأول.

طوَّقت خصرها بذراعيَّ، وقلت لها: «تعالي إلى الطابق السفلي. أريد أن تراكِ عيناي طوال الليل».

قبَّلت خدِّي، وقالت: «سأنزل في غضون نصف ساعة. أريد أن أُمَلِّي عيني من النظر إلى خاتمي، قبل أن تبدأ كل الفتيات في الأسفل في المطالبة بتجريبه».

راحت تقلِّب الخاتم في إصبعها، معربةً من جديد عن حبها له.

الفتيات، من السهل جدًّا إسعادهن. يجب أن أبدأ بابتياع المزيد من المجوهرات اللعينة لها.

تركتها واتجهت نحو الباب، وقلت: «لا تتأخَّري كثيرًا، أمامك العديد من كؤوس المشروب لتتجرَّعيها».

فتحت الباب لأخرج منه، لكنني توقَّفت عندما نادت باسمي، استدرت وكانت قد عادت للجلوس على السرير، وقالت: «أحبك».

تكوَّرت شفتاها العذبتان لتخرج من بينهما تلك الكلمات، وذلك جعلني راغب بشدَّة في مضاجعتها.

سأفعل هذا، لاحقًا.

- أعرف أنكِ تحبينني يا حبيبتي، ستكونين غبية إن لم تحبيني.

أغلقت الباب وعدت إلى الأسفل. على الأرجح ما كان ينبغي أن أقول هذا لها، لكنني ما زلت أشعر ببعض المرارة من الطريقة التي جعلتني أشعر بها عندما ضبطتُها تنظر إلى كارتر. عندما قطعت الغرفة إلى الطرف الآخر منها

كان كفين ما يزال واقفًا عند الطاولة وكذلك الكحول، قلت له وأنا أتجرّع كأسًا التقطتها: «كأسًا أخرى».

سأحتاج إلى ضعف كمّية الكحول التي شربتها إلى الآن، لأستطيع أن أتجاوز فوران دمي الذي شعرت به عند تفكيري بسلوان وكارتر معًا.

بالحديث عن كارتر...

رأيته بطرف عيني في لحظة انحنائه، وهمسه بشيء ما في أُذُن حسناءٍ ذات شعر كستنائي. ضحكت وصفعته على صدره، تابعت عيناي حركة يديه وهما تجذبانها من خصرها، وتضغطانها على الحائط خلفها.

إن سلوان محقَّة، أنا مريضٌ بجنون الشك، إن كان ثمَّة ما يحدث بين كارتر وسلوان، ينبغي إذَنْ أن يحدِّق إليّ الآن، أو يبحث عن سلوان في الجوار، لا أن يمرِّر لسانه على رقبة فتاة ما كما يفعل الآن.

أحسن صنعًا! أنا متأكد من أنها المرَّة الأولى التي أراه فيها يطلق العنان لنفسه، لا بُدَّ أن هذا نابع من تأثير نصف زجاجة الشامبانيا التي تجرَّعها في أثناء إلقائه النخب.

تجرَّعت كأسًا أخرى، ومشيت متجاوزًا إياهما في طريقي إلى الباب الخلفي، رَبَتُّ على ظهر كارتر، لكنني لا أعتقد أنه انتبه لذلك، أصبحت ساقا الفتاة ملفوفتين حول خصره الآن، لديها ساقان فاتنتان بحقٍّ.

يا له من وغدٍ محظوظٍ!

مرَّرت أصابعي بخفَّة على إحدى ساقيها وأنا أتجاوزهما، كان فم كارتر ما يزال مدفونًا في عنقها، ولكن الفتاة نظرت بعيني عندما شعرت بلمستي لها، غمزت لها ثمَّ مشيت نحو الباب الخلفي.

أعطيتها خمس دقائق لتتمكَّن من اختلاق عذر ما، وتلحق بي إلى الخارج.

يجب أن أشعر بالسوء حيال هذا؛ سرقتي لفتاة كارتر مباشرةً من تحته، ولكن هذا الوغد قد تلاعب برأسي مرَّات أكثر من كافية خلال الأربع والعشرين ساعة الفائتة بما يتعلَّق بسلوان.

لذا وبكلِّ حال فهو يستحق هذا.

***

الفصل الثامن والعشرون

كارتر

همستُ في أُذنها: «هل رحل؟».

أومأت تيللي، وحلَّت ساقيها من على خصري، وقالت وهي تمسِّد عنقها: «أعلم أنه تحتم عليك أن تجعل الأمر يبدو مقنعًا، ولكن رجاءً لا تضع لسانك أبدًا عليَّ مجدَّدًا. مقرف».

ضحكتُ. ومشَّطت شعرها بتمرير أصابعها عبره، وقالت: «والآن اختفِ. لديَّ عمل للقيام به، قد يكون هذا أسهل حتَّى ممَّا تخيلت».

ضربت يدها على صدري، ودفعتني جانبًا، وهي تتجه إلى الباب الخلفي بحثًا عن مشروعها الجديد: آسا.

لقد ساعدتنا تيللي باثنتين من المهامٌ التي عملت عليها سابقًا، لكنها في العادة تكون مساعدة دالتون، وقد فكَّرت بأن وجودها هنا الليلة لن يكون فقط في صالحي، ولكن في صالح التحقيق أيضًا. إن كان بمقدور أحدهم أن يبعد عيني آسا عن سلوان لبعض الوقت، فستكون تيللي هي الفتاة المناسبة لذلك. وليس فقط بسبب مظهرها، لكنها أيضًا قادرة على تلوين شخصيتها كحرباء، يمكنها أن تصبح أيَّ فتاةٍ تحتاج أن تكونها لتشُقَّ طريقها إلى عقل رجلٍ ما، وآسا جاكسون هو الاسم التالي على قائمتها.

عندما اختفت في الخارج، طفت بعينيَّ في الغرفة للتأكُّد من أن الجميع مشغولون عني، وعندما تأكدت من أنني بأمان، توجهت مباشرةً نحو السلالم.

بالتأكيد، تسللي إلى الأعلى لرؤية سلوان ليس بأي شكل من الأشكال هو سبب وجود تيللي هنا. في الحقيقة، فقد أمرني دالتون بالبقاء بعيدًا عن سلوان هذه الليلة، بل وحتَّى عدم إعطائها أي انتباه حتَّى يوم الأحد، حيث سيكون آسا بعيدًا عن كل منا.

لحسن الحظِّ، دالتون في الخارج، وكذلك آسا.

والآن، أصبحت تيللي في الخارج أيضًا. وبذلك فلديَّ على الأقل عشر دقائق أطمئن بها من النافذة على سلوان.

لا بُدَّ أنها على الأرجح مرتبكةٌ بسبب الخطاب الذي ألقيته في الأسفل، يا للجحيم، فأنا نفسي ما زلت حائرًا من السبب الذي دفع آسا ليطلب منِّي ذلك في المقام الأول. إما أنه قد بدأ بالفعل يثق بي، أو أنه نوع من استراتيجية «أبقِ أعداءك بالقرب منك».

لم أُضِع وقتًا بالطرق على الباب عندما وصلت إلى غرفتها، بل فتحت الباب مباشرةً وأغلقته خلفي بالسرعة ذاتها، وبعدها قفلته من الداخل كنوع من التدابير الاحترازية. كانت تجلس على السرير، وما إن رفعت نظرها وأدركت أنه أنا من دخل، حتَّى وقفت، وقالت وهي تمسح دمعة عن خدها: «كارتر، لا ينبغي لك أن تكون هنا».

يا إلهي كم تبدو جميلةً! أصابني غثيانٌ شديدٌ وأنا أراه يحملها عبر السلالم في وقت سابق الليلة، ورفضت أن أسمح لنفسي بالهرب من كلِّ هذا. الطريقة التي تتوالى فيها خصلات شعرها المجعَّدة على كتفيها العاريتين، الطريقة التي يلتفُّ بها فستانها حول جسدها، محتضنًا إيَّاه كما أتمنَّى أن أحتضنها الآن. اللعنة، علمت أنه ينبغي عليَّ أن أتجرَّع نصف زجاجة شامبانيا، لأتمكَّن من إلقاء النخب سابقًا، لكن يبدو أن تأثير الكحول قد بدأ مفعوله الآن.

بطريقة ما تمكنت من تجاوزها قاصدًا النافذة دون أن ألمسها، وقفت إلى جانب النافذة ونظرت إلى الباحة الخلفية، كان آسا ممدَّدًا على أريكة بقرب المسبح، وتيللي تجلس على الكرسي المجاور له، منحنية إلى الأمام، تلهيه

بمحادثة ما. كانت يداه معقودتين خلف رأسه، وحتَّى من مكاني هذا يمكنني أن أرى أنه يحدق إلى صدرها.

أما دالتون فكان يجري محادثة مع جون على الطرف الآخر من المسبح.

أعدت نظري إلى سلوان، التي كانت تقف خلفي، وهي تهزُّ رأسها وتقول: «لماذا أنت هنا؟ إن الشكوك تراوده بالفعل يا كارتر، هل أنت مجنون؟».

- يبدو كذلك.

حضنت نفسها بعصبية، وهي تحدِّق إليَّ. شعرت وكأن قلبي على وشك أن يمزق صدري ويخرج منه، يراودني هذا الشعور أحيانًا عندما أفعل أشياء غبية مثل هذه. سألتها: «أتريدينني أن أرحل؟».

سحبت شفتها السفلية إلى الداخل، وعضَّت عليها لثانية، ثمَّ همست: «ليس بعد».

مددت يدي إليها، وسحبتُ يدها اليسرى من على صدرها، مرَّرتُ أصابعي على خاتمها، وقلت: «لا يمكنني فعل هذا وأنتِ ترتدين هذا الخاتم».

سحبت الخاتم من إصبعها ورميته على السرير. فهمست وهي تنظر إليَّ نظرة فيها الكثير من الترقب: «ماذا تفعل؟».

اقتربت منها إلى أن سُدَّ الفراغ بيننا تمامًا، وقلت: «أقبِّلكِ».

رفعت يدي إلى وجهها، ورحت أمررهما بهدوء في شعرها وإلى جذر عنقها، وقلت: «سوف أستمرُّ بتقبيلك إلى أن أستعيد رشدي، أو يُقبض عليَّ. أيًا كان ما سيحدث أولًا».

ارتفع صدرها بتنهُّدٍ عميقٍ، وقالت بأنفاس متقطعة: «أسرِع».

العجلة هي آخر ما سأفعله عندما يتعلق الأمر بها. أملت رأسي، وأنا أشعر بيديها تقبضان على مقدمة قميصي، وبالكاد تركت شفتيَّ تلامسان شفتيها، وتركت فمي يمرُّ على فمها فقط، كما لو أن ريشةً تدغدغه، وفي اللحظة التي تلامست بها شفتانا أطلق كلانا أنفاسًا مرتعشةً كنا نحبسها منذ اليوم الأول الذي رأى فيه أحدنا الآخر في الفصل.

إنها تقف الآن على أطراف أصابعها، وتريدني أن أقبِّلها قبلةً كاملةً، تريدني أن أعطيها، وأخيرًا، ما نتوق إليه كلانا، ولكنني عوضًا عن ذلك تراجعت ورحت أنظر إليها. عندما أدركت أنني أفعل تمامًا عكس ما تريد فتحت عينيها.

حدَّقت إلى الأسفل مركزًا نظري على فمها، وأنا أرغب بالتمتع بجماله للحظةٍ إضافية قبل أن أفترسه. أعدت يدي اليمنى إلى خدها، ورحت ببطءٍ أمسِّد باطن إبهامي على شفتها السفلى. قالت: «ما الذي يؤخِّرك هكذا؟».

حدَّقت إلى فمها، وأنا أمرِّر إبهامي على شفتها العليا، وقلت: «إنني قلق من أننا ما إن نبدأ سيتعذَّر علينا أن نتوقَّف».

مرَّرت يدها على عنقي، ممَّا جعل ظهري كله يرتعش، وقالت: «أعتقد أنه كان ينبغي أن تفكِّر بهذا الأمر قبل أن تدخل إلى غرفة نومي، لقد فات الأوان قليلًا لتغيِّر رأيك الآن».

أومأتُ، وسحبتها نحوي، لففت إحدى ذراعيَّ حول ظهرها، وتركت الأخرى مشبوكة بشعرها، وقلت: «أجل، لقد فات الأوان بالتأكيد».

ضغطت شفتيَّ على شفتيها، وبدأ نبضي يقفز داخل جسدي. باعدتْ ما بين شفتيها لتسمح للساني بالمرور، وعندما تذوَّقتُ طعمها أخيرًا أصدرتُ أنينًا بسبب عذوبة شفتيها وحلاوتهما. فمها دافئ، وشفتاها باردتان، والطريقة التي قبلتني بها، جعلت حرارة الغرفة أعلى من حرارة الجحيم نفسه. حاولت أن أقرِّبها منِّي أكثر، حاولت أن أقبِّلها أعمق، ولكن ذلك كله غير كافٍ. كلانا راح يتمسَّك بالآخر، قاصدَيْن أن نحصل من هذه القبلة على أكثر ممَّا نعرف أنه مسموح لنا. ولكن شفتيها... تنهُّداتها... أنَّاتها... لا يمكنني التوقُّف.

لا يمكنني التوقُّف.

كان كلانا يلهث عمليًّا عندما نظرت إليها، وهي ترفع نظرها إليَّ وعلى وجهها التعبير الأكثر مأساوية الذي سبق ورأيته، قبَّلت شفتيها برقَّة، ثمَّ طبعت قُبلةً على خدِّها، بعدها تراجعت وضغطت جبيني على جبينها، بينما كنا نلتقط أنفاسنا. همست لها: «يجب أن أعود إلى المنزل. يجب أن أذهب قبل أن تُودي بكِ تصرُّفاتي الغبية إلى حتفكِ».

أومأت، ثمَّ أمسكت ذراعيَّ بيأس، وقالت: «خذني معكَ».

لم أتحرَّك، فأضافت بعينين تفيضان بالدموع: «أرجوك. دعنا نرحل الآن، قبل أن أبدِّل رأيي. أريد أن أخرج من هنا، ولا أرغب بالعودة البتَّة».

اللعنة.

هل تقول هذا فعلًا؟

كانت كلماتها يائسةً وهي تتوسَّل إليَّ: «أرجوك يا كارتر. يمكننا أن نُخرِج أخي، وبذلك لن يستطيع آسا استخدامه ضدِّي، وحيثما ينتهي بنا المطاف، سأجد طريقةً لتأمين الرعاية التي يحتاجها. دعنا فقط نرحل».

شعرت بقلبي ينكمش في صدري، وأنا أعرف أن أملها سيصاب بحالة انكماشٍ مشابهةٍ. لو أنها تعلم فقط كم أتمنَّى لو أستطيع فعل هذا. بدأت بهزِّ رأسي بالرفض، ونقلت يديها من ذراعيَّ إلى خدَّيَّ، وانبثقت دمعة عملاقة من عينها، وهي تقول: «كارتر، أتوسَّل إليك. أنت لا تدين له بأي شيء، يمكنك الخروج، كلانا يمكننا. الآن».

أغلقت عيني بشدَّة، ومرَّرت جبيني على جانب رأسها، وكانت شفتاي تمامًا عند أُذنها، عندما همستُ لها: «الأمر ليس بهذه السهولة يا سلوان».

لو كان الأمر متعلِّقًا بلوك وحده، لو أن كارتر ليس موجودًا، لكنا قد قطعنا نصف الولاية بحلول هذه اللحظة. ولكن إن أخذتها وخرجنا الليلة... إن هربنا معًا فقط، وتخليت عن رايان في منتصف كل هذا... فهذا سيقوِّض التحقيق برُمَّته، وسيزيد حتَّى من خطورة آسا، وسوف أخذل عددًا هائلًا من الأشخاص، وهذا بعيدًا عن ذِكر تخلِّيَّ عن مهنتي بالكامل. لن يكون لديَّ حتَّى القدرة على مساندتها.

همست لها: «أريد أن أُخرجكِ من هنا يا سلوان. ولكنني فقط لا أستطيع الرحيل بعد، لا يمكنني أن أشرح لكِ الآن أسبابي، ولا أعرف متى سأستطيع ذلك، ولكنني سأشرح كل شيء، أعدك بذلك، وأقسم لكِ».

ضغطت شفتيَّ على جانب رأسها، في اللحظة التي بدأت فيها بالبكاء، وبمقدار ما كانت رغبتي عظيمة بأن أحتضنها بين ذراعيَّ إلى أن تتخطَّى إحباطها، إلا أنني لا أستطيع. كل ثانية تَمُرُّ عليَّ وأنا برفقتها في هذه الغرفة هي بمنزلة مخاطرةٍ بحياتها.

قبَّلت فمها لمرَّةٍ أخيرةٍ، ثمَّ انسحبت مبتعدًا عنها. تركت رأسها يسقط إلى الخلف ويستند إلى الجدار، وبدت في هذه اللحظة أكثر حزنًا بكثير ممَّا كانت عليه عندما دخلت إلى الغرفة ليبدأ كل هذا.

ظلَّت ممسكةً بمعصمي بينما أحاول أنا أن أمشي بعيدًا، عندما رفضت أن تترك يدي رفعت أصابعها عن معصمي، مبعدًا إياها، وشاهدت يدها وهي تسقط بوهن إلى جانب جسدها. اضطراري إلى الابتعاد عنها بهذه الطريقة لا يقل البتَّة عن أن يكون كارثيًّا.

إنه مأساة.

وهنا حيث يجدك الحب... في المآسي.

***

الفصل التاسع والعشرون

سلوان

لم يسبق لي أن فوَّتُّ يوم أحدٍ واحد دون أن أزور أخي. وحتَّى على الرغم من أنني بقيت في السرير منذ أن تركني كارتر ليلة الجمعة، متظاهرةً بالمرض، فإنني تمكَّنت بطريقة ما من سحب نفسي من انهياري اليوم.

ذهب آسا وأصدقاؤه جميعًا إلى الكازينو، إنه يبعد قرابة ثلاث ساعات من القيادة جهة الشمال، وأخي على بعد قرابة ساعة من القيادة ناحية الجنوب. إنه لأمرٌ محزنٌ، لكنني أشعر أنني كلما وسَّعتُ المسافة الفاصلة بيني وبين آسا اليوم، سأشعر بتحسُّنٍ أكثر. سأستطيع التنفُّس على نحو أفضل.

قبل أن أخرج من غرفتي، توقَّفت على الباب، ثمَّ وضعت أصابعي على يدي اليسرى، ونزعت الخاتم منها، وتركته على الخزانة ذات الأدراج. سأعود إلى المنزل قبل عودة آسا بوقت طويل، لذا لن يلاحظ أنني لم أرتَدِه اليوم.

ولكنني سأشعر أن يدي أخفُّ بمليون مرة.

توقَّفت في المطبخ لأعدَّ لنفسي شيئًا أشربه على الطريق، عندما مددت يدي إلى باب الثلاجة لأحضر الثلج، تجمَّدت يدي على المقبض، إذ وقعت عيناي على الكلمات الجديدة المكتوبة على اللوح.. «المخلَّلات لا تشعر بالذنب عندما يغنِّي الناس، لذا لماذا لا تطوى الملاءات نهائيًا في يوم الثلاثاء؟».

لا أعرف مطلقًا متى كتب كارتر هذا، لكنني أعرف أنه كتبه ليحاول تحسين شعوري حيال الطريقة التي اضطر أن يغادر بها ليلة الجمعة. لقد كتب ما كتبه ليحاول إضحاكي.

وقد نجح ذلك، فها أنا أبتسم للمرّة الأولى منذ يومين عندما فتحت باب الثلاجة.

ملأت كوبي بالثلج والصودا، ثمَّ أحضرت زجاجة صودا إضافية من أجل ستيفن. إنهم لا يسمحون له بإبقاء زجاجات صودا إضافية في غرفته، وذلك بسبب معوِّقات تتعلَّق بصحَّته، لذا فأنا أهرِّب له دائمًا عبوَّة صودا إضافية في أيام الآحاد كمكافأة له، وذلك بعد موافقة طبيبه بالطبع، لكنني لا أخبر ستيفن بهذا.

أحضرت حقيبتي، ومفاتيحي، والمشروبات، وبدأت بالتوجُّه إلى الباب عندما تلقَّيت رسالة على هاتفي المحمول، انتظرت إلى أن أصبحت في السيارة لأخرج الهاتف من حقيبتي وأتحقَّق من الرسالة، كانت من كارتر وجاء فيها.. «مرِّي عليَّ، سأنتظرك عند زاوية ستاندارد ووِيات، أريد أن أذهب معكِ».

صعدت الحرارة إلى خدَّيَّ بسبب الرسالة غير المتوقَّعة، ظننت أنه برفقة آسا والشباب اليوم. بدأت بكتابة رَدٍّ لرسالته، لكن رسالة أخرى وصلت منه، وفيها.. «وأيضًا، إيَّاكِ أن تجيبي على رسالتيَّ، وامسحيهما كلتيهما».

فعلت ما طلبه، ثمَّ قُدت السيارة نحو الخلف لأخرج من مدخل البيت وأتوجَّه إلى زاوية ستاندارد ووِيات. يبعد المكان قرابة بضعة شوارع فقط عن البيت، وأعرف أنه أرادني أن أُقِلَّهُ من هناك لأن ذلك أكثر أمانًا من أن يترك سيارته في مرآب البيت، ولكنني ما زلت مستغربةً كيف عرف أنني ذاهبة إلى أي مكان حتَّى.

سيطر عليَّ الترقُّب وأنا أبحث عنه، وعندما انعطفت عند زاوية ستاندارد رأيته تمامًا حيث قال إنه سيكون، يقف وحيدًا على الرصيف، ويداه في جيبَيْ بنطاله الجينز الخلفيَّيْن. ابتسم عندما رآني، وآلمتني ابتسامته، وبدت مذهلة. عندما أوقفت السيارة فتح الباب وصعد، فسألته: «ماذا تفعل؟».

- أذهب معكِ لزيارة أخيكِ.

- ولكن... كيف؟ كيف تمكَّنت من التهرُّب من المقامرة؟ وكيف عرفت أصلًا متى سأغادر؟

ابتسم لي، وانحنى فوق المقعد وطوَّق شعري بيده، ثمَّ وضع شفتيه على شفتيَّ، وقال: «لديَّ وسائلي».

قبَّلني، ثمَّ عاد إلى الاستقامة في مقعده، وسحب حزام الأمان خاصَّته، وأضاف: «إن كنتِ تظُنِّين أن دخولي معكِ إلى المبنى مخاطرةٌ كبيرةٌ، فيمكنني انتظارك في السيارة. إنني فقط أحتاج حقًّا أن أقضي بعض الوقت معكِ على انفراد».

حاولت أن أبتسم، ولكن قربه منِّي لهذه الدرجة أعاد إلى ذاكرتي ليلة الجمعة، وكم بدوت مثيرة للشفقة عندما توسَّلت إليه أن يهرب معي.

لم أكن لحظتها أفكِّر بالأشياء، لا يمكنني أن أنهض وأرحل ببساطة، فأنا في منتصف الطريق للحصول على شهادتي الجامعية، ولا يمكنني أن أُخرِج ستيفن من مركز الرعاية، وأجره في رحلة برِّية عبر البلاد. إنه سعيد حيث هو الآن، وبإخراجي له سوف أسيء إليه.

أنا فقط أريد وبشدَّة أن أخرج، وبعد الشعور الذي راودني عندما قبَّلني كارتر، أصبحت عاطفية، وذلك جعلني أتمنَّى أن يكون قد أخطأ سابقًا؛ وأنه قادرٌ على إنقاذي.

مدَّ كارتر يده وأمسك بيدي، وقال: «سلوان، أيمكنكِ أن تعديني بشيء اليوم؟».

نظرت إليه، وقلت: «حسب ما تطلبه».

- يمكنني أن أرى في تعابير وجهكِ أنكِ تفكرين بليلة الجمعة، دعينا لا نتكلَّم عن آسا اليوم، أو عمَّا يعرف كلانا أنه يجب أن يحدث. إنني لا أرغب حتَّى بمناقشة احتمال أن يُكشف أمرنا، أو إلى أي مدى اقترفتُ فعلًا غبيًّا بالمجيء معكِ اليوم. دعينا اليوم نكون فقط سلوان ولوك، ما رأيكِ؟».

رفعت أحد حاجبيَّ، وقلت: «لوك؟ من هو لوك؟ أنستخدم أسماء مستعارة؟».

ارتعش ذقنه، وقال: «أعني كارتر. اعتدت أن أستخدم اسمي الأوسط عندما كنت أصغر. عادةٌ يصعب التخلُّص منها».

هززت رأسي وضحكت قائلةً: «هل أربِكُكَ إلى هذا الحدِّ، بحيث لم تستطع تذكُّر أي اسم تُنادى به؟».

شدَّ قبضته على يدي وابتسم وهو يقول: «توقَّفي عن الضحك عليَّ. ولا تنادِني أبدًا لوك، لقد كان جدِّي فقط يناديني بهذا الاسم، وهذا غريب».

- حسنًا، لكنني لن أكذب عليك، لقد أحببت نوعًا ما اسم لوك. لوك.

مدَّ يده، وعصر ركبتي، وصحَّح قوله مجدَّدًا: «سلوان وكارتر. دعينا نكون سلوان وكارتر اليوم».

عاكسته قائلةً: «أيُّهما أنا؟ سلوان أم كارتر؟».

ضحك، ثمَّ حلَّ حزام الأمان خاصَّته، وانحنى نحوي، وقرَّب شفتيه من أُذني، ومرَّر راحة يده على فخذي، فحبست أنفاسي، وأمسكت بعجلة القيادة عندما همس لي: «أنتِ كوني سلوان، وأنا سأكون كارتر. وفي طريق عودتنا إلى المنزل عصرًا، سوف نتوقَّف في مكان ما يكون هادئًا، وعندها يمكنكِ أن تكوني سلوان في المقعد الخلفي مع كارتر. أيبدو هذا جيدًا؟».

زفرت مع إيماءتي: «آها».



الفصل الثلاثون

كارتر

سألتها: «متى كانت آخر زيارة لآسا إلى هنا؟».

أطفأت محرِّك السيارة وبدأت بجمع أشيائها، وأجابت: «قبل سنتين من الآن. لقد جاء إلى هنا مرَّة واحدةً فقط، وقال إن وجوده هنا يشعره بعدم الراحة».

بالطبع سيقول هذا.

- إذَنْ ألن يبدو دخولي معكِ إلى هنا أمرًا غريبًا للآخرين؟

هزَّت سلوان رأسها، وقالت: «أعتقد أن الموظَّفين قد اعتادوا على رؤيتي وحيدةً، لذا سيراودهم بعض الفضول فقط لظهوري، وأخيرًا، برفقة أحد ما. لكنهم لن يرتابوا أو يخبروا آسا، لأنهم لا يعرفونه حتَّى».

رمت مفاتيحها وهاتفها في حقيبتها، ثمَّ أمسكت بعجلة القيادة، وحدَّقت إلى الخارج نحو المرأب أمامنا، وقالت: «إنه لأمرٌ محزنٌ، أليس كذلك؟ حقيقة أنه ليس لدي أحد؟ حرفيًا لا أحد. لطالما كنا أنا وستيفن وحدنا في مواجهة العالم اللعين برمته».

مددت يدي، ووضعت خصلة شعر متمرِّدة خلف أُذنها، أردت أن أريحها، أن أخبرها أنه لديها أنا، لكنها في منتهى صراحتها الآن، لذا لا أريد أن أزوِّدها بكذبة أخرى. إنها لا تعرف حتَّى اسمي الحقيقي، وكلما ازدادت الأكاذيب التي أقولها لها في لحظات كهذه، سيصعب عليها أن تسامحني عندما تعرف الحقيقة.

الحقيقة التي كادت أن تعرفها قبل قليل، أقسم بالله إنني أحيانًا أتساءل كيف تمكَّنت من الحصول على هذا المنصب في العمل بالمقام الأول، إنني أسوأ محقِّق سرِّي في العالم. جدِّيًا، ينبغي أن يدعونني النمر الوردي.

أحيانًا أفكِّر بأنها ربما تستطيع تحمُّل الأمر إن أخبرتها الحقيقة، أنها ربما قد تستطيع مساعدتي بطريقة ما، ولكن معرفتها بالحقيقة ستعرِّضها للمزيد من الخطر، ولقد فعلتُ ذلك بما فيه الكفاية.

ربما في الوقت المناسب، وإن تمكَّنت من إكسابها ثقة رايان، سيرى عندها المنافع التي يمكن تحصيلها من إخبارها بالحقيقة، ولكن الآن من الأفضل ألَّا تعرف.

ظلَّت تحدِّق مشدوهةً من النافذة، لذا سحبتها نحوي وعانقتها، ولفَّت ذراعيها حولي، وتنهَّدت على عنقي، وتمنَّيت أن يموت آسا بحقِّ الجحيم في طريق عودته من الكازينو.

اللعنة، لقد كان هذا بالفعل تمنِّيًا قاسيًا.

ولكن ألا يستطيع أن يرى كم أن حيوات المحيطين به ستكون أفضل في غيابه؟

بالطبع لا يمكنه ذلك، إذ لا يمكنك أن ترى شيئًا خارج حدود ذاتك عندما تكون شخصًا ساديًّا ونرجسيًّا.

قالت سلوان: «إنك تحتضن بطريقةٍ جميلةٍ بالفعل».

احتضنتها بقوَّة أكبر، وقلت: «أعتقد أنكِ فقط لم تحصلي على الكثير من المعانقات في حياتكِ».

أجابت متنهِّدةً: «وهذا أيضًا».

ظللت ممسكًا بها للحظة أطول، إلى أن همست قرب عنقي: «ستة وخمسون ملكًا من سرطانات البحر تناولوا أربطة الأحذية على العشاء في عيد الفصح، ثمَّ عطسوا مسلسل «رينبو برايت» من خياشيمهم».

ضحكتُ، وقبَّلتها على قمة رأسها، وقلت: «لا يمكنكِ دفع ثمن زبدة غير شرعية بعجلة دراجة هوائية، أو حبل غبي».

شعرت بابتسامتها وهي تقبِّل فمي.

هذا كل ما أردته أن يحصل قبل أن ننزل من السيارة؛ أردت أن تعود ابتسامتها إلى وجهها.

***

قلت ونحن في طريقنا عبر الممر نحو غرفة ستيفن: «قلتِ إنه لا يحب آسا. لذا، كيف تعلمين إن كان يحب أحدهم أم لا ما دام لا يتكلم؟».

لقد كانت تطلعني على حالة أخيها الطبية في طريقنا إلى غرفته، وذكرت على الأقل خمسة أشياء قد شُخِّصَ بها، ولكن لا يمكنني حتَّى تذكُّر أسمائها، لذا أقل ما يمكنني فعله هو محاولة فهمها.

- لدينا طريقتنا الخاصَّة في التواصل، لقد ربيته عمليًا منذ أن كان رضيعًا.

استدارت عند الزاوية وأشارت إلى نهاية الممر، وقالت: «إنه هناك في نهاية الممر».

ما تزال لديَّ أسئلة، لذا سحبتها من يدها إلى أن توقَّفنا، وقلت: «لكنكِ تكبرينه ببضع سنوات فقط، كيف ربَّيته؟».

رفعت نظرها إليَّ وهزَّت كتفيها قائلةً: «لقد فعلت ما وجب عليَّ فعله يا كارتر. لم يكن هناك أحد آخر غيري للاعتناء به».

لم يسبق لي قط أن التقيت بأحد مثلها. قبَّلتها، جزء من سبب تقبيلي لها يعود إلى رغبتي بالحصول على أكبر عدد ممكن من القبلات اليوم، والجزء الآخر يعود إلى أنها تستحق حنانًا أكثر ممَّا تنال في حياتها، حنانًا خاليًا من الأنانية. لم أكن أخطِّط لهذه القُبلة أن تطول أكثر من ثانية أو اثنتين، ولكننا لم

نستطع أن نقبِّل واحدنا الآخر براحة هكذا منذ قُبلتنا الأولى، غرقت في تقبيلها بالحال، وتلاشى كل شيء آخر من حولي.

استمرَّت قُبلتنا إلى أن نظَّف أحدهم حنجرته خلفنا، ابتعدنا عن بعضنا لنرى ممرِّضة تحاول أن تَمُرَّ عبر الممر الذي كنا نقطع طريقه. اعتذرت منها سلوان، ثمَّ راحت تضحك ونحن نمشي بعجل في الممر قاصدَيْن غرفة ستيفن.

قرعت الباب، ثمَّ دفعته ليُفتح، وتبعتها إلى الداخل، وقد ذُهلت مباشرةً بهذه المنشأة. إذ توقَّعت أن يكون المكان أشبه بغرفة تمريض أو غرفة مستشفى، ولكن هذه الغرف هنا تبدو كشقق صغيرة. كان المكان عبارة عن غرفة معيشة صغيرة، ملحق بها مكان للنوم، ومطبخ صغير. لكنني انتبهت إلى غياب أي موقد أو مايكروويف، ممَّا يعني على الأرجح أنه بحاجة إلى من يعدُّ له طعامه.

خطت سلوان إلى داخل غرفة المعيشة لتحيِّي أخاها، أما أنا فانتظرت في المدخل، إذ لم أرغب بالمقاطعة.

كان ستيفن جالسًا على الأريكة يشاهد التلفاز، رفع نظره إلى سلوان، وعلى التَّوِّ لاحظت الشبه بينهما؛ لون الشعر وطبيعته متماثلان، وكذلك العينان. لكن وجه ستيفن خالٍ من التعابير.

أعاد نظره إلى التلفاز، وآلمني قلبي حالًا على سلوان. الشخص الوحيد الذي تحبه في هذا العالم بأكمله، لا قدرة له على التعبير عن مشاعره ومبادلتها الحب، لا عجب من أنها تبدو وحيدةً للغاية، إنها على الأرجح الشخص الأكثر وحدةً الذي قابلته يومًا.

قالت وهي تشير باتجاهي: «ستيفن، ثمَّة من أريدك أن تلتقي به. هذا صديقي كارتر، نحن نذهب إلى المدرسة معًا».

نظر ستيفن إليَّ، ثمَّ أعاد تركيزه إلى التلفاز بأسرع ما يمكنه. ربتت سلوان على الأريكة قربها، وهي تطلب منِّي أن أقترب وأجلس بقربها. مشيت نحوها وجلستُ، وأنا أشاهد طريقة تصرفها معه. بدأت بإخراج الحاجيات من حقيبتها؛ مشابك ورق، وورق، وقلم، وعبوَّة صودا. كانت تتحدَّث معه طوال

الوقت، وتخبره عن الطريق إلى هنا، وتمنحه آراءها بخصوص المقيم الجديد الذي انتبهت لوجوده في الغرفة المجاورة.

سألته: «أتريد ثلجًا؟».

نظرتُ إلى ستيفن، لكنه لم يُبدِ أي إشارة على رغبته بالثلج، أشارت سلوان إلى المنطقة المخصَّصة كمطبخ، وقالت: «كارتر، هلَّا ملأت كأسًا بالثلج من أجله؟ أيمكنك أيضًا أن تحضر المصَّاصة الزرقاء من الدرج الأعلى ناحية اليسار؟».

أومأت، وذهبت إلى المطبخ لأحضر له كوب الثلج. ولاحظت أنها أمسكت بالقلم وبدأت تكتب شيئًا ما، مرَّرت الورقة إلى ستيفن الذي نظر إليها حالًا، وأمسك بالقلم وانحنى ليكتب شيئًا بدوره.

يمكنه أن يكتب ويقرأ؟ لم تذكر لي هذا الأمر.

عندما ملأت الكوب بالثلج عدت إلى المنطقة المخصَّصة للمعيشة، ومددت الكوب إليها. أنهت كتابة شيء آخر ومرَّرت الورقة إلى ستيفن، ثمَّ سكبت عبوَّة الصودا في الكوب، وما إن وضعت المصَّاصة في الكوب حتَّى أخذه ستيفن من بين يديها، وراح يشرب الصودا. مرَّر إليها الورقة، ومرَّرتها لي بدورها، قرأت ما كتبته هي أولًا.. «الكتب المصنوعة من الحلوى الهلامية تصبح دبقةً بشدَّة عندما ترتدي قفازات فرو».

قرأت ما كتبه ستيفن بعدها، كتابته غير مقروءة بنفس وضوح كتابتها، ولكنني تمكَّنت من فهم ما كتب.. «سلال الجلد الموضوعة على رأسي تكسر القطن إلى نصفين من أجلك».

نظرت إلى سلوان، ورمتني بابتسامة صغيرة. تذكرتُ يومنا الأول في الفصل معًا، عندما رأيتها لأول مرَّة تفعل هذا، وعندما قالت إنها مجرَّد لعبة تلعبها أحيانًا، أعتقد أن هذا ما عنته؛ إنها تلعبها أيام الآحاد مع ستيفن.

سألتها: «أيمكنه أن يقرأ كل شيء تقريبًا؟».

هزَّت رأسها وقالت: «إنه لا يفهم كل شيء تمامًا، لقد علمته كيف يكتب ويقرأ عندما كنا أصغر، لكن الأفكار المتوالية الكاملة ليست شيئًا سبق لي ورأيته يكتبه على الورق. هذه لعبته المفضَّلة التي يحب لعبها».

نظرت إلى ستيفن، وقلت: «أيمكنني أن أكتب شيئًا ما يا ستيفن؟».

مددت يدي لألتقط القلم، فأعطاه لي، لكنه ما زال لا ينظر إليَّ، قربت القلم إلى الورقة وكتبت.. «إن أختك مذهلة، وأنت محظوظ جدًّا بها».

أعطيت الورقة إلى سلوان، وقرأتها قبل أن تمرِّرها إلى ستيفن، فاحمرَّ خدَّاها، ولكمت كتفي، ثمَّ أعطته الورق والقلم.

استمرَّت لعبتنا هذه لعشر صفحات أخرى، كتب ستيفن وسلوان كلمات عشوائية هنا وهناك، أما أنا فاكتفيت بكتابة حفنة من الإطراءات المتعلِّقة بسلوان؛ شعر أختك رائع، إنني أحبه خاصَّة عندما تجعِّده.

أتعرف أن أختك تنظِّف خلف حفنة من الرجال الذين لا يعرفون حتَّى كيف يرفعون إصبعًا لعينًا؟ وعلى الأرجح لم يسبق لأحد منهم أن شكرها يومًا. شكرًا لكِ يا سلوان.

الإصبع المخصَّص للخاتم في يد أختكَ يبدو اليوم جميلًا وعاريًا.

إنني معجب بأختكَ. كثيرًا.

بعد مرور قرابة الساعة، دخلت ممرضة وقاطعت لعبتنا لتأخذ ستيفن إلى جلسة علاج فيزيائي. سألتها سلوان: «هل العاملة الاجتماعية هنا اليوم؟».

هزَّت الممرِّضة رأسها، وأجابت: «لا تأتي أيام الأحد. لكنني سأترك ملاحظة في صندوق بريدها عندما ينتهي من جلسة العلاج الفيزيائي، وبذلك ستتواصل معك في الغد».

أخبرتها سلوان أن ذلك سيكون رائعًا، ثمَّ مشت نحو ستيفن لتعانقه. عندما انتهت من توديعها له، لم أعرف صراحة ماذا أفعل، إذ لا أريد أن أتظاهر بكوني خبيرًا بالتعامل مع الأشخاص المماثلين لستيفن ووضعه، ولكنني أيضًا لا أريد أن أفعل شيئًا لا ينبغي عليَّ فعله. سألت سلوان: «هل يقوم عادةً بالمصافحة؟».

هزَّت رأسها وقالت وهي تضع يدها بيدي: «إنه في الحقيقة لا يسمح لأحد غيري بلمسه».

فقلت له: «كان من الرائع حقًّا لقاؤك يا ستيفن».

التقطت سلوان حقيبتها، وبدأنا بالسير نحو المخرج لنفسح المجال للممرِّضة كي تُجري طقوس تحضيره للجلسة أيًّا كانت. في اللحظة التي كنا قد بلغنا فيها الباب تقريبًا، شعرت بلمسة على كتفي، استدرت لأرى ستيفن أمامي، عيناه تنظران إلى الأرض، وهو يتأرجح على كعبيه إلى الأمام والخلف. أعطاني القلم وورقة بيضاء فارغة، أخذتهما منه، وأنا غير عارف كيف سأخبره أننا راحلين، وأنه لا يمكننا الاستمرار باللعب.

نظرت إلى سلوان لأعرف ماذا تريدني أن أفعل، وقد شعرت بالحيرة من تعبير وجهها. مشى ستيفن مبتعدًا عنا، عائدًا إلى غرفة المعيشة، ونظرت إلى الأسفل إلى الورقة البيضاء والقلم.

همست سلوان: «يريدك أن تعود لزيارته».

عندما رفعت نظري إليها مجدَّدًا، كانت تبتسم، وتهزُّ رأسها إلى الخلف والأمام، وأضافت: «لم يسبق لي أن رأيت هذا يحدث معه من قبل يا كارتر».

غطَّت فمها بيدها، وأطلقت مزيجًا ممًّا يمكن أن يكون ضحكًا وبكاءً، وقالت: «إنه يحبكَ».

نظرت مجدَّدًا إلى ستيفن، وكان الآن يدير ظهره إلينا، وعندما التفتُّ إليها وقفت على أطراف أصابعها وقبَّلتني، ثمَّ قادتني خارج الغرفة. طويت الورقة ووضعتها مع القلم في جيبي الخلفي.

لا أعرف ما الذي كنت أتوقَّعه اليوم، لكنه بالتأكيد لم يكن هذا.

إنني سعيد لأنني أتيت، ولكن الآن شعوري بالسعادة ليس مرتبطًا بسلوان وحدها فقط.



الفصل الحادي والثلاثون

آسا

أتذكَّر أن زيارتنا إلى الكازينو في الشهر الماضي كانت أمتع بألف مرَّة منها الآن.

ضاعفت المبلغ على الرهان، ومرَّرت يدي في شعري، لأقرص مؤخِّرة عنقي. إنني جائع. نظرت إلى جون ودالتون الذين كانا مستغرقين في محادثة مع عاملة البار التي تبدو كفتاة قد يأخذها جون خلف البناء أكثر ممَّا تبدو كفتاة يمكن لهما معًا أن يمتعاها.

إن جون لا يضاجعها الآن خلف المبنى لسبب وحيد فقط على الأرجح، وهو أنه قد غادر مع فتاتين لعوبين التقطتهما من الشاحنة المتوقِّفة قرب الكازينو، وغالبًا أخذهما إلى حمام الرجال، والذي يفاجئني حقًّا هو تمكُّنه في المقام الأول من إغراء أي فتاة بوجهه المنتفخ كالتوت البرِّيِّ اللعين.

ولكن كان ينبغي أن يعود الآن، لأنني متأكد جدًّا من أنه لا يستطيع أن يستمرَّ مع فتاة لأكثر من دقيقتين، وكونه قد اصطحب فتاتين ذلك يجعل الوقت المتوقع لعودته أربع دقائق، لكنني لم أره منذ أكثر من ساعة.

أين هو بحقِّ الجحيم؟

نظرت حولي، وعندما لم أره في الجوار، استبدلت برقاقات المقامرة فلوسًا، وصحت عبر الطاولة رافعًا صوتي فوق صوت الأجراس اللعينة المزعجة لآلة القمار كي يسمعني دالتون وكفين وأنا أخبرهما أنني ذاهب للبحث عن جون، فأومأ لي دالتون.

مرَّرت بالكازينو من أحد طرفيه إلى الآخر دون أن أجده، استدرت ومشيت متجاوزًا طاولة بلاك جاك، عندما وقعت عيناي على شخص يتلعثم قائلًا لموزِّع الأوراق: «في كل مرَّة آتي فيها إلى هذا الكازينو اللعين، أرى الأشخاص الملاعين المنكوبين ذاتهم منحنين على هذه الطاولات، يعطونك أموالهم التي كسبوها بشقِّ الأنفس أيها اللقيط اللعين، وأنت تستمرُّ بأخذها. كل ما تفعله هو أن تأخذ وتأخذ وتأخذ».

جمع موزع البطاقات الرقاقات من أمام الرجل، وقال رجل آخر عبر الطاولة: «وكل تسعٍ من عشر مرَّات تكون أنت هذا البائس ابن اللعينة».

ضحكتُ، وقاطعت نظري مع عيني الشخص الذي تحدث للتَّوِّ.

اختفت ضحكتي.

أبعد نظره عنِّي دون حتَّى أن يبتسم لي أو يبدو عليه أنه قد تعرف عليَّ بأي شكل من الأشكال.

دفع الرجل الذي كان يشتكي كرسيه بعيدًا عن الطاولة، ووقف، ثمَّ أشار إلى الرجل الذي كنت أحدِّق إليه، وقال: «لقد حالفك الحظ يا بول، هذا كل ما في الأمر. ولن يستمرَّ طويلًا».

شددت قبضتي بقوَّة، حتَّى بدأ الدم يتدفَّق منهما، الدم الذي شعرت به يسيل على راحتيَّ.

لم أكن بحاجة إلى سماع اسمه كي أتأكد من هويته، فالولد لا ينسى أباه.

حتَّى عندما يكون الأب قد نسى ابنه بسرعةٍ شديدةٍ.

أدرت ظهري له، ومسحت الدم السائل على راحتي ببنطالي الجينز، ثمَّ أخرجت هاتفي وأجريت بحثًا سريعًا على محرِّك البحث جوجل، بعد عدَّة دقائق من التقليب في النتائج التي ظهرت لي، ونقل نظري بينه وبين هاتفي،

وجدت ما كنت أبحث عنه؛ لقد حصل ابن اللعينة على إطلاق سراح مشروط السنة الفائتة.

وضعت هاتفي في جيبي، ومشيت نحو الكرسي الفارغ قبالته. لم يسبق لي أن شعرت بالتوتُّر على هذا النحو من قبل، ولم يكن توتُّري ناجمًا عن قلقي ممَّا يمكن أن يفعله بي بعد كل ما فعله، بل توتَّرت نتيجة خوفي ممَّا يمكن أن أفعله به. وضعت رهاني، وحاولت ألا أحدِّق إليه بصراحة، لكنه في الحقيقة لم يكن يعرني أي اهتمام، بل صبَّ تركيزه كله على موزِّع البطاقات.

شعره خفيف للغاية، في الحقيقة يمكن اعتباره أصلع تقريبًا باستثناء تلك الخصلات الأخيرة المثيرة للشفقة التي حافظ عليها. مرَّرت يدي في شعري، وكان ملمسه كثيفًا كما اعتدت عليه دائمًا.

ربما خسر شعره بسبب التوتر، لا بفعل عاملٍ وراثيٍّ. يا إلهي، آمل ألا يكون أي شيء في هذا الرجل قابل للانتقال بالوراثة، فوجوده يبدو مجرَّد إهدار لعين للمساحة.

في الصور المحفوظة ضمن ذاكرتي عن أبي يبدو لي أطول قامةً، ذا منكبين أعرض، ورهبة أكثر بكثير. لقد خاب أملي قليلًا.

في الحقيقة، لقد خاب أملي كثيرًا؛ لطالما كرهت ابن اللعينة هذا، لكن الذكريات المطبوعة في عقلي عنه جعلتني أعتقد أنه شخص لا يُقهر، والذي بدوره ولَّد لدي إحساس بأنني قد أكتسب شيئًا من هذا منه. ولكن رؤيتي الآن للشخص الذي أصبح عليه، كانت بمنزلة طعنة لعينة لكبريائي.

قال لي وهو يفرقع أصابعه: «أيها الولد، هل معك دخان؟».

التقت نظرتي بنظرته وهو يحدق إليَّ، محاولًا أن يتسول سيجارة من ابنه الوحيد، دون حتَّى أن يتعرف عليه، ولا حتَّى قليلًا.

- إنني لا أدخن أيها الوغد.

أصدر ضحكةً خافتةً، ثمَّ رفع يده باسطًا راحته، وقال: «على مهلك يا صاحبي. أمرَّ عليك يومٌ سيئ؟».

أيظنُّ أن جوابي ذاك هو مجرَّد رد فعل؟ قلبت رقاقة بين أصابعي، ثمَّ انحنيت إلى الأمام وأجبته: «يمكنك قول هذا».

هزَّ رأسه، وبقينا صامتين خلال دورة الرهانات التالية. مشت بقربه امرأة كبيرة بالسنِّ، وثدياها مجعَّدان أكثر حتَّى من براجم هذا الرجل العجوز، ثمَّ لفَّت ذراعيها حوله، وقالت متذمِّرة: «إنني جاهزة للرحيل».

حرَّك مرفقه إلى الخلف ليبعد ذراعيها عنه، وقال: «أنا لست جاهزًا. سبق وأخبرتكِ أنني سأبحث عنكِ عندما أكون مستعدًّا للرحيل».

تذمَّرت قليلًا إلى أن أخرج من جيبه عشرين دولارًا، وأخبرها أن تذهب وتشغل نفسها باللعب في ماكينات القمار. عندما ذهبت، أملت رأسي باتجاهها، وسألته: «أهذه زوجتك؟».

ضحك بخفوت مجدَّدًا، وقال: «لا. اللعنة.. لا».

قلبت بطاقتي الأولى، وكانت الرقم عشرة من زمرة القلوب، وسألته: «أسبق وتزوَّجت يومًا؟».

رفع يده إلى عنقه وفرقعه، ودون أن ينظر إليَّ أجاب: «مرَّة. لم يستمر الزواج طويلًا».

أجل. أعلم. لقد كنتُ هناك.

سألته: «هل كانت عاهرة؟ ألهذا لم يستمر زواجكما؟».

ضحك، ثمَّ عاد ونظر إلى عينيَّ، قائلًا: «أجل. أجل كانت عاهرة».

زفرت نفسًا بطيئًا، وقلبت بطاقتي التالية، وكانت آس (قص) من زمرة الإسباتي.

بلاك جاك.

قلت له: «سوف أتزوَّج قريبًا، لكنها ليست بعاهرة».

لا أعتقد أن كلامي بدا منطقيًّا له البتَّة، وذلك لأنه أمال رأسه، وضيَّق عينيه قليلًا، ثمَّ انحنى إلى الأمام ونقر على حافة الطاولة، قائلًا: «دعني أقدِّم لكَ نصيحةً يا بُنيَّ».

- لا تدعُني «بُني».

توقَّف لثانية، وتعرَّفت على النظرة المتعالية التي ظهرت على وجهه والتي اعتدتها منه، وقال: «جميعهنَّ عاهرات. أنت ما تزال شابًا يافعًا، لا تستقر الآن، استمتع بحياتك».

- اللعنة إنني.. أستمتع بحياتي، إنني أستمتع بها إلى أقصى حدٍّ.

هزَّ رأسه، وغمغم: «أنت أكثر ابن عاهرة سريع الغضب سبق والتقيت به».

إنه محقٌّ. أنا كذلك.

لم يسبق لي أن شعرت بغضب أشدَّ من الذي أشعر به الآن.

أريد أن أصعد فوق هذه الطاولة، وأقحم بطاقاتي في حلقه، بغَضِّ النظر عن كونها بطاقات رابحة.

دفع موزِّع البطاقات أرباحي إلى أمامي، لكنني وقفت ومشيت مبتعدًا قبل أن أقدم على فعل أحمق في بناء ملغَّم بكاميرات المراقبة، وحراس الأمن. ناداني الموزِّع قائلًا: «سيدي! ألا يمكنكَ ترك رقاقاتك!».

- احتفظ بالرقاقات اللعينة لنفسك!

قطعت الكازينو من أحد طرفيه إلى الآخر بأسرع ما يمكنني، وقد عثرت أخيرًا على جون محاطًا بالفتاتين اللعوبين ذاتهما، تداعبانه عند لعبة عجلة الحظِّ. وقلت له: «اذهب واعثر على دالتون وكفين، سوف نغادر».

مشيت تجاه المخرج، وما إن فتحت الباب حتَّى انحنيت ألهث لإدخال الهواء إلى رئتيَّ.

أنا لست مثله.

أنا لا أشبهه في شيء.

إنه مثير للشفقة. إنه ضعيف. إنه أصلع لعين بحقِّ المسيح!

يداي ترتعشان. انتبهت إلى رجل قد خرج للتَّوِّ من الكازينو، وقلت له: «مرحبًا! أيمكنني أن أشحذ واحدةً من هذه؟».

وضع سيجارته في فمه، ثمَّ مدَّ يده إلى جيبه ليخرج واحدةً أخرى، وأعطاني إياها، وناولني ولَّاعته. أشعلت السيجارة وتمتمت شاكرًا له، وسحبت

نفسًا طويلًا منها. كنت ما أزال أراوح في مكاني عندما خرج الشباب أخيرًا من الكازينو.

ولكنني رأيته غير بعيد خلفهم، والمرأة اللعوب مجعَّدة الصدر متعلِّقةً بذراعه، كانا يتجهان نحو المخرج.

ما إن خرج الشباب جميعهم من الباب قال جون: «دعونا نذهب».

هززت رأسي، ولم أبعد عيني عن والدي، وقلت: «سنغادر خلال لحظة».

ظللت أحدِّق إليهما في أثناء توجههما إلى المخرج، وما إن دفعا الأبواب معًا، وأصبحا في الخارج حتَّى وقعت عيناه عليَّ، وقد لاحظ السيجارة في يدي وهو يتجاوزني، فقال: «ظننتك قلت إنك لا تدخِّن».

أجبته وأنا أنفث الدخان ناحيته: «لا أدخِّن. هذه سيجارتي الأولى».

ظهرت على وجهه مجدَّدًا النظرات المتعالية. إنها النظرات ذاتها التي اعتاد أن يعاملني بها عندما كنت طفلًا، الفارق الوحيد هو أنها هذه المرَّة لم تكن مترافقة مع الضرب.

من ناحيته على الأقل.

استمرَّا بالسير، وعندما أصبحا على بعد قرابة خمسة أقدام مني، قلت: «أتمنَّى لكَ مساءً لطيفًا يا بول جاكسون».

توقَّف والدي عن المشي، وانتظر بضع لحظات قبل أن يستدير، وعندما استدار أخيرًا، رأيت الأمر في عينيه. لقد تعرَّف عليَّ. رفع رأسه وقال: «لم يسبق أن ذكرت اسمي أمامك».

هززت كتفي ورميت السيجارة على الأرض، وسحقتها بكعب حذائي، قائلًا: «هذا خطئي. أعتقد أنه كان ينبغي أن أقول يا «أبي»».

ما من مجال للخطأ الآن، تعبير وجهه لا يترك مجالًا للشَّكِّ، لقد ميَّزني. قال: «آسا؟».

وخطا خطوةً تجاهي، وكانت هذه الخطوة هي خطأه الثاني.

خطؤه الأول هو عدم تذكري بداية.

قفزت نحوه عاليًا ونزلت عليه بقبضتَيَّ كلتيهما، سقط اللعين المثير للشفقة على الأرض قبل حتَّى أن أكمل حركتي، شعرت أن أحد الشباب يحاول جري بعيدًا عنه. كان العاهر يصرخ في أذني، ويخدش وجهي، محاولًا إبعادي عنه.

لكمته مجدَّدًا، لكمته تعويضًا عن كل سنة تركني فيها وحدي. لكمته من أجل كل مرَّة دعا والدتي فيها بالعاهرة. لكمته من أجل كل نصيحة فاسدة سبق وأعطاها لي. ظللت ألكمه إلى أن اصطبغت يديَّ بدمائه، ولم أعد قادرًا على رؤية وجه والدي. هناك دماء في كل مكان، وإنني لمتأكد من كوني أخطأت رأسه ولكمت الأسمنت، لأن هذه اللكمة آلمتني أكثر من سواها بكثير.

عندما استطاع الشباب أخيرًا سحبي من فوقه، وجرُّوني نحو السيارة، شعرت بالقذارة الباردة على وجهي. القذارة التي سبق وأخبرني والدي أنها هي التي تميِّز بين الرجال والنساء.

أجل، أقصد بكلامي هذا الدموع، أشعر بها تنحدر على وجهي، اللعنة! لا يمكنني إيقافها، ولم يسبق لي في حياتي كلها أن شعرت بهذه القوَّة وهذا الضعف في آنٍ معًا.

لا أعرف كيف وصلت إلى مقعد الراكب، أو من وضعني هناك، ولكنني وجدت نفسي أضرب لوحة القيادة بعنف، وألكمها بقوَّة شديدة إلى أن تصدَّعت. كان كفين يقود السيارة على عجل ليخرج من المرآب، وأنا واثق أنه يحاول أن يختفي من أمام الحراس قبل أن يكتشفوا فوضى الدماء التي تركتها عند مدخل الكازينو.

مدَّ جون يديه حول مقعدي، محاولًا أن يقيِّد يديَّ خلفي، ولكنه أغبى ممَّا كنت أظنُّ إن توقَّع أنه قادر على كبحي. حرَّرت يدي من قبضته وبدأت بلكم اللوحة مجدَّدًا، سأستمرُّ بلكمها إلى أن تنكسر يداي، أو تتوقف هذه القذارة عن الخروج من عينيَّ.

لن أُصبح مثله. اللعنة لن أصبح مثل هذا الوغد المثير للشفقة.

لا أريد أن أشعر بهذا الشعور مجدَّدًا.

صرخت قائلًا: «اللعنة فليعطني أحدكم شيئًا ما».

شعرت وكأن عظامي على وشك أن تمزِّق بشرتي وتخرج منها، شددت شعري، ولكمت النافذة اللعينة، وقلت: «اللعنة، لا يمكنني أن أتنفَّس!».

أنزل كفين زجاج النافذة، لكن ذلك لم يحسِّن حالتي. فصِحت مجدَّدًا: «أعطوني شيئًا ما!».

تلفَّتُّ حولي، وحاولت أن أمسك جون، لكنه انحنى إلى الخلف، ورفع ساقيه وكأن ذلك سيحميه مني. قلت: «الآن!».

صاح جون: «كل شيء في صندوق السيارة! بحقِّ المسيح يا كفين! أركن السيارة جانبًا كي نتمكَّن من تهدئته. اللعنة!».

استدرت ولكمت اللوحة مجدَّدًا، وبعد عدَّة لكمات تالية عاد جون إلى المقعد الخلفي، وقال: «امنحني ثانيتين».

إنه لكاذب لعين، لأنه استغرق قرابة عشر ثوانٍ قبل أن يناولني الحقنة، سحبت غطاءها باستخدام أسناني، وغرزتها في ذراعي. انحنيت نحو الخلف في مقعدي، وقلت لكفين: «انطلق».

أغمضت عيني وشعرت بالسيارة تبدأ بالتحرُّك.

أنا لا أشبهه في شيء.

وليست النساء جميعهن عاهرات. سلوان ليست بعاهرة.

همستُ: «إنها هيروين، الهيروين جميل».



الفصل الثاني والثلاثون

كارتر

سألتها: «ما الذي تشتهيه نفسكِ؟».

رغبت بأن تدعني أقود السيارة في طريق العودة، لذا كنت أبحث عن مطعم طوال الأميال الخمسة السابقة.

أجابتني: «لا يهم. أي شيء يفي بالغرض باستثناء الطعام اليوناني».

- ألا تحبين الطعام اليوناني؟

هزت كتفيها، وأجابت: «لا بأس به. الأمر كله أنه لا يوجد مطعم يوناني قبل وصولنا إلى القرية التالية، وأنا جائعة. إن كنت ترغب بمطعم يوناني، سيتحتم عليَّ أن أنتظر طويلًا قبل أن آكل».

ضحكتُ، إنها ظريفة للغاية. مددت يدي لأمسك بيدها، لكن في تلك اللحظة أصدر هاتفي طنينًا لإعلامي بورود رسالة نصِّيَّة. في العادة لا أستخدم الهاتف في أثناء القيادة، لا سيَّما وأن سلوان معي في السيارة، لكن دالتون سبق وقال إنه سيحذرني إن قرَّروا العودة باكرًا.

وبالطبع كانت الرسالة الواردة منه، وجاء فيها.. «حان الوقت لتعودا، آسا ليس في حالة جيدة».

أوه، اللعنة. هل لعنته أمنيتي باكرًا بأن يلقى حتفه؟

دارت بيننا المحادثة النَّصِّيَّة الآتية..

- هل تعرَّضتم يا أصدقاء لحادث سير؟

- دالتون: لا. لقد ضرب آسا والده ضربًا مبرحًا، وهو يعاني الآن من انهيار أعصاب حاد لعين.

- دالتون: إنه يستمر بالهذيان حول استحسانه وجود سلوان في المنزل عندما يصل إلى هناك. لم يسبق لي أن رأيته بهذه الحال يا رجل.

مسحت الرسائل، ثمَّ أعدت هاتفي إلى حامل الأكواب، وأمسكت عجلة القيادة، وأنا أقول: «أعتذر، لكن لا يمكننا التوقُّف لتناول الطعام. لقد أخبرني دالتون أن آسا قد أصيب بانهيار عصبي، وأنهم بطريق عودتهم الآن».

- انهيار عصبي؟

- أجل، شيء ما يتعلَّق بوالده؟ كما يبدو، فقد ضربه في الكازينو.

نظرت سلوان من النافذة، وقالت: «والده على قيد الحياة؟».

حدَّقت إليها، إنها لا تعرف أن والده قد حُكِمَ عليه بتهمة القتل؟ أعتقد أنه من المنطقي ألا يخبرها آسا بهذا، فهو ليس بالأمر الذي ترغب بأن تعرفه حبيبتكَ.

- إنه لا يعلم أنكَ معي، لا تتحتم علينا العودة قبلهم. أشعر بالجوع.

أكره أن أُجبرها على العودة إلى المنزل، في حين أنها تحتاج أن تظل بعيدة بعد الجحيم عنه. قلت لها: «ذكر دالتون أن آسا يصرُّ على وجودكِ هناك عندما يصل. من الواضح أنه في حالة سيئة للغاية».

تنهَّدت، وأجابت: «هذه ليست مشكلتي. وبكل الأحوال، لماذا يعرف دالتون أنك معي؟ إنني لا أثق بدالتون، أو جون، أو كفين».

- لا تقلقي، إنني أأتمنه على حياتي.

مددت يدي إلى يدها، وسحبتها لتستقرَّ في حضني، وأضفت: «سوف أركن سيارتكِ حيث تركت سيارتي، ومن ثمَّ أعود إليكم لاحقًا الليلة. أعتقد أنه يجب أن نُبقي فاصلًا زمنيًا بين وصولكِ إلى المنزل وحضوري».

أومأت دون أن تقول أي شيء آخر طوال طريق عودتنا، كنا كلانا نشعر بالخوف من المحتوم الآتي على يد آسا جاكسون المضطرب. إنه سيئ بما فيه الكفاية عندما يكون في مزاج جيد، لا أريد أن أفكِّر حتَّى في الطريقة التي سيعامل بها سلوان الليلة.

عندما وصلنا إلى حيث ركنت سيارتي تطلَّعت حولي لأتأكد من أنه لا أحد يرانا. لقد ركنت سيارتي هذا الصباح على بعد عدَّة أميال من منزلها ثمَّ قطعت ما تبقى من الطريق سيرًا على الأقدام.

قبل أن أترجَّل من السيارة سحبتها نحوي وقبَّلتها، قبلتني بدورها وهي تتنهَّد تنهُّدًا حزينًا نوعًا ما، وكأنها متعبة من توديعنا لبعض على هذا النحو.

سألتني: «كيف يحدث هذا دائمًا؛ كلما خطونا خطوة إلى الأمام نُجبَر على التراجع عشر خطوات إلى الخلف؟».

أبعدت خصلة شعر عن جبينها، وقلت: «علينا فقط أن نبدأ بتوسيع خطواتنا إلى الأمام».

أجبرت نفسها على الابتسام، ثمَّ قالت: «أكره أنني لن أستطيع محادثتك عندما تأتي إلى المنزل الليلة. أو لمسكَ».

قبَّلت جبينها، قائلًا: «أنا أيضًا. يجب أن نتَّفق على إشارة للتواصل نستخدمها عوضًا عن الكلام الليلة. حركة بسيطة لن يلاحظها أحد سوانا».

- مثل ماذا؟

رفعت يدي، ومرَّرت إبهامي على شفتي السفلية، وقلت: «هذه حركتي».

جعَّدت أنفها وهي تحاول أن تفكر بحركتها، فاقترحت عليها: «يجب أن تلفِّي خصلة من شعرك حول إصبعكِ. أحب عندما تفعلين هذا».

ابتسمت وأجابت: «حسنًا. إن رأيتني أفعل هذا فمعناه أنني أتمنَّى لو بإمكاننا أن نكون معًا وحدنا».

سحبت خصلة من شعرها، ولفَّتها حول إصبعها، فانحنيت وقبَّلتها، ثمَّ أجبرت نفسي على الترجُّل من السيارة، وانتظرت إلى أن انطلقت مبتعدةً عنِّي لأراسل دالتون:

أنا: لا تتركه وحيدًا معها قبل أن أصل إلى هناك. إنني قلقٌ ممَّا قد يفعله بها.

دالتون: عُلم. لست واثقًا ممَّا يحدث معه. لقد حقن نفسه، ونام لمدة عشر دقائق، والآن يتكلَّم دون انقطاع. إنه مستمرٌ في الإعلان عن رغبته بتناول المعكرونة، ويكرِّر ذِكر حقيقة أن شعره سميك بحقٍّ، إنه غير منطقي البتَّة. كما أنه قد جعل كفين يمرِّر يده في شعره.

اللعنة، إنه بالفعل متقلِّب المزاج. هذا ليس جيدًا.

أنا: أعلمني عندما تصلون إلى المنزل. سأنتظر لمدَّة ساعة ثمَّ آتي إليكم.

دالتون: فكرة جيدة. بالمناسبة، لقد نظر إليَّ للتَّوِّ وقال إنك أنت حبوب «إل إس دي»، ماذا برأيك يعني هذا؟

أنا: ليس لديَّ أي فكرة لعينة.

دالتون: لقد قال (كارتر يسبب أسوأ أنواع الهلوسة، ومن الصعب للغاية أن يُصَنَّف. إنه «إل إس دي»).

أنا: هذا اللعين يهذي، لقد فقد صوابه.

***

الفصل الثالث والثلاثون

سلوان

رنَّ هاتفي ما إن خطوت عبر الباب الأمامي، نظرت إلى الشاشة ورأيت اسم آسا.

عظيم.

مرَّرت إصبعي على الشاشة وأجبت: «مرحبًا».

- مرحبًا يا حبيبتي.

بدا صوته وكأنه قد استيقظ للتَّوِّ، ولكنني أعرف أنه ما يزال في السيارة، وسألني: «هل أنتِ في المنزل؟».

- أجل، لقد دخلت للتو. أما زلت في الكازينو؟

- لا، أنا عائد إلى المنزل في طريقي.

سمعت بهذا.

- إننا جائعون، ونريد أن نأكل معكرونة، أيمكنكِ إعدادها؟

- لديَّ الكثير من الوظائف لإنجازها، لم أكن قد خطَّطت فعلًا للطبخ الليلة.

تنهَّد وقال: «أجل، حسنًا، لم أكن أنا بنفسي قد خطَّطت لطلب المعكرونة».

قلت دون اهتمام: «يبدو أنه لدينا معضلة».

- ليس بالنسبة إليَّ. أعدِّي بعض المعكرونة اللعينة يا سلوان، رجاءً. إنني أمُرُّ بيوم عصيب نوعًا ما هنا.

أغلقت عينيَّ، وجلست على الأريكة. ستكون هذه الليلة ليلةً طويلةً. يمكنني أيضًا أن أهوِّنها على نفسي قدر المستطاع.

- حسنًا. سأعدُّ لك المعكرونة. أترغب بكرات اللحم إلى جانبها يا عزيزي؟

- سأحب ذلك. نريد كرات اللحم، أليس كذلك يا شباب؟

سمعت همهمات بعض الشباب في السيارة وهم يجيبون: «بالتأكيد».

رفعت قدميَّ على ذراع الأريكة، ووضعت الهاتف على وضع مكبر الصوت، ثمَّ تركته فوق صدري، وسألته: «لماذا تمُرُّ بيوم عصيب؟».

مرَّت دقيقة من الصمت، ثمَّ قال آسا: «هل سبق وأخبرتكِ عن والدي يا سلوان؟».

- لا.

تنهَّد وقال: «تمامًا. ما من شيء لقوله».

يا يسوع! ماذا بحقِّ الجحيم قد فعل به هذا الرجل؟ فركت صدغي باستخدام أصابعي، وسألته: «متى ستصل؟».

لم يُجِب آسا على سؤالي، بل عوضًا عن ذلك سألني: «هل كارتر عندكِ؟».

في الحال عدَّلت جلستي على الأريكة، وبسبب الذعر أصبح صوتي أضعف، حاولت إخفاء ذلك وأنا أجيب: «لا يا آسا. إنه معكَ».

صمت قليلًا، ثمَّ قال: «لا يا سلوان، ليس معي».

ساد الصمت على الهاتف أكثر من قبل حتَّى، وعندما نظرت إليه أدركت أنه قد أقفل الخط. ضغطت الهاتف إلى جبيني، ماذا يعرف؟

***

بعد مرور ساعة من ذلك، دخلوا كلهم عبر الباب الأمامي، لم أكن قد انتهيت من تحضير الطعام بعد، لأنني اضطررت إلى الذهاب إلى المتجر لإحضار

المعكرونة. دخل آسا إلى المطبخ، وصدرت عنّي شهقة عندما نظرت إليه؛ كان قميصه مغطّى بالدماء، وقبضتاه بالكاد يمكن تمييزهما. أسرعت في الحال لإحضار عدّة الإسعافات الأولية من المخزن، وقلت له وأنا أوجهه إلى الحوض: «تعال إلى هنا».

سكبت الماء على يده، محاولةً أن أعرف مصدر الدم، ولكنه بدا وأنه يسيل من كل مكان. قبضته بأكملها تبدو مثل لحم نيئ. انقلبت معدتي، ولكنني أجبرت نفسي على الانتهاء من تنظيف يده لأتمكّن من تضميدها وأريح نفسي من النظر إليها.

- ماذا بحقّ الجحيم قد فعلت يا آسا؟

كشّر ونظر إلى يده، وقال: «ليس ما فيه الكفاية».

بسطت المرهم على كامل مساحة يده، ثمّ لففتها، ولكن هذا بالكاد قد يفيد بشيء. إنه على الأرجح بحاجة إلى أن تُخاط جراحه، تحتاج إلى عدة غُرَز.

شعرت بيده تقبض بقوّة على يدي، ووجهت عيني إلى عينيه، عندما قال: «أين هو خاتمكِ اللعين؟».

اللعنة.

- على الخزانة. لم أرد له أن يتّسخ في أثناء إعدادي للطعام.

وقف وجرّني من يدي، وهو يسحبني نحو السلالم، وشعرت بقوّة سحبه لي على طول يدي وصولًا إلى عنقي.

- آسا، توقف!

لم يتركني، وعندما جرّني خلفه عبر غرفة المعيشة، وقف دالتون قائلًا: «آسا».

تابع آسا ما بدأ دون توقُّف، اضطررت إلى الركض كي ألحق به ولا أقع، وهو يصعد السلالم كل درجتين معًا. فتح باب غرفة النوم دافعًا إيّاه بقوّة، والتقط خاتمي من على الخزانة، رافعًا يدي اليسرى بيننا، وقال: «ابقي خاتمك اللعين في يدك. لهذا السبب ابتعته لكِ، لكي يعلم الآخرون أنهم لا يمكنهم العبث معكِ».

صفع يدي على الخزانة، ثمَّ فتح الدرج الأعلى وهو يبقي على يدي فوق الخزانة بأن يضغط يده فوقها. سألته وأنا خائفة من الإجابة: «ماذا تفعل؟».

فتح الدرج الثاني، وراح يفتش به بسرعة، وقال وهو يُخرج أنبوب لاصق ويصفع الدرج: «أساعدكِ على تذكُّر ألا تنزعيه من إصبعكِ أبدًا».

وقعت عيناي على أنبوب اللاصق في يده.

سيفعلها بحقِّ الجحيم.

حاولت أن أسحب يدي، لكنه ثبَّت معصمي بقوَّة أكبر هذه المرَّة، نزع غطاء علبة اللاصق وتركه يتدفَّق على إصبعي، ناشرًا إياه تحت خاتمي.

بدأت الدموع تتجمَّع في عينيَّ، كففت عن محاولة محاربة الأمر، وقرَّرت أن أثبت بقدر ما أستطيع، على الرغم من ضربات قلبي التي كانت تتسارع داخل صدري.

كارتر ليس هنا، وإنني بصراحة مرعوبة ولا يمكنني أن أحارب الآن، لأنني لست واثقة من أن أيَّ أحد من الشباب الموجودين في الطابق السفلي قد يقف في صفي.

رمى آسا اللاصق على الخزانة، ورفع يدي وراح ينفخ عليها ليجفَّ اللاصق. كان يحدِّق إليَّ طوال الوقت الذي قضاه وهو ينفخ على إصبعي. عيناه سوداوان وكبيرتان ومرعبتان. همست: «هل انتهيت؟ لا أريد أن يحترق الطعام».

تابع نفخه على إصبعي لعدَّة ثوانٍ، ثمَّ انحنى وقبَّل راحة يدي قائلًا: «لقد انتهينا. لن تنسي بعد الآن».

إنه مجنون، إنه مجنون لعين. أظن أنني لطالما علمت أنه لم يكن يومًا شخصًا عظيمًا، ولكنني لم أدرك قط مدى جنونه حتَّى نظرت في عينيه للتَّوِّ.

تبعني آسا خارج غرفة النوم، وعلى طول السلالم، كان دالتون واقفًا عند ناصية الدرج، وتمكَّنت من رؤية القلق في عينيه.

ما زلت لا أثق به.

عدت إلى المطبخ، ومباشرةً إلى الفرن، سحبت المعكرونة من على الموقد، وبدأت بسكبها في مصفاة في اللحظة التي ظهرت فيها سيارة في المرأب.

كارتر.

انتهيت من تصفية المعكرونة وأنا أحدق إلى خاتمي طوال الوقت.

لم يثبِّته بشكل مستقيم حتَّى، سأعاني وأنا أنزع اللاصق الشديد، وسوف يستغرق ذلك منِّي أيامًا على الأرجح. أقل ما كان يمكن أن يفعله الوغد هو أن يحرص على لصقه على نحو مستقيم. سوف يصيبني اعوجاجه بالجنون.

حرصت على ألا أنظر إلى الباب الأمامي عندما فُتح، عُدت إلى الموقد، ورحت أقلِّب صوص المعكرونة، ثمَّ ألقيت نظرة على كرات اللحم في الفرن. كان آسا يغسل الدماء عن ذراعيه في الحوض عندما دخل كارتر إلى المطبخ وفتح الثلاجة قائلًا: «ماذا أصابكَ؟».

لم أستطع أن أتبيَّن ما قاله آسا، بسبب النبض المرتفع الذي كان ما يزال يطنُّ في أذنيَّ، لكن كارتر ضحك، وأضاف: «هل ربحتم أيها الأصدقاء أي جائزة كبرى؟».

استدرت ومشيت نحو الحوض، ولمحت كارتر بزاوية عيني. هزَّ آسا رأسه، وأجاب: «لم نربح أي شيء عليه القيمة. لا شيء مشابه لتلك الجائزة التي كانت ملفوفة حولك ليلة الجمعة».

شعرت وكأن الدماء قد جفَّت في قلبي، لا يمكنني أن أنظر إلى كارتر الآن، لا أستطيع. إما أن آسا يختبرني ليرى رَدَّ فعلي على تصريحه هذا، وإما أن كارتر لم يكن يومًا الشخص الذي ظننته. أضاف آسا: «لقد كانت مثيرة على نحو لا يصدق، أحسنت يا رجل. أذهلتني بالفعل».

اتجهت نحو الفرن لأتحقَّق من كرات اللحم، ولكن هدفي الحقيقي كان أن أحظى برؤية وجه كارتر، رشف من زجاجة البيرة خاصته، دون أن ينظر بعينيَّ، وقال: «إنها مجرَّد صديقة».

اضطررت لإمساك باب الفرن بكل ما أملك من قوَّة، وذلك لأنني شعرت وكأنني على وشك السقوط على الأرض.

أي فتاة؟ متى؟ ليلة الجمعة كانت عندما جاء كارتر إلى غرفتي وقبّلني، كيف بحقِّ الله لم أعلم أنه كان هنا مع إحداهن؟

شعرت في هذه اللحظة أنني أشدُّ حماقةً ممّا سبق وشعرت في أثناء مواعدتي لآسا، إذ على الأقل لطالما عرفت أن آسا وغد.

لقد ظننت بصدق أن كارتر مختلف.

قال آسا: «صديقة أيها المحتال، هل تضاجع دالتون على حائط غرفة المعيشة هكذا؟ جون؟ بحسب معرفتي فالأصدقاء لا يفعلون هذا مع أصدقائهم يا صاحبي».

أخرجت كرات اللحم من الفرن، وأُجبرت على الالتفاف طوال المسافة للوصول إلى الموقد كي لا يرى أي منهما الدموع في عينيَّ، وبعد عدَّة ثوانٍ شعرت بذراعيْ آسا تلتفان على خصري، قبَّل عنقي، واللعنة عليَّ إن لم ألتفت وأطبع قُبلةً على شفاهه، بقدر ما أكرهه، وبقدر ما أرغب بأن أجرِّده من ذكورته كعقاب له على ما فعله بي للتَّوِّ في الطابق العلوي، فهذه القُبلة ليست بأي شكل من الأشكال متعلِّقة به.

أردت أن يشعر كارتر بما شعرت به الآن؛ وكأن ثمَّة شقًّا ضخمًا في صدري.

وغد لعين، إنهم جميعًا أوغاد ملاعين.

ابتعدت عن آسا وأنا أقول: «إنكما تعطِّلانني وتصعِّبان التركيز عليَّ، فلتخرجا من المطبخ كي أستطيع الانتهاء من تحضير الغداء».

لا أعرف كيف تمكَّنت من الكلام، وأنا أشعر أن كل كلمة من كلماتي على وشك أن تتحوَّل إلى بكاء ونحيب. رميت كرات اللحم كلها في الصلصة، وبينما كنت أنزل المعكرونة معها دخل دالتون إلى المطبخ قائلًا: «بحقِّ المسيح يا آسا اذهب واستحم، سوف نفقد جميعنا شهيتنا للطعام إن وُضِع الطعام وأنت ما تزال ملطَّخًا بالدماء هكذا».

استغللتُ إلهاء دالتون لآسا كي أحدِّق إلى كارتر، وكان ينظر إليَّ مباشرةً، وعيناه مليئتان بالقلق، بدا وكأنه يحاول إخباري بملايين الأشياء في هذه اللحظة، رفع يده ومرر إبهامه على شفته السفلى.

لم أفتل شعري حول إصبعي، وعوضًا عن ذلك فركت فمي بإصبعي الوسطى ثمَّ استدرت لأواجه آسا الذي بدوره دفع شعري عن كتفي وقال: «تعالي لتستحمِّي معي، سيكون صعبًا عليَّ أن أستحمَّ بيد واحدة».

هززت رأسي، وقلت: «لاحقًا. يجب أن أتابع طهي الطعام».

مرَّر آسا أصابعه على طول ذراعي، وصولًا إلى يدي، ثمَّ إلى خاتمي. وبعدها استدار وخرج من المطبخ، ولحق به دالتون. ما إن أصبحت وحدي مع كارتر حتَّى مشى بخُطًى سريعة نحوي، وتوقَّف أمامي قريبًا منِّي بالقدر الذي يسمح به الوضع بحيث لا يبدو مثيرًا للريبة، أمسكت بالطاولة أمامي دون أن أنظر إليه. قال: «لم يكن الأمر هكذا يا سلوان، أقسم لكِ. عليكِ أن تمنحيني ثقتكِ».

خرجت الكلمات من فمه على هيئة همسٍ سريعٍ بائسٍ. ولم أنظر إليه عندما قلت: «هل كنت تقبِّل فتاة أخرى؟».

وببطءٍ أدرت رأسي، ونظرت في عينيه، ويمكنني تقريبًا أن أقسم إنه كان على وشك أن يخاطر بكل شيء ويجذبني إليه، بدأ بهزِّ رأسه قائلًا: «لن أفعل هذا بكِ. لم يكن الأمر على هذا النحو».

تحدث بنبرةٍ واضحةٍ وبطيئةٍ هذه المرَّة، كل شيء به جعلني أرغب بتصديق كلامه، ولكن كل الأشياء التي عاينتها مع الذكور الذين عرفتهم في حياتي علَّمتني ألا أثق بأي رجل.

نظر حوله ليتأكد من كوننا نتمتع بالخصوصية، كل الشباب في غرفة المعيشة كانوا يديرون ظهورهم لنا وهم يشاهدون التلفاز، انحنى كارتر وشد على رسغي، قائلًا: «لن أقدم يومًا على فعل أي شيء قد يؤذيكِ. نهائيًا. أقسم بحياة أخيكِ يا سلوان».

وهنا شعرت بغضبٍ حقيقيٍّ، لا يحق لأي أحد أن يُقسم بحياة أخي. انتهى الأمر قبل حتَّى أن ألاحظ أنني كنت أفعله؛ لقد صفعته بقوَّة، حتَّى إن الشباب في غرفة المعيشة قد استداروا جميعهم على وقع صوت الصفعة.

لا يمكنني تصديق حقيقة أنني قد صفعته للتَّوِّ، ولا يمكنني أن أحدِّد من قد صُدم من هذا الفعل أكثر؛ أنا، أم هو، أم الشباب في غرفة المعيشة الذين

يحدِّقون إلينا الآن. إنني مجروحةٌ أكثر ممَّا سبق وكنت على الأرجح، ولكنني ما زلت أفكِّر بذكاء بما يكفي لأعرف أنه ينبغي أن أغطي حقيقة أنني قد صفعته للتَّوِّ، بحيث لا يبدو الأمر شخصيًّا، فقلت: «لا تغمس إصبعكَ في صلصة المعكرونة أيها الأحمق! هذا فعل مقزز!».

على التَّوِّ استوعب كارتر ما أفعله، أجبر نفسه على إخراج ضحكة، ثمَّ فرك خده، لكنني رأيت الإحباط في عينيه وهو يستدير ويتَّجه إلى غرفة المعيشة، لم أشعر بالسوء من أجله. لقد حالفنا أخي وأنا ما يكفي من الحظ السيئ، وآخر ما يلزمنا الآن هو أن يقول كارتر الأكاذيب، ويقطع وعودًا لا يمكنه الوفاء بها، بينما يقسم على ذلك بحياة ستيفن.

استدرتُ وبدأت بتقليب المعكرونة اللعينة، وتوقَّفت لأمسح دموعي بكم قميصي، ثمَّ أكملت التقليب مجدَّدًا. بعد دقيقة، ظهر دالتون بقربي، ومدَّ يده أمامي ليحضر ملعقة، وينزلها في الصوص ثمَّ يتذوَّقه، همهم ورمى الملعقة في الحوض، وذلك قبل أن ينحني نحوي، ويقول: «إنه يخبرك بالحقيقة يا سلوان».

قال ذلك وابتعد عني، وهنا فقدت قدرتي على التحكُّم بدموعي أكثر، لا أعرف ما الذي يجب أن أصدِّقه، وبمن أثق، وممن أغضب، ومن أحب. ذهبت نحو الحوض وغسلت صوص المعكرونة من على يديَّ.

يجب أن أخرج من هذا المنزل.

توجَّهت نحو الباب الخلفي، وصحت من فوق كتفيَّ: «طبق المعكرونة اللعين خاصتكم جاهز، أيها الأوغاد أولاد العاهرات!».

***

الفصل الرابع والثلاثون

كارتر

شطفت آخر المواعين ثمَّ وضعتها في غسالة الأطباق.

لم ينزل آسا إلى الطابق السفلي ليأكل، ولم تعد سلوان إلى الداخل. راسلتُ دالتون قبل عدَّة دقائق، وطلبت منه أن يذهب إلى الأعلى ليتحقَّق من وضع آسا قبل أن أخاطر بالخروج والتحدث مع سلوان.

مسحت حرف غسالة الأطباق وشغَّلتها، وسمعت وقع خطوات دالتون وهو ينزل السلالم بنفس اللحظة التي وصلتني فيها منه الرسالة التالية:

«لقد أغمي عليه عاريًا في السرير، يبدو أنه سيظل على هذا الحال لبعض الوقت، ولكنني سأبعث إليك رسالة إن حاول النزول إلى الطابق السفلي. تأكد من أن يظلَّ هاتفك مفتوحًا».

تحقَّقت مرَّتين وثلاثًا من تفعيل الصوت والاهتزاز في هاتفي، ثمَّ وضعته في جيبي، وتوجَّهت إلى الخارج لكي أخفِّف من وقع الأشياء على سلوان.

وجدتها في منتصف بركة السباحة، عائمةً على ظهرها، تنظر إلى النجوم، ولم تلتفت إليَّ عندما سمعت صوت الباب الخلفي.

بينما كنت أمشي باتجاهها، لاحظت أن قميصها وبنطالها مرميّان على كرسي.

تبًّا، يا للجحيم!

إنها تسبح مرتدية ملابسها الداخلية فقط.

قد يكون هذا تصرُّفًا طبيعيًّا بالنسبة إليها، ولكنني شعرت وكأنني أدوس على لغمٍ أرضيٍّ بوجودي هنا بينما هي عمليًّا لا ترتدي بزَّة سباحة.

أرحت يدي على حافة المسبح، ونظرت إليها، لكنها لم تلتفت إليَّ، كان الماء يغطِّي معظم وجهها، ولكنني وبمساعدة الأضواء القادمة من داخل المنزل تمكَّنت من رؤية الاحمرار في عينيها.

إنه لوضع مزرٍ إن فكَّرت به؛ فهي مستاءة لأنها تعتقد أنني كنت أعبث مع فتاة غيرها، بينما هي في الواقع تنام في سرير رجل آخر كل ليلة.

اللعنة، لقد قبَّلته فقط لكي تغيظني.

لكنني أتفهَّم الأمر، ولا ألومها، لأنني أعرف إلى أي مدى قد تأذَّت، وإلى أي مدى ما زالت تتأذَّى.

وهذا أصعب ما في الأمر؛ لا أجد الصعوبة الكبرى في إقناعها بأنني حقيقةً أكنُّ لها مشاعر، الأصعب من ذلك هو معرفتي بشعورها في هذه اللحظة بعد أن شككت بحقيقة هذه المشاعر.

لو أنه بإمكاني ببساطة أن أخبرها الحقيقة بأكملها الآن، لكانت الأمور أسهل بكثير، ولكن هذا يُعتبر انتهاك في مهنتي، لأنني بفعلتي هذه سأكون قد خالفت أمرًا مباشرًا من رايان، وما دام آسا مضطربًا هكذا الآن، فكلما قلت معرفة سلوان أكثر، كلما كان ذلك أفضل.

عندما أتى آسا على ذكر تيللي في المطبخ، أظلم تمامًا وجه سلوان، كان بإمكاني أن أقتله هناك في تلك اللحظة.

لوحت سلوان بذراعيها وركلت بقدميها، دافعةً جسدها باتجاه منتصف المسبح، وقالت بهدوء: «لقد نسي أن يطفئ مدفأة الماء هذا الأسبوع، إن الماء جيد للغاية، أعتقد أنني ربما أبقى هنا إلى الأبد».

صوتها حزين، أريد أن أخلع حذائي، وأغوص في الماء وأبقى هناك معها إلى الأبد، ولكن ليس في هذه البركة، أو في هذا المنزل.

سألتني بهدوء وهي ما تزال تحدِّق إلى السماء الليلية: «ما اسمها؟».

قرصت مؤخرة عنقي، متسائلًا إلى أي مدى يجب عليَّ أن أكشف لها الحقائق: «تيللي».

ضحِكَت، ولكن ضحكها لم يكن ناتجًا عن تسلية، وأضافت: «أهي حبيبتك؟».

تنهَّدت وقلت: «إنها صديقة فقط يا سلوان، أحيانًا تؤدي لي بعض الخدمات».

غاص جسد سلوان بأكمله تحت الماء، غاصت حتَّى وصلت إلى القاع، وعندما عامت كانت عيناها ترميانني بخناجر الغضب. ولم أفهم ما الذي قد تفوَّهت به للتَّوِّ إلى أن رأيت النظرة على وجهها. رفعت يديَّ إلى خلف رأسي، وقلت: «ليس هذا النوع من الخدمات يا سلوان. يا يسوع المسيح!».

أبعدت شعرها المبلَّل من على جبينها، وحاولت ألا أنظر إلى أي جزء من جسدها باستثناء رأسها، ولكن اللعنة... كم كان ذلك صعبًا بينما جسدها مبلل بالكامل.

- أي خدمة كانت تقدِّمها لكَ ليلة الجمعة بحيث تتطلَّب أن تكون يداك على جسدها كله؟

كم أكره هدوءها هذا، لأنني أعرف أنها تغلي من الداخل، ممَّا يعني أنها على الأرجح ستنفجر في أي لحظة الآن، شعرت وكأن حافَّة هذا المسبح ليست سوى حافة بركان. كررت سؤالها: «أجبني، ما الخدمة التي كانت تقدمها لك ليلة الجمعة؟».

أجبتها بصراحة: «كانت تساعدني في محاولة إقناع آسا أنني لست مهتمًّا بمضاجعتكِ».

لا حاجة لي إلى النظر إلى صدرها لمعرفة أنها كانت تلهث، ولكنها أيضًا حاولت إخفاء الأمر، حدَّقت إليَّ للحظة ثمَّ غاصت مجدَّدًا في الماء، سبحت نحو النهاية الضحلة ثمَّ وقفت وخرجت من الماء، كل من حمالة صدرها

وسروالها كانا كأنهما غير موجودين، وأمكنني أن أرى جسدها من خلالهما بوضوح تام، وذلك جعلني قلِقًا على نحو لا يُصدَّق.

إنني بحق قلق نوعًا ما من أن آسا سيتمكن من سماع نبضات قلبي المجنونة من غرفة نومه.

مشت سلوان حول المسبح إلى أن أصبحت أمامي مباشرةً، واقتربت أكثر، حتَّى أصبحت قريبة منِّي بشدَّة لدرجة أنني شعرت بحمالة صدرها المبللة على صدري، وقالت: «هل أنت كذلك؟ مهتم بمضاجعتي؟».

يا يسوع المسيح! ما الذي تفعله؟

حاربت يديَّ وهما تشقَّان طريقهما إلى أردافها، وقلت بصوت صلب: «ليس فعلًا، أنا مهتم أكثر بممارسة الحب معكِ».

أصبحت تتنفس بصعوبة الآن، ولكن ذلك لا شيء بالمقارنة مع صعوبة التنفُّس التي عانيتها، أردت أن أقبلها بشدَّة، ولكنها ستكون حتمًا قبلة الموت، لأنني لن أستطيع التوقُّف أبدًا.

إما هذا، وإما أنها ستقتلني إن حاولت. لا يمكنني أن أعرف ما إن كانت ما تزال غاضبةً منِّي أم لا. إنها تتصرف وكأنها ترغب أن ألمسها وأقبِّلها، ولكنها تنظر إليَّ وكأنها ترغب في أن ترميني في المسبح وتثبِّت رأسي تحت الماء.

وضعت يديها على ردفيها وهي تغطِّي يدي بهما، شبكت أصابعي بأصابعها ثمَّ مررت يدي ببطء على معدتها وصولًا إلى ثدييها، ابتلعتُ ريقي بصعوبة، ونظرت إلى شباك غرفة نومها، وقلت: «ماذا تفعلين يا سلوان؟».

انحنت إلى الأمام ووقفت على رؤوس أصابعها، حتَّى أصبح ثدياها ملتصقين بي، فأغمضت عينيَّ وتركت إحدى يديَّ تنزلق حولها عند أسفل ظهرها، وأدخلت أناملي تحت سروالها وجذبتها نحوي.

قربت شفتيها من أذني، وهمَسَت: «هل تحصل على ترقية إن وصلت للمرحلة الثالثة مع خطيبة مرؤوسك؟».

انفتحت عيناي على اتساعهما. بحذر سلكت أصابعي في شعرها، مبعدًا رأسها إلى الخلف لأتمكَّن من رؤية وجهها، وقلت: «إنك تقولين أشياء غير منطقية يا سلوان».

ابتسمت، ولكن المرارة في عينيها كانت أكثر سطوعًا. وقالت: «أعرف ما أنت عليه، أعرف ما الذي تفعله هنا، والآن أصبح اهتمامك الشديد بي أكثر منطقية».

ابتعدت عني، ومشت إلى أن أصبحت بعيدًا عن متناول يدي، وكانت عيناها تقدح سهامًا من شرر وهي تقول: «إيَّاك أن تتكلم معي مجدَّدًا، أو سأخبر الآخرين جميعًا أنك عميل متخفٍّ. لوك».

حاولت أن تمشي وتتجاوزني، ولكنني في الحال قاطعتها ووضعت يدي على فمها، حاولت أن تصرخ ووقعت عيناي على الباب الخلفي، لم يرنا أحد بعد، ولكن يجب أن آخذها إلى مكان أكثر خصوصية قبل أن تتسبب بمقتل كلينا.

حاولت أن تبعد يدي عن فمها وهي تخدشها بأظافرها، لففت ذراعيَّ حولها وأجبرتها أن ترافقني إلى جانب المنزل، وازداد غضبها عندما أدركت ما أفعله، لذا بدأت بمقاومتي بكل ما تملك من قوَّة. أكره اضطراري إلى استخدام كل هذه القوَّة ضدها، ولكن فعلي هذا يندرج ضمن محاولتي حمايتها. عندما نجحت أخيرًا بإيصالها إلى جانب المنزل، خلف الحاجز الذي شكلته الأشجار، دفعتها على الحائط، وأبقيت يدي فوق فمها، وقلت وأنا أنظر بجدية في عينيها: «توقَّفي عن ذلك يا سلوان. استمعي إليَّ، اهدئي واستمعي إليَّ رجاءً».

تنفست بثقل على يدي، وهي تمسك برسغي بكلتا يديها. عندما كفَّت أخيرًا عن القتال، ضغطتُ إحدى يدَّي على حائط المنزل بجوار رأسها، ثمَّ وببطء بدأت بإبعاد يدي الأخرى عن فمها. كانت تلهث من الخوف عندما وضعت يدي الأخرى قرب رأسها، ضغطت جبيني على جبينها، وقلت: «كل شيء سبق وقلته لكِ، كل نظرة نظرتها إليكِ، كل مرَّة لمستكِ بها، لم يكن ذلك بتاتًا من أجل المهمة يا سلوان. ولا حتَّى مرَّة لعينة واحدة، أتفهمين هذا؟».

لم تُجِب.

تغضَّن وجهي، لأنني أكره أن أضعها في وضع كهذا، أكره حتَّى أنها قد شكت فيَّ، أكره أنني قد أعطيتها كل الأسباب الممكنة لتشُكَّ فيَّ، وأكره أنني لا أعرف أي شيء لعين قد أقوله لها لأجعلها تصدِّق مشاعري تجاهها.

انحنيت وقبّلت جانب رأسها، ثمّ أنزلت يديّ ولففتهما حولها.

لم أحاول إقناعها بالمزيد من الكلمات.

لم أقدّم لها أعذارًا فات الأوان كثيرًا على تقديمها.

اكتفيت بأن احتضنتها، لأنني لم أستطع تحمُّل معرفتي بالمشاعر التي تشعر بها الآن.

بعد أن ظلّت متجمّدةً للحظات عديدة بين ذراعيّ، بدأت تسترخي ببطء. رفعت يديها ولكمت قميصي، وبدأت قوتها تتلاشى، ضغطت رأسها على صدري، وراحت تبكي، لذا احتضنتها بكل ما يمكنني من قوّة.

أغمضتُ عينيّ وهمستُ في أذنها المبللة: «أنتِ كل ما أرى يا سلوان. بعيدًا عن العمل، بعيدًا عن الخطأ والصواب، أنتِ كل ما أرى».

وضعتُ شفتيّ على جانب رأسها، وعندما شعرت بفمها على عنقي جذبتها نحوي أكثر، كانت ما تزال تلهث لإدخال الهواء إلى رئتيها، وعلى الأرجح ذلك مزيج من الخوف والغضب وتقارُبنا الحالي. عثرت شفتا كل منا على شفتي الآخر في الظلام، وعندما تلاقت الشفاه أخيرًا شعرت وكأنها كانت تتوسل إليّ لأن أقبلها حتّى تختفي كل شكوكها.

وقد فعلتُ ذلك، تمازجت شفتانا بيأس، دفعتها مجدّدًا على جدار المنزل، كل لحظة مرت كانت عبارة عن لحظة لم يكن ينبغي أن تمر أبدًا، ولكنني لم أستطع إيقاف الذي يحدث، كل ما أمكنني التفكير به لحظتها هو أنني أريد المزيد منها.

عندما ضغطت جسدي عليها تأوّهت في أذني، وكان صوت آهتها تلك كافيًا لإسكات الأصوات الأخرى كلها: صوت القلق، وصوت المنطق. سيطرت حاجتي إليها عليّ تمامًا، وعرفت أنها تشعر مثلي من الطريقة التي انزلقت بها يداها داخل قميصي.

إنني غارق في الضباب، ولا أتوقّع أنني سأجد طريقي لأخرج منه في أي وقت قريب.

اللعنة، يا للجحيم!

مرَّ فمي على طول عنقها، رفعت إحدى يدي إلى صدرها وتركتها تنزلق بين حمالة صدرها وجسدها، لتمر يدي على بشرة ناعمة كالحرير، همست وأنا أمرر فمي على عنقها مجدَّدًا: «يا إلهي يا سلوان!».

عندما وضعت فمي على فمها أدخلت لسانها بين شفتي، وأنزلت يديها إلى زرِّ بنطالي الجينز.

رفعت إحدى ساقيها إلى خصري، ثمَّ أتبعتها بالساق الأخرى، وقلت هامسًا وأنا أحملها: «سيارتي».

الظلام دامس في الخارج، والأشجار المحيطة بالمكان تجعل منه مخبأً جيدًا، لذا لم أقلق من أن يرانا الجيران ونحن نصعد إلى المقعد الخلفي من السيارة. القلق الوحيد الذي راودني يتعلق بحقيقة أن خطيبها في المنزل، وإن أمسك بنا فذلك يعني...

لا أريد حتَّى التفكير بهذا الأمر الآن، لم يراسلني دالتون بعد، ممَّا يعني أنه ما زال لدينا وقت.

أغلقت باب السيارة الخلفي، ومددت يدي إلى المقعد الأمامي لأخرج واقيًا ذكريًّا من صندوق القفازات، وما إن عدت وجلست في المقعد الخلفي حتَّى انزلقت فوقي، فمها على فمي، ويداها على صدري.

يداها تمران على صدري نزولًا لأسفل.

أزلت حمالة صدرها ورحت أقبلها وهي في اللحظة ذاتها تحررني من بنطالي.

ما إن وضعت الواقي الذكري حتَّى رفعت فخذيها وعدَّلت موقعها فوقي، بينما اهتمت هي بأمر سروالها وأبعدته جانبًا، أرجعت رأسي على ظهر المقعد، لأتمكن من رؤية وجهها وأنا أقتحم جسدها.

التقت عينانا ورحت أُنْزِل جسدها ببطء فوقي، أصبح كل شيء في السيارة أكثر هدوءًا بينما حبسنا كلانا أنفاسنا. لم تَحِد عيناي عن عينيها طوال فترة المضاجعة، عندما أصبحت كليًّا داخلها، أطلق كلانا في الوقت ذاته تنهُّدًا حادًّا. وهمست: «يا إلهي!».

إنه الشعور الأفضل الذي شعرت به يومًا؛ أن ألج جسدها أخيرًا. وهو في الوقت نفسه شعور الذنب الأعظم الذي راودني يومًا؛ معرفتي بحجم الخطر الذي أضعها فيه بسبب ضعف إرادتي.

انحنت نحوي وطوَّقت عنقي بذراعيها، وقالت وهي تطلق أنفاسها على شفتي: «لوك».

إنني أموت يا للجحيم.

لقد نادتني لوك.

قرَّبت فمي من فمها مجدَّدًا، وقبَّلتها بالطريقة التي تستحق أن تقبَّل بها؛ قبَّلتها بيقين، قبَّلتها باحترام، قبَّلتها بمشاعر.

بدأت تتحرك فوقي وهي كل ما أراه.

أغمضت عينيَّ وظلَّت كل ما أراه.

***

الفصل الخامس والثلاثون

سلوان

لم أكن أعرف أن الأمر يمكن أن يكون جميلًا هكذا.

أعرف أن كلامي يبدو مبتذلًا للغاية، حتَّى وأنا أفكر به أشعر بذلك، ولكن يداه، وفمه، والطريقة التي يلمسني بها... وكأن استجابتي هي كل ما يعيش من أجله.

والآن، الشيء الوحيد الذي أصبُّ كل تركيزي عليه هو الطريقة التي يحرِّك بها يده على جسدي، ويلمسني في الأماكن الصحيحة للغاية، إلى درجة أنني قلقة من أن صوت استجابتي لن يوقِظ آسا فقط، بل الحي بأكمله. غطَّى فمي بفمه -كأنه شعر بما كنت أفكر به للتَّوِّ- خانقًا تأوُّهاتي وأنا أتحرَّك فوقه. ارتعشت ساقي، وذراعي، وجسدي بأكمله، وأنا أختبر أعظم إحساس يندفع داخلي.

تأوَّهت فوق شفتيه، وقلت: «لوك».

على الرغم من ضعفي في هذه اللحظة، فقد عثرت على القوَّة لأستمرَّ بالتحرُّك فوقه إلى أن حان دوري بكبت تأوُّهاته. فمه مذهل، طعمه كالفواكه، مذاقه حلو.

مختلف عن المرارة التي أبتلعها عندما أُقبِّل آسا.

عندما فرغنا من الارتعاش وكنت ما أزال فوقه، انحنى إلى الأمام ومرَّر شفتيه برقة على كتفي.

لا أعرف كيف تغيرت مشاعري فجأةً، وتحوَّل في هذه اللحظة، تحوَّل شعور البغض الذي راودني قبل ساعتين في المطبخ، إلى مشاعرَ جميلةٍ تفوق كل ما سبق وشعرت به في الأيام السابقة مجتمعةً.

معرفتي بأنه لا يشبه آسا في شيء... أنه على النقيض منه تمامًا... إنه لأمرٌ شديدُ... الجاذبية.

إنه صالحٌ، إنه رجلٌ صالحٌ. الرجال الصالحون موجودون في الواقع.

اتضح الأمر برمته فجأةً، وكأنه وحيٌ هبط عليَّ وأنا أعوم في المسبح. زلَّةُ لسانه باسمه الحقيقيِّ، حضوره لصفٍّ أقل من مستواه في اللغة الإسبانية، فقط ليتمكَّن من أن يكون هناك معي على نحوٍ لائقٍ. إصراره وتكراره لضرورة أن أثق به، دون أن يبرر سبب ذلك، واستخدامه فتاة أخرى كتمويه.

هذه الأخيرة كانت بمنزلة الضربة القاضية، وقد أدركتها حتَّى قبل أن يفصح عنها عند المسبح.

عندما قال دالتون إن كارتر... أو لوك، أيًّا منهما، يقول الحقيقة، عرفت أن هناك المزيد الذي لم أدركه بعد، المزيد من الحقائق التي تفسر تقبيله لفتاةٍ أخرى، على الملأ، وهو في المنزل ذاته معي. أخبرت نفسي بأنه إن خرجَ وأنكر تقرُّبه منها، سأعرف حينها أنه كاذب. وأنه فقط مثل آسا.

ولكن إن خرج وأخبرني الحقيقة، حقيقة أنه كان يستخدمها ليضلل آسا، عندها سأعرف أنني كنت محقَّة. لقد كشفت حقيقته.

لكنني لم أعلم أيًّا من الأمرين أُفضِّل أن أسمع؛ أنه فقط مجرَّد نسخةٍ أخرى من آسا... أو أنه كان يستخدمني طوال هذا الوقت.

بمجرَّد أن أدرك أنني فهمت الأمر، كنت أتوقَّع أنَّ هذا الإدراك سيكون نقطة النهاية بالنسبة لما بيننا. ظننت أنه سيقلق من خسارته لعمله، وسيحاول أن يبرم صفقةً ما معي من أجل أن أُبقي فمي مغلقًا. لأن الرجال أمثاله... الرجال الذين لديهم وظائف، الرجال الجيدون والناجحون واللطيفون... لا يقعون في حب فتيات مثلي.

أو على الأقل هذا ما رُبيتُ على تصديقه.

لكنني كنت مخطئةً، إذ لم يضع قلقه على وظيفته على رأس القائمة. عندما يقول إنني كل ما يراه، أصدقه، لأنه هو أيضًا كل ما أراه أنا، والآن أريد أن أتشرَّب كلَّ لحظةٍ ممكنةٍ معه.

ذراعاه ملفوفتان حولي، وكل منا يحاول أن يلتقط أنفاسه. ما فعلناه يصنف كحماقةٍ، كلانا يعلم هذا، ولكنني الآن أعرف أنه يستحق المخاطرة من أجله.

قال: «ما أعظم رغبتي بأن تبقي حيث أنتِ الآن إلى الأبد، إلا أنكِ يجب أن تعودي إلى الداخل».

أعرف أنه محقٌّ، لكنني أتمنَّى لو أنه لم يكن كذلك. فداخل المنزل هو آخر مكان أرغب بالتواجد فيه بعد ما جرى بيننا الآن. مرَّرت أصابعي عبر شعره، ووصلت إلى أنفي رائحة الشامبو المنعشة، فانحنيت إلى الأمام وشممت شعره، وقلت: «لقد استحممت؟ قبل أن ترجع إلى المنزل؟».

ابتسم، يمكنني أن أرى ابتسامته حتَّى في هذا الظلام.

- إذَنْ لقد استحممت، كما أنه لديك واقٍ ذكري في سيارتك؟ أكنت تتوقع أن تضاجع أحدًا الليلة؟

ألقى برأسه على مسند الرأس أعلى المقعد، وببطء ارتسمت على شفتيه ابتسامة رضًا عذبة، وأجاب: «استحممت لأنني أحب أن أبدو بمظهر جيد أمامكِ، ولديَّ واقٍ ذكري في سيارتي لأنني أحب أن أكون جاهزًا. ولقد مضى على وجوده في السيارة ستة أشهر إن كنتِ تشعرين بالفضول».

كنت أشعر بالفضول، ولكن لا يحقُّ لي ذلك، إنه يعلم بما يزال يجري بيني وبين آسا خلال الليل، لو بإمكاني إيقاف ذلك لأوقفته في الحال، ولكنه ليس خيارًا متاحًا في الوقت الحالي، ليس قبل أن أغادر هذا المنزل.

لكننا لا نتكلم حول الأمر، حول حقيقة أنني ما أزال مع آسا، وحول أن ما حدث بيني وبين لوك للتَّوِّ ليس صائبًا، بغض النظر عن صوابه بالنسبة إلى مشاعرنا. ولكنني وبصراحة لا يهمني أنني قد خنت آسا، يجب أن أشعر بالذنب، لكنني لا أشعر به.

كما تعامِل تُعامل يا آسا جاكسون.

مرَّر لوك إبهامه على ذراعي، وراح يداعبني محرِّكًا إصبعه صعودًا وهبوطًا، وقال: «سلوان؟».

كنت أتتبَّع ذقنه، لديه وجه جميل جدًّا، وملامح ذكرية موزَّعة على كل التفاصيل التي يستحسن أن تبدو ذكرية، مع لمسة من الأنوثة في شفتيه.

- أجل؟

- كيف اكتشفتِ الأمر؟

ضحكت، وأجبت: «أنت كل ما أراه يا لوك، كما أنني حادَّة الذكاء».

- أجل أنتِ كذلك.

وضع راحتي يديه على ظهري، وسحبني إليه، ولكن قبل أن تلتقي شفتانا، خُبط ظهري بالمقعد، وتأرجح هو فوقي، مغطِّيًا فمي بيده، وهمس وهو ينظر من النافذة الأمامية: «ابقي ساكنة».

شعرت وكأن قلبي قد صعد إلى حنجرتي.

لقد قُضِيَ أمرنا، إننا ميتان.

إننا ميتان.

سمعت صوت طرق عنيف على النافذة، لكنني لست متأكدة تمامًا من أنه لم يكن صوت نبضات قلبي.

- افتح الباب اللعين!

أغمضت عينيَّ، ولكنني شعرت بفم لوك يقترب من أذني، ويهمس: «إنه دالتون فقط. ابقي منخفضة».

أومأت، وغطَّيت نفسي بذراعيَّ، في حين عدَّل لوك وضعيته وفتح الباب، طار شيء ما إلى المقعد الخلفي، والتقط لوك بذراعيه أيًّا كان ما رماه دالتون للتو، قائلًا: «ما هذا بحقِّ الجحيم؟».

انحنى دالتون عبر الباب، وقال وهو ينظر إلينا: «في المرَّة القادمة عندما تقرِّران أنتما الاثنان أن تتسلَّلا وتتضاجعا، احرصي على أن تأخذي ملابسكِ معكِ».

أعطاني لوك بلوزتي وبنطالي الجينز، اللذين رماهما له دالتون للتَّوّ، وعلى عجل أدخلت رأسي في ياقة بلوزتي، وأنا أشعر بالحرج من حقيقة استهتارنا الشديد.

سأل لوك دالتون: «هل استيقظ؟».

رماه دالتون بنظرةٍ قاسية، معبِّرًا بتلك النظرة عن الكثير من الأشياء التي لم أستطع حتَّى أن أبدأ بفهمها. وقال: «لا. ولكن يجب عليك أن تغادر قبل أن تودي بنا أفعالك إلى حتفنا».

ثم استدار دالتون ونظر إليَّ، وأضاف: «وأنتِ يجب أن تعودي إلى المنزل قبل أن يتسبب كارتر بمقتلك».

وقف، وقبل أن يصفع باب السيارة قال: «يجب أن نتكلم قبل أن تغادر يا كارتر».

كنت أكافح لأرتدي بنطالي، فقدم لي كارتر يد العون. يجب عليَّ حقًّا أن أستمر بتسميته كارتر في رأسي، وإلا فإن احتمالية أن أدعوه لوك أمام آسا كبيرة.

سألته: «هل أنت في ورطةٍ؟».

أقفلت أزرار بنطالي، ثمَّ سوَّيت بلوزتي، ومرَّر يده على مؤخرة عنقي، وقال: «أنا دائمًا في ورطة يا سلوان. أتمنَّى لو بإمكاني أن أقول لكِ إنني جيدٌ في عملي، ولكنني أعتقد أن ما حصل للتَّوِّ قد أثبت أن أولوياتي خارج المألوف قليلًا».

ضحكتُ وقلت: «أنا على النحو الشخصي أعتقد أن أولوياتك كانت في مكانها الصحيح تمامًا خلال نصف الساعة الماضية».

قبَّلني وقال: «اذهبي، وكوني حذرة».

بادلته القبلة، وبشدَّة، وعندما ابتعدت عنه هذه المرَّة لم يؤلمني الأمر كثيرًا، لأنني الآن أصبح لديَّ أمل، أمل بأن تكون لديه خطة لإخراجنا من هذه الفوضى.

***

ظلت الابتسامة على وجهي طوال الوقت الذي قضيته وأنا أستحم، لأنني عندما فتحت الباب الخلفي، ودخلت إلى مطبخٍ نظيفٍ، أدركت بلا أدنى شك أن كارتر هو من نظَّفه.

لا أحد، لا أحد البتَّة، سبق أن قدَّم لي أدنى نوع من المساعدة في هذا المنزل، ولست واثقةً من أنني سبق وسمعت يومًا أن التنظيف هو الطريق إلى قلب فتاةٍ، ولكن بناءً على ردِّ فعلي، يمكنني القول إنه الطريق إلى قلبي، لأنني كدت أن أبكي عندما سمعت صوت غسالة الصحون.

هذا أمر حزين بالفعل؛ فملء غسالة الصحون يعني بالنسبة إليَّ أكثر ممَّا يعنيه خاتم خطوبة. من وجهة نظرٍ خارجية، ستبدو أولوياتي أنا أيضًا خارج المألوف بكثير.

لكنني أفضِّلها أكثر بكثير على هذا النحو.

كان آسا مغمًى عليه على السرير عندما دخلت إلى غرفة نومنا، وجسده ممددٌ على طول الملاءات عاريًا.

عظيم، سيتحتم عليَّ أن أحاول إيقاظه، أو أن أدحرجه إلى جانبه من السرير، ولكنه ثقيل جدًّا بالنسبة إليَّ.

استدرت ومشيت نحو جانبه من السرير، ثمَّ أمسكت بيده وحاولت أن أسحبه، لم يتزحزح، ولكنه أصدر بعض التأوُّهات من بين شخيره.

ثم... تقيأ.

تقيأ اللعين على لحافي كله.

أغلقت عيني وحاولت أن أحافظ على هدوئي، بالطبع سيفسد عليَّ ليلتي الجميلة هذه.

استمر بالتقيؤ بين نوبات الأنين، مالئًا الغرفة برائحة حمضية، فأسرعت نحو المكتب وأحضرت صندوق المهملات، ثمَّ انحنيت فوقه، ورفعت رأسه بحيث يتقيأ داخل صندوق المهملات.

تقيأ مرتين أخريين، ثمَّ وأخيرًا، وبعد دقائق قليلة من الهدوء، فتح عينيه. عندما نظر إليَّ كانت النظرة المرعبة التي رأيتها في عينيه سابقًا قد ذهبت، وحلت مكانها براءةٌ طفولية، وتمتم قائلًا: «شكرًا لكِ يا حبيبتي».

أعدت حاوية القمامة إلى الأرض، ثمَّ وضعت يدي على جانب رأسه، وقلت: «آسا، أريدك أن تحاول وتقف، يجب أن أزيل اللحاف عن السرير».

تدحرج مبتعدًا عن القيء، وضم وسادة إلى صدره ليغط في النوم في الحال تقريبًا.

- آسا!

هززته، لكنه كان قد فقد وعيه مجدَّدًا.

وقفتُ، وتطلعت حولي في الغرفة، محاوِلةً أن أجد طريقة للقيام بذلك دون الحاجة إلى الذهاب إلى الطابق السفلي وطلب المساعدة.

ما من طريقة يمكنني من خلالها القيام بالأمر بنفسي، ولا أرغب بالنوم في الأسفل على الأريكة، ليس بوجود جون هنا. دعوت الله أن يكون إما كارتر وإما دالتون ما يزالان هنا، لأنني بإطلاع جون أو كفين على حقيقة أن آسا غائب عن الوعي سأعرض سلامتي الشخصية للخطر.

لحسن حظي، كان كارتر ودالتون يقفان في المدخل وهما يتجهزان للرحيل عندما وصلت إلى الطابق السفلي، وقف كارتر في حالة تأهب عندما رآني. قلت لهما: «أحتاج إلى أحد ليساعدني برفع آسا لأتمكن من تغيير اللحاف. لقد تقيأ في كل مكان».

تمتم جون من على الأريكة: «حظًّا سعيدًا».

حدَّق كارتر باتجاه جون، ثمَّ على التو بدأ بالتوجه إلى السلالم، تمكنت من رؤية عدم الموافقة على هذا في عيني دالتون، لكنه تبع كارتر بدوره.

عندما وصلنا جميعنا إلى غرفة النوم كانت الرائحة نتنة وكريهة على نحو لا يُصدَّق، بحيث اضطررت إلى سد أنفي بيدي كي لا أشعر بالرغبة بالتقيؤ. تمتم دالتون: «يا للجحيم!».

مشى حالًا نحو النافذة وفتحها، كنا ثلاثتنا ننظر إلى جسد آسا الممدد على التخت، وشعرت بالحرج عوضًا عنه لأنه كان عاريًا، لكن وبحسب معرفتي لآسا، فإن هذا الأمر لن يعنيه، حتَّى وإن اهتم به، فإنه ليس خطأ أحد سواه كونه على هذه الحالة.

مد كارتر يده إلى الأسفل وحاول أن يهزه ليوقظه قائلًا: «استيقظ يا آسا».

أنَّ آسا لكنه لم يستيقظ. سأل كارتر وهو يستدير نحو دالتون: «ماذا تعاطى بحقِّ الجحيم؟».

هزَّ دالتون كتفيه، وأجاب: «عليَّ اللعنة إن كنت أعلم. رأيته يقضم بعض الحبوب في الطريق إلى الكازينو، والهروين في طريق العودة إلى المنزل».

لم يتردد كارتر حتَّى عندما انحنى إلى الأمام، وأمسك بآسا من تحت ذراعيه، رفعه ثمَّ وقف، ساحبًا إياه بعيدًا عن السرير.

في الحال جمعت اللحاف ولممت طرفيه معًا، لم أكن أنوي حتَّى أن أغسله، وضعته في الممر ثمَّ بدَّلت الملاءات لأكون بأمان. سألني كارتر وهو ما يزال يحمله من تحت ذراعيه: «على أي جانب من السرير ينام؟».

أشرت إلى جانب آسا من السرير، وجره كارتر إلى هناك. ساعده دالتون برفعه فوق السرير، وأخرجت غطاء آخر من الخزانة لأغطيه به.

عندما كنت أدُسُّ الغطاء حوله، فتح آسا عينيه، ونظر إليَّ، ثمَّ مرر يده على وجهه عابسًا، وقال متذمرًا: «ما هذه الرائحة؟».

- لقد تقيأت على السرير.

سأل متجهمًا: «هل نظَّفتِه؟».

أومأت وهمست: «أجل. لقد بدَّلت الملاءات. عد إلى النوم».

لم يغمض عينيه، وعوضًا عن ذلك رفع يده وأدخلها في خصلة من شعري قائلًا: «إنكِ تعتنين بي أيَّما عناية يا سلوان».

حدَّقت إليه لثانية، بهذه النسخة الحساسة منه، وبطريقة ما، وحتَّى بوجود كارتر معي في الغرفة، تأججت مشاعري نحوه.

لا يمكنني ألا أحس بشيء تجاهه.

ليس آسا على حاله هذه لأنه اختار أن يكون هكذا، أشعر أنه على ما هو عليه لأنه لم يتعلم يومًا كيف يكون شخصًا مختلفًا، ولهذا سينال دائمًا تعاطفي، لن يحصل على قلبي يومًا، وعلى الأرجح لن ينال أبدًا مغفرتي.

لكن لا يمكنني أن أمنع نفسي من التعاطف معه.

كنت أهمُّ بالوقوف، لكنه أمسك بمعصمي، وسحبني إلى الأسفل مجدَّدًا، ركعت على ركبتي بجوار السرير، ولف آسا يده حول يدي قائلًا: «فيما مضى، عندما كنت في الخامسة من عمري... تقيأت على سريري، وجعلني والدي أنام فوق قيئي، قائلًا إن هذا سيعلمني ألا أتقيأ في سريري مجدَّدًا».

أطلق ضحكة صغيرة، لكنه بعدها أغمض عينيه بقوَّة أكبر، وأضاف: «أعتقد أن الوغد كان مخطئًا في هذا الشأن، أيضًا».

أوه، يا إلهي.

وضعت يدي على قلبي الذي آلمني من أجل الطفل في داخله.

استدرت ونظرت إلى كارتر ودالتون، اللذين كانا ينظران إلى آسا بمقدار الشفقة الذي شعرت به ذاته، عندما أعدت ناظريَّ إلى آسا كان يتدحرج على بطنه، دافنًا وجهه في وسادته.

أمسك بالوسادة بقبضتيه كلتيهما، وضغط وجهه عليها بشدَّة، وفهمت أنه يحاول أن يهدئ نفسه، بدأت كتفاه بالاهتزاز عندما رفعهما ليطوق الوسادة. همست وأنا أمرر يدي برفق على رأسه: «آسا».

انهار في موجة بكاءٍ حادَّةٍ، نوع من البكاء العميق جدًّا والذي يؤلم القلب، لم يكن حتَّى مترافقًا مع صوت.

صامت كليًّا.

لم يسبق لي أن رأيت آسا يبكي، لم أكن أعرف حتَّى أنه يستطيع البكاء بدموعٍ حقيقية.

لن يتذكَّر شيئًا من هذا غدًا، لن يعرف ما إن كنت قد تركته هنا وحيدًا، أم صعدت إلى السرير وحضنته. تابعت ملاطفة رأس آسا بينما رفعت نظري إلى كارتر. لم يعد دالتون موجودًا في الغرفة، نحن الثلاثة فقط هنا الآن.

مشى كارتر نحوي، ورأيت كمية من التعاطف لا تقل عمَّا شعرت به في عينيه، رفع يده ومررها على خدي، ثمَّ انحنى وطبع قُبلةً على جبيني.

أبقى شفتيه على جبيني لبضعة ثوانٍ قبل أن يبتعد ويمشي ناحية الباب، عندما وصل إلى المدخل استدار وحدق إليَّ للحظة، ثمَّ رفع يده ومرر إبهامه

ببطء على شفته السفلى، وصل قلبي إليه لكن جسدي ظل في مكانه على الأرض، يهوِّن على آسا.

رفعت يدي وسحبت خصلةً من شعري، ورحت أبرمها حول إصبعي. ظهر شبح ابتسامةٍ على وجه كارتر، وظل يراقبني لبضع ثوانٍ أخرى، ثمَّ أغلق الباب.

صعدت إلى السرير، وغطَّيت جسدي باللحاف، ولففت آسا بذراعيَّ، ورحت أخفف عنه، وأمسح دموعه إلى أن اقتنعت أنه قد غطَّ في النوم أخيرًا.

لكن وقبل أن أغفو مباشرةً سمعته يهمس: «من الأفضل لكِ ألا تهجريني يومًا يا سلوان».



الفصل السادس والثلاثون

آسا

أول ما شاهدته عندما فتحت البرّاد، كان وعاء يحوي ما تبقّى من المعكرونة. الحمد لله.

همست دون أن أوجّه كلامي لأي أحد: «أرأيت يا والدي؟ إنها هبةٌ لعينةٌ من السماء».

وضعت طبق المعكرونة في المايكروويف، ثمّ مشيت نحو الحوض لأغسل وجهي بالماء، يبدو وكأنني قد نمت ورأسي موضوعٌ في المرحاض طوال الليل، يا للجحيم! وبناءً على الرائحة النتنة المنبعثة من غرفة النوم هذا الصباح، فعلى الأرجح قد فعلت ذلك.

انحنيت على الطاولة، أنتظر أن ينتهي المايكروويف من تسخين الطبق، ورحت أحدق إلى الطبق وهو يدور في دوائر داخله.

عجبًا هل قتلته؟

أشك بذلك، لقد مضى يوم تقريبًا على مغادرتنا للكازينو، إن كان قد مات، فلا بد أن تكون الشرطة قد طرقت بابي بحلول هذا الوقت، وإن عاش فأنا متأكد تقريبًا من أنه لن يتقدم بشكوى ضدي، فهو يعرف أنه يستحق ما فعلته به.

طنَّ المايكروويف.

أخرجت الطبق، وتناولت شوكةً، ثمَّ رميت لقمةً إلى فمي، بالكاد ابتلعتها قبل أن أضطر إلى البحث عن حاوية القمامة، تقيأت مرَّتين، وغسلت بعدها فمي، ثمَّ أجبرت نفسي على تناول لقمةٍ أخرى.

سأمضي قدمًا خلال انسحاب المخدِّرات من جسدي كابن لعينة، لأنني أرفض أن أتحوَّل إلى شبيهٍ لذلك الرجل.

أكلت لقمة أخرى من المعكرونة، وابتلعتها ممزوجةً بعصارتي الصفراوية.

امضِ قدمًا يا آسا.

تأرجح الباب الأمامي وانفتح، لتدخل منه سلوان، نظرت إلى الساعة التي بالكاد كانت قد تجاوزت الثانية، لا تعود عادةً إلى المنزل من المدرسة في هذا الوقت. إما أنها لم تنتبه أنني واقف في المطبخ، أو أنه موعد دورتها الشهرية وهي في مزاج سيئ، لأنها قد أسرعت مباشرة إلى السلالم، وإلى غرفة النوم.

لم تمضِ دقيقة حتَّى سمعتها تقلب غرفة النوم رأسًا على عقب، وترمي بالأشياء على الأرض، سمعت وقع أقدامها وهي تتحرك من أحد جانبي الغرفة إلى الجانب الآخر، حدقت إلى السقف وأنا أتساءل ماذا بحقِّ الجحيم تفعل. رأسي يؤلمني بشدَّة لذا لا أستطيع أن أصعد لأرى بنفسي، ولم يتحتم عليَّ ذلك، فلم تمضِ عدَّة ثوانٍ حتَّى هبطت الدرج مسرعةً بشدَّة.

عندما انعطفت حول الزاوية المؤدِّية إلى المطبخ، اجتاحتني رغبةٌ عظيمة بها، إنها غاضبة كالجحيم، وهذا أمر مثير للغاية. ابتسمت لها وهي تتقدَّم صوبي، وقبل أن أتمكَّن من النطق بأيِّ شيءٍ أصبحت أمامي مباشرةً، غرزت إصبعًا في صدري، وقالت: «أين هي الوثائق يا آسا؟».

الوثائق؟

ما الذي تتحدث عنه بحقِّ الجحيم؟

- أي وثائق هذه التي تتحدثين عنها؟

كان صدرها منتفخًا، وإن تقدمت نحوي بضعة إنشات فقط سأتمكَّن من تحسُّسه.

- ملف أخي! أين هو يا آسا؟

أوه، هذه الوثائق.

وضعت بحرصٍ وعاء المعكرونة على الطاولة، ثمَّ رفعت ذراعيَّ وعقدتهما فوق صدري، وقلت: «لا أعرف ما الذي تقصدينه يا سلوان».

سحبت نفَسًا حذِرًا، وزفرته بدقة أكبر، ثمَّ استدارت. وضعت يديها على وركيها، محاولةً أن تستجمع القوَّة لتظلَّ هادئةً.

عرفت أنها إن علمت يومًا ما الذي فعلته فسوف تغضب، رغم ذلك، لم أبذل الجهد الكافي للتفكير بجوابٍ أبرر لها به ما فعلته.

قالت وهي تصرُّ على أسنانها: «سنتان».

ثم استدارت وكانت عيناها مملوءتين بالدموع.

حسنًا، اللعنة، لم أتقصد أن أجعلها تبكي.

- لسنتين كاملتين اعتقدت أنك كنت تدفع لرعايته، لقد أريتني الوثائق يا آسا؛ الرسائل التي أرسلتها الولاية، إيصالات الدفع.

بدأت تخطو إلى الأمام والخلف، وتابعت: «لقد ظنتني العاملة الاجتماعية اليوم غبية عندما سألتها إن كان يمكن بأي شكل من الأشكال أن تتجدد إعاناته، أتعرف ماذا قالت لي يا آسا؟».

عادت لتقف أمامي وجهًا لوجه، هززت كتفي كعلامة نفي، تقدمت خطوة إلى الأمام وهي تعقد ذراعيها فوق صدرها، وقالت: «قالت «لم تُلغَ الإعانات يومًا يا سلوان، لم يسبق أن دُفع لرعاية ستيفن من حساب خاص»».

انهمرت الدموع انهمارًا على خدَّيها، وللمرة الأولى منذ أن دخلت إلى المطبخ بدأت أشعر بشيء من عدم الراحة. لربما أكون قد بالغت كثيرًا بهذه الكذبة. إنها أكثر غضبًا ممَّا سبق لي أن رأيتها يومًا.

لا يمكنها أن تتركني.

خطوت إلى الأمام ووضعت يدي على كتفيها، وقلت: «سلوان، حبيبتي، اسمعيني. كان عليَّ أن أفعل كل ما يتطلَّبه الأمر لأستعيدكِ، لقد تركتني. أعتذرُ لأنكِ مستاءة».

رفعتُ يدي إلى خديها، وتابعتُ: «ولكن لا يجب أن تكوني غاضبة بخصوص هذا، لقد بذلت الكثير من الجهد اللعين، والمال. عليكِ أن تشعري بالإطراء لأنك مهمة بالنسبة إليَّ لهذه الدرجة».

أقحمت يديها بين يدي وخدَّيها، وأبعدتني عنها وهي تصيح: «أيها الوغد الحقير! لقد زوَّرتَ ملفًّا كاملًا لتدعم به أكاذيبك، يا آسا! رسائل شهرية من الحكومة! من بحقِّ الجحيم يفعل شيئًا كهذا؟».

لا فكرة لديها عن كمية المال الذي دفعته إلى ذلك الشاب اللعين ليرسل تلك الرسائل، وإلا لشكرتني الآن بدلًا ممَّا تقوم به. أشارت إليَّ عبر المطبخ وقالت: «لقد احتجزتني، طوال هذا الوقت كنت أعتقد أن لا سبيل أمامي للخروج من هنا».

ابتلعت غضبي، وتقدمت منها خطوة. هل فعلًا سمعتها بشكل صحيح؟

- احتجزتُكِ؟

إنها منفعلة للغاية، وتُدخل الهواء إلى رئتيها على هيئة أنفاس قصيرة متقطعة، مسحت دموعها بغضب، وأومأت، ثمَّ رفعت صوتها أكثر وقالت: «أجل يا آسا. لقد احتجزتني. لقد كنت سجينتك اللعينة على مَرِّ سنتين، حيث تركتني أعتقد أن أخي سيعاد إلى منزل أمي التي لا تستحقه. كل ذلك فقط لأنك عرفت أنه إن لم يكن لديك وسيلة ضغطٍ عليَّ لأبقى، لتركتكَ».

إنها لا تعني ما تقوله، إنها غاضبة، لن ترغب أبدًا بتركي. أجل، لقد كذبت عليها، وأجل، لقد دفعت كمية هائلة من الأموال لأجعل الأمر يبدو وكأن إعانات أخيها قد أُلغيت، ولكنه كان حلًّا مؤقتًا، وكانت لتعود إليَّ زاحفةً في نهاية المطاف إن لم يكن من أجل هذا، لقد سهلت الأمر عليها فقط. سألتها: «أهذا ما تظنين؟ أنكِ كنتِ سجينة هنا؟ ألم أمنحكِ مكانًا لتنامي فيه؟ ألم أشترِ حاجياتكِ؟ ألم أعطكِ أشياء جميلة؟ ومكَّنتكِ من الذهاب إلى الكلية؟ وسمحت لكِ بقيادة سيارتي؟».

عبرت المطبخ ولم أتمهَّل عندما وصلت إليها، ظللت أتقدَّم لتضطر أن تمشي إلى الخلف حتَّى ارتطم ظهرها بالحائط، ودفعتها بيدي وأنا أقول:

«إياكِ أن تجرؤي على الوقوف هنا، في منزلي، وتقولي ما ينطوي على أنه لم تكن لديكِ كل الفرص في العالم لتغادري من هذا الباب».

ضغطت على الجدار، وأشرت إلى غرفة المعيشة وأنا أقول: «اذهبي. إن كان حبكِ لي قد نضب، فلترحلي بحقّ الجحيم!».

لن ترحل أبدًا، أعرف هذا، لأنها إن رحلت فذلك يعني أنها كانت تستغلني من أجل أموالي طوال السنتين السابقتين، كانت تستخدمني كوسيلة وحيدة لدعم أخيها اللعين الذي يعد وجوده هدرًا للمساحة. إن كان الأمر على هذا الحال، فذلك سيجعلها عاهرة بالتعريف.

وأنا لن أتزوَّج عاهرة لعينة.

نظرت سلوان إلى الباب، ثمَّ أعادت نظرها إليَّ، هزَّت كتفيها، وأقسم إنها ابتسمت وهي تقول: «وداعًا يا آسا. استمتع بحياتكَ».

بدأت بالمشي نحو الباب الأمامي عندما قلت: «إنني أستمتع بحياتي يا سلوان. إنني أستمتع بها بكل استطاعتي».

تركتها تصل إلى الباب الأمامي قبل أن ألحق بها، لم تكن قدماها قد وطأتا العشب في الخارج بعد حين لففت ذراعي حول خصرها، وكممت فمها بيدي. أدرتها وأدخلتها إلى المنزل اللعين الذي لا تشعر بالامتنان له. حملتها مباشرةً إلى غرفة النوم، وفتحت الباب بركلة من قدمي، رميتها على السرير، وهي تحاول أن تنهض وتركض حولي.

يا للطف الموقف!

أمسكتها من شعرها، وشددت ظهرها إلى السرير، صرخت، لكنني وضعت حدًّا لصراخها بيدي. صعدت فوقها، وأنا أغطي فمها بإحدى يديَّ، وأثبت معصمها إلى السرير بالأخرى. لا يمكنني فعل الكثير بشأن ساقيها اللتين كانتا تركلاني وهي تبذل قصارى جهدها لتتحرر مني، ولكن إصبع واحد من أصابعي فيها من القوَّة أكثر ممَّا لديها في جسدها بأكمله، شعرت وكأنها تدغدغني أكثر من محاولتها إيذائي.

همست وأنا أحدِّق إليها من الأعلى: «اسمعي يا حبيبتي، إن كنتِ تحاولين التلميح إلى أنكِ لا تحبينني، فذلك سيغضبني بحق. سأغضب كما الجحيم، فهذا

يعني أنكِ كنتِ تتظاهرين بالحب منذ اللحظة التي دخلتِ فيها من هذا الباب عائدةً إليَّ. وبالتالي، فقد كنتِ تزوِّرين كلَّ نشوةٍ، وكلَّ قبلةٍ، وكلَّ كلمةٍ سبق وقلتِها لي، وذلك فقط لقاء شيكٍ شهريٍّ. وإن كان هذا صحيحًا، فإنه يجعل منكِ عاهرةً يا سلوان. أتعرفين ماذا يفعل الرجال من أمثالي بالعاهرات؟».

اتسعت عيناها من الخوف، أملتُ أن يكون ردُّ فعلها هذا يعني أنها تفهمني جيدًا، لم تعد تحاول أن تركلني لتستطيع القيام من تحتي، هذه إشارةٌ جيدةٌ.

- لقد كان هذا سؤالًا يا حبيبتي؛ أتعرفين ماذا يفعل الرجال من أمثالي بالعاهرات؟

انهمرت دمعةٌ من عينها وهي تهزُّ رأسها، وشعرت بالأنفاس الخارجة من فتحتي أنفها ترتطم بيدي، إنها تكافح بشدَّة من أجل المزيد من الهواء.

قرَّبت فمي من أذنها، وقلت: «رجاءً لا تجعليني أريكِ».

استلقينا على تلك الحالة لبضع لحظاتٍ أخرى، انتظرت خلالها أن تستوعب كلماتي، تراجعت إلى الخلف ونظرت إليها من فوق، لم يكن تعبير وجهها قد تغير، لكنها كانت تبكي الآن على يدي بشدَّة، والمخاط يسيل من أنفها، لقد أصبح مخاطها على يدي اللعينة الآن، لذا أبعدتها عن فمها ومسحتها على السرير، ثمَّ نظفت وجهها بكم قميصي.

كانت شفتاها ترتعشان، لا أعرف لماذا لم يسبق لي أن لاحظت كم أن هذه الرعشة جذابة، قبلتها برقة، بينما شفتاها ترتعشان على شفتيَّ، وبحرص همست في فمها: «أتحبينني؟ أم أنكِ عاهرة؟».

خرج نفس مرتعش من بين شفتيها، وهمست: «إنني أحبكَ، أنا آسفة، لقد كنت غاضبة فقط يا آسا. لا أحب أن تكذب عليَّ».

ضغطت جبيني على جانب رأسها، وزفرت، فبطريقة ما لديها الحق. على الأرجح ما كان ينبغي أن أكذب عليها بشأن أخيها، ولكنها لو كانت مكاني، لفعلت الشيء ذاته.

- إياكِ أن تغضبي منِّي مجدَّدًا على هذا النحو يا سلوان.

ابتعدت، وأرجعت شعرها عن وجهها، وكان مبلّلًا بالعرق ويلتصق بيدي، مرَّرت أصابعي فيه، وأنا أجمعه برفق مع بقية شعرها، وقلت بهدوء: «لا أحب ما يفعله غضبكِ بي، ولا ما يجعلني أرغب بفعله بكِ».

أومأت وقالت: «وأنا لا أحبه أيضًا».

كانت عيناها مليئتين بالندم، لكنني لم أشعر بالسوء حيال ذلك، فهذا خطؤها وحدها بأن تتعامل معي بهذه الطريقة، ولكن بالنهاية لقد أزيح هذا الأمر من أمامي، إذ كنت قد بدأت أشعر بالإرهاق من الاستمرار بهذه الكذبة لهذا الوقت الطويل، وكنت قد بدأت أهملها.

تركت معصمها، ورفعت يدي إلى وجهها، وأنا أمرِّر ظهر أصابعي على خدها، وقلت: «هل ينبغي أن نقبِّل بعضنا البعض ونتخطَّى الأمر الآن؟».

أومأت، وعندما وضعت شفتيَّ على شفتيها، تنفست الصعداء، لأنني وللحظة قصيرة عندما كانت تتجه نحو الباب الأمامي، ظننت أنها ربما كانت جادة بشأن المغادرة. ظننت أنه ربما لن يتسنَّى لي مجدَّدًا أن أتذوقها كما أفعل الآن.

أشعر بالراحة لأن الأمر كان محض تهديد فارغ، لا أعرف ماذا سأفعل إن اكتشفت يومًا أنها لم تحبني حقًّا. إنها الشخص الوحيد في هذا العالم الذي يحبني.

أدارت رأسها إلى الجانب، كاشفةً لي عن عنقها، وبينما كنت أقبل جسدها نزولًا بدأت تسترخي.

عندما جرَّدتها تمامًا من كل ملابسها، أبعدت ساقيها لي، وضغطت جسدي فوقها، وأنا أقول: «أتحبينني يا سلوان؟».

أومأت ثمَّ أجابت: «أجل آسا، أحبك».

همست وأنا أضاجعها كما تحب أن تُضاجع، همست وأنا أعرف أنني الرجل الوحيد الذي سبق وولجها، والرجل الوحيد الذي سيلج جسدها يومًا. همست: «أنتِ لي يا سلوان».

أمسكت بذراعيَّ، وأغمضت عينيها بشدَّة.

إنها تشعر بي عميقًا داخل جسدها، وكانت تبكي طوال الوقت.

***

الفصل السابع والثلاثون

سلوان

أغمضت عيني وتركت رذاذ الماء يلفح وجهي.

بماذا كنتُ أفكِّر؟

مواجهته وحيدةً؟ عدم تحذيري لكارتر بما كان على وشك الحدوث؟ لقد كان فعلًا غبيًّا بحق.

ولكن دفاعًا عن نفسي، فإنه لمن الصعب أن تُفكِّر عندما يُعميك الغضب.

بعد أن انتهت زيارتي للطبيب هذا الصباح، تلقيت مكالمةً من العاملة الاجتماعية، كنت أقود باتجاه الكلية، وعندما أخبرتني أن تكاليف رعاية أخي لا تُدفع من حساب خاص، جُنَّ جنوني، وفقدت صوابي تمامًا. انعطفت في الطريق وقُدتُ مباشرةً باتجاه منشأة أخي للقائها، وبحلول وقت مغادرتي للمنشأة شعرت أن الغضب يحتلني كما لم يحدث من قبل.

الشيء الوحيد الذي استطعت التفكير به في وقتها هو آسا، ومدى رغبتي بقتله. الغضب يعميك بحق، فعندما دخلت إلى المطبخ لأواجهه، لم أكترث بحقيقة أنه قد يؤذيني فعلًا، أردت فقط أن أعرف إن كان الأمر صحيحًا، إن كان حقًّا، وبطريقة ما، يرسل إليَّ رسائل مزيفة من الحكومة. لم أرغب في تصديق الأمر، لأن تصديقي له سيعني شيئًا واحدًا، وهو أن آسا مجنون

رسميًا. فالشخص الذي يمكنه اختراع كذبة كهذه، والإبقاء على سيرها لمدَّة عامين لا بُدَّ أن يكون مجنونًا رسميًا.

أتذكَّر اليوم الذي أحضر لي فيه رسائلي البريدية بعد انفصالنا لأول مرَّة، وكانت رسالة المعونات في أعلاها. شعرت بإحباط شديد بعد أن قرأت الرسالة، وقد أراحني الوغد في الحقيقة قائلًا إنني إن احتجت أي شيء سيكون حاضرًا لتلبية حاجتي في الحال، حيث قال لي: «هذا ما تفعلينه من أجل الأشخاص الذين تحبينهم يا سلوان؛ تقدِّمين يد العون لهم».

كان ذلك فيما مضى، في الوقت الذي صدَّقت فيه أنه قد أحبني فعلًا، وأن ما يقدِّمه لي هو بادرة قلبية صادقة. أما الآن فأعتقد أنه أقرب ما يكون إلى هوسٍ مرضيٍّ.

لم يكن لديَّ مكان آخر ألجأ إليه، وبسبب ما ظننت أنه كان على وشك أن يحدث لستيفن انتهى بي الأمر وقتها بأن أُجبرت على طلب المساعدة من آسا، وكان ذلك ملجئي الأخير بالتأكيد. اللعنة؛ حتَّى إنني قد اتصلت بالرقم المدوَّن على المستند لأتأكد ممَّا إن كان أمامي أيُّ خيار آخر. الآن أدركت أنه كان رقمًا زائفًا، وأن الشخص الذي أجابني هو أحد أصدقاء آسا، لكنني في حينها لم أستوعب الأمر.

امتزجت المياه الساخنة بالدموع التي بدأت الآن تتدفَّق على خدَّيَّ.

كيف خُدعت بالأمر طوال هذا الوقت؟ ما تزال قطع اللغز تتراكب في عقلي، وصولًا إلى السبب الذي يجعله يعطيني سيارته لزيارة ستيفن فقط في أيام الآحاد؛ فالعاملة الاجتماعية لا تداوم يوم الأحد، وبذلك لن يكون هناك أي احتمال لأن ألتقي بها وأجري معها محادثة حول إعاناته.

ما يزال دماغي عاجزًا عن استيعاب الأمر، وقد مرَّت عدَّة ساعات منذ أن اكتشفت الحقيقة. أحاول أن أقنع نفسي أنني استغرقت طويلًا لأكتشف الحقيقة لغيابِ الأسباب التي قد تدفعني إلى التفكير بشيءٍ كهذا. ولكن، في الحقيقة، كانت لدي الأسباب كلها.

فهذه هي الأفعال التي يأتي بها آسا.

إنه كاذبٌ وخائنٌ، يفسد الأشخاص، ويوقع فيما بينهم.

أشعر بغضبٍ عارمٍ تجاه نفسي الآن، وها أنا أفرك جسدي بقوَّة أكبر كي أزيل رائحته عني. فُتحت ستائر الحمام وأنا أفرك عنقي، شهقت وتحرَّكت بحيث يصبح ظهري إلى الجدار، وبهذا يمكنني محاربته على نحوٍ أفضل إن وصل الأمر إلى هذه المرحلة.

وقف آسا أمامي وهو بكامل ملابسه، مرتديًا بنطال جينز داكن، وقميص ناصع البياض، ممَّا جعل الوشوم على ذراعيه تبدو أكثر إشراقًا، وغضبًا. ولكن وجهه لم يبدُ غاضبًا، بل مشوَّشًا، وهو في الواقع يحدِّق إلى وجهي عوضًا عن نهديَّ.

سألني: «أتجدين انقطاع الناس عن المجيء إلى هنا أمرًا غريبًا؟».

تزداد أفكاره تقلُّبًا أكثر فأكثر. أخرجت زفيرًا، وأدرت ظهري إلى الماء لأشطف البلسم عن شعري، وقلت: «لست واثقةً من فهمي لقصدك يا آسا».

عندما انتهيت من غسيل شعري نظرت إليه، وكان بصره منخفضًا إلى حوض الاستحمام، يراقب دوران الماء في المصرف.

- اعتاد الناس أن يحتشدوا هنا فيما مضى، طوال النهار من كل يوم، وطوال الليل. أما الآن فلا تجدي أكثر من أربعة أو خمسة أشخاص، باستثناء الأوقات التي أقيم فيها حفلًا.

ذلك لأنك متقلِّب المزاج، ولأنك اللعنة عليك، تخيف الناس يا آسا.

- ربما يكونون كلهم مشغولين فقط؟

رفع عينيه إلى عينيَّ، وكانت نظراته ما تزال مليئة بالتشويش، والقليل من الإحباط. لا أعرف الكثير عن المخدِّرات، أو كيف يكون الأمر عندما تكون في مرحلة التعافي من الإدمان، ولكن قد يكون الارتياب واحدًا من أعراض الانسحاب، وهذا ما آمل، لأنني بخلاف ذلك لا أعرف ما الذي يمكن أن أفعله بهذه النسخة من آسا.

قال: «أجل، ربما يكونون مشغولين فقط، أو ربما ليسوا كذلك، بل يريدونني فقط أن أظن أنهم مشغولون. لأن الجميع هنا يجيدون التظاهر».

كلماته قاسية، لكن صوته هادئ، وما يزال ممزوجًا بشيء من الحيرة، رحت أدعو في سرِّي ألا يكون يقصد كارتر بكلامه عندما قال إن الكل هنا

يتظاهر، أو يقصدني. يجب أن أحذِّر كارتر. ثمَّة خلل فيه اليوم، لم يسبق لي أن شعرت بالخوف على حياتي كما شعرت اليوم عندما سحبني آسا معيدًا إياي إلى المنزل. لا أرغب أن يعرف كارتر بما حدث، لأنه سيغضب منِّي إن علم أنني واجهته وحيدةً.

- يجبَ أن ندعو بعض الناس إلى العشاء الليلة. أيمكنكِ تحضير العشاء؟

أومأت، وقلت: «كم عدد الأشخاص؟».

لم يتردَّد حتَّى للحظة، وهو يُدلي بإجابته: «أنا، وأنتِ، وجون، ودالتون، وكفين، وكارتر. أريد العشاء جاهزًا بحلول السابعة. سوف أراسلهم الآن».

أغلق ستارة الحمام.

ما خطبه بحقِّ الجحيم؟

أخرجت نفسًا هادئًا، وأمسكت المنشفة، كنت أفرك كعبَيْ رجليَّ عندما فتح الستارة مرَّة أخرى، عندما نظرت إلى عينيه كان، على نحو صادم، ما يزال ينظر إلى وجهي ولا شيء آخر. فتح فمه، ثمَّ أغلقه، ثمَّ توقف لثانيتين قبل أن ينطق قائلًا: «هل أنتِ غاضبة منِّي يا سلوان؟».

هل هذا السؤال مجرَّد خدعة؟

إنني أحتقرك يا آسا.

قيَّمت تعابيره ثمَّ أجبت: «إنني لست في تمام الرضا عنك يا آسا».

تنهَّد، ثمَّ أومأ وكأنه لا يلومني. الآن تأكدت من أن ثمَّة شيء خاطئ به.

- ما كان يجب أن أكذب عليك فيما يتعلَّق بمعونة أخيكِ. أحيانًا أظن أنه يمكنني معاملتكِ بطريقة أفضل ممَّا أفعل الآن.

ابتلعت الغصَّة في حلقي، وقلت: «لماذا إذَنْ لا تفعل ذلك؟».

ضيَّق عينيه، وأمال رأسه قليلًا، إنه بالفعل يفكر في سؤالي. وقال: «لا أعرف كيف».

وبعدها أغلق الستارة.

وصفع باب الحمَّام خلفه.

أمسكت معدتي بذراعي لأنني شعرت وكأني على وشك التقيؤ.

كل شيء يفعله يجعلني أتوتَّر من فكرة تواجدي بالقرب منه، وبعد هذه المحادثة ارتفع مستوى توتُّري بمقدار عشرة أضعاف.

أحمد الله أنه قرر دعوة الجميع إلى المنزل الليلة، لأنني بحق لا أرغب أن أكون وحدي معه. أحتاج أن يكون كارتر هنا.

كنت على وشك أن أغلق صنبور الماء عندما فُتح باب الحمام مجدَّدًا، وبعد عدَّة ثوانٍ فُتحت الستارة من الطرف الثاني هذه المرَّة، وقد تجمَّدت يدي فوق الصنبور عندما سمعته يخطو داخل الحوض.

لا، لا، لا. رجاءً لا تجعلني أمارس الجنس معك مرَّة أخرى. تنفَّست من أنفي بهدوء، على أمل أن يكون فقط بانتظار دوره في الاستحمام.

مرَّت بضع لحظات، لكنني لم أشعر به يخطو خلفي، لم يقل أي شيء، راح قلبي يطرق بعنف، وأصبت بالدوار. وقفت باستقامة واستدرت، كان قميصه الأبيض مبلَّلًا، وما يزال يرتدي بنطاله، وهو منحنٍ على الجدار الخلفي للحمَّام، عاري القدمين، يحدِّق نحو الأسفل إلى الحوض.

انتظرت لحظة لأرى ماذا يريد، وعندما لم يتحرَّك أو يقُل أي شيء، بل اكتفى بالتحديق إلى الحوض، قررت أن أتكلم أخيرًا. وقد خرج صوتي متكسِّرًا بفعل الخوف عندما قلت: «ماذا تفعل يا آسا؟».

أخرجه صوتي من شروده، وصوب نظراته إلى عينيَّ، ونظر إليَّ لما يقارب خمس ثوانٍ طويلة مجهدة، ثمَّ نقَّل نظره حول الحمَّام، ثمَّ إلى ثيابه، ومرَّر يديه على ملابسه وكأنه لا يملك أي فكرة عن سبب تبلُّلها، وهز رأسه قائلًا: «اللعنة لا أعرف».

أصبحت ركبتاي ضعيفتين بسبب رد فعله، ولم أغلق الصنبور حتَّى، بل خرجت من حوض الاستحمام بأسرع ما أمكنني وأمسكت بالمنشفة، ولم أستطع أن أنتظر حتَّى أرتدي ملابسي قبل أن أفتح باب الحمَّام وأجري نحو غرفة النوم. إنني أحتاج فقط أن أبتعد عنه قدر الإمكان إلى أن يصل كارتر، وعندها أعرف أنني سأكون أكثر أمانًا بقليل.

ما إن أصبحت في الممر، حتَّى وقعت عيناي على شيء ما ناحية اليمين، نظرت ورأيت جون على وشك أن يدخل إلى الغرفة الموجودة في نهاية الممر،

يداه على الباب وهو يحدق إليَّ، وعيناه تمسحان جسدي المغطى بالمنشفة فقط.

عندما رأيت الضحكة المثيرة للاشمئزاز تظهر على وجهه، قطعت المتر المتبقي لأصل إلى باب غرفتي، وقلت له: «إيَّاك أن تجرؤ حتَّى على التفكير بالأمر أيها الحثالة الوضيع».

صفعت باب الغرفة خلفي، وأقفلته على نفسي لأبتعد عن كل واحد من هؤلاء الأوغاد الملاعين. مشيت نحو هاتفي وأرسلت رسالة نصية إلى كارتر، كتبتُ فيها..

«إنه يفقد صوابه. أرجوك فلتحضر باكرًا».

حذفت الرسالة، وانتظرت أن يتوقَّف صوت مياه الحمَّام.

لم يتوقَّف.

بعد أن ارتديت ملابسي، وكنت أهمُّ بالمغادرة إلى المتجر، قرَّرت أن أطمئن عليه. فتحت باب الحمَّام، ولم يكن آسا واقفًا هناك، بل جالسًا في الحوض، وهو ما يزال مرتديًا كامل ملابسه، والماء ينزل عليه. كانت عيناه مفتوحتَيْن باتساع، والماء ينهمر عليهما.

أمسكت بمقبض الباب، وخطوت خطوة صغيرة إلى الخلف، وقلت: «إنني ذاهبة إلى متجر المستلزمات يا آسا. ماذا تريدني أن أطبخ الليلة؟».

لم يحرِّك رأسه، ولكن عينيه دارتا في الحمَّام، والتقتا بعينيَّ، وأجاب: «رغيف اللحم».

أومأت، وقلت: «حسنًا. أتريد أي شيء آخر من هناك؟».

حدَّق إليَّ لبضع ثوانٍ، ثمَّ ابتسم وأجاب: «أحضري الحلوى من أجل الاحتفال».

احتفال؟ فجأةً شعرت بحكَّة في بلعومي وصعوبة في البلع، وقلت بصوت ضعيف: «حسنًا. ما الذي نحتفل به؟».

أبعد نظره عني، وعاد لينظر أمامه مباشرةً، وقال: «سوف ترين».

***

الفصل الثامن والثلاثون

كارتر

لا فكرة لديَّ عن سبب دعوة آسا لنا إلى العشاء في منزله، إذ إننا هنا في منزله تقريبًا كل ليلة مؤخَّرًا، والليلة لا ينبغي أن تكون مختلفةً في أي شيء. أملتُ أن تكون سلوان قد أصيبت بالارتياب في رسالتها عندما ذكرت أنه يفقد صوابه، ولكن راودني بعض القلق من أن تكون على حق.

وصلت إلى أنفي رائحة الطعام قبل حتَّى أن أفتح الباب الأمامي، عندما دخلت إلى المنزل ونظرت حولي، أدركت أن دالتون هو الشخص الوحيد الذي لم يصل بعد. كل من آسا وجون جالس على كرسيه، وكفين على الأريكة.

كان آسا منحنيًا إلى الأمام وهو يسند مرفقيه إلى ركبتيه، وجهاز التحكُّم عن بعد بين يديه، يقلِّب بين محطَّات الأخبار. عندما سمع صوت إغلاق الباب خلفي استدار ناحيتي.

أومأت برأسي باتجاهه، وأعاد هو تركيزه إلى التلفاز، وقال: «أتشاهد الأخبار يا كارتر؟».

نظرت ناحية المطبخ لأرى سلوان واقفةً عند البار، تمسحه بخرقة. يمكنني رؤيتها من حيث أقف، أما آسا فلا يمكنه. أجبته: «أحيانًا».

رفعت سلوان نظرها إليَّ، والتقت أعيننا، ورفعت أحد أصابعها إلى شعرها، مرَّرت إبهامي على شفتي السفلى، فرفعت يدها الأخرى إلى رأسها، ولفَّت ثلاثًا من أصابعها حول شعرها، ثمَّ خمسًا، ثمَّ الأصابع العشر جميعها. بعدها راحت تشدُّ شعرها على نحو ساخر بيديها كلتيهما، وهي تلفُّه في كل الاتجاهات، فهذه هي طريقتها التي اختارتها لتعلمني أنها بدأت تفقد صوابها.

أردت أن أبتسم لها، لكنني أجبرت نفسي على الخطو داخل غرفة المعيشة واتخاذ مجلس بالقرب من كفين. سألتُ آسا: «لماذا ترغب بمعرفة ما إن كنت أشاهد الأخبار؟».

قلب المحطة مجدَّدًا، وقال: «لم أسمع شيئًا عن والدي، أريد فقط أن أتأكد من أنه ما يزال على قيد الحياة، وأنني لن أُعتقل بتهمة القتل».

قال ذلك بلا مبالاة شديدة، وكأن احتمالية أن يُعتقَل بتهمة القتل شيء وارد يوميًّا. أومأت، ولكنني لم أخبره أن والده قد نجا، وأنه في الحقيقة لم يتأذَّ إلى هذا الحدِّ. لقد طلب له عاملو الكازينو سيارة إسعاف، ولكن باستثناء أنفٍ مكسور، وفكٍّ مهشَّمٍ، لم تكن هناك أية إصابات خطرة. لم يرغب الرجل حتَّى بتقديم شكوى ضد الفاعل. لقد أعلمني دالتون بكل هذه التفاصيل بعد أن تحقَّق منها اليوم.

كما أنه أخبرني أن الرجل مدمن، وشُخِّصَ كمصاب بانفصام الشخصية، ويعاني من مجموعة كبيرة من المشكلات الأخرى. أكره أن أعترف بهذا؛ لكنني داخليًّا وفي أعماقي السحيقة أشعر بالقليل من التعاطف مع آسا، إذ لا يمكنكَ تخيُّل ما الذي مَرَّ به كطفل في ظِلِّ وجوده مع أب كهذا، لكن حتَّى التعاطف ينتهي عند حدٍّ معيَّنٍ. يمكنكَ أن تتعاطف مع أحدهم، وتتمنَّى في الوقت ذاته أن تنتهي حياته.

احتفظت بالمعلومات التي أعرفها عن والده لنفسي. أعتقد أنه لمن الجيد أن يشعر آسا بالقلق من عواقب فعلته، فهذا الشعور على الأرجح لا يراوده في العادة كثيرًا.

تنهَّد آسا بعد أن قلَّب بين كل المحطَّات مرَّتين، وعاد خالي الوفاض، ثمَّ وقف ورمى جهاز التحكُّم عن بعد إلى جون، وقال: «احرصوا على أن تغسلوا أيديكم يا رفاق، لقد بذلت خطيبتي جهدًا كبيرًا في إعداد هذا العشاء، ولا أريد أن يجلس أي وغد منكم إلى طاولتي بيدين متسختين».

توجَّه نحو السلالم، ومنها إلى غُرفته، أُغلق باب غرفة نومه، ونظرتُ نحو كفين الذي كان يحدِّق إلى السلالم الخالية، وقال: «إنه يتصرَّف بغرابة شديدة».

كان جون قد بدأ بالتقليب بين المحطَّات، وقال: «ما الجديد في ذلك؟».

لم يزعج أيٌّ منهما نفسه بالذهاب إلى المطبخ ليغسل يديه، لذا استغللت الفرصة ودخلت إلى المطبخ، وكانت سلوان تخرج رغيف اللحم من الفرن عندما مررت بقربها، وقلت على نحو اعتباطي: «مرحبًا يا سلوان».

نظرت إليَّ، لكنها لم تبتسم. بل رمقتني بنظرة أخبرتني من خلالها أنه يجب أن نتكلَّم، ولكن ما من طريقة لفعل ذلك الآن، فتحتُ صنبور المياه، وحملت هي رغيف اللحم إلى الطاولة بقربي، ثمَّ دست سكِّينًا بين العجين والصينية وبدأت تفصل بينهما. همست: «لقد ارتكبت خطأً اليوم».

ضعَّفت ضغط الماء لأتمكَّن من سماعها على نحو أفضل. بينما تابعت: «لقد اكتشفت أنه كان يكذب عليَّ بشأن إعانات أخي. واجهته بذلك، وأخبرته أنني سأتركه، فغضب بحق».

قلت بهدوء: «سلوان. هل أنتِ بخير؟»

لماذا بحقِّ الجحيم قد تفعل شيئًا كهذا؟

هزَّت كتفيها وأجابت: «إنني على ما يرام الآن، ولكن ثمَّة شيئًا فيه غير صحيح يا كارتر، إنني خائفة، لقد جلس في حوض الاستحمام وهو مرتدٍ ثيابه بالكامل لمدَّة تزيد عن النصف ساعة، وبعدها عندما عدت من المتجر نظرت من النافذة ورأيته جالسًا على كرسي الاسترخاء، يحدِّق إلى المسبح، ثمَّ بدأ فجأةً يصفع جبينه براحة يده. لقد فعل ذلك ستًّا وثلاثين مرَّة، عددتها بنفسي».

يا يسوع المسيح.

رفعت نظرها إليَّ، وكرهتُ كم بدت خائفة، يجب عليَّ فقط أن أخرجها من هنا الآن، يجب أن أمسك بيدها وأسير بها خارجًا بينما هو في الطابق العلوي، يجب أن أخرجها من هنا.

همست سلوان: «الآن يستمر بالقول إنه قد حضَّر لي مفاجأة، إنه يتكلَّم وكأن هذا العشاء مقصود منه أن يكون احتفالًا ما، أشعر بالخوف من معرفة ما الذي نحتفل به».

سمعنا صوت وقع خطوات آسا في الطابق العلوي، وبدا وكأنه على وشك التوجُّه إلى الأسفل، أمسكت سلوان بصينية رغيف اللحم، ومشت بها إلى الطاولة.

لا بُدَّ أن الشابَّيْن الآخرين قد سمعا صوت خطوات آسا، لأنهما يقفان الآن عند الحوض، يتهيَّآن لغسل أيديهما كما أوعز لهما.

ساعدنا سلوان بنقل بقية الطعام إلى الطاولة، وفي أثناء ذلك دخل دالتون من الباب الأمامي. كانت الساعة تشير إلى السابعة إلا خمس دقائق، ولكنه رأى آسا يتقافز على السلالم متجهًا نحو الطابق السفلي، فاعتذر عن تأخُّره، ليقول آسا: «لم تتأخَّر. لقد أتيت على الموعد تمامًا».

اتخذت مقعدًا، لينتهي بي الأمر بالجلوس قبالة آسا تمامًا، وسلوان على نحو مائل. ساد صمتٌ مريبٌ في أثناء تمرير أطباق الطعام فيما بيننا، وتوزيعه في صحوننا. ما إن انتهينا من توزيع الطعام، أمسك آسا بشوكته، وقال: «هل يجب أن نتلو صلاة المائدة؟».

لم يجب أحد بشيء، بل اكتفينا جميعنا بالتحديق إليه، متسائلين ما إن كان يمزح، أم ما إن كان يجب على أحدنا أن يبدأ بالصلاة قبل أن يفقد صوابه.

ضحك بصوتٍ عالٍ، وقال: «أيها الأوغاد الأغبياء».

ثم غرز شوكته في حصَّته من البطاطا المهروسة، وابتلع لقمةً.

قال جون: «إنها المرَّة الثانية مؤخَّرًا التي نتناول فيها العشاء هنا، ما سبب ذلك؟ أهذا ما يحدث عندما تصبح رجلًا ملتزمًا مع امرأة؟».

ضيَّق آسا عينيه في اتجاه جون، ثمَّ غسل جوفه بعد لقمة البطاطا المهروسة بجرعة من البيرة، وقال: «أين هي جيس الليلة؟».

هزَّ جون كتفيه، وأجاب: «لم أرها منذ عدَّة أيام، أعتقد أننا انفصلنا».

ضحك آسا، ثمَّ نظر إليَّ وسألني: «أين هي تيللي؟».

مرَّرت إبهامي على شفتي السفلى، وأجبت: «تعمل. قد تمُرُّ بنا ليلة الغد».

لعق آسا شفتيه، ثمَّ رشف رشفةً أخرى من البيرة، وقال: «سيكون ذلك لطيفًا».

نظر بعدها إلى دالتون، وقال: «كيف لم يسبق لك أن أحضرت فتاة إلى هنا؟».

تكلَّم دالتون بفم مملوء برغيف اللحم: «إنها تعيش في ناشفيل».

- ما اسمها؟

- ستيف. إنها مغنية. وفي الواقع هي السبب الذي كدت أن أتأخر من أجله، لقد وقَّعت عقدًا لتسجيل أغانيها اليوم، واتصلت بي لتخبرني عن الأمر.

يبدو فخورًا عندما يتحدَّث عنها. وكاد ذلك أن يجعلني أضحك، إذ إنه ما من فتاة في حياته تدعى ستيف. بل قد اختلق ذلك كله بسرعة البرق، وابتلعه آسا بكل سهولة، وقال: «هذا رائع».

آسا يحب دالتون، يمكنني فهم ذلك من خلال الطريقة التي ينظر إليه بها، دون أي شكوك على الإطلاق، نظرة مختلفة عن نظرته إليَّ.

- هل هناك خطب ما في فمك اللعين يا كارتر؟

نظرت إليه، ورفعت أحد حاجبي، ليقول: «إنك تفرك شفتك اللعينة بقسوة».

لم أنتبه حتَّى إلى أنني كنت ما أزال أفرك شفتيَّ، أبعدت يدي عن فمي، وقلت وأنا آكل لقمة من رغيف اللحم: «كل شيء بخير».

آخر ما كنت أرغب فيه هو أن أستفزه، على الأقل في ظِلِّ الطريقة الغريبة التي يتصرَّف بها مؤخَّرًا.

تناول آسا لقمةً أخرى من رغيف اللحم خاصَّته، ثمَّ وضع يديه على جانبي الصحن، وقال: «إذَنْ، لديَّ مفاجأة صغيرة لكم».

ابتسم ثمَّ نظر إلى سلوان، وتمكَّنت من رؤية حركة بلعومها وهي تبتلع ريقها، وسألته بحذر: «ما هي؟».

فتح آسا فمه ليتكلَّم، ولكنه قوُطع بفعل طرقٍ عنيفٍ على الباب الأمامي، تمكَّنت من رؤية الغضب في عينيه عندما استدار ليحدِّق إلى باب غرفة المعيشة. طُرق الباب بقوَّة مرَّة أخرى. رمى آسا أدوات المائدة المصنوعة من الفضة لتصدر صوتًا عاليًا عند ارتطامها بالمائدة، ونظر إلينا جميعنا، قائلًا: «أتنتظرون أحدًا ما؟ في منتصف العشاء اللعين؟».

لم يجب أحد.

ابتعد عن الطاولة، ورمى منديله بجانب صحنه. وعندما استدار ليمشي إلى غرفة المعيشة، حدَّقت سلوان إليَّ عبر الطاولة، بدت خائفةً، ولكنها مرتاحة أيضًا لأن مفاجأته الكبيرة قد قُوطِعت. نظرتُ إلى دالتون الذي رفع أحد حاجبيه.

حطَّت أعيننا جميعنا على آسا الذي كان يسترق النظر من العين الساحرة للباب، ظَلَّ على تلك الحال لبضع ثوانٍ، ثمَّ أسند جبينه إلى الباب. وقال: «اللعنة».

استدار وأسرع الخطو نحو المطبخ، أمسك سلوان من ذراعها، وأخرجها من كرسيها، ثمَّ وضع يديه على كتفيها، وقال: «اصعدي إلى غرفتكِ، وأقفلي الباب عليكِ. إياكِ أن تفتحيه تحت أي ظرف».

أرجعت كرسيَّ إلى الخلف، ووقفت، وكذلك فعل دالتون، نظر واحدنا إلى الآخر، ثمَّ نظرنا معًا إلى آسا. سأل جون وهو يدفع كرسيه بدوره: «من الطارق؟».

لا أعتقد أنه سبق لأيٍّ منَّا أن رأى آسا قلقًا إلى هذا الحد.

نظر آسا إلى السلالم، ثمَّ جال ببصره في الغرفة، وكأنه يبحث عن طريقة للهرب، وقال: «إنهم من مكتب التحقيقات الفيدرالية اللعين، يا جون. مكتب التحقيقات الفيدرالية».

ماذا؟

استدرت في الحال نحو دالتون، لكنه هزَّ رأسه ليعلمني أنه معرفته بالأمر لا تتعدَّى معرفتي بشيء. كما أنني لاحظت أن قبضتيه مشدودتان على جانبي جسده، وقال: «اللعنة».

بالنسبة إلى آسا، فأنا متأكد من أن رَدَّ فعل دالتون هذا كان متوقَّعًا، ولكن بالنسبة إليَّ فأنا أعرف في الحقيقة السبب الحقيقي لغضبه الشديد؛ فمكتب التحقيقات الفيدرالي على وشك أن يدخل إلى هذا المنزل ويفسد علينا مجرى التحقيق.

استمر الطرق على الباب.

مرَّر آسا يديه عبر شعره وهو يشتم: «اللعنة! يا للجحيم!».

رأيته ينظر نحو الباب الخلفي، واتضح لي أنه يحاول التخطيط للهرب، فتقدَّمت خطوةً إلى الأمام لألفت انتباهه، وقلت: «إن كانوا هنا رغبةً في اعتقال أحد ما، فلا بُدَّ أن يكونوا قد طوَّقوا المنزل من كل الجهات يا آسا. ربما هُم هنا فقط من أجل السؤال عن تفاصيل الحادثة مع والدك، افتح الباب وتصرَّف بطبيعية، وسنظل نحن جميعًا جالسين إلى الطاولة وكأنه ما من شيء نخشاه ونحاول إخفاءه».

أومأ دالتون، قائلًا: «إنه محقٌّ يا آسا، إن جرينا جميعنا سيتوفر لديهم سبب ليعتقدوا أنك تخفي شيئًا ما».

أومأ آسا، لكن جون هزَّ رأسه، وقال: «تبًّا لهذا. هناك مخدِّرات في كل مكان من هذا البيت. إن فتحنا الباب فقد قُضِيَ علينا. انتهى أمرنا جميعًا».

اتسعت عينا آسا وهو يحاول التفكير بما يجب فعله، ونظرنا كلنا إلى الباب الأمامي عندما طُرق مجدَّدًا.

تمكَّنت من رؤية العروق تنفر في عنق دالتون، أعرف أنه يشعر بالقلق من أن كل العمل والجهد الذي بذلناه هنا سيكون بلا فائدة، التحقيق برُمَّته لن يعني أي شيء، لأن القضيَّة ستسلم الآن إلى يد أخرى.

لقد سبق ومررنا بشيء مشابه مرَّتين من قبل؛ أن تسيطر سلطة ذات مرتبة أعلى على التحقيق، ولكن دالتون قد عمل بجهد على هذا التحقيق، لذا سيكون من المستحيل بالنسبة إليه أن يشاهده وهو يتبخَّر من بين يديه.

قال آسا آمرًا سلوان: «اذهبي إلى غرفتكِ يا سلوان، لا ينبغي أن تكوني هنا عندما أفتح الباب».

نظرت سلوان إليَّ، والقلق بادٍ في عينيها، أرادت أن تعرف إن كان ينبغي لها أن تنفذ أوامر آسا، وتغادر الغرفة.

المزيد من الطرق.

أومأت إيماءةً بسيطةً لأعلم سلوان أنه يجب أن تفعل ما طلبه منها آسا، على الأقل ستكون هكذا بعيدةً عن أي شيء يمكن أن يحدث هنا في الأسفل.

فجأةً قطع آسا الغرفة بخطواتٍ واسعةٍ متجهًا نحو سلوان، وقف أمام وجهها وصاح وهو يلوح بيده نحوي: «لماذا بحقِّ الجحيم تنظرين إليه؟ ما الذي بحقِّ الجحيم تنظرين إليه من أجله؟».

أوه يا إلهي، بدأت بالتحرُّك حول الطاولة، لكن أمسك دالتون ذراعي. ولف آسا يده حول مؤخِّرة عنق سلوان، ودفعها باتجاه السلالم، قائلًا: «اصعدي السلالم اللعينة!».

لم تنظر سلوان إلى الخلف وهي تجري على طول السلالم، وكان آسا ينظر إليَّ الآن، ربما دالتون ليس سعيدًا بحضور مكتب التحقيقات الفيدرالي، لكنني أشعر بالراحة، ثمَّة فرصة كبيرة أن يُعتقل آسا أيًا كان السبب الذي قصدوا بيته من أجله. ممَّا يعني أنني قد أنجو الليلة، لأن النظرة التي يرمقني بها الآن تقول لي العكس.

إنه يعلم، يمكنه أن يفهم، وبالاستناد فقط إلى النظرة التي رمقتني بها سلوان، يمكنه أن يعرف أن ثمَّة ما يجري بيننا. ولكن بين الطرقات على الباب، والاحتمال الوشيك بأن يُقبَض عليه، قرَّر، لحسن الحظِّ، أن يؤجِّل التعامل مع الأمر إلى وقتٍ لاحقٍ.

أشار إلينا نحن الأربعة، وقال: «اجلسوا عليكم اللعنة. تابعوا تناول الطعام، بينما أفتح أنا الباب اللعين».

جلسنا في أماكننا، بينما أسرع آسا إلى المطبخ وفتح إحدى الخزائن، ثمَّ مدَّ يده عميقًا داخلها وأخرج مسدسًا، ودسَّه في حزام بنطاله من الخلف،

وعندما مَرَّ من أمام الطاولة في طريقه إلى الباب، قال: «إن علمت أن أحدكم أيها الأوغاد هو المسؤول عن هذا، فلتعتبروا أنفسكم جميعًا في عداد الأموات».

استدار آسا باتجاه الباب، وقبل أن يفتحه ضغط جبينه عليه وكأنه يتلو صلاةً سريعةً. عندما أدار المقبض وحرَّك الباب، ابتسم قائلًا: «كيف يمكنني مساعدتكم أيها السادة؟».

سمعت صوتًا يقول: «آسا جاكسون؟».

أومأ آسا بالإيجاب، ولكن بعدها تأرجح الباب منفتحًا، ليدخل منه حشد من الرجال، ويدفعونه على الأرض.

عندما رأى جون ما حدث، تسلَّل نحو الباب الخلفي، في اللحظة التي فُتح فيها، ودخل عبره ثلاثة رجال على عجلة من أمرهم ليقبضوا عليه في الحال، ويرمونه على أرضية المطبخ.

لم أكن قد أدركت قبل هذه اللحظة أن هؤلاء الشباب ليس لديهم أي فكرة عن كوننا، دالتون وأنا، نعمل متخفِّيَيْن، فأنا لا أحمل شارتي لإثبات الأمر. سوف يظنُّون أننا من طرف آسا.

الثواني التالية القليلة مشوَّشة للغاية.

ظهر المزيد من الرجال عند مدخل البيت، ومسدساتهم مصوَّبة نحو رؤوسنا، بينما نحن ممدَّدون على بطوننا، وجوهنا مضغوطة على الأرض، وأيدينا مكبلة خلف ظهورنا.

كنت ممدَّدًا بالقرب من دالتون، وقبل أن يجرُّوه على قدميه، همس لي: «حافظ على هدوئك. انتظر لتكون بمفردك معهم قبل أن تقول أي شيء».

أومأت، ولكن انتبه أحد العملاء إلى هذا التواصل الحاصل بيننا، فرُفع دالتون من ذراعيه.

سمعتهم يتلون «تحذير ميراندا» على مسامع آسا، بينما رفعني رجلان عن الأرض من ذراعيَّ.

راحوا يصيحون بالأوامر، ويباعدون بيننا، موزِّعين إيانا على أجزاء المنزل المختلفة، وقد جرُّوني إلى غرفةٍ خارج المطبخ. كل ما كان يسيطر على تفكيري هو سلوان، وحتمية شعورها بالرعب الآن.

صُفِقَ الباب خلفي، ورُميت على كرسي مكتب، يرافقني رجلان في الغرفة. أحدهما أطول قامةً مني، بشعرٍ أشقر داكنٍ ولحية. أما الآخر فأقصر، وأضخم، وشعره أحمر وشارباه أكثر حمرةً من شعره حتَّى.

سحب كلاهما شارات التعريف من جيبَيْ معاطفهما، وعرضوها عليَّ، وتكلَّم صاحب الشعر الأحمر أولًا، قائلًا «أنا العميل بويرز، وهذا العميل ثومبسون. سوف نطرح عليك بعض الأسئلة، وسوف نكون شاكرين تعاونك».

أومأتُ، واقترب منِّي العميل بويرز، وقال: «هل تعيش هنا؟».

هززت رأسي، وقلت: «لا».

بدأت بإخبارهم ما الذي أفعله هنا، وأنهم يرتكبون خطأً جسيمًا، ولكن الطويل بينهما قاطعني قائلًا: «ما اسمك؟».

- كارتر.

لم أكشف بعد عن اسمي الحقيقي؛ لوك. لأنني غير واثق بعد من أن آسا قد اعتُقل بالفعل. آخر ما أحتاجه هو أن يكشف مكتب التحقيقات الفيدرالي اللعين هويتي.

- كارتر؟ لديك اسم أول فقط؟ إذَنْ أنت مثل مادونا؟ أو شير؟

انحنى إلى الأمام ونظر في عينيَّ، وتابع: «ما هي كُنيتك اللعينة أيها المتفذلك؟».

لويت ذراعيَّ خلف ظهري، محاولًا أن أخفِّف من الضغط الذي يعيق حركة دورتي الدموية عند الرسغين، شعرت بنبضات قلبي تقرع في صدغيَّ، يمكنني تحديد سبب ذلك بجزأين، أولهما كل ما حدث خلال الدقائق القليلة الماضية، وثانيهما غضبي من أنهم على وشك أن يُنهوا كل شيء وينالوا كل الفضل. بالطبع، قد يكونون هنا من أجل اعتقال آسا، وأجل، أشعر بالراحة لأن سلوان أصبحت الآن بأمان، ولكن معرفتي أن الأشهر القليلة الماضية من حياتي ذهبت سدًى، وأنني قد وضعت سلوان في وضع خطِر لأكثر من مرة، ذلك ضرب وترًا حسَّاسًا.

ساد الهدوء أكثر، وسمعت آسا يصيح من غرفة أخرى: «تبًّا لكم!».

ركل العميل ثومبسون كرسيَّ، ليعيد انتباهي إليه، وقال: «ما هي كُنيتك يا ولدي؟».

إنه لا يعرف أنني واعٍ وعلى دراية بكيفية إجراء تحقيق محترم ولائق، ومدرك أن هؤلاء الحمقى قد انتهكوا بالفعل، إلى الآن، قرابة ثلاث قواعد. ولكن مكتب التحقيقات الفيدرالي، بل وحتّى الشرطة، معروفون بعدم اتباعهم للقواعد بحذافيرها في حالات كهذه، أعلم هذا على نحو بديهي.

فتحت فمي لأجيب على سؤالهما، لكنني قوطعت بصوت صراخ سلوان القادم من الطابق العلوي، قفزت في الحال، ولكنهما دفعاني كلاهما إلى كرسيَّ من جديد، فصحت: «اللعنة عليكم، اعتقلوني، أو دعوني أذهب!».

يجب أن أصل إلى سلوان، لا بُدَّ أن الدماء قد تجمَّدت في عروقها من الخوف، جاهلة ما الذي بحقِّ الجحيم يحدث هنا. يجب أن أتفقَّدها قبل أن أفقد صوابي، لكنهم لا يسمحون لي بمغادرة الغرفة.

حاولت أن أحافظ على هدوء صوتي، في الوقت الذي اجتاحتني فيه الرغبة لأن أصرخ فيهم، وقلت: «إنني في صفِّكم. إن نزعتم هذه الأصفاد عن يديَّ، سأثبت ذلك لكم، وأعود لأداء وظيفتي اللعينة!».

حدَّق إليَّ المحقق ثومبسون للحظة، بعدها أعاد نظره إلى العميل بويرز وضحك، ثمَّ أشار إليَّ، وقال: «أسمعت هذا؟ إنه رجل شرطة».

ضحك العميل بويرز أيضًا، وقال بسخرية شديدة، وهو يشير إلى الباب: «أخطأنا في حقِّك. يمكنك الذهاب».

يمكنني الاستغناء عن السخرية، كما أنني أعرف أني أفسدت الأمر للتَّوِّ بالكشف عن هويتي، لكنني أرفض أن أبقى في هذه الغرفة لمدَّة دقيقة أخرى مع هذين الوغدين، سأقلق بشأن التفاهم مع رايان لاحقًا.

- يمكنك أن تعثر على شارتي ملصقةً تحت مقعد الراكب، سيارتي في الخارج من نوع شارجر سوداء اللون.

ضاقت عينا العميل ثومبسون، ثمَّ نظر إليَّ وكأنه حقيقة ربما يستمتع بفكرة أنني لست بكاذب، تطلَّع إلى العميل بوريز وأمال رأسه باتجاه الباب، وهو يخبره بصمت أن يذهب ويتحقق.

ما زلت أسمع صوت آسا آتيًا من غرفة أخرى، وهو يصيح في وجه أي كان من يحقِّق معه، وكان قد بدأ بطلب محامٍ الآن، لا أعتقد أن هذا سيساعده عند هذه المرحلة.

لم يسألني العميل ثومبسون المزيد من الأسئلة ما إن أصبحنا لوحدنا، استغللت الفرصة لآتي على ذكر سلوان، وقلت: «ثمَّة فتاة في واحدة من غرف النوم في الطابق العلوي، أيمكنكَ أن تتفقَّدها وتتأكَّد من سلامتها عندما يعود زميلك؟».

أومأ العميل ثومبسون، وقال: «أجل، يمكننا فعل هذا. هل هناك أحد آخر في المنزل يجب أن تعلمنا بوجوده؟».

هززت رأسي، لقد ندمت بالفعل على كشف نفسي، وآخر ما أفكر بفعله الآن هو أن أكشف أمر رايان، يمكنه فعل ذلك بنفسه، وفي الوقت الذي يراه مناسبًا، أعتقد أنه سينتظر إلى أن يصبح آسا خلف القضبان.

أكره حقيقة أنها لم تكن تحقيقاتنا هي ما أوصلت آسا إلى نهايته، ولكنني مرتاح لأن الأمر انتهى وأخيرًا، وذلك من أجل مصلحة سلوان. أما رايان، فعلى الأرجح يُخرج الدخان من أذنيه الآن.

بعد لحظة، فُتِحَ باب غرفة النوم، ورفعت نظري لأرى ما إن كان العميل بويرز قد عثر على المظروف الذي يحتوي على شارتي، رأيت المظروف المفتوح أولًا، ولكن ما إن وقعت عيناي على حامله، حتّى انقلب شعوري بالراحة إلى مزيجٍ مضطربٍ من الارتباك والرعب.

ما الذي يحدث بحقِّ الجحيم؟

التقت عينا آسا بعيني.

اللعنة ماذا يجري؟

أخفض نظره إلى المظروف بين يديه، ثمَّ صفَّق به على راحة يده مرَّتين، وحدَّق إلى العميل ثومبسون، وقال: «أرغب ببعض الخصوصية مع صديقي رجاءً».

أومأ العميل ثومبسون، ومشى خارجًا من الغرفة، وقبل أن يختفي من أمام نظري أشار آسا إلى سترة العميل الزرقاء الخاصَّة بمكتب التحقيقات

الفيدرالية، بالحروف البرتقالية الثلاث المطبوعة على ظهرها، وقال: «تبدو حقيقية للغاية، أليس كذلك؟». وأعاد تركيز نظره عليَّ، وأضاف: «لقد اشتريتها من متجرٍ لبيع الأزياء التنكرية، في وسط المدينة». وضحك ثمَّ أغلق الباب، وتابع: «الممثِّلون المغمورون كلَّفوني أكثر بقليل من سعر السترات».

لا.

اللعنة.

اللعنة.

لا.

لقد وقعت في الشَّرَك هذه المرَّة مباشرةً.

شعرت بالصفراء ترتفع إلى حلقي، وأحسست بدمائي تتقاطر من رسغيَّ، بينما كنت أكافح بكل ما أملك من قوَّة لأتمكَّن بطريقة ما من التحرُّر من هذه الأصفاد.

رمى آسا المظروف الذي يحوي شارتي على السرير، ثمَّ مدَّ يده إلى ما خلف ظهره وسحب مسدسه من سرواله، وجلس على حافة السرير، وشُدَّ فمه بإحكام من الغضب.

- ما رأيك بمفاجأتي يا لوك؟

كنت أنظر إليه مباشرةً... وانتبهت فجأةً إلى أنني قد ارتكبت أعظم خطأ في مسيرتي المهنية، أكبر خطأ في حياتي.

وكل ما يمكنني التفكير به هو سلوان.

أغلقت عينيَّ بشدَّة، وكل ما أراه هو سلوان.

***

الفصل التاسع والثلاثون

آسا

سألته: «هل سبق وشاهدت فيلم «نقطة فاصلة/ Point Break »؟».

عيناه تنظران إليَّ بحدَّة، وصدره يعلو ويهبط بثقل، وفتحتا أنفه متَّسعتان. اللعنة كم أحب حالته هذه! لم يجبني، يا له من وضع مضحك! فمنذ لحظات سارع وكشف عن هويته الحقيقية، وعن كونه شرطي ابن لعينة، ولكن عندما يتعلَّق الأمر بي، فإنه بالكاد يبذل أي مجهود يُذكر ليتكلَّم.

- إنني لا أتحدَّث عن نسخة الفيلم الحديثة المليئة بالهراء يا لوك، بل أقصد النسخة الأصلية منه، تلك التي أدَّى بطولتها كل من كيانو ريفز، وباتريك سويزي. أوه، وما كان اسم ذلك الرجل من فرقة «ريد هوت شيلي ببيرز»؟ المغني؟

نظرت إليه، منتظرًا أن يذكِّرني باسم الرجل، لكنه لم يتكلم. ظل يحدِّق إليَّ بعدائية، ولا أعرف لماذا ظلت رغبتي بسماع إجابته حاضرة. استلقيت على السرير، وتابعت الكلام: «هناك مشهد في الفيلم، عندما يقتحم كيانو ريفز وفريقه بيتًا للمتاجرة بالمخدِّرات، ولكن ما لم يكونوا على علم به، هو أن أحد الرجال القاطنين في ذلك المنزل شرطي متخفٍّ. وبسبب قلة صبرهم

وسوء تخطيطهم، أفسدوا تحقيق الرجل المسكين برُمَّته، وخرَّبوا عليه أشهرًا متواصلة من العمل الشاق. أتتذكَّر هذا المشهد؟».

لم يُجِب بطبيعة الحال، بل استمر بتحريك يديه داخل الأصفاد، محاولًا تحرير نفسه.

- كنت على الأرجح في العاشرة من عمري عندما شاهدت الفيلم للمرَّة الأولى، ولكنني لم أستطع التوقُّف عن التفكير بهذا المشهد، لقد أصابني الهوس به. ولطالما تساءلت ماذا سيحدث لو أن كيانو وفريقه كانوا يتظاهرون فقط بكونهم من مكتب التحقيقات الفيدرالية، كيف سينتهي المشهد لو أن ذلك الشرطي المتخفِّي اللعين كشف عن هويته، ليجد أن كيانو لم يكن البتَّة من مكتب التحقيقات الفيدرالية، وأنهم جميعًا كانوا يتظاهرون فقط للإيقاع به. أتحدَّث هنا عن مفاجأة مزدوجة.

نظر كارتر إلى الباب، وكأن أحدهم على وشك أن يدخل وينقذه. أكره أن أخبره أن ذلك لن يحدث. وقفتُ وتابعت كلامي: «في جميع الأحوال، اعتقدت أن الأمر يستحق التجربة، لأرى إن كان أيٌّ منكم أيها الأوغاد غبيًّا بما فيه الكفاية ليحاول أن يخونني، وإن كنتم خونة، فربما يساعد مستوى غبائكم على سقوطكم في فخِّ المفاجأة المزدوجة».

أملتُ رأسي بهدوء، وابتسمت له، متابعًا: «لا بُدَّ أنك تشعر بالغباء الشديد في هذه اللحظة».

ارتعش فكُّه، وكذلك حدث معي أيضًا لأنني لا أعرف ماذا أدعوه بعد الآن، وهذا يغضبني بحق. هل أدعوه كارتر؟ أم لوك؟ أم المتوفَّى؟

أجل، سأدعوه المتوفى.

قلت ضاحكًا: «أعني لا بُدَّ أنك تشعر بغبائك الشديد، لماذا تسرَّعت هكذا في الكشف عن نفسك؟ لستُ شرطيًّا، ولكنني أفترض أن كشف الهوية ليس شيئًا تستخفُّون به أنتم أفراد الشرطة».

قطعت الغرفة ذهابًا وإيابًا عدَّة مرات، محاولًا استيعاب الأمر في عقلي، لماذا قد يرغب أي أحد بالخروج من موقف ما بهذه السرعة، إلى درجة أن

يخاطر بالكشف عن هويته؟ وكأن الأمر بالنسبة إليه مسألة حياة أو موت. وكأنه لو لم يتعجل ويصل إلى أحدهم فسيكون الأوان قد فات.

عدتُ وجلست ببطء على السرير، وحدَّقت إليه، قائلًا: «إلا إذا... إلا إن كنت قد كشفت هويتكَ لأنك من هذا النوع من الرجال الذين يدعون عواطفهم تتحكم بأفعالهم. ماذا يُسمَّى هذا النوع من الرجال؟ إنني متأكد من أننا خضنا هذا النقاش مؤخَّرًا أنت وأنا على الغداء».

نظرت إلى السقف وأنا أدَّعي التفكير، وقلت: «أوه، أجل. جبناء».

لم يضحك على الدعابة التي ألقيتها، وهذا على الأرجح أمر جيد، لأنه ربما كان سيزعجني لو أنه ضحك.

حدَّقت إلى الباب، ولم أستطع أن أتذكر ما إن كنت قد أقفلته أم لا، وقفت وذهبت لأتحقَّق منه، ثمَّ استدرت وواجهت لوك مجدَّدًا، وقلت له: «ولكن السؤال الحقيقي هو: لماذا قد تكون عاطفيًّا للغاية في وقت كهذا؟ حيث ينبغي أن تكون على قمَّة لعبة التخفي خاصتك؟ ما الشيء الذي سيطر على تفكيرك، في الوقت الذي كان ينبغي أن يفوز المنطق والتدريب الذي خضعت له؟».

خطوتُ نحوه خمس خطوات، إلى أن أصبحت أمامه مباشرةً. ظل ينظر في عينيَّ طوال الوقت، ورفع ذقنه ليستطيع الاستمرار بالتحديق.

- أوه، هذا صحيح. لقد منعك قلقك الشديد على خطيبتي اللعينة من أداء واجبك على وجه صحيح.

صفعته بالمسدس على جانب وجهه، تأرجح وجهه جانبًا، أنا واثق تمامًا أن الضربة كانت قوية بما فيه الكفاية لتفقده واحدًا أو اثنين من أسنانه، ولكنه تصرَّف وكأنها لم تؤثر به. نظر في عينيَّ مجدَّدًا، وبدا أكثر هدوءًا حتَّى ممَّا كان عليه قبل أن أضربه.

ابن الملعونة.

أكره أنني ما أزال أحب هذا الجانب فيه، الهدوء، جانبه الاستبطاني الذي لا يتصدع من الخوف، إنه مذهل.

من المؤسف أن الشيء الوحيد الذي يجعله ينهار تحت الضغط هي سلوان. أتساءل منذ متى من الوقت وهو يغسل دماغها؟ ويستغلها من أجل سير تحقيقه؟ على الأرجح كان يقلبها ببطء ضدي منذ يوم لقائهما الأول.

ظننت أن حادثة الكازينو كانت سيئة، ظننت أن إطلاق العنان لنفسي ضد والدي كان أعلى حد من الغضب يمكن أن أشعر به، ولكنني أخطأت. يا رجل، كم كنت مخطئًا!

رؤيتي لسلوان وهي تنظر إليه كي يوجهها في وقت سابق من اليوم، جعلتني أغضب أكثر بكثير ممَّا سبق وشعرت في حياتي كلها. لم يسبق لي أن رغبت بقتل أحدهم، كما رغبت بقتل كارتر في تلك اللحظة. ولكن ذلك كان من شأنه أن يفسد مفاجأتي، لذا تحتم عليَّ أن أتمتَّع بالصبر.

رفعت مسدسي ببطء إلى جانب رأسه، وتخيلت كيف سيكون الأمر عندما أضغط على الزناد أخيرًا، عندما أرى دماغه اللعين يتبعثر على الأرضية. أتسأل عن حجم الضرر الذي ستحدثه الطلقة في رأسه، هل سيظل وجهه قابلًا للتعرُّف عليه؟ عندما أجر سلوان إلى هنا لتلقي نظرةً أخيرةً عليه، هل ستستطيع حتَّى التعرُّف عليه؟ أم أن رأسه بمجمله سينفجر؟

أجبرت نفسي على إبعاد المسدس عن رأسه، لأنني وبقدر ما أشعر بالفضول لأعرف كيف سيكون شعوري عندما أقتله، فإنني ما أزال أملك بعض الأسئلة التي أحتاج إلى إجابات عليها قبل ذلك.

جلست القرفصاء أمامه، وأسندت ذراعيَّ على فخذي، وقلت: «هل ضاجعتها؟».

أعرف أن سؤالي في هذه الحالة هو مجرَّد استفهام مجازي، لأنه سيكون غبيًّا ليجيب عليه، ولكنه لم يثبت أنه من الأذكياء.

- أين كنت عندما ضاجعتها للمرَّة الأولى؟ في سرير؟ هل بلغتِ النشوة؟

ضمَّ شفتيه معًا ورطَّبهما، لكنه ظَلَّ صامتًا. لقد بدأ صمته يزعجني بحق. وقفت ومشيت نحو الباب، وتحقَّقت للمرَّة الثانية من كونه مقفلًا، لست واثقًا حتَّى من السبب الذي يجعلني أرغب بأن يكون مقفلًا. فالشباب يفرضون سيطرتهم على المكان، وقد أُمِرَ أحدهم أن يصعد إلى الطابق العلوي ويراقب

سلوان، أربعة منهم موزعون بين جون وكفين، على الرغم من أنني لست خائفًا من أي منهما، فهما أغبى بكثير من أن يكونا شرطيين، ولكن فكرة أن أدعهما يرتعبان لعشر دقائق أخرى أو ما شابه تعجبني.

ما زلت غير واثقٍ من أمر دالتون، لكنه في غرفة المعيشة الآن وثمَّة سلاحان مصوَّبان نحو رأسه، لذا أعتقد أنني سأتدبَّر أمره بعد أن أنتهي من كارتر. سألته: «أتريد أن تعرف كيف كان الأمر عندما ضاجعتها أول مرة؟».

ها هو يجيب وأخيرًا على واحد من أسئلتي منذ لحظة دخولي إلى هنا. بالكاد حرك رأسه إلى الخلف والأمام مرتين، حركة خفيفة تكاد تكون غير ملحوظة، ولا أعتقد أنه قد قام بحركته هذه لا إراديًا. لا بُدَّ أنه فعلًا لا يرغب بمعرفة تفاصيل مضاجعتي لها أول مرة.

حسنًا، هذا سيئ جدًّا يا كارتر، ففي جميع الأحوال سأحكي لك القصة بحذافيرها.

جلست على السرير مجدَّدًا، لكنني هذه المرَّة أرحت جسدي عليه بالكامل، وأسندت رأسي إلى المسند، عقدت قدميَّ معًا، ووضعت المسدس على حجري، وأخبرته: «لقد كانت بعمر الثامنة عشرة، بريئة، لم يلمسها أحد من قبلي. يا لها من فتاة مسكينة، فقد كانت تعتني بأخيها منذ زمن طويل، حتَّى أنها لم تحظَ بطفولة، هل تصدق إن أخبرتك أنني الشاب الأول الذي سبق لها وقبَّلته؟».

كان يحدِّق إلى الأمام مباشرةً الآن، رافضًا أن ينظر إليَّ، وقد رأيت العروق في عنقه تنتفخ، ابتسمت وبدأت أروي الحكاية ذاكرًا أدق التفاصيل الآن لأن رؤيتي له يتلوَّى من العذاب أمتعتني: «لم يكن انعدام خبرتها يُعزى إلى خجلها، دعني أوضح هذا لك، ولكنها لم تكن قد اختبرت أي علاقة من قبل لأنها ليست من الفتيات اللواتي يثقن بالأشخاص بسهولة. فقد نشأت برعاية أم مثيرة للشفقة، ولم تعرف والدها حتَّى، لذا عندما دخلت حياتها، لم تعرف كيف تتعامل مع الأمر. لم يسبق أن حظيت بعشاقٍ لتقارنني بهم، لذا لم يتعين عليَّ أن ألبي أيًّا من التوقعات المسبقة، أو أن أتفوق على أي أحد. علمت أنني لو تعاملت معها بطريقة أفضل ممَّا سبق وفعل أي من والديها، ستظن أنه قد أُنعِم عليها، وقد فعلتُ ذلك يا كارتر، عاملتها على نحوٍ جيدٍ للغاية.

ولحسن الحظ، لم تكن من الفتيات اللواتي يرغبن بترك الأمور تسير على مهل، ففي أول موعدٍ غراميٍّ لنا قبَّلتها قبل أن نصل إلى المطعم حتَّى، حيث دفعتها على حائط حجري في واحد من الأزقة وقبَّلتها، وقد أعجبها ذلك جدًّا، حتَّى شعرت وكأنها ترغب أن تغرق في لعابي».

يا للجحيم! تأججت رغبتي بمجرَّد التفكير بالأمر.

- لقد سبق وكنت في ذلك المطعم من قبل، لذا أحسنت اختيار الوقت المثالي من الليلة لأصطحبها إلى هنا، بحيث لا يكون المكان مزدحمًا، كما أجدت انتقاء الطاولة المناسبة لنحظى بشيء من الخصوصية. لم تستطع إبعاد يديها عنِّي بعد أن جلسنا، بدا الأمر وكأنني قد حررت هذه الرغبة داخلها، رغبة لم أكن أعرف حتَّى أن الفتيات يستطعن اختبارها، وهذا جعلني أرغب بتمديدها على الطاولة، ورفع فستانها، ومضاجعتها فوق صحون المقبلات.

لن أنسى ذلك الفستان أبدًا، لقد كان فستانًا قصيرًا لطيفًا وأبيض اللون، بحمالتين رفيعتين، وثمة أزهار صفراء مبعثرة عليه بالكامل، كان ملمسه حريريًّا بين يدي، ولم أستطع التوقُّف عن لمسه. ارتدته مع صندل أبيض تظهر منه أصابعها الوردية، وقد خلعت الصندل في مرحلة ما في أثناء العشاء، وأحببت ذلك بشدَّة. هل أنت من الفتيان الذين يحبون أصابع القدمين يا لوك؟

بدأ يحدِّق إليَّ الآن، لا أعرف متى حدث هذا التغير في ملامحه، إلا أنه لا يبدو هادئًا الآن كما كان بعد أن ضربته. لقد كنت محقًّا؛ هذا هو الموضوع الوحيد الذي يحطمه، ابتسمت وتابعت كلامي: «فتنتُها طوال فترة تناولنا للطعام، بإخباري لها كم أنها جميلة، ومميزة، وكيف أن ما تفعله من أجل أخيها هو أكثر فعل رحيم سبق ورأيته، وطوال الوقت الذي كنت أخبرها فيه ما تحتاج إلى سماعه، كانت يداي ترتفعان شيئًا فشيئًا على طول فخذيها. وبحلول الوقت الذي أحضروا لنا فيه قائمة الحلويات، كانت يدي قد انزلقت بالفعل تحت سروالها الداخلي».

نفثت زفيرًا محاولًا أن أتحكم بنبضات قلبي، اللعنة لا يمكنني حتَّى أن أفكر بالأمر دون أن أشعر بالإثارة.

- من الصعب أن أصف لك ما حدث تاليًا، لأنه شيء ينبغي أن تكون حاضرًا ساعة حدوثه لتفهمه، لكنني سأحاول.

عدَّلت جلستي على السرير، ومررت المسدس على خدي، وقلت: «يا لجمالها! تجاوبت مع لمساتي للغاية، أعتقد لو أننا أخذنا بعين الاعتبار أنها لم يسبق أن لُمست من قبل شاب آخر، فاستجابتها هذه طبيعية، ولكن كان هناك شيء سحري... شيء روحاني حدث داخلي عندما لمستها بأطراف أصابعي وأنا أعلم أنني أول من يلمسها. حصلت على نشوتها الأولى في الحياة في مؤخرة ذلك المطعم الهندي، بينما طعم لسانها كاري، ويداي ترفعان فستانها، وأصابعي تلمسها. لقد كان جميلًا. جميلًا للغاية».

تنهَّدت على أثر الذكرى، ثمَّ ضحكت عندما انتبهت إلى أنني لم أصل بعد إلى الجزء الجيد من القصة.

- كان عليَّ أن أحظى بها، تملَّكتني الرغبة بمضاجعتها، لذا قُدت سيارتي بها مباشرةً إلى منزلي، ولكن وبالطبع بعد أن تبادلنا القبل والمداعبات لمدة نصف ساعة طلبت منّي أن أتمهَّل، قائلةً إننا نتعجل كثيرًا، ولكن كان عليَّ أن أنالها يا لوك، لم أستطع التنفُّس، لذا احتضنتها لمدَّة ساعتين لعينتين، منتظرًا حلول منتصف الليل، ثمَّ بدأت بعدها بتقبيلها، ولمسها، مثيرًا شهوتها بلساني وهي نائمة، ممَّا يجعلها تتوسَّل إليَّ لأضاجعها عندما تستفيق، وهذا بالضبط ما حدث. استيقظتْ وقد تمكنت منها، وخلال عشر ثوانٍ كانت تتوسل إليَّ لأضاجعها. في الليلة الأولى يا لوك، لقد خرجتْ للتَّوِّ في أول موعد غرامي لها، وحصلت على أول قبلة، وبلغت أول نشوة، ثمَّ وكما تحدث المعجزة حدث الأمر، كنت أتحرَّك داخلها، أراها وهي تعبس، وتتشنج حولي. العلامات التي تركها اللوح الأمامي للسرير على الجدار في تلك الليلة ما تزال موجودة في الواقع، وقد أريكَ إياها قبل أن أقتلكَ.

وقفت، وفركت وجهي بإحدى يديَّ، وتابعت: «ما زلت أفكر بتلك الليلة بعد مرور سنتين عليها، أفكر بالشعور الذي اعتراني لكوني أول رجل يلج جسدها، أول شخص يوصلها إلى ذروة النشوة، أول شخص يجعلها تصرخ باسمه، وفي كل مرَّة أنظر إليها أحبها أكثر، لمعرفتي أن ما حدث بيننا سيظل

إلى الأبد مقدَّسًا، معرفتي أنني سأكون أول من يفعل كل هذه الأشياء معها، والأخير، وأنها لن تسمح يومًا لرجل آخر بتقبيلها، أو لمسها، أو مضاجعتها وإفسادها».

مشيت بهدوء نحو لوك، وجلست القرفصاء مجدَّدًا أمامه، وتابعت: «إن اكتشفت أنك قد أخذت ذلك كله منِّي يا لوك، فإنها ستكون بلا قيمة بالنسبة إليَّ. اعذرني للحظة، بحيث أصعد إلى الطابق العلوي وأعيد إحضارها إلى هنا، أعتقد أننا نحن الثلاثة بحاجة إلى الخوض في حديثٍ جدِّيٍّ».

أرسلت اثنين من الأوغاد ليبقوا لوك تحت المراقبة، في حين أصعد إلى الطابق العلوي لأحضر سلوان خاصتي.



الفصل الأربعون

سلوان

أول شيء فعلته عندما صعدت إلى الطابق العلوي وإلى غرفتي، هو أن جريت باتجاه طاولة السرير الجانبية بحثًا عن هاتفي، لم أجده هناك، نظرت على الأرض، على السرير، أسفل السرير، ثمَّ تذكَّرت أن آسا قد صعد إلى هنا قبل العشاء، لقد أخفى الوغد هاتفي.

ما إن سمعت صوت الصراخ والاشتباك والتحطيم... جريت نحو خزانتي لأختبئ فيها، وبعد مرور أقل من عشر ثوانٍ على اختبائي طرق أحدهم على الباب، وعندما سمعت الكلمات: «مكتب التحقيقات الفيدرالية، افتحوا الباب!» شعرت بالراحة.

زحفت خارج الخزانة، وفتحت الباب، لكنني في الحال شعرت أن ثمَّة شيء خاطئ، إذ إن العميل قد دفعني إلى داخل الغرفة وأغلق الباب خلفي، وهو يوجِّه مسدسًا نحوي، أمرني أن أجلس على السرير، ولم يسمح لي بالحركة أو الكلام منذ لحظة دخوله.

مضى بعض الوقت الآن، الكثير منه، يصل إليَّ أحيانًا صوت دالتون، وأحيانًا صوت جون أو كفين. لكنني لا أسمع البتَّة صوت آسا، ولا صوت لوك.

انقلبت معدتي عندما خطرت لي فكرة أن آسا قد تكون له يد في تدبير ما يحدث الآن، ولكنها لم تكن المرَّة الأولى التي يلفِّق فيها مكيدةً مفصَّلةً

ومحكمةً على نحو سخيف من شدَّة إحكامها، لقد أصبحت هذه الأمور موطن قوته، وأكثر ما يبرع فيه.

سألت العميل: «هل أنا رهن الاعتقال؟».

ظَلَّ واقفًا أمام الباب، لكنه لم يجب على سؤالي.

- إن لم أكن رهن الاعتقال، فإنني أرغب بالنزول إلى الطابق السفلي.

هزَّ رأسه بالرفض.

اللعنة على هذا الرجل.

وقفت وحاولت أن أمشي وأتجاوزه، لكنه أمسك ذراعي، ورماني على السرير من جديد، وعندها أدركت بما لا يقبل الشك أن ثمَّة شيء غير صحيح في هذا الوضع برمته. أعدت المحاولة مرَّة أخرى، وكرَّرت ما فعلته، وصرخت آملةً بالحصول على انتباه أحد آخر في المنزل: «النجدة!».

صفع فمي بيده، ودفعني على الجدار، قائلًا: «اقترح عليكِ أن تغلقي فمكِ، وتعودي لتجلسي على السرير».

دُسْتُ على قدمه، وعرفت لحظتها أنني كنت فقط أصعِّب الوضع على نفسي، ولكنني تعبت من كوني لا أدافع عن نفسي. وضع يديه على كتفي، ودفعني إلى الجدار بقوَّة شديدة حتَّى أن رأسي قد ارتطم به. تغضن وجهي من الألم، وحاولت أن أرفع إحدى يدي لأتحسس رأسي، لكنه أمسك معصميَّ، وثبَّتهما على جانبيَّ، وقال مبتسمًا وكأن هذا يثيره: «يا لكِ من صغيرةٍ مشاكسةٍ».

من أين بحقِّ الجحيم أتى هذا الرجل؟ من الرحم ذاته الذي خلق جون؟

صرخت مجدَّدًا: «النجدة!».

هزَّ رأسه هذه المرة، وقال: «لا تعرفين كيف تُبقين فمك مغلقًا، أليس كذلك؟».

ضغط شفتيه على شفتيَّ، اللعنة كم أكره الرجال، أكرههم، أكرههم!

اتسعت عيناي أيَّما اتساع، وأنا أحاول أن أُبقي شفتي مطبقتين بإحكام أمام قوَّة ضغط لسانه، كنت أنظر من فوق كتفي الرجل، وأقاتل لأحرر نفسي من قبضته، عندما فُتح باب غرفة النوم.

شعرت بالرعب والراحة في الآن ذاته عندما رأيت آسا.

ما الذي يجري بحقِّ الجحيم؟

طافت عيناه في أرجاء الغرفة، ثمَّ استقرَّتا علينا، على الرجل الذي ما يزال يحاول اقتحام فمي بلسانه، ثمَّة يد الآن تشق طريقها صعودًا على بلوزتي. أدركت كم أن العالم الذي أحيا فيه عالم منكوب في اللحظة التي انتبهت فيها إلى أنني كنت أصلي أن يأتي آسا لإنقاذي، ولكنني خشيت أيضًا من اللحظة التي سأصبح فيها بأمان معه.

لم يحتج آسا إلى أكثر من ثانيتين ليفهم ما يجري، واشتعلت عيناه بالغضب وهو يصيح مهرولًا ناحيتنا: «لقد أوكلت إليك مهمة وحيدة أيها الوغد!».

في اللحظة التي تركني فيها الشاب، وبدأ بالاستدارة نحو الخلف، رفع آسا مسدسه وصوبه إلى رأسه، وقال: «مهمة لعينة واحدة!».

طنين.

لا أستطيع سماع أي شيء فوق الطنين في أذنيَّ، أو الشعور بأي شيء سوى لسعة الدموع السائلة من عينيَّ وعلى خدَّيَّ. سددت أذنيَّ بيديَّ، وأغلقت عينيَّ بشدَّة.

لا، لم يحدث هذا للتو.

لا، لا، لا.

سمعت صوت ارتطام جثة الرجل بالأرض، وكان عليَّ أن أبتعد قليلًا نحو اليسار، كي أسحب قدمي اليسرى من تحته. وكررت بينما يداي ما تزالان تغطِّيان أذنيَّ: «لا يا آسا، لا، لا، لا».

أجابني ممسكًا بذراعي: «على الأرجح قد ظنَّ أنكِ عاهرة يا سلوان، أيمكنكِ أن تلوميه؟».

جرَّني آسا إلى الأمام، وتعثَّرتُ بالرجُل المُلقى على الأرض، لم يترك آسا ذراعي وهو يجذبني لأقف على قدمي، ويجرني نحو الباب.

ما تزال عيناي مغمضتَيْن، وأعتقد أنني كنت أصرخ، لأنني شعرت بوخزٍ في حنجرتي، ولكن لا يمكنني الجزم، أهذا الصوت فعلًا صوت صراخي؟ أم أنه مجرَّد صوت الطنين في أذنيَّ؟

رفعني آسا فجأةً في الهواء، ورماني على كتفيه. حملني على طول السلالم إلى الطابق السفلي، وأعادت ذاكرتي استحضار الثواني العشر الأخيرة في رأسي.

إن هذا لا يحدث.

بعد عدَّة ثوانٍ أنزلني على سريرٍ، وكان الخوف متملِّكًا منِّي بشدَّة، بحيث تعذَّر عليَّ فتح عينيَّ. مرَّت بضع لحظاتٍ، وأنا أشهق لإدخال الهواء إلى صدري، وتنهدت بين الدموع في حين وصل إلى مسمعي صوت آسا من فوقي: «انظري إليَّ يا سلوان».

فتحت عينيَّ ببطءٍ، ونظرت إليه، كان منحنيًا فوقي على السرير، يلمس وجهي، ويرد شعري بلطفٍ إلى الخلف، وثمة رذاذ من الدماء على وجهه، ممتدًا إلى عنقه.

نظرت في عينيه، وكانت حدقتاه قد احتلتا الجزء الأكبر منهما، قزحيتان سوداوان ضخمتان تحدقان إليَّ، سبب ذلك رعشةً في جسدي المرتجف بالفعل. همس وهو ما يزال يداعب شعري: «سلوان».

حاولت أن أتلفَّت حولي في الغرفة، لكنه أمسك فكي، وأجبرني على تثبيت عينيَّ في عينيه، وقال: «حبيبتي، لدي بعض الأخبار السيئة للغاية».

لا أعتقد أن قلبي يستطيع احتمال هذه الأخبار أيًّا تكن، أخشى أنني إن فتحت فمي لأجيبه، فسوف أتقيأ.

- إنني أعلم بشأنكِ أنتِ ولوك.

توقَّف قلبي عندما سمعت الاسم، وحاربت فيض الدموع الذي شعرت به يشق طريقه عائدًا إلى عينيَّ. لقد دعاه لوك.

كيف عرف اسمه الحقيقيَّ؟

حشدت كل ما تبقَّى من قوَّة في داخلي، واستخدمتها لأفتعل الغباء: «من يكون لوك؟».

مرَّر عينيه على وجهي، وضاقت حدقتاه ثمَّ توسعتا مجدَّدًا، ظهرت ابتسامةٌ ببطءٍ على وجهه، ثمَّ ضغط شفتيه على جبيني، وهمس مبتعدًا عني: «هذا ما ظننته، إنه ليس خطؤكِ يا سلوان، لقد غسل دماغكِ محاولًا أن يقلبكِ ضدِّي، ولكن حتَّى اسمه ليس كارتر يا حبيبتي، بل لوك. اسأليه بنفسكِ».

وضع يده تحت ظهري، ودفعني نحو الأعلى إلى أن جلست على السرير، لأجد نفسي، فجأةً، وجهًا لوجه مع أسوأ كوابيسي؛ لوك جالس على كرسي مكتب، ويداه مكبلتان خلف ظهره، العذاب والألم في عينيه يتحدثان بصوتٍ مرتفعٍ، مفصحَيْن عن رأيه بخصوص مأزقنا الحالي.

لا.

آسا يراقبني، منتظرًا أن يرى رَدَّ فعلي، حاولت أن أسيطر على انفعالي، أن أخفي خوفي، ووجع قلبي، وعذابي، ولكن معرفتي أن مصير كل منا بين يدي آسا الآن، ترك لي القليل فقط من القوَّة للتظاهر.

لا تبدي أيَّ رَدٍّ فعل، لا تبدي رَدَّ فعل، لا تبدي أيَّ رَدٍّ فعل.

كرَّرت هذه الكلمات في رأسي، بينما كان لوك يخبرني الشيء ذاته بصمتٍ عبر عينيه.

هذا ما يريده آسا؛ رد فعل. بذلت قصارى جهدي كي لا أمنحه رد الفعل الذي يتوقعه، وبقدر استطاعتي في لحظة كهذه، اصطنعت تعبيرًا بريئًا على وجهي، ونظرت إليه وهو واقفٌ أمامي، وقلت: «ما الذي تتحدث عنه يا آسا؟ ولماذا يدا كارتر مكبلتان؟».

أخفض نظره إليَّ، وبدا وكأنه خائب الأمل، وكأنه كان يتوقع منِّي أن أعترف بمعرفتي أن لوك عميلٌ متخفٍّ، أو على الأقل أن أصرِّح بعلاقتي معه. ابتسم ابتسامةً متكلِّفةً، وقال: «أما زلت تظنين أنني مغفَّل يا سلوان؟».

انتقلت عيناه ببطء إلى لوك، وتابع: «إذَنْ أعتقد أنك لن تمانعين إن فعلت هذا، أليس كذلك؟».

رفع مسدسه وتقدَّم نحوه، تمامًا كما فعل في اللحظة التي سبقت إطلاقه النار على الرجل في الطابق العلوي. قفزت في الحال، وأمسكت ذراعه، وصرخت: «لا يا آسا، لا».

لم يطلق النار عليه. وعوضًا عن ذلك أرجح يده التي كانت تحمل المسدس، وضربني بقوَّة شديدة، طار معها جسدي وحطَّ على السرير، لم يكن بحاجة لأعترف بالذي يحدث بيني وبين لوك. فرد فعلي بحد ذاته قد فضح كل شيء.

أصبح فوقي الآن، ممسكًا بمعصميَّ، وهو يضغط جبينه على جانب رأسي، وبدا صوته منهكًا باللحظة وقال: «سلوان، لا. لا، لا يا حبيبتي».

تراجع إلى الخلف، وكانت عيناه ملآنتان بالألم، وأضاف: «هل ضاجعكِ؟ هل سمحتِ له بذلك؟».

من شدَّة بكائي لم أستطع أن أجيب بالإيجاب، ومن حرقة دموعي لم أستطع أن أنكر.

تغضَّن وجهه بالكامل، وكأنه يرى أن علاقتي بلوك ربما تكون أسوأ ما يمكن أن يحدث الآن. لقد أطلق النار على رجل في الطابق العلوي للتَّوّ، كيف يمكن أن تسوؤه أكثر فكرة خيانتي له؟

أدرت رأسي إلى الجانب، وأغلقت عينيَّ بشدَّة.

هذه هي النهاية.

هكذا سأموت.

دفن آسا رأسه في الفجوة بين عنقي وكتفيَّ، وغمغم: «لا يمكنني أن أتذكَّر إن كنت قد أقفلت الباب».

عندما زحف من فوقي حاولت أن أستوعب ما الذي قاله للتَّوّ، لكنه تكلَّم بعشوائية شديدة، ونبضي متسارع للغاية لأتمكن من استيعاب أفكاره، فأنا، وبحالتي هذه لا يمكنني حتَّى استيعاب أفكاري الخاصَّة. بينما كان يمشي نحو الباب، أدرت وجهي لأنظر إلى لوك، وكانت يداه مكبلتان وراء ظهره حول كرسي المكتب، لكنه وقف بسرعة، وزلق يديه إلى الأعلى ثمَّ خارج ظهر الكرسي، ليعود ويجلس مجدَّدًا، لتصبح يداه خلفه مباشرةً حرتين من الكرسي. حدث كل شيء بسرعةٍ شديدةٍ، وتطلَّب الأمر منِّي لحظةً لأدرك أنه لم يكن موثقًا بالكرسي حتَّى.

لا بُدَّ أن آسا لم ينتبه للأمر، وإلا ما كان ليدير ظهره إليه البتَّة.

حطَّت عيناي على الباب بينما آسا يقفله، نظرت مجدَّدًا نحو لوك وكان يهزُّ رأسه، يحذِّرني أن أبقى هادئةً. لم يستطع أن يرفع إبهامه إلى شفته، لكنه عضَّ بأسنانه عليها.

سحبت خصلةً من شعري، وفي اللحظة ذاتها أراح آسا ظهره على باب غرفة النوم، ووضع مسدسه على نحو مسطح فوق خده، ونظر إلى لوك مباشرةً، وقال: «لقد سبق وحكيت لكَ عن أول مرَّة ضاجعتها فيها. حان الآن دورك».

***

الفصل الحادي والأربعون

آسا - قبل بضع سنوات

والدي واقفٌ خلف النافذة، يراقب الوضع في الخارج بحثًا عن «الرجال»، إنه يفعل هذا معظم الوقت، وقد أخبرني أنهم إن عرفوا أين نعيش، فسوف يطلقون النار عليه، ثمَّ على والدتي، وبعدها عليَّ. قال إنهم بعد أن يطلقوا النار علينا، فالرجال على الأرجح لن يخبروا الشرطة حتَّى، بل سيتركوننا هنا، وسوف تتعفَّن جثثنا داخل هذا المنزل، لتأكلها الفئران والحشرات.

صاح من مكان وقوفه عند النافذة مشيرًا إلى الباب الأمامي: «آسا! تحقق من الباب مجدَّدًا».

لقد سبق وتحقَّقت من الباب مرَّتين، ولكنه لا يصدقني أبدًا عندما أخبره أنه مقفل، وفي كل مرَّة ينظر فيها من النافذة، يقول: «تحقَّق من الباب مجدَّدًا».

لا أعرف لماذا يظنُّ في بعض الأيام أن الرجال قادمون من أجله، وأحيانًا في أيام أخرى لا يهتم البتَّة. نزلت عن الأريكة وزحفت باتجاه الباب. قدماي تعملان على نحوٍ ممتازٍ، لذا يمكنني ببساطة أن أسير عليهما نحو الباب، لكنني أخشى أحيانًا أن يظهر الرجال فجأة، ويردونني قتيلًا، لذا أزحف عندما أعبر من أمام النافذة الكبيرة. تحققت من الباب، وقلت: «إنه مقفل».

نظر أبي إليَّ، وابتسم قائلًا: «شكرًا لك يا بُنيَّ».

أكره أن يدعوني «بُنيَّ»، فهو لا يستخدم هذه الكلمة إلا عندما يكون خائفًا من أن يطلق الرجال النار عليه، ثمَّ على أمي، وبعدها عليَّ. عندما يشعر بالخوف، يكون لطيفًا معي بحق، ويسمح لي بمساعدته في بعض الأعمال، كدفع الكنبة إلى الباب، وفصل كل الأجهزة الكهربائية. لقد ساعدته كثيرًا على مدار هذا اليوم وما زال يدعوني «بُنيَّ»، وأنا أفضِّل ألا يناديني بأي شيء، ويقضي يومه جالسًا في كرسيه.

زحفت مجدَّدًا إلى الأريكة، ولكن قبل أن أصعد إليها، شعرت بيد والدي تعتصر ذراعي، وهمس: «إنهم هنا يا آسا!».

أوقفني على قدميَّ، وقال: «يجب أن تذهب وتختبئ!».

طرق قلبي بسرعةٍ شديدةٍ داخل صدري، وأومأت. يخاف أبي من الرجال كثيرًا، لكن لم يسبق أن ظهروا فعلًا قبل الآن. نظرت من النافذة الكبيرة وهو يجرني عبر غرفة المعيشة، لكنني لم أرَ أحدًا، لم أرَ الرجال.

جرَّني والدي إلى خارج المنزل عبر الباب الخلفي، وأنزلني على طول السلالم المؤدية إلى القبو، ثمَّ ركع وأمسك كتفيَّ، قائلًا: «آسا، اختبئ تحت المنزل، وابقَ هناك إلى أن آتي وآخذك».

هززت رأسي وقلت: «لا أريد».

المكان في الأسفل مظلمٌ للغاية، وقد سبق ورأيت عقربًا هناك.

همس بصوت مرتفع حقًا: «ليس أمامك خيار! لا تخرج قبل أن آتي إليك، وإلا سيقتلوننا كلينا».

دفعني في الفتحة التي تقود إلى أسفل المنزل، وسقطت على ركبتي، وغاصت يداي في الوحل. لم أنظر خلفي، زحفت بعيدًا قدر استطاعتي كي لا يراني الرجال.

ضممت رُكبتيَّ إلى صدري، وحاولت أن أظلَّ هادئًا وأنا أبكي، كي لا يسمعني الرجال.

***

بردت جدًّا، ونهش بطني الجوع، وبكيت إلى أن عادت الشمس لتتصدر السماء، ولكن والدي طلب منِّي ألا أتحرك، لذا لم أتحرك. أملت ألا يشعر بالغضب، لكنني تبوَّلت على نفسي بينما كنت نائمًا، لم أتبوَّل على نفسي في أثناء النوم منذ عيد ميلادي السابق، إن لم يكن الرجال قد قتلوه بعد، فلسوف يغضب منِّي أيما غضب بسبب ما حدث.

يمكنني سماع صوت أقدامهم وهم يتجوَّلون داخل المنزل، لا أعرف إن قتلوا والدي أم لا، كانت والدتي في غرفة النوم حيث تقضي معظم وقتها، لذا أعتقد أنها قد قُتلت هي أيضًا إن كانوا قد عثروا عليها.

لكنهم لم يقتلوني لأني نفَّذت بالضبط ما طلبه والدي منِّي، بقيت هنا، ولن أتحرَّك حتَّى يأتي ويأخذني.

أو إلى أن يرحل الرجال.

***

شعرت ببردٍ قارسٍ، وجوعٍ شديدٍ، وبكيت إلى أن غابت الشمس مجدَّدًا، ولكنني لم أتحرَّك، قال لي والدي ألا أتحرَّك، لذلك نفَّذت ما قاله. لكن الخدر في ساقيَّ أفقدني إحساسي بهما، وكأنهما لم تعودا جزءًا من جسدي بعد الآن، أبقيت عينيَّ مغمضتين، ولم أعد أشعر بالعطش الشديد الآن، فقد كان هناك القليل من الماء يقطر من أنبوبٍ بقربي، فوضعت فمي عليه وشربت القليل منه.

أعتقد أن الرجال قد قتلوا أمي وأبي، لأن الهدوء يسيطر على منزلي الآن، لم أعد أسمع وقع خطوات الرجال منذ أن أشرقت الشمس، لذا ربما يكونون قد رحلوا.

أعرف أن والدي قد أمرني ألا أتحرَّك، ولكن لو أنه ما يزال على قيد الحياة، لكان قد عاد وأخرجني بحلول هذا الوقت. لكنه لم يعُد قط.

زحفت خارجًا من تحت المنزل، كانت السماء مظلمةً بحق، وهذا يعني أني بقيت تحت المنزل لما يزيد عن يومٍ كاملٍ. لا أعتقد أن الرجال قد يقتلون أمي وأبي ثمَّ يبقون في منزلنا لأكثر من يوم كامل، فلا بُدَّ أن يكونوا قد رحلوا الآن، ومن الآمن أن أعود إلى الداخل.

عندما حاولت أن أقف، سقطت، شعرت بوخزٍ في ساقيَّ، وألمٍ في أصابعي، زحفت على طول السلالم الخلفية، وعندها فقط أدركت أن ملابسي بأكملها

ملطَّخةٌ بالوحل، أخشى أن تتسخ الأرض من ملابسي، حاولت أن أمسح بعض الوسخ بالممسحة، ولكنه كان منتشرًا على ملابسي بالأكمل.

أمسكت بمقبض الباب وسحبت نفسي إلى الأعلى، ما زلت لا أشعر بساقيَّ جيدًا، ولكنهما تعملان الآن، عندما فتحت الباب وخطوت إلى داخل المنزل، رأيت جثَّة والدي، كانت على الكنبة المفردة في غرفة المعيشة.

حبست أنفاسي. لم يسبق لي أن رأيت جثَّة من قبل، وأنا حقًّا لا أرغب برؤية واحدة الآن، ولكن يجب أن أتأكد من أن هذه الجثة هي جثة والدي لا واحد من «الرجال»، دخلت غرفة المعيشة على رؤوس أصابعي، وأنا خائف للغاية، وشعرت أن قلبي ينبض في عنقي.

عندما وصلت إلى الكنبة، سحبت نفسًا عميقًا، ثمَّ التففت حولها لأنظر إليه، وقد فوجئت قليلًا عندما رأيت أن الأشخاص المتوفَّين لا يبدون مختلفين حقًّا عن الأحياء.

ظننت أنه سيكون مغطًّى بالدماء، أو أن لونه سيحول ويبدو كشبح، ولكنه ما يزال يبدو كما هو.

رفعت إصبعي لألمس خده، إذ سمعت أن الموتى تكون أجسادهم أبرد من الأحياء، لذا ضغطت طرف إصبعي على خده، لأتحسَّس ملمس بشرته.

التفت يده على معصمي وشدت عليه، وانفتحت عيناه ممَّا أخافني بشدَّة، فصرخت.

اكتسحت عينيَّ والدي نظرةُ اشمئزازٍ وهو يتفحص ملابسي، وقال: «أين كنتَ بحقِّ الجحيم يا ولد؟ إنك متَّسخ!».

ظننته ميتًا.

إنه على قيد الحياة.

- كنتُ تحت المنزل، حيث طلبت منِّي أن أذهب بالأمس، لقد قلت إنكَ ستأتي لاصطحابي.

شدَّ على معصمي بقوَّة، ثمَّ انحنى إلى الأمام وقال: «إياك أن توقظني من قيلولتي مجدَّدًا أيها الوغد الصغير! اذهب الآن واستحم، تفوح منك رائحة مجرى الصرف الصحي اللعين!».

دفعني بعيدًا عنه، وتراجعت إلى الخلف، وأنا حائر من كونه ما يزال على قيد الحياة.

ظننت أن «الرجال» قد أتوا، ظننت أنهم قد قتلوه.

أمسكني من مؤخِّرة عنقي ودفعني إلى أن تعثَّرت خارجًا من غرفة المعيشة. لقد قال إنه سيعود لاصطحابي، لكنني أعتقد أنه لم يتذكَّر البتَّة وجودي تحت المنزل.

شعرت بالحرارة تتصاعد إلى عينيَّ، لذا جريت خارج غرفة المعيشة، لا يمكنني أن أبكي أمام والدي، وإلا سيغضب كثيرًا.

مشيت عبر الممر نحو الحمام، ولكن كل ما كنت أرغب فيه بحق هو أن آكل شيئًا ما، لم يسبق لي أن شعرت بالجوع الشديد هكذا قط، عندما مررت من أمام باب غرفة النوم، حيث تقضي أمي معظم يومها، كان بابها مفتوحًا، وهي نائمةٌ في سريرها، دخلت إلى غرفتها لأسألها إن كان يمكنني الحصول على شيء لأتناوله، هززتها وحاولت أن أوقظها، لكنها أصدرت أنينًا، واستدارت إلى الجهة الأخرى، وقالت: «دعني أنام يا آسا».

لا أحب نومها لفترات طويلة، لكنها تقول إنها لا تستطيع النوم جيدًا، لذا تتناول الكثير من الحبوب التي تساعدها على النوم بشكل أفضل. تقول إن الحبوب البيضاء مخصصةٌ لليل، ولكنها أحيانًا تأخذها عندما تكون الشمس في كبد السماء، لقد سبق ورأيتها تفعل ذلك.

لديها أيضًا حبوبٌ صفراء، ولكنها تعرِّفها بكونها حبوبها المميَّزة، تقول إنها تحتفظ بها من أجل الأيام التي ترغب فيها بالذهاب إلى مكان آخر في عقلها.

نظرت إلى زجاجة الحبوب خاصَّتها وتساءلت بيني وبين نفسي ما إذا كانت ستلاحظ لو أخذت واحدةً من الحبوب الصفراء، لأنني أرغب في الانتقال إلى مكان آخر داخل عقلي، لا أريد أن يظل عقلي محبوسًا داخل هذا المنزل بعد الآن.

التقطت زجاجة الحبوب الصفراء وحاولت مرارًا أن أفتحها، لكنني لم أستطع، لم أكن جيدًا جدًّا بالقراءة لأنني ما زلت في الصف الأول، ولكنني تمكنت أخيرًا من فهم التعليمات التي تشير إلى وجوب ضغط الغطاء إلى أسفل، ثمَّ فتله ليفتح.

عندما طبقت التعليمات فُتحت الزجاجة، نظرت إلى أمي، لكنها كانت تدير وجهها إلى الناحية الثانية، أسرعت وأخذت واحدةً من حبوبها الصفراء، ثمَّ وضعتها في فمي ومضغتها. تغضن وجهي، لأنٍ طعمها أقرف شيء سبق وتناولته، طعمها مُرٌّ للغاية، وقد جعلت فمي جافًا للغاية، شربت قطرة ماء من كوب أمي لكي أبتلعها.

آمل أن تكون أمي على حق، آمل أن تأخذني هذه الحبة إلى مكان آخر في عقلي، لأنني تعبت بحق من وجودي في هذه العائلة.

أعدت غطاء الزجاجة إلى مكانه، وتسللت خارجًا من غرفة أمي، وفي الوقت الذي وصلت فيه إلى الحمام لأستحم، بدأت أشعر وكأن ساقيَّ لمْ تعودا تنتميان إلى جسدي.

وكذلك ذراعيَّ، شعرت وكأنهما تحلِّقان في الهواء.

نظرت في المرآة بعد أن فتحت الصنبور المخصَّص لماء الاستحمام، وذلك لأنني شعرت أن شعري ينمو في تلك اللحظة، لكنه لم يبدُ أطول، بدا كما هو، إلا أنني شعرت به ينمو.

بدأ الوخز يصيب أصابع قدميَّ، وكذلك ساقيَّ أيضًا، وراودني شعورٌ بأنني على وشك أن أسقط، لذا سارعت بالجلوس في حوض الاستحمام، ونسيت أن أخلع ملابسي، ولكن لا بأس بذلك، لأن ملابسي متَّسخة بحق، وأعتقد أنها بحاجة إلى الماء أيضًا.

أتساءل كم مضى من الوقت وأنا تحت المنزل، لقد فاتني يومٌ مدرسيٌّ على الأرجح. في الحقيقة، لا أحب المدرسة إلى هذه الدرجة، لكنني أردت بشدَّة أن أذهب اليوم، لأرى ما الذي أعدته والدة برايدي له على الغداء.

يجلس برايدي إلى جواري على طاولة الغداء، وهو يُحضر صندوق طعام كل يوم. حزمت له أمه مرَّة قطعةً من كعكة جوز الهند، لم يكن يحب كعكة جوز الهند لذا أخبرني أنه يمكنني تناولها، ووجدتها لذيذةً للغاية، عندما عدت إلى المنزل أخبرت أمي كم كانت جيدة، لكنها لم تشترِ لي كعكة جوز الهند.

أحيانًا، تدوِّن والدة برايدي بعض الملاحظات، وتضعها في صندوق طعامه، يقرأ لنا كل الملاحظات ويضحك، لأنه يظنها غبية للغاية، لكنني لم أضحك يومًا عليها، فأنا لا أعتقد أنها ملاحظات غبية.

رأيت مرَّة إحدى الملاحظات التي رماها في سلة المهملات، فالتقطتها وقرأتها: «عزيزي برايدي، إنني أحبكَ! أتمنَّى لكَ يومًا جيدًا في المدرسة!»، مزَّقت الجزء العلوي من الملاحظة، الجزء الذي يحمل اسم برايدي، واحتفظت بها، متظاهرًا أن أمي قد كتبتها لي، وأحيانًا كنت أقرؤها. مرَّ بعض الوقت على هذا الآن، فقد أضعت الورقة مؤخرًا، ولهذا أردت الذهاب إلى المدرسة اليوم، آملًا بأن يكون برايدي قد حصل على ورقةٍ أخرى من أمه، لأسرقها وأتظاهر مجدَّدًا أنها لي.

أتساءل كيف سأشعر إن قال لي أحدهم هذه الكلمات.

إنني أحبك!

لم يسبق أن قال لي أحد هذا.

شعرت بالدوار، وكأن رأسي يطفو على السقف، وعيناي تنظران إلى الأسفل نحو جسدي، وأنا جالس في حوض الاستحمام. أتساءل إن كان هذا هو السبب الذي يجعل أمي تحب الحبوب الصفراء، لأنها تشعرها وكأن الأجزاء المهمَّة من جسدها تطفو عاليًا في الهواء، حيث لا يمكن لأحد أن يطالها؟

أغمضت عيني وهمست وأنا أحلِّق في الهواء، ودون أن أقصد أحدًا بعينه: «أحبكَ».

سأعثر على أحدهم يومًا ما، وسيُعجب بي كفاية ليقول لي هذه الكلمات. أريد أن يكون هذا الشخص فتاة، فتاة جميلة، فتاة لا يظنها والدي عاهرة.

إنه لأمرٌ لطيفٌ، ربما ستحبني بما فيه الكفاية لتحضِّر لي كعكة جوز الهند، فأنا بالفعل أحب كعكة جوز الهند.

إن عثرت يومًا على فتاة تقول لي هذه الكلمات، وتحضر لي كعكة جوز الهند، فسوف أحتفظ بها. لن أرميها كما يرمي برايدي الملاحظات التي تضعها له أمه.

سأحتفظ بها إلى الأبد، ولن أسمح لها بتركي أبدًا. وسأجعلها تخبرني أنها تحبني كل ليلة وتعِدني قائلةً: «أحبك يا آسا. لن أتركك أبدًا».

***

الفصل الثاني والأربعون

آسا

لم يسبق لي أن ارتكبتُ فعل القتل، ليس قبل عدَّة دقائق من الآن، عندما قتلت الرجل في الطابق العلوي لمحاولته أخذ ما ليس له.

ما زلت لا أستطيع تحديد شعوري حيال الأمر.

يجب على الأرجح أن أشعر بالقلق، لأن للقتل تداعياته، يجب أن أكون غاضبًا أيضًا، لأنني ما إن قتلت الرجل وجررت سلوان إلى هذه الغرفة، حتَّى تدافع بقيَّة الحمقى الذين وظَّفتهم لهذه المهمة.

أعتقد أنهم قد قلقوا من احتمال أن أرديهم قتلى هم أيضًا.

أظن أنني خائف قليلًا من تبعات فعلتي وهذا الهراء، في العادة عندما يُسمع صوت عيار ناريٍّ، يكلِّم أحدهم الشرطة، ممَّا يعني أنهم على الأرجح في طريقهم إلى هنا الآن، وذلك بفضل أحد الجيران الفضوليين اللعينين.

وهنا أشير إلى رجال الشرطة الحقيقيين، لا هؤلاء المزيفين الموجودين أمامي الآن.

أشعر بالخيبة لأن الأمر لم يسر كما خطَّطت له، لقد أطلقت النار على شاب واحد منهم دفاعًا عن النفس، ليتخلى البقية عن أداء واجبهم اللعين،

ويختفوا؟ تاركين جون وكفين ودالتون دون حراسة، ممَّا يعني، وعلى أقل تقدير، أن أحدهم سيطرق الباب، متسائلًا لماذا بحقِّ الجحيم قد تلاعبت بهم على هذا النحو.

وبالتالي... أنا في وضعٍ حرجٍ نوعًا ما، والخيارات المتاحة أمامي لأُخرج نفسي من هذا المأزق بدأت تتلاشى شيئًا فشيئًا. في الواقع، أعتقد أنه لم يبقَ أمامي سوى خيارٍ وحيدٍ؛ يجب أن أطلق النار على وجه لوك المتعجرف اللعين، وأخرج سلوان من هنا بينما ما يزال يمكنني ذلك. بالطبع، ستصاب بصدمةٍ، ولكن يمكننا أن نرى طبيبًا نفسيًّا، أو شيئًا من هذا القبيل عندما نستقر مجدَّدًا. ستكون بحاجة إلى علاجٍ نفسيٍّ بعد أن غُسل دماغها على هذا النحو.

إنه لأمر محزنٌ قليلًا، لم يبقَ أمامي سوى هذا الخيار، ويجب أن أنفِّذه خلال دقائق قليلةٍ، إذ كنت أرغب بأن أسمع لوك يروي لي حكاية مضاجعته لسلوان، وليست رغبتي هذه نابعة من كوني سأثار بالقصة، فأنا لستُ مهووسًا.

أريد أن أسمعها لأنني أحتاج إلى تصوُّر الأمر، أريد أن أعرف ماذا قال لها ليجعلها تستسلم له، يجب أن أعرف ما إن كان عليه أن يُقنعها بالأمر كما أفعل، يجب أن أعرف إن أخرجت الأصوات ذاتها التي تخرجها عندما تكون معي، أريد أن أعرف بأي وضعٍ ضاجعها، هل كان فوقها؟ أم كانت هي فوقه؟ هل كان خلفها؟

يجب أن أعرف هذه التفاصيل كي أحرص عندما أمارس الحب معها في المستقبل على ألا أقول، أو أفعل أي من الأشياء التي قالها أو فعلها. يجب أن أحرص على ألا أضاجعها مطلقًا بالوضعية ذاتها التي ضاجعها بها.

ولكن الآن قد نفد منِّي الوقت اللعين، فثمة من يطرق على الباب، وما يزال فم لوك مغلقًا.

- آسا!

إنه صوت دالتون.

لم أكوِّن بعد رأيًا واضحًا عن دالتون، إنه يعجبني بحق، فهو مثل الكوكايين، والجميع يحب الكوكايين، ولكن من المعروف عن هذا العقار أيضًا أنه من

أكثر العقارات قابلية للتقليد، وتجارته بمنزلة جحيم من الاحتيال، حيث يبيع تجار المخدِّرات حبوب الأسبرين المطحونة عند زوايا الشوارع للمدمنين شبه الغائبين عن الوعي، والذين لا يلاحظون الفرق بينها وبين الكوكايين.

قد لا يكون دالتون شبيهًا بالكوكايين حتَّى، بل هو على الأرجح زجاجة من دواء «أدفيل» اللعين، مسحوق ومعبَّأ في كيس.

صاح دالتون: «افتح الباب يا آسا!».

مددت يدي إلى الخلف، وتأكدت من أن الباب مقفل، وصحت قائلًا: «أين ذهب الجميع؟ إن المكان هادئ في الخارج!».

- افتح الباب لنستطيع التحدُّث.

لقد أصبح الآن خلف الباب مباشرةً. ضحكتُ، وكررت سؤالي: «أين الجميع يا دالتون؟ أين هما جون وكفين؟».

- لقد غادرا، أصابهما الهلع ورحلا.

بالطبع، اللعنة عليهما، صديقاي المفضَّلان مدى الحياة! أوغاد.

نظرت إلى سلوان، كانت تجلس عند رأس السرير، وركبتاها مشدودتان إلى صدرها، تراقبني بعينين مفتوحتين على اتساعهما. لوك يراقبني أيضًا. أينما وقفت، وكيفما تحرَّكتُ تتابعني عيناه، هذا هو الحال منذ اليوم الأول للقائي به، منذ اليوم الذي عرَّفني فيه دالتون عليه. أملت رأسي حتَّى أصبح فمي قريبًا من شقِّ الباب، وقلت: «لماذا ما تزال هنا يا دالتون؟ هل تنتظر وصول المساندة؟».

لم يجب دالتون في الحال هذه المرة، وبعد أن انتظر قليلًا قال: «إنني هنا لأن صديقي في الداخل. إن أطلقت سراحه سنرحل حالًا».

لا يمكنني أن أصدق أنني خدعت هكذا، بعد أن عشت أشهرًا مع هؤلاء الملاعين، وكل ما كانا يفعلانه هو محاولة تدميري.

أشعر وكأن طفولتي تعاد أمامي مرَّة أخرى.

على الأقل سلوان تحبني.

على الأقل.

مررت عيني عبر الغرفة إلى أن استقرتا عليها، وسألتها: «أتتذكرين عندما كنت في الحمام في وقت سابق اليوم، وسألتِني إن كنت أريد شيئًا من المتجر؟».

أومأت ولكن بالكاد كانت إيماءتها قابلة للملاحظة.

- أخبرتكِ أنني أريد الحلوى من أجل الاحتفال. هل أحضرتِ أيًا منها؟

أومأت مجدّدًا، وهمست: «حلواك المفضلة. كعكة جوز الهند».

أرأيتم؟ إنها تحبني فعلًا.

ناديت دالتون لأجذب انتباهه، وكأنه من الممكن أن يشتت ذهنه عنّي للحظة. يجب أن أتحرك، فهو تمامًا على الجانب الآخر من الباب، لن تخيب طلقته إن رماني بالرصاص من خلفه.

تنحيت من خلف الباب إلى خلف الجدار، ومددت يدي لأتأكد من أن الباب مقفل، وقلت له: «هلا أسديتني معروفًا؟ أحضر لنا كعكة جوز الهند».

توقف مجدّدًا دالتون للحظة، قبل أن يجيب بحيرةٍ: «أتريد كعكةً؟ اللعنة أتريد كعكةً؟».

لماذا يبدو له هذا الأمر سخيفًا للغاية؟

- أجل أريد كعكةً! أحضر لنا كعكة جوز الهند اللعينة أيها الوغد!

سمعت صوت خطوات دالتون وهي تتلاشى، بينما يشقُّ طريقه نحو المطبخ. وكان لوك يحدِّق إليَّ وكأنني فقدت عقلي.

- ألديك مشكلةٌ؟

هزَّ رأسه، وفتح فمه ليتكلم وأخيرًا: «ثمة علاج من شأنه أن يساعدك يا آسا».

علاج؟

- ما الذي تتحدث عنه بحقِّ الجحيم؟

نظر لوك إلى سلوان، ثمَّ إليَّ. أكره الأمر عندما ينظر إليها. فذلك يجعلني أرغب بأن أسحب عينيه اللعينتين من محجريهما، وأبتلعهما كما كنت أبتلع حبوب والدتي صفراء اللون.

قال لي: «لقد تحقَّقت من قفل الباب خمس عشرة مرَّة خلال الدقائق الخمس الأخيرة. وهذا ليس بالتصرُّف الطبيعي، ولكن يمكن السيطرة عليه، كما أن تصرف والدك كان بالإمكان التحكم به».

عندما قاطعت الوغد، وقلت: «أتحداك أن تأتي على ذكر والدي مجدَّدًا يا لوك».

حطَّت عيناه على المسدس الذي أصبح موجهًا إليه مباشرةً الآن، ولكنه ولسبب ما لم يغلق فمه بعد، حيث تابع: «هل تعلم أنه قد شُخِّص بمرض انفصام الشخصية منذ أن كان عمره سبعة وعشرين عامًا فقط؟ لقد قرأت هذا في ملفه. لم يكن يأخذ دواءه يا آسا، ولا حتَّى مرَّة واحدة. الأشياء التي تحدث داخل رأسك يمكن إيقافها. يمكن أن تتوقف جميعها، لا ينبغي لك أن تكون مثله».

خطوت قاطعًا الغرفة، وضغطت المسدس اللعين على رأسه، وقلت: «أنا لست مثله! أنا لا أشبهه في شيء!».

قبل أن أضغط على الزناد، طرق دالتون على الباب، وصاح: «كيف يفترض بي أن أعطيك الكعكة؟».

اللعنة! إنه سؤال جيد.

أخذت في المشي نحو الباب، لكن اختفت من داخلي الرغبة بكعكة جوز الهند عندما سمعت صوت صافرات الإنذار. كان الصوت بعيدًا، ربما على بعد أربعة أو خمسة شوارع من المنزل.

ما يزال أمامي وقت، لو أن هذه الغرفة اللعينة فيها نافذة، لكان بإمكاني أن أحضر سلوان، وأطلق النار على لوك، وأخرج من النافذة، وإلى السيارة قبل أن يصلوا إلى هنا.

ولكن ابن اللعينة دالتون يقف في طريقي. إن كان يقف عند الباب حاملًا الكعكة، فهذا يعني أنه على الأرجح يقف هنا... تقريبًا.

وجَّهت مسدسي، وما إن أطلقت النار شعرت بشيء صلب على ظهري. سقطت إلى الأمام، وارتطمت ركبتاي بالأرض، وسقط المسدس من يدي. نظرت خلفي، ورأيت لوك واقفًا فوقي، مرجعًا ساقه إلى الخلف، متأهبًا

ليركلني على الوجه. تدحرجت على جانبي، وسحبت ساقي على الأرض، مخلًا بتوازنه. سقط على ظهره، وفي الحال حاول أن يمرِّر ساقيه عبر ذراعيه، لتصبح يداه مكبلتَيْن أمامه لا خلفه. جلست ومددت يدي لأمسك بالمسدس، لكن سلوان قفزت عن السرير، واندفعت عبر الأرض. وصلت يد كل منا إلى المسدس في الآن ذاته، ولكنني أكثر خبرةً منها، وأعرف من أين يجب أن أمسك به لأحظى بأفضل وضعية إمساك ممكنة. راحت يداها تتحسَّسان يدي إلى أن استوعبت أن المسدس قد أصبح بين يدي على نحو مؤكد. دفعتها بعيدًا عني، معيدًا إياها إلى الزاوية اللعينة.

اصطدمت بالحائط، وابتعدت عنِّي بقدر ما تستطيع. في الوقت الذي وجهت فيه مسدسي نحو لوك، كان اللعين قد تمكَّن بطريقة ما من جعل يديه مكبلتين أمامه، كان يسحب نفسه ليقف على قدميه، لذا تقدَّمت خطوةً إلى الأمام، وضغطت على الزناد اللعين، وراقبت لحم فخذه وهو يتمزَّق إلى قطعٍ صغيرةٍ.

اللعنة، يبدو الأمر مؤلمًا.

إنه راكعٌ على ركبتيه.

ظهره مسنود إلى الجدار، وجهه متغضِّنٌ، وهو يضغط يديه على الجرح. بدأ دالتون يقرع الباب الآن وهو يقول: «افتح الباب اللعين يا آسا، وإلا سأطلق النار عليه ليُفتح! ثلاثة... اثنان...».

- إن فتحت هذا الباب، اعتبرهما هما الاثنان أمواتًا!

لم يصل دالتون بالعد إلى الرقم واحد.

نظرت إلى سلوان، كانت متكوِّمةً على الجدار، تغطي أذنيها بيديها، والدموع تنهمر من عينيها. كانت تحدِّق إلى لوك، وتبدو على وشك أن تفقد صوابها. يجب أن أخرجها من هنا قبل أن تصاب بالجنون، ولكن صوت صفارات الإنذار قد أصبح قريبًا الآن. على الأرجح في هذا الشارع نفسه.

اللعنة.

فكر يا آسا، فكر.

ضربت مسدسي بجبيني ثلاث مرَّات، لا يمكنني أن أخسرها، لا يمكنني ذلك. إن اعتقلت لن أستطيع حمايتها، لن أتمكن من لمسها، قد تقع ضحية كذب شخص آخر، ربما لوك مجدَّدًا.

إنها الشخص الوحيد الذي أحبني يومًا، لا يمكنني أن أخسرها. لا يمكنني.

زحفت نحوها، وحاولت أن أمسك يديها، لكنها ظلت تتراجع مبتعدةً عني، يجب أن أوجِّه المسدس اللعين إلى رأسها، كي أجعلها تقف في مكانها، ضغطت جبيني على جانب رأسها، وقلت لها: «أخبريني أنكِ تحبيني يا سلوان».

كانت ترتعش بشدَّة، حتَّى أنها لم تتمكن من الكلام.

- أرجوكِ يا حبيبتي، أحتاج أن أسمعها منكِ.

حاولت أن تتكلم ثلاث مرَّات، لكنها ظلت تتلعثم، كانت شفتاها ترتعشان بشدَّة، بطريقة لم يسبق لي أن رأيت مثلها، وتمكنت أخيرًا من النطق بجملةٍ واحدةٍ: «أطلق سراح لوك، وسوف أقولها».

شددت قبضتي على المسدس، ومررت يدي الأخرى في شعرها، وقبضته بقوَّة، هل تحاول أن تفاوضني من أجله؟

أخرجت نفسًا من فتحتي أنفي، إذ إن فكي كان مشدودًا بقوَّة بحيث لا يمكن حتَّى للهواء أن يمر عبر فمي. عندما تمكنت من تهدئة نفسي بما يكفي لأستطيع الكلام، صررت على أسناني، وهمست: «إنك تحبينني، أليس كذلك؟ أنت لا تحبينه. أنتِ تحبينني أنا».

تراجعت إلى الخلف لتلتقي عيناي بعينيها المتحجِّرتين، رفعت ذقنها وقالت: «سأجيب على سؤالك هذا بعد أن تطلق سراحه. إنه بحاجة إلى طبيب يا آسا».

طبيب؟ إنه ليس بحاجة إلى طبيب، بل إلى معجزةٍ لعينةٍ.

- لا أريد أن تجيبي على السؤال، فأنا أشعر أنني لو قتلته سأعرف كيف تشعرين تجاهه بناءً على رد فعلك.

اتسعت عيناها، وبدأت تهز رأسها في الحال، ونطقت قائلةً: «لا أظن ذلك. أرجوك لا تقتله، ذلك سيصعِّب الأمور عليك. إنني أحبك يا آسا. أرجوك لا تقتل شخصًا آخر».

كنت أحدِّق إليها مباشرةً، وأنقل بصري بين عينيها الاثنتين، من الصعب أن أرى أي حقيقة فيهما، لأن كل ما أراه هو القلق على لوك مرسومًا على وجهها بالكامل. قلت لها: «لا تقلقي يا سلوان. فهو على الأرجح يرتدي سترةً واقية من الرصاص».

أدرت رأسي ورفعت المسدس، ووجهته إلى صدر لوك مباشرةً، وحررت الرصاصة. ارتعش جسد لوك بأكمله على الجدار، وارتفعت يده إلى صدره في اللحظة التي بدأ فيها الدم ينبثق من بين أصابعه، وسقط في الحال متعثِّرًا على جانبه.

- أوه، إنه خطئي. لقد أخطأت.

سلوان تصرخ. تصرخ باسمه اللعين، تصرخ قائلةً لا، تصرخ قائلةً ما الذي فعلته، تصرخ باسمه مجدَّدًا، تصرخ، وتصرخ، وتصرخ.

اللعنة إنها تصرخ.

وتنحدر من عينيها دموع قذرة.

من أجله.

أمسكتها من ذراعيها الحقيرتين ورفعتها، ورميتها مجدَّدًا على السرير، أرجحتها بينما كانت تغطي رأسها وتصرخ بصوت أعلى حتّى، والدموع تنهمر على وجهها.

- لماذا بحقِّ الجحيم تصرخين يا سلوان؟ لماذا؟

بإمكاني سماع صوت والدي يتردَّد في رأسي؛ عاهرة، عاهرة، عاهرة. صفعت جبيني لأوقفه.

توقف، كفى، توقَّف.

إنها لا تحبه، إنها تحبني أنا، وإلى الأبد.

قلت ووجهي يتلوَّى من الألم: «أنتِ لا تحبينه يا سلوان. أنتِ لا تحبينه، لقد تلاعب بعقلك فقط».

أمسكت خديها، وقرَّبت شفتيَّ من شفتيها، حاولت أن تبتعد عني، حاولت أن تقاومني. وصرخت: «أجل! إنني أحبه، إنني أكرهك. أحبه، وعليك اللعنة إنني أكرهك!».

سوف تندم على هذا، ستندم على هذا أكثر من أي شعور ندم سبق وخالجها طوال حياتها اللعينة عديمة القيمة. إن كانت تعتقد أنها حزينة لرؤيتها هذا الوغد يموت، فلتنتظر لتراني أموت.

إنها بالكاد تعرفه، وقد أحبتني لسنتين لعينتين كاملتين! سوف يدمِّرها موتي، ستبكي بحرقة، ولن يكون في صدرها ما يكفي من الهواء لتقول إنها تكره أحدًا.

عاهرة، عاهرة، عاهرة.

صفعت جبيني بيدي مجدَّدًا، ثمَّ ضغطت جبيني على جبينها، لم تعد تصرخ الآن، بل تبكي فقط بطريقة لا يمكن السيطرة عليها.

- سوف تندمين على هذا يا سلوان، أتظنين أنكِ تبكين بحرقةٍ الآن؟ عندما أموت سيقتلك ذلك. سوف. يقتلك. مَوتي.

راحت تهز رأسها إلى الخلف والأمام، وهي تتكلم عبر دموعها: «لقد فات الأوان على قتلي يا آسا، لقد قتلتني منذ زمن طويل».

إنها تهلوس.

إنها تهذي وتهلوس.

ضحكت عارفًا إلى أي مدى سيغضبها ضحكي، ضحكت، عارفًا إلى أي مدى ستندم على كل ما قالته لي الآن. أتمنَّى لو بإمكاني أن أكون حاضرًا لأراها عندما تدرك ماذا أعني لها. كم فعلت من أجلها. كيف ستكون حياتها من دوني.

ألصقت فمي بشفتيها المرتعشتين.

قربت المسدس إلى جانب رأسي، وضغطت الـ...

***

الفصل الثالث والأربعون

لوك

أتعرفون كيف يبدو الموت؟

لا. لا تعرفون، لأن أحدًا لم يعد منه ليخبرنا كيف يبدو. الأشخاص الذين ماتوا لم يعودوا موجودين حولنا ليخبرونا كيف تشعر عندما يحدث الأمر. الأشخاص الباقون على قيد الحياة لم يسبق أن ماتوا، لذا لا قدرة لهم على وصف الأمر.

لكنني الآن في قلب الموت، لذا دعوني أخبركم عنه، ما دام ما يزال في مقدوري ذلك.

ثمة لحظةٌ، أجزاءٌ من الثانية، قبل أن تُغلِق عينيك للمرَّة الأخيرة، حيث يمكنك أن تشعر بنفسك وأنت تعانق الموت.

يمكنك أن تشعر بنبضات قلبك وهي تتباطأ، في طريقها إلى التوقُّف.

يمكنك أن تشعر بتوقف دماغك عن العمل، وانغلاق الدارات العصبية فيه كما تنغلق الأبواب.

يمكنك أن تشعر بانطباق جفنيك، مهما حاولت بشدَّة أن تبقي عينيك مفتوحتين، وتدرك أنه أيًا كان الشيء الذي تنظر إليه في اللحظة التي تغلق فيها عينيك، سيكون الشيء الأخير الذي ستراه أبدًا.

رأيت سلوان. هي كل ما أراه.

رأيتها تصرخ.

رأيت آسا يرفعها ويرميها على السرير.

رأيتها تحاول أن تقاتله.

رأيتها تستسلم.

ولهذا رفضت أن أغلق عينيَّ.

أخفضت نظري لأرى الدم المتدفق من صدري، لأرى الحياة تتسرب من داخلي وتسيل على الأرض. لقد ارتكبت من الأخطاء ما يكفي لأتسبَّب بوضع سلوان في الحالة التي هي فيها الآن، وأرفض أن أموت قبل أن أصحِّح بعض هذه الأخطاء.

تطلَّب الأمر كل ما لدي من القوَّة، لكنني مددت يديَّ، إلى أن تمكنت من الوصول إلى المسدس الملقى عند كاحلي، هناك دماء تغطِّي يديَّ بالمطلق، لذا وجدت صعوبةً في الإمساك بالمسدس، ولكنني أخيرًا تمكنت من ذلك. ربما لا أكون محترفًا في العديد من جوانب مهنتي، لكنني أتمتَّع بقُدرة على التصويب لا تخيب.

في اللحظة التي رفعت بها مسدسي، صوّب آسا مسدسه إلى رأسه.

من غير الممكن أنه قرر الاستسلام بهذه السهولة.

رفضت أن أغلق عينيَّ، وأنا ألف إصبعي حول الزناد وأضغط عليه، مراقبًا الرصاصة وهي تخترق معصمه، رامية مسدسه بعيدًا عنه في الغرفة.

رفضت أن أغلق عينيَّ، عندما اخترق صوت ثلاث رصاصات أخرى أذنيَّ، وهو آتٍ هذه المرَّة من ناحية باب غرفة النوم.

رفضت أن أغلق عينيَّ، وأنا أرى رايان يركل الباب ويدخل على عجل برفقة العديد من الرجال الآخرين.

رفضت أن أغلق عينيَّ إلى أن رأيت آسا على الأرض، على بعد عدَّة أقدام من سلوان، وقد كُبِّلت يداه.

رفصت أن أغلق عينيَّ إلى أن التقيتا بعينيَّ سلوان.

لقد نزلت عن السرير، وعبرت الغرفة، وها هي راكعة قربي على ركبتيها، تضغط يديها على صدري، تفعل كل ما يمكنها لتمنع ما تبقى من الحياة في داخلي من أن يتسرب مني.

ليس لدي من الطاقة ما يكفي حتَّى لأخبرها بأن الأوان قد فات.

أغلقت عينيَّ للمرَّة الأخيرة.

ولكن لا بأس بذلك، لأنها كل ما أرى.

إنها آخر شيء سأراه أبدًا.

***

الفصل الرابع والأربعون

سلوان

هذا الشعور ليس جديدًا عليَّ. لقد سبق وعشت تجربة موت شخص أحبه من قبل. اختبرت الفظاعة، وألم القلب، وتحطُّم الروح بعد الموت.

حدث ذلك قبل شهرٍ من بلوغي سن الثالثة عشرة.

كان لديَّ أخان توأم؛ ستيفن، ودرو. وقد أصبحت باكرًا الشخص المسؤول عن رعايتهما عمليًا. كلٌّ من أخويَّ كان لديه الكثير من المشكلات الصحيَّة، لكن أمي اعتادت أن تغادر المنزل طوال ساعات الليل، بغض النظر عن حاجاتهما. وتبذل أحيانًا بعض الجهد المفاجئ لتكون الأم التي ينبغي لها أن تكون، كأن تأخذهما لزيارة الطبيب ليحصلا على العلاج الذي يحتاجانه لتقنع الحكومة أنها أم رؤوم، لكنها بعد ذلك تترك مسؤولية العناية اليومية بهما لي، في حين تذهب إلى الحفلات، أو تفعل أيًا كان ما تفعله حتَّى الساعات الباكرة من الصباح.

كان أخواي في رعايتي في الليلة التي فارق فيها درو الحياة. لا يمكنني تذكر كل التفاصيل، لأنني أحاول ألا أفكر بتلك الليلة كثيرًا، لكنني أتذكر سماعي صوت سقوطه في غرفة النوم. اعتدنا أن تصيبه نوبات على نحو

متكرر، وقد علمت أن ما حدث له كان أكثر من مجرَّد نوبةٍ عادية، لذا ذهبت إلى غرفته لأطمئن عليه.

عندما فتحت الباب، رأيته مرميًّا على الأرض، وجسده برمته يرتعش من النوبة، خررت على رُكبتيَّ، وضممته بكل ما لدي من قوَّة، ولكن منذ أن بلغ سن العاشرة، بدأت أجد صعوبةً في مساعدته، بسبب ضخامة جسده، إذ أصبح هو وستيفن أكبر حجمًا منِّي بالفعل. فعلت كل ما بوسعي، وأمسكت رأسه إلى أن انتهت النوبة.

لم ألاحظ الدم إلى أن انتهت النوبة نهائيًّا، كان منتشرًا على يديَّ بالكامل، وعلى ملابسي. أصابني الهلع عندما رأيت الجرح على جانب رأسه، وكانت الدماء في كل مكان.

عندما سقط بفعل النوبة، خبط رأسه بمفصلات الباب في أثناء سقوطه. لم نملك هاتفًا، لذا أُجبرت على تركه وحيدًا في الغرفة، وهرعت إلى منزل الجيران لأتصل بالإسعاف.

عندما عدت، لم يكن يتنفس. لست واثقةً من أنه قد تنفَّس نفسًا واحدًا منذ اللحظة التي تركته فيها، لم أعلم حينها الوقت الذي توفي به نتيجة انفجار رأسه، ولكنني أدرك الآن أنه على الأرجح قد فارق الحياة قبل أن أتصل بالإسعاف حتَّى.

تغيرتُ بعد هذه الليلة. فقبلها، كنت ما أزال أحتفظ ببصيص أملٍ في حياتي، ولديَّ يقين أنه ما من أحد يمكن أن يكون ملعونًا ليحظى بوالدين كوالديَّ وهو طفل، ثمَّ يكبر ليعيش مراهقةً، وسن بلوغ بنفس الدرجة من الفظاعة. حتَّى هذه اللحظة، اعتقدت أن حياة كل منا تقوم على التوازن بين الجيد والسيئ، وأن الفارق الوحيد بين شخص وآخر يكمن في اختلاف توزيع الحظ الجيد والسيئ على مراحل ولحظات حياته. وقد داعب قلبي أملٌ بأنني نلت نصيبي كاملًا من الحظ السيئ في مراحل مبكرةٍ من حياتي، وأن الأمور ستسير على نحو أفضل من الآن وصاعدًا.

لكن هذه الليلة غيَّرت طريقة تفكيري. كان يمكن أن يسقط درو في أي مكان من الغرفة غير الذي سقط به. في الحقيقة، قال الطبيب إن موضع

إصابته كان ضئيل الاحتمال، فلو سقط على بعد ستة سنتيمترات فقط يسارًا أو يمينًا لنجا.

ستة سنتيمترات، هي التي انتزعت الحياة من جسد درو.

الإصابة في صدغه قتلته في الحال تقريبًا، وأصابني الهوس بهذه السنتيمترات الستة لعدة أشهر، لوقتٍ أطول من فترة تظاهر أمي بحزنها عليه. ألمَّ بي هذا الهوس لأنني علمت أنه لو سقط على بعد ستة سنتيمترات إلى اليسار أو اليمين، كان سيشار إلى نجاته على أنها «معجزة». لكن ما حدث لدرو كان النقيض تمامًا للمعجزة، كان حادثًا مأساويًّا.

حادثٌ مأساويٌّ جعلني أفقد إيماني بالمعجزات جميعها. في الوقت الذي بلغت فيه سن الثالثة عشرة أصبح أي شيء يشار إليه بكلمة «معجزة» يغضبني بشدَّة.

هذا واحد من الأسباب الرئيسية التي تبعدني عن الانخراط في عالم وسائل التواصل الاجتماعي، فكمية الأشياء التي يشار إليها على أنها «معجزة» في الأخبار التي تظهر على صفحة فيسبوك الخاصة بي، يمكن أن تجعل عيني حرفيًّا تتدحرج خارج رأسي. إذ تجد العديد من الأشخاص يكتبون أنهم قد شفوا من السرطان بفعل صلوات أصدقائهم على فيسبوك. «إنه ورم حميد! الحمد لله! لقد تلطَّف الله بي!».

مرَّت عليَّ الكثير من المرَّات التي وددتُ فيها أن أمدَّ يدي عبر حاسوبي المحمول، وأمسك هؤلاء الأشخاص من أكتافهم، وأصرخ بهم: «أنتم! احذروا ماذا! أنتم لستم مميزين!».

يموت الكثير من الناس بسبب السرطان، أين كانت معجزاتهم؟ ألم يصلي لهم أصدقاء فيسبوك بما فيه الكفاية؟ لماذا لم تفلح علاجاتهم الكيميائية؟ ألأنهم لم ينشروا ما يكفي من دعوات الصلاة على وسائل التواصل الاجتماعي الخاصة بهم؟ لماذا لم يحصلوا على المعجزات التي يريدونها؟ هل يفكر الله بحياتهم أقل ممَّا يعطي أهمية لحياة أولئك الذين أشفق عليهم؟

لا.

أحيانًا يكون السرطان قابلًا للعلاج، وأحيانًا لا. أحيانًا يخبط الناس رؤوسهم ويموتون، وفي معظم الأحيان يخبطون رؤوسهم وينجون. كل ما تسمعه عن شخص خالف التوقعات... فهذا كل ما في الأمر؛ خالف التوقعات.

ولأن الناس لا يفكرون حقًّا بكيفية حدوث الأمر، ومن أجل مخالفة التوقعات، تقع العديد من الوفيات غير السارة في سبيل تحقيق نجاةٍ واحدةٍ «خارقة للعادة».

ربما قسَّى موت درو قلبي بحيث لم أعد أتقبَّل فكرة المعجزات، ففي عقلي، إما أن تنجو وإما لا. لا تتعلق رحلتك منذ الولادة وحتّى الموت بأي شكل من الأشكال بالمعجزات، وعدد الصلوات التي تضرعت بها، أو المصادفات، أو التدخل الإلهي.

أحيانًا لا تكون رحلة الشخص منذ لحظة الولادة الأولى إلى الموت جزءًا من خطة عظمى. أحيانًا تكون المسافة الفاصلة بين نَفَسِكَ الأخير وموتك هي ما يقارب ستة سنتيمترات فقط.

لهذا عندما دخل الطبيب إلى غرفة الانتظار ليطلعني على حالة لوك، تعيَّن عليَّ أن أجلس عندما قال: «لو أن الرصاصة أصابته على بعد ستة سنتيمترات فقط إلى اليمين أو اليسار من مكانها الحالي، لفارق لوك الحياة لحظتها. الآن كل ما بوسعنا أن نفعله هو أن نصلي لله كي تنقذه معجزة».

لم أستطع أن أخبر الطبيب أنني لا أومن بالمعجزات.

سينجو لوك... أو سيفارق الحياة.

***

قال رايان: «يجب أن تذهبي وتحضري القهوة، لتحرِّكي ساقيكِ قليلًا».

خرج لوك من الجراحة قبل قرابة ثماني ساعات. لقد خسر الكثير من الدماء، وكان بحاجة إلى أن ينقلوا له دمًا، وقد رفضت أن أبارحه من وقتها.

هززت رأسي وقلت: «لن أغادر قبل أن يستيقظ».

تنهد رايان، ولكن عرف أنه لن يستطيع أن يثنيني عن قراري، مشى باتجاه الباب، وقال: «سوف أحضر لكِ القهوة إذَنْ».

راقبته وهو يغادر الغرفة، لقد ظل في هذا المستشفى طوال فترة وجودي هنا، على الرغم من أنني أعرف أن هناك بعض الأمور المتعلقة بالعمل التي يجب أن يقوم بها الآن. كأن يعطي أقواله حول ما حدث في الليلة الماضية، ويأخذ الأقوال، ويتعامل مع قاتل، ومع اعتقال، ومحاولة قتل.

لم أرهم البتَّة عندما أخرجوا آسا من غرفة النوم في الليلة الماضية، لأنني كنت قلقة جدًّا على لوك، ولم أهتم بما يمكن أن يحدث لآسا. لكنني كنت أسمعه طوال الوقت وأنا أضغط على صدر لوك، منتظرةً وصول الإسعاف، كان آسا خلفي يصيح: «دعيه يموت يا سلوان! إنه لا يحبك! أنا أحبك! أنا من يحبك!».

لم أستدر مطلقًا لأعترف بوجوده أو بكلماته، بل تابعت المحاولة لمساعدة لوك بينما سحب رجال الشرطة آسا من غرفة النوم. وكان آخر ما سمعته يقوله هو: «إنها كعكتي اللعينة! دعوني آخذ كعكة جوز الهند اللعينة خاصَّتي!».

لا أعلم ماذا سيحدث تاليًا مع آسا، إنني متأكدة من أنه سيخضع إلى محاكمةٍ ما، لكنني صراحةً لا أرغب أن أشهد في المحكمة. أخشى إن شهدت أن ينجو بأسهل ممَّا يجب. لأنني يجب أن أكون صريحةً، وأن أخبرهم بكل الأشياء التي لاحظتها على تصرُّفاته، ولا سيَّما التغيُّرات الحادَّة في الأسابيع الأخيرة. إن الأمر واضح لكل من يعرفه، حيث بدأت تظهر عليه أعراض الإصابة بانفصام الشخصية، وهو المرض الوراثي ذاته الذي عانى منه والده. ولكن إن سارت القضية على هذا النحو فعلى الأرجح سيحكم عليه بالإقامة في مصحَّة عقلية مكثَّفة الحراسة لا في السجن.

وعلى الرغم من أنني أريده أن يحصل على المساعدة والعلاج لما يمر به، إلا أنني أريده أيضًا أن يدفع ثمن أفعاله. أريده أن يدفع ثمن كلِّ فعلٍ قذر سبق واقترفه، أريده أن يعاني نتيجة أفعاله إلى الأبد. في السجن، ليتعفن هناك مع رجال على الأرجح يفوقون درجة الشر التي سبق وحلم بها حتَّى بما يعادل الضعف.

قد يجد البعض أن قولي هذا يندرج ضمن إطار القسوة، أما أنا فأدعوه ببساطة: كارما (عاقبة أخلاقية).

أمسكت ذراعاي كرسيَّ، وهمست دون أن أوجِّه كلامي لأحد: «لقد انتهيت من التفكير بك يا آسا جاكسون».

وقد انتهيت بالفعل، إذ أخذ جزءًا كبيرًا من حياتي بالفعل، والآن أريد فقط أن أصب تركيزي على المستقبل، على ستيفن ولوك.

هناك أنابيب وأسلاك وحقن وريدية موصولة بجسد لوك، ولكنني -بطريقة ما- ما يزال بإمكاني أن أجد منطقة على سريره يمكنني أن أجلس بها إن تكوَّرت على نفسي بالطريقة الصحيحة. زحفت إلى السرير بقربه، ولففت ذراعي حوله، وأرحت رأسي على كتفه، وأغلقت عينيَّ.

بعد مرور عدَّة دقائق، أيقظني صوت رايان من إغفاءتي، قائلًا: «قهوة».

فتحت عينيَّ، ووجدته جالسًا على الكرسي بالقرب من السرير، مادًّا يده لي بكوب القهوة، إنه على الأرجح الكوب الخامس الذي أتناوله منذ أن خرج لوك من الجراحة، ولكنني واثقة تمامًا أنني على استعداد لتناول مليون كوب آخر إن تطلب استيقاظه هذا الوقت.

أرجع رايان ظهره على كرسيه، ورشف من كوبه، ثمَّ أمسكه بيديه كلتيهما، وانحنى إلى الأمام، وسألني: «هل سبق وأخبركِ كيف التقينا؟».

هززت رأسي بالنفي.

يمكنني أن أرى ابتسامة حنين بدأت تظهر على شفتَي رايان، وقال وهو يهز رأسه: «لقد كُلِّفْنا بمهمةٍ معًا قبل مدةٍ، حيث كشف عن هويته الحقيقية منذ اليوم الثاني لوجودنا في مكان المهمة. غضبت منه بشدَّة، لكنني فهمت السبب الذي دفعه لذلك. لا يمكنني أن أحكي لكِ كل التفاصيل، ولكن لو أنه لم يكشف عن نفسه لحظتها لفقد طفلٌ صغيرٌ حياته. ولن يستطيع لوك أن يسامح نفسه لو حدث ذلك. عرفت لحظتها أنه من أصحاب القلوب التي لا تناسب وظيفةٍ كهذه، ولكن بمقدار غضبي منه، احترمته كثيرًا بسبب ما فعله. لقد اهتم بحياة طفل لا يعرفه حتَّى، أكثر من اهتمامه بوظيفته ذاتها. وهذا الفعل ليس طفرةً في تصرفاته يا سلوان، بل هذه هي شخصيته. إنني واثقٌ من أن هذه الخصلة تُدَعى التعاطف».

قال ذلك غامزًا.

رسمت قصة رايان ابتسامةً على وجهي بعد أن مضى وقت طويل عليَّ منذ أن ابتسمت هكذا. همست له: «هذا أكثر الأمور إثارةً فيه؛ تعاطفه».

هزَّ كتفيه قائلًا: «لا أدري... لديه مؤخَّرة رائعة».

ضحكت، إذ لا أعرف ذلك، فالمرة الوحيدة التي رأيته فيها عاريًا كان جالسًا.

وضعت قهوتي على الطاولة المجاورة للسرير، ثمَّ انحنيت وطبعت قبلةً على فم لوك. لقد أصبحت حريصة على تقبيله في كل مرَّة يتاح لي ذلك، فربما لن أحظَ مستقبلًا بالكثير من الفرص.

عندما أبعدت شفتي عن شفتيه، وبدأت بوضع رأسي على وسادته، سمعت صوتًا خفيفًا يصدر من حنجرته. قفز رايان عن كرسيه في اللحظة ذاتها التي أعدت فيها رفع رأسي. وسألني بنبرة مليئة بعدم التصديق: «هل أصدر صوتًا للتو؟».

- أعتقد ذلك!

لوح رايان بيديه ناحية لوك، وقال: «قبِّليه مجدَّدًا! أعتقد أن قبلاتكِ توقظه!».

فعلت ذلك، قبَّلتُ شفتيه برقة، وهذه المرَّة لم تترك الضجة التي أصدرها مجالًا للشك، إنه بلا شك يستيقظ. حدق كلانا إليه، بينما راح يفتح جفنيه ويغلقهما عدَّة مرات، وسأله رايان: «لوك؟ أيمكنك سماعي؟».

وأخيرًا فتح لوك عينيه بالقوَّة، لكنه لم ينظر مباشرةً إلى رايان، بل عوضًا عن ذلك تحرَّكت عيناه بألم في أرجاء الغرفة إلى أن وقع نظره عليَّ، وأنا متكوِّرةٌ إلى جانبه. حدَّق إليَّ للحظة، ثمَّ همس بصوتٍ ضعيفٍ: «ترى أبازيم حزام المشكال الجني عندما أسقطه الضباب وكأنه حارٌّ».

تشكَّلت الدموع داخل عينيَّ في الحال، واضطررت إلى ابتلاع رغبتي بالبكاء. قال رايان: «أوه يا إلهي! إنه يتفوه بأشياء غير منطقية، وهذا ليس بالأمر الجيد. سأذهب لإحضار الطبيب».

خرج جاريًا من الغرفة قبل أن أتمكن من إخباره أن لوك على أحسن ما يرام.

رفعت يدي إلى وجه لوك، ولمست شفتيه، وهمست: «يظل الرغيف المكتئب في الملعب يأكل أوعية الحبوب إلى أن تذبل البزاقات».

تهدَّج صوتي بفعل شعور الراحة الذي اعتراني، بفعل سعادتي، وامتناني. التقت شفتاي بشفتيه، على الرغم من معرفتي بأن هذا ليس جيدًا له، وأنه على الأرجح يعاني الكثير من الألم، إلا أنني احتضنته في كل مكان تمكَّنت منه، وقبلته في كل الأماكن التي تمكَّنت من الوصول إليها في وجهه وعنقه. لففت نفسي حوله، متوخية الحذر بإبقاء يدي وذراعيَّ بعيدًا عن مواضع إصابته. استلقيتُ بصمت قربه، بينما كانت دموعي تنحدر على خدَّيَّ.

قال بصوتٍ أجش: «سلوان، لا أستطيع تذكُّر ما حدث بعد أن خرَّبتُ كل شيء. هل انتهى الأمر بكِ لإنقاذي؟».

ضحكت ورفعت جسدي بالاستناد إلى مرفقي، وقلت: «ليس حقًّا. لقد أطلقت النار على يد آسا لتنتزع منه المسدس، ثمَّ جريت بعدها أنا وضغطت بيدي على جرحك إلى حين وصول الإسعاف. يمكنني القول إنه كان إنقاذًا متبادلًا».

حاول أن يجبر الابتسامة على الظهور على شفتيه، وقال: «سبق وأخبرتكِ، لا أجيد القيام بعملي على نحو ممتاز».

ابتسمت بموافقة تامة على كلامه، وقلت له: «أتعلم، لم يفت الأوان بعد لتستقيل. يمكنك أن تعود لمتابعة تعليمك، وتصبح مدرِّس لغة إسبانية».

غمز لي ضاحكًا، وأجاب: «إنها ليست فكرةً سيئةً يا سلوان».

كافح لينحني إلى الأمام كي يقبلني، ولكن ذلك تطلَّب كل ما يملك. إنه على بعد ستة سنتيمترات فقط.

قرابة ستة سنتيمترات تفصل بين الموت والحياة.

عندما اقتربت منه، وسددت فجوة السنتيمترات الستة هذه، وقبَّلته، علمت أنني أغلق فصلًا. فصلًا داكنًا بحق، كنت أنتظر أن ينتهي لأكثر من سنتين. وهذه القُبلة هي البداية فقط لكتاب جديد بالمطلق، كتاب حيث ثمَّة احتمال أن المعجزات ليست مجرَّد ضربٍ من الخيال.

***

الفصل الخامس والأربعون

آسا

جلست باستقامة، وفتحت عينيَّ، ليس وكأني كنت نائمًا، لا أحد يستطيع النوم في هذا المكان المزري، سحبت نفسًا بأنفي وأخرجته من فمي، متسائلًا لماذا لم أستوعب الأمر إلا في هذه اللحظة؛ لم تقل «أقوى harder»، اللعنة.. بل قالت «كارتر»! عاهرة لعينة!

***


النهاية

خاتمة

سلوان

طرقت بخفَّةٍ بابَ غرفة المستشفى الخاصَّة به، ولكن لم يجبني أحد. عندما فتحت الباب وولجت إلى الداخل، وجدت لوك نائمًا. كان صوت التلفاز منخفضًا لكنه مسموع، نظرت إلى الأريكة ورأيت رايان مستلقيًا على جانبه، مغطِّيًا عينيه بقبعةٍ رياضية، نائمًا.

أمسكت الباب في أثناء انغلاقه، كي لا أوقظ أيًّا منهما، ولكن رايان سمع حركتي، وجلس على الأريكة، ثمَّ مدَّد يديه فوق رأسه، وتثاءب، ووقف قائلًا: «مرحبًا. هل ستبقين هنا لفترةٍ؟».

أومأت، وهمست: «على الأرجح سأبقى هنا الليلة. اذهب واحصل على بعض الراحة».

نظر مجدَّدًا نحو لوك، وقال: «مرَّ الطبيب باكرًا، وقال إنه سيخرجه إلى المنزل غدًا، لكنه سيكون بحاجة إلى شخص يبقى معه لفترة. سيكون في مرحلة عليه فيها الالتزام بالراحة في السرير، كنت لأعرض خدماتي، لكنني على ثقة من أنه يفضل أن تقومي أنتِ برعايته».

وضعت حقيبتي على الأريكة، وقلت: «لا بأس بذلك. يمكنني البقاء معه إن كان هذا جيدًا بالنسبة إليه».

أجاب لوك من سريره: «هذا ممتاز بالنسبة إليَّ».

نظرت باتجاهه، وكان يبتسم لي بكسل.

ضحك رايان، وقال: «سأمر عليكما في الصباح بعد اجتماعي مع يونغ».

أومأ لوك، ثمَّ أشار إليَّ، وقال: «تعالي إلى هنا».

مشيت باتجاهه ما إن غادر رايان الغرفة، وكما في كل مرَّة سابقة زرته فيها، أفسح لي مجالًا للاستلقاء بقربه. لففت ساقيَّ حول ساقيه، وذراعيَّ حول صدره، وأرحت رأسي على كتفه. سألني: «كيف حال أخيكِ؟»

- جيد. جيد جدًّا، يجب أن تذهب معي لرؤيته قريبًا إن كنت ترغب بذلك، لقد ظل ينظر إلى الباب، وكأنك ستدخل منه، لذا علمت أنه أُصيب بالإحباط لأنك لم تكن معي.

شعرت بالضحكة الخفيفة في صدر لوك، وأجابني: «حاولت أن أتسلل وأذهب معك اليوم، لكن ثمَّة من يطبق عليَّ نظام حماية فائقةٍ».

هززت رأسي وقلت: «لقد تعرَّضت لطلقٍ ناريٍّ في الصدر يا لوك، وكدتَ تفارق الحياة. لن أخاطر بأي شكل من الأشكال».

رفعت رأسي عن كتفه، وأسندته إلى يدي، وقلت: «بالحديث عن المجازفة، ما الذي قاله الطبيب تمامًا عن إخراجك غدًا؟ راحة في السرير؟ لا جهود شاقة؟».

مرَّر يده في شعري، وابتسم قائلًا: «ماذا لو أخبرتك أنه طلب منِّي الكثير من الراحة في السرير والكثير من الجهود الشاقة؟».

- سأدعوك كاذبًا.

تبدَّلت تعابير وجهه، وقال: «من أربعة إلى ستة أسابيع، لقد قال الطبيب إن قلبي يحتاج إلى الراحة، أتعرفين كم سيكون صعبًا هذا الأمر وأنتِ تعتنين بي؟».

مررت أصابعي على صدره، وشعرت بالضمادات تحت رداء المستشفى خاصته، وقلت: «أربعة إلى ستة أسابيع ليست شيئًا مقارنةً مع الأبد».

ضحك قليلًا، وقال: «من السهل عليك قول ذلك، ولكن الشباب يفكِّرون بالجنس كل سبع ثوانٍ».

- هذه مجرَّد أسطورة، لقد تعلمت خلال درس العلوم البيولوجية أنهم يفكرون بالجنس فقط أربع وثلاثين مرَّة خلال اليوم.

حدق إليَّ لوك لبضعة ثوانٍ وهو صامت، ثمَّ قال: «حتَّى بهذه الحسبة فإنني سأفكر بالأمر ألف مرَّة خلال الأسابيع الأربعة القادمة التي يجب عليَّ أن أحجم فيها عن مطارحتك الغرام».

هززت رأسي وقلت مبتسمةً: «سأحاول أن أسهل الأمر عليك إذَنْ، لن أستحم، أو أسرح شعري، أو أضع أي نوع من المكياج طوال الشهر القادم».

- هذا لن يساعد، بل ربما يزيد الأمر سوءًا.

أخفضت رأسي، وقربت شفتي من عنقه، وقلت بسخرية: «إن كان الأمر بهذه الدرجة من الصعوبة عليك، يمكننا أن نوظِّف ممرِّضة لتعتني بك عوضًا عني».

لفني لوك بقوَّة، وتثاءب، ثمَّ همس قائلًا: «لا أحد يعتني بي سواكِ».

أمكنني الشعور بتأثير مسكنات الألم من خلال صوته، لذا لم أُجِبْهُ. استلقينا هناك لبعض الوقت، إلى أن أصبحت شبه متيقنة من أنه قد غطَّ في النوم، لكنه بعد ذلك قال: «سلوان؟ أين تقيمين الآن؟».

كنت بانتظار هذا السؤال، لقد مضى على وجوده في المستشفى الآن أسبوعان، وفي كل مرَّة كان يبدأ فيها بالسؤال عن وضعي المعيشي، كنت أخبره أننا سنناقش الأمر لاحقًا. لكن لديَّ شعورًا أنه لن يسمح لي بتغيير مجرى الحديث هذه المرَّة.

- في فندق.

تجمَّد في الحال، ومد يده إلى ذقني ليرفع وجهي إليه، وقال: «هل تتكلَّمين بصراحة؟».

هززت كتفيَّ، وقلت له: «لا بأس بذلك يا لوك، سأجد شقَّةً قريبًا».

- أي فندق؟

- ذلك الموجود في ستراتون.

تصلَّب فكُّه، وقال: «سوف تسجلين خروجك منه اليوم. لا ينبغي أن تكوني هناك وحدك، إنه ليس بالحي الآمن».

حاول أن يعدِّل وضعيته بحيث يتخذ وضعية الجلوس، رافعًا رأس السرير عدَّة بوصات، وقال: «لماذا لم تخبريني بهذا؟».

حركت يدي أمام وجهه، وقلت: «لقد أوشكت على الموت يا لوك، آخر ما تحتاجه الآن هو أن تتوتر من وضعي أكثر ممَّا توترت بالفعل».

أرجع رأسه إلى وسادته، ممرِّرًا يديه على وجهه، ثمَّ نظر بعينيَّ، وقال: «سوف تُقيمين معي، إنني بحاجة إلى مساعدتك بطبيعة الحال، لذا لا جدوى من أن تستمرِّي بالدفع لقاء إقامتك في فندق».

- لن أنتقل للعيش معك. سآتي لأعتني بك مهما كان الوقت الذي تحتاجني فيه، ولكننا بالكاد يعرف واحدنا الآخر، والانتقال للعيش معك سيكون نقلةً كبيرةً جدًّا، ومبكِّرةً جدًّا.

أرخى فكَّه، وحدَّق إليَّ بقسوة، وقال: «سوف تقيمين معي يا سلوان. إنني لا أطلبِ منكِ أن تنتقلي بشكل دائم، ولكن إلى أن أتعافى وتجدي شقَّةً لكِ، لن تعودي إلى ذلك الفندق».

إنه فندقٌ مخيفٌ بحق، لكن لا يمكنني أن أتحمَّل نفقة فندقٍ أفضل منه. بعد أن اعتُقل آسا، أحضرت مدَّخراتي المخبأة، وبعض الملابس، ومن بعدها لم تطأ قدمي ذلك المنزل قط. أومأت قائلةً: «سأبقى عندك لأسبوعين على الأكثر، وبعدها سأحظى بمسكنٍ خاصٍّ بي».

تنهَّد تعبيرًا عن راحته لأنني لم أجادله، لكنني، وبصدقٍ، لا أعرف كيف سأتدبر أمري وأحصل على شقة في خلال أسبوعين. يجب أن أجد عملًا وسيارةً، لقد استعرت سيارة لوك لأزور ستيفن اليوم، لكن لا يمكنني أن أستمرَّ بفعل هذا.

شعرت بيد لوك تنساب عبر شعري، وتلتف حول مؤخرة عنقي، وعندما التقت أعيننا، رأيت رقةً في عينيه لم تكن موجودةً قبل عدَّة ثوانٍ، وقال بهدوء:

«توقفي عن التفكير الزائد بالأمر، فأنتِ لم تعودي وحيدةً في هذا يا سلوان. حسنًا؟».

تنهَّدت وهمست: «حسنًا».

إنها المرَّة الأولى في حياتي التي أشعر فيها أن ثمَّة من يعينني على حمل الأعباء التي تُثْقِل كاهلي، إذ لم يسبق لي، قبل لوك، أن التقيت بشخص أدخل إلى حياتي بدخوله إليها الراحة، بل التوتّر فقط.

لا يجب أن يزيد الحب من أثقالك، بل أن يجعلك تشعر أنك خفيفٌ كالهواء.

لقد جعل آسا كل شيء في حياتي ثقيلًا.

أما لوك فيشعرني وكأنني أحلِّق في الهواء.

أعتقد أن هذا هو الفرق بين أن تكون محبوبًا بالطريقة الصحيحة، وبين أن تكون محبوبًا على نحو خاطئ. فإما أن تشعر أنك مربوطٌ إلى مرسَى، أو أن تشعر أنك تطير.

***

سألته: «أتريد أي شيءٍ آخر؟».

لم يسبق لي أن زرت منزل لوك من قبل، وقد صُعقت عندما رأيت أنه عاديٌّ للغاية، منزل في حيٍّ على بعد قرابة الساعة من حيث كنت أعيش مع آسا، إنه أقرب حتّى إلى المنشأة التي يقيم فيها أخي.

أخبرني لوك أنه قد استأجر المنزل، وليس ملكًا له. لم يسبق له أن علم ماذا ستكون مهمته التالية، لذا لم يكن مستعدًّا بعد للالتزام بعقار.

قال لي: «إنني بخيرٍ، لا تقلقي. سأعلِمُكِ إن احتجت إلى أيِّ شيءٍ آخر، حسنًا؟».

أومأت. جُلْتُ بنظري في غرفته، دون أن أعرف ماذا سأفعل بنفسي. إنه على الأرجح بحاجة إلى بعض النوم، وقد شعرت بالغرابة لأن هذا المنزل ليس بمنزلي. سألني وهو يرفع البطانية: «أتودِّين الانضمام إليَّ على السرير لنشاهد فيلمًا؟».

- يبدو الأمر عذبًا للغاية.

صعدت إلى السرير، وعانقته كما كنت أفعل في المشفى كل يوم. شغَّل التلفاز، وراح يقلِّب بين المحطات، وبعد قرابة دقيقة، قال: «شكرًا لكِ يا سلوان».

رفعت نظري إليه، وقلت: «على ماذا تشكرني؟».

مسحت عيناه وجهي ببطءٍ، وهمس: «على كل شيء. على عنايتكِ بي، ولكونكِ بهذه القوَّة، على الرغم من كل ما مررتِ بِه».

أعرف أن الطبيب قد منعه من أي نشاطٍ جسدي يتطلب جهدًا، ولكنني أشك أن الطبيب كانت لديه فكرة حول أن لوك قد يقول شيئًا جذابًا كهذا. قبَّلت شفتيه، لأن الشعور الجيد الذي راودني عندما شكرني وأطراني كان رائعًا للغاية. يا للجحيم! يكفي أن يعاملني شخصٌ ما بلطف لأجده أمرًا جديدًا للغاية بالنسبة إليَّ، فكل مرَّة يفتح فمه يذيبني.

مدَّ يده إلى مؤخِّرة رأسي، وقبَّلني بقوَّة أكبر.

هذا الأمر ليس جيدًا، لوك على حق. سأعتني به لمدَّة أربعة أسابيع، ويتوقع منا أن نلتزم بتعليمات الطبيب؟ يا يسوع المسيح، لقد قُضِيَ علينا.

ولكننا بعد ذلك ابتعدنا عن بعضنا على وقع صوت طرقٍ عالٍ على الباب. قال وهو يبعد اللحاف: «سأذهب لأفتح الباب».

أعدت شدَّ الغطاء فوقه، وقلت: «لا. لن تذهب إلى أي مكان، بل سترتاح. سوف أفتح أنا الباب».

أمسك يدي وأنا أنزلق من السرير، وقال: «تحقَّقي أولًا من العين الساحرة، إن كان الطارق هو رايان فإنه سيحكُّ عنقه ليعلمكِ أن الوضع آمن لتفتحي الباب، إن لم يَحُك عنقه لا تفتحي».

توقَّفت في مكاني، متسائلةً عن السبب الذي يجعل الشفرات الصامتة بينهما ضرورية للغاية، لكنني لم أطرح سؤالي عليه. سأحتاج لأن أعتاد على هراء العمل بالتخفي هذا. آمل أن لوك كان جادًّا عندما تحدَّث عن تغيير مهنته.

عندما وصلت إلى الباب الأمامي، وتحققت من العين الساحرة، تأكدت من أن رايان كان يَحُكُّ عنقه، ولكن ثمَّة شخص آخر برفقته، فتاة.

جريت نحو غرفة لوك، وهمست بصوت عالٍ: «ثمَّة فتاة معه!».

- شعرها أشقر طويل؟

أومأت، فقال: «لا بأس بذلك، إنها تيللي».

تيللي. عظيم.

عدت إلى غرفة المعيشة، وأدخلت الرمز السري الخاص بالإنذار، ثمَّ فتحت الباب. قال رايان وهو يشقُّ طريقه إلى الداخل: «مرحبًا».

دخلت تيللي في أثره، وابتسمت لي، لكنني كنت بالفعل قد شعرت بالتهديد في حضورها، إنها أطول منِّي ببعض بوصات، ترتدي سروالًا أسود أنيق، وقميصًا أبيض ذا ياقةٍ دسَّته تحت السروال، وقد تركت الزرين في الأعلى مفتوحين، كاشفةً عن عقدٍ على هيئة ضفيرةٍ فضية لامعةٍ. لم يسبق لي أن رأيت إطلالةً بسيطةً بهذه الروعة.

- تيللي، هذه سلوان. سلوان أعرفكِ بتيللي.

مدَّت يدها وصافحتني، وقد آلمتني تقريبًا، إذ لديها قبضة قوية. لا يمكنني أن أجلي من خيالي فكرة أنها قد قبَّلت لوك، حتَّى وإن كان الأمر مرتبطًا بالعمل، ما تزال معدتي تتخبَّط لمعرفتي بهذه الحقيقة عنهما، لكنني لا أدع الأمر يزعجني إلى هذه الدرجة، بل أسيطر عليه.

قالت تيللي، وكأنها تمكَّنت من قراءة أفكاري: «أعتذر لأنني قبَّلت لوك في منزلك، لقد كان الأمر ضروريًّا، لكنه لن يتكرر مجدَّدًا البتَّة».

وأضافت مشيرةً إلى رايان: «صدقيني كان الأمر سيئًا بمقدار سوئه عندما اضطررت إلى تقبيل هذا أيضًا من أجل العرض».

دوَّر رايان عينيه، وقال: «تيللي، تيللي، تيللي. حدث هذا منذ أكثر من سنة، وما زلت لا تستطيعين الكف عن التفكير بلساني داخل فمك».

أومأت، وردت: «من الصعب تخطِّي الكوابيس».

ضحكت، وقد أعجبتني في الحال. أغلقت الباب خلفي، وأشرت إلى غرفة النوم، وقلت لهما: «إنه في غرفته».

نظر رايان إلى الغرفة، ثمَّ أعاد توجيه بصره إليَّ، ثمَّة شيء في تعابير وجهه يقلقني، ولكنه يحاول إخفاء الأمر بابتسامةٍ مصطنعةٍ. سألني: «أتمانعين إن تحدَّثنا مع لوك على انفراد؟».

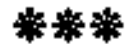
لففت إحدى ذراعيَّ حول بطني، وأمسكت الأخرى، ونقلت نظري بينه وبين تيللي، ثمَّ قلت: «أيتعلق الأمر بآسا؟».

رأيت تيللي تنظر بسرعة باتجاه رايان، وقد كشفت عيناها أن الأمر الذي ينويان التحدث به مع لوك هو موضوع آسا بالتحديد. قلت لهما: «إن لم تسمحا لي بسماع ما تريدان قوله له، سأسترق السمع من خلف الباب».

لم يضحك رايان، بل شد شفتيه معًا، واكتفى بإيماءة، وقال: «هذا عادلٌ».

استدار كلاهما وسارا باتجاه غرفة النوم، وأجبرت نفسي على سحب نفَسٍ عميقٍ.

لا يبدو الأمر جيدًا.



لـــوك

يمكنني رؤية رايان وتيللي، وهما يشقان طريقهما نحو غرفتي، ولكن عينيَّ توجِّهان تركيزهما إلى سلوان، إنها تقف في غرفة المعيشة وعيناها مغلقتان، تبدو وكأنها على وشك التقيؤ.

سألتُ رايان: «ماذا قلتَ لها؟».

في اللحظة التي طرحت عليه فيها هذا السؤال، أخرجت سلوان دفعةَ هواءٍ من فمها، وفتحت عينيها، ووقفت باستقامة، ثمَّ مشت باتجاه غرفتي.

هز رايان رأسه، وقال: «لم أقل لها شيئًا، وقد أصرت أن تكون معنا عندما أخبرك ما أنا على وشكِ قوله لك».

أصبحت سلوان داخل غرفة النوم الآن، وقد أمالت جسدها مستندةً إلى الباب، وراحت تراقب رايان وتيللي وهما يسيران داخل الغرفة متجهان نحو الأريكة. آخر ما أريده أن تكون سلوان متورطةً، لو كان الأمر بيدي، لم أكن لأسمح بأن تسمع اسم آسا مجدَّدًا قط، لكنني أعرف أن أمامنا طريقًا طويلًا، والكثير من جلسات الاستماع في المحكمة، وربما أيضًا شهادة على المنصة. لذا، وإلى أن يُدان آسا، لن أتمكن من حمايتها من كل هذا، عوضًا عن ذلك، ربتُّ على السرير بقربي، وأشرت إليها أن تأتي وتجلس معي.

ما إن أتت واستقرت بجلستها قربي، وأسند كل منا رأسه إلى مسند السرير، نظرت إلى رايان، وسألته: «ما الذي لا ترغب إخباري به؟».

هزَّ رأسه، وانحنى إلى الأمام، وشبك يديه أمامه، وقال وعيناه قد التقتا بعينيَّ: «لا أعرف حتَّى من أين أبدأ. لقد قابلت يونغ اليوم».

- و؟

- لم يكن الأمر جيدًا. لا أعرف كيف سألطِّف الخبر، لذا سأشرحه بطريقةٍ يفهمها كل منكما.

التفت يدي سلوان حول يدي، وشعرت بها وهي ترتعش، لذا عصرت يدها لأطمئنها، فأنا أعرف أن رايان يميل إلى المبالغة الدرامية في وصف الأوضاع، كم أتمنَّى فقط لو أن سلوان تعرف هذا كي لا تشعر بكل هذا القلق.

- يدَّعي آسا أنه قد أطلق النار على الشاب في غرفته دفاعًا عن النفس.

قالت سلوان بسخرية: «لم يكن دفاعًا عن النفس! لقد كنتُ هناك!».

أومأ رايان بخفةٍ، وقال: «لم يكن يدافع عن نفسه، بل ادَّعَى أنه كان يدافع عنكِ، أنه قد سمعكِ تصرخين طلبًا للمساعدة، وأنه لمَّا دخل إلى الغرفة، رأى الشاب يهاجمكِ حاملًا مسدسًا. لقد ادَّعى أنه لم يكن أمامه خيار آخر سوى أن يطلق النار عليه قبل أن يقتلكِ».

هزت سلوان رأسها، وقالت: «لم يكن...».

ثم نظرت إليَّ، وتابعت: «لوك، لم يكن عليه أن يقتله».

كنت أعلم أن آسا سيأتي على ذكر هذا الهراء، لففت ذراعي حول سلوان، وأعدت توجيه تركيزي إلى رايان، وسألته: «ما الذي يعنيه هذا على وجه التحديد؟ ألن يواجه ادِّعاءه بشهادة سلوان في المحكمة؟».

زفر رايان نَفَسًا سريعًا، وقال: «هذا ما نأمله، إن وصل الأمر إلى المحكمة».

ردت سلوان، قائلةً ما كان يجول في خاطري تمامًا: «إن؟».

تحدَّثت تيللي هذه المرَّة: «هذا الأمر... إنها قضية دفاع عن النفس قوية، فالشاب كان يحمل سلاحًا غير مرخَّص، وسلوان كانت تصرخ طلبًا للمساعدة، وقد هاجمها، وحتَّى بشهادتها، فإن دفاع آسا يمكنه أن يصمد، والسلاح الذي

استخدمه مرخَّص، ومسجَّل باسم، على عكس الضحية. بالإضافة إلى ذلك، فهو يدعي أنه لا يعرف من هم الرجال الذين اقتحموا المنزل، ولم يستطع رجال الشرطة تحديد مكان أيٍّ من الرجال الذين فروا. ليس لديهم سوى الضحية، والذي، وحتَّى الآن، لم تظهر أي روابط بينه وبين آسا أمكننا إثباتها».

مسحت وجهي بيديَّ، وتمكنت من سماع صوت أنفاس سلوان تتسارع، وهي تبدأ باستيعاب ما يحاول رايان وتيللي إخبارنا به. سألتُ رايان: «ولكن ماذا بشأننا نحن الثلاثة؟ إنها كلمتنا مقابل كلمته. ونحن نعرف أنه قد لفَّق الأمر برمته، لقد اعترف بذلك بعلوِّ صوتِه».

أومأ رايان، وقال: «لقد اعترف بالأمر لكَ يا لوك. لم أسمعه قط ينطق بذلك، لذا لن أستطيع أن أشهد ضده، لم أكن في الغرفة معكما، و...».

توقف رايان عن الكلام، لتنحني تيللي إلى الأمام، وتقول: «إنه يدعي أنكما أنتما الاثنان قد تآمرتما ضده».

جلست باستقامة، وقلت: «هل تتكلمين بصدق؟ أي قاضٍ سيصدق هذا الهراء؟».

إنه لأمرٌ سخيفٌ، إنهما هنا يقولان أشياء منافية للعقل، ويزعجان سلوان، لم يكن ينبغي أن أسمح لرايان بالكلام عن الأمر أمامها.

قال رايان: «أعرف أن هذا يبدو جنونًا، فنحن جميعًا نعلم إلى أي درجةٍ هو مذنبٌ. ولكن بالنسبة إلى هيئة المحلفين... كيف سيبدو الأمر برأيك عند معرفتهم أن خطيبة آسا كانت تُضاجِع، وعن سابق معرفةٍ، الشرطي المتخفي الذي كان يحاول الإيقاع به؟ كيف برأيك سيبدو الأمر لهيئة المحلفين عندما تكون كلمة خطيبة آسا وكلمة هذا الشرطي المتخفي ضد كلمته؟».

انزلقت يد سلوان من بين يدي، وغطت وجهها، وبدأ صدري يؤلمني بفعل كل هذا.

- أنت تعرف أنني كنتُ ألاحقها يا رايان، لو كنت أعلم أن ذلك سيعرِّض القضية للخطر...

كنت على وشك أن أقول إنني ما كنت لأفعلها، لكنني عدلت عن ذلك، وأغلقت فمي، لأنني في الواقع كنت لأفعلها، وقد فعلتها. لقد لاحقتها بغض النظر عن العواقب، وقد وضعنا تصرُّفي هذا اليوم في مأزقٍ لعينٍ هائلٍ.

قالت تيللي: «الأمر يعتمد على القاضي، فقد يُنهي القضية قبل حتَّى أن تصل إلى المحكمة. معظم قضايا الدفاع عن النفس تحكم ضمن القتل المشروع إن كان هناك شاهد ليؤكد قصة المتهم».

- ولكن لا يوجد شاهد لتأكيد قصته.

نظر كل من رايان وتيللي إلى سلوان، وأشار رايان برأسه إليها، قائلًا: «قصة سلوان على الأرجح ستؤكد ادِّعاءه بالدفاع عن النفس».

قالت سلوان بذهول: «كيف؟».

نهض رايان، ومشى حول السرير، وانحنى على الحائط بالقرب من سلوان، وقال: «هل كان الضحية يهاجمكِ؟».

أومأت سلوان.

- هل كان يحمل مسدسًا؟

أومأت مجدَّدًا.

- هل كان ينتحل شخصية رجل شرطة؟

إيماءة أخرى.

- هل صرختِ طلبًا للمساعدة؟

لم تومئ هذه المرة. انزلقت دمعة على خدها، وهمست: «مرَّتين».

- وكيف شعرتِ عندما دخل آسا إلى الغرفة؟ سوف يسألك القاضي هذه الأسئلة بعد أن تحلفي اليمين.

أخرجت تنهُّدًا من صدرها، وهمست من خلال دموعها: «شعرت بالراحة. شعرت بالرعب والراحة معًا».

أومأ رايان وتابع: «هذا كافٍ لدعم ادِّعائه يا سلوان. لقد أنقذكِ من شخص يهاجمكِ، وبالنسبة للقاضي بالكاد يمكن اعتباره فعل قتل، بغض النظر عن معرفتنا لأي درجةٍ هو شرير، فالمحكمة لن تحاكم شخصيته ككل، بل هذا الفعل فقط».

مسحت سلوان الدموع من عينيها، وقالت: «لكن... لم يكن عليه أن يطلق النار على الرجل، كان بإمكانه أن يوقفه دون أن يقتله».

أومأ رايان موافقًا، وأضاف: «أعلم أن ما تقولينه صحيح، جميعنا نعلم ذلك. ولكن هيئة المحلفين لا تعرف آسا كما نعرفه، سوف يضعونك على المنصة ويمطرونك بوابل من الأسئلة يا سلوان. سوف يجعلون آسا يبدو كضحية، لأنكِ خطيبته، وعلى الرغم من ذلك كنتِ تخونينه، عن سابق معرفةٍ، مع الشرطي المتخفي الذي كان يحاول الإيقاع به. هذا الأمر سيجلب التعاطف مع قضية آسا، وإفادتك ضده ستفقد أي وكل مصداقية في أعين هيئة المحلِّفين».

وقفت سلوان وهي تمسح دموعها، وتقول: «لكن، ماذا عن قضيتك أنت ضد آسا؟ ألن يدعم هذا ادعائي؟ أليس لذلك أي تأثير على تهمة الشروع بالقتل؟».

التقت عينا رايان بعينيَّ، وأطلق دفعةً من الهواء، ثمَّ مشى عائدًا باتجاه الأريكة، وقال: «هذا سبب آخر لوجودنا هنا، لا يريد يونغ أن يتقدم بأي تهمٍ فيما يتعلق بتحقيقنا. لن تكتمل أي من تقاريرنا، لأن التحقيق كان ما يزال جاريًا. يخشى يونغ أننا إن وجَّهنا إليه الاتهامات ووصل الأمر إلى المحكمة، ستمزِّق الصحافة القسم إلى أشلاء، إذ ليس بالأمر الجيد أن واحدًا من رجالنا قد تورَّط بخيانة مع خطيبة شخصيتنا الأساسية، وحقيقة أننا كشفنا هويتنا الحقيقية لعملاء مزيَّفين. إنهم يخشون من أن فرصة أن يُتَّهم آسا حقيقةً بأي شيء، أقل من فرصة أن نشوه بذلك سمعة القسم. يطلب يونغ أن تغلق القضية، وألا نتقدم بأي تهم، إنه يرى أن الأمر لا يستحق المخاطرة».

جلست سلوان على السرير، وقالت: «أوه، يا إلهي».

أسندت مرفقيها إلى ركبتيها، وأمسكت برأسها بين يديها، وهمست: «هذا الأمر برُمَّته خطئي أنا».

مددت يدي وسحبت يدها إليَّ، وقلت لها: «إنه ليس خطأكِ يا سلوان، بل خطئي. لقد كنت أنا من يؤدي واجبه».

رفعت نظري إلى رايان، وتابعت: «ماذا عن حقيقة أنه حاول قتلي؟ لقد أطلق النار على صدري، ولم يكن الأمر دفاعًا عن النفس. سوف يُتَّهم بذلك، أليس كذلك؟».

رأيت حنجرة رايان تتحرَّك وهو يبتلع ريقه. فهمست وأنا ألقي برأسي على مسند السرير: «اللعنة، لا بُدَّ أنك تمزح معي».

- إنه يدعي أن هذه القضية أيضًا هي قضية دفاع عن النفس. لقد أطلق كلٌّ منكما النار على الآخر، وسلوان هي الشاهد الوحيد الذي كان في تلك الغرفة. يمكنني أنا أن أشهد فقط بما سمعته من خلف الباب.

- لقد كاد أن يقتلني يا رايان!

نظر كل من رايان وتيللي إلى بعضهما، ونظَّفت تيللي حنجرتها، ثمَّ قالت: « كل ما في الأمر يا لوك... بعد كل الأحداث العاصفة التي جرت في ذلك اليوم، إن وجَّه إليه المدَّعي العام أي تهم، فعلى الأرجح ستطالك التُّهم أنت أيضًا. وسوف يذهب كلاكما إلى المحكمة».

- سيتم اتهامي؟ ما الذي بحقِّ الجحيم سأُتهم به؟

- يعتمد ذلك على القاضي. قد تتهم بجريمة اعتداء... شروع بالقتل. وفي ظل عدم رفع القسم القضية إلى المحكمة، سيبدو الأمر وكأنك أنت وآسا كان لديكما خلاف في غرفة النوم. وكأن علاقة حبٍّ بين ثلاثة أطراف قد أفضت إلى نتيجةٍ سيئةٍ.

يصل إلى مسمعي صوت بكاء سلوان الآن، ولا يمكنني حتَّى أن أطرح سؤالًا آخر، فعقلي تتقاذفه الأفكار في كل اتجاه الآن.

- إذَنْ أنت تخبرني أن الأمر لا يتوقف فقط عند فرصة أن ينجو هذا الملعون بكل شيء فعله، بل أنه يمكن أن توجه لي التهم أيضًا؟

أومأ رايان ببطءٍ، وقال: «إلا إذا... إن عملنا على تسوية قضائية، إذ إن محاميَّ آسا يضغطان للحصول عليها، يريدوننا أن نسقط التهم عنه لقاء إعطائنا معلوماتٍ عن جون وكفين، وبعض الأشخاص الآخرين المرتبطين بالتحقيق. كما قلت لك يا لوك؛ يعتمد الأمر برمته على القاضي، والمدَّعي العام بالطبع. وهذا أمرٌ جيدٌ، لأن المدَّعي العام يحبك، إذ لا أراه يطالب بأي شيء عندما يتعلَّق الأمر بالتهم الموجَّهة ضدك، ولكن إن ضغطنا فيما يتعلق بالتهم الموجهة إلى آسا، فإن محاميه سيضغطون بالمقابل. لذا عليك أن تفكر بالأمر طويلًا ومليًّا».

لا يمكنني حتَّى أن أصدق ما أسمعه الآن.

سألتْ سلوان: «ماذا بشأن كل الأشياء الأخرى التي فعلها؟ ماذا عن كل المرَّات التي فرض نفسه عليَّ بالقوَّة؟ ألا يمكنني أن أدعي عليه بهذا الشأن؟».

أومأت تيللي، وقالت: «يمكنكِ، ولكن ما الذي بالتحديد تدَّعينه؟ اغتصاب؟ هل اغتصبكِ؟».

نظرت سلوان إليَّ، ثمَّ إلى تيللي، وهزَّت كتفيها، قائلةً بهدوء: «إنني لا أعرف حتَّى. ففي العديد من المرات... كنت مرعوبةً من أنه سيؤذيني، وبالتالي كنت أسمح له».

وقفت تيللي، ومشت نحو السرير، ثمَّ جلست بجانب سلوان، وسألتها: «هل سبق ورفضتيه؟ هل سبق وطلبتِ منه أن يتوقَّف ورفض؟».

توقَّفت سلوان للحظة، وهي تسترجع في ذاكرتها ما كان يجري بينهما، ثمَّ هزَّت رأسها، وأجابت: «لا، لقد كان خوفي أعظم من أن أستطيع الرفض، وقد تظاهرت بقبولي للأمر في كل مرَّة».

أمالت تيللي رأسها مظهرةً تعاطفها معها، ثمَّ شدَّت على يد سلوان، وقالت: «أخشى أن هذا الادِّعاء لن يصمد في المحكمة، كل ما عليه فعله هو التظاهر بعدم درايته بانعدام رغبتكِ بمضاجعته. إن لم يُرفض المتهم، وافترض أنك راغبةٌ بذلك بناءً على تصرفاتك...».

أحنت سلوان رأسها مجدَّدًا بين يديها، ثمَّ مالت نحوي، وانهارت على صدري، لففت ذراعي حولها، وطبعت قُبلةً على رأسها.

قالت تيللي: «إنني آسفة، هناك العديد من الأشياء التي كان يمكن التعامل معها على نحوٍ مختلفٍ لتحضيرِ قضية قوية ضده، أشياء عديدة قد أعاقتنا عن ملاحقة آسا كما كنا نتمنَّى».

تدخَّلتُ قائلًا: «تعنين العديد من الأشياء التي أفسدتُها».

وقف رايان متكلِّمًا: «لا تقسُ على نفسك كثيرًا يا لوك، لقد شجَّعت أنا نفسي العديد من هذه الأشياء. أحيانًا تسير القضية كما خططنا لها بالضبط، وأحيانًا نحصل على كل ما نحتاجه قبل نهاية التحقيق، لكن لسوء الحظ، فهذه القضية ليست من هذا النوع. بل إنها عبارة عن فوضى لا متناهية منذ بدايتها إلى نهايتها، وليس بين يدينا الكثير ممَّا يمكننا العمل عليه في هذه المرحلة.

لم يعثروا على شيء في منزله بعد أن نظفه جون وكفين من كل ما يمكننا أن نستخدمه لتوجيه الاتهامات، فكل ما عُثر عليه كان عبارة عن بعض الأموال مجهولة المصدر، ومخزون من الأدوية. وهذا ليس كافيًا لملاحقته، إذا أخذنا بعين الاعتبار الطريقة التي سيرد علينا بها آسا ومحاموه. أحيانًا لا يستحق الأمر القتال».

شعرت بوتيرة توتر سلوان ترتفع، ثمَّ استقامت، وحدقت إلى رايان، وقالت: «لا يستحق القتال؟ لقد قتل أحدهم! وكاد أن يقتل لوك لو أن مكان الإصابة جاء على بعد ستة سنتيمترات لعينة! والآن أتقول إنه على الأرجح سينجو بفعلته؟ هل سيتجوَّل حُرًّا ويعثر عليَّ؟ أو على لوك؟ لأنه لن يستسلم يا رايان! لن يستسلم قبل أن يقتل لوك، وأنت تعرف هذا!».

سحبتها نحوي مجدَّدًا، وقلت لها: «سلوان، توقفي. إننا لا نعلم علم اليقين بعد أنه لن يُتَّهم بأي شيء، حاولي أن تهدِّئي من روعكِ».

بكت على صدري، واحتضنتها، بينما أخفض رايان بصره إليها، وظهر الندم والتعاطف على ملامحه، واكتفى بإيماءة صغيرة، وقال: «أنا آسف يا سلوان، أنا آسف بحق».

نظر نحوي، وكانت عيناه تنطقان بكلمات الاعتذار ذاتها، أومأت له لأعلمه أنني أتفهم، فالأمر برمته ليس خطأ رايان، بل ليس خطأ أي أحد آخر سواي.

مشى كل من رايان وتيللي نحو الباب، سحبتُ سلوان نحوي وضممتها، محاولًا أن أخفِّف من خوفها، لكن جسدها بأكمله كان يختلج، لم أعلم إلى أي درجة كانت تخاف من آسا حتَّى هذه اللحظة.

طبعت قُبلةً على جانب رأسها، وقلت لها: «سيكون كل شيء على ما يرام يا سلوان، أنتِ لستِ وحيدةً هذه المرَّة، أنا هنا، وأقسم لكِ إنني لن أدعه يؤذيكِ».

احتضنتها إلى أن غطَّت في النوم بين ذراعي وهي منهكةٌ بالكامل.

***

آسا

سألني المحامي: «هل لديكَ أية أسئلة؟».

إنه يُدعى بول، أي اسم والدي ذاته، وقد كِدت أن أرفضه عندما علمت ذلك، لكنه المحامي الأشهر في الولاية، لن أحمل الضغينة ضده فقط لأنه يتشارك الاسم ذاته مع ثاني أكثر شخص أكرهه في العالم.

لوك هو الأول.

- لا، ندخل إلى قاعة المحكمة، وأقرُّ بقيامي بالأمر دفاعًا عن النفس، ليقرِّر القاضي ما إن كانت القضية ستحال إلى المحكمة أم لا.

أومأ بول موافقًا: «هذا صحيح».

وقفت، وكانت الأصفاد تغرز عميقًا في رسغيَّ. أكره حقيقة أن سلوان ستراني مكبَّلًا هكذا، إذ أن الأصفاد تظهرني بمظهر الضعيف، ولا أحبِّذ لها أن تراني بحالٍ غير التي اعتادت أن تراني عليها دائمًا. سمحوا لي اليوم على الأقل بارتداء بدلة رسمية، وبالتالي لا يتحتَّم عليَّ أن أسير بتلك الحُلَّة البرتقالية السخيفة المعتادة، البرتقالي ليس لوني المفضل، وأنا أعلم علم اليقين أن هذه البدلة التي أرتديها الآن هي المفضَّلة بالنسبة إلى سلوان.

قلت للمحامي: «دعنا نقُم بالأمر، إنه شديد السهولة».

أومأ بول بسرعة، ووقف. يمكنني القول إنه لا يحب ثقتي بنفسي، لم يحبها منذ لحظة لقائنا الأولى، كما أنني لست واثقًا من أنه يحبني، ولكن لا يمكنني أن أقلق الآن بشأن مشاعره نحوي. ما دام سيبرئني من هذه التهم، فهو الشخص المفضَّل بالنسبة إليَّ في العالم.

حسنًا، ثاني أكثر شخص حتَّى الآن، فسلوان ما تزال الشخص الذي يحتل المرتبة الأولى من حيث الأفضلية بالنسبة إليَّ. بالطبع، لقد فعلت الكثير من الأشياء السيئة لإغضابي، لكنني أعرف أن ذلك بسبب لوك، والأكاذيب التي أخبرها بها. إنني واثق من أنها تقضي ما يكفي من الوقت معه الآن، وما يكفي من الوقت بعيدًا عنِّي لتعود إلى رشدها.

تبعت بول إلى خارج الغرفة، ليحيطني بسرعةٍ أربعة من الحراس، اثنان منهما أمامي، واثنان خلفي. فتح حارس خامس باب قاعة المحكمة، وما إن دخلنا عبر الباب، حتَّى رحت أمسح الحشد بعينيَّ بحثًا عنها.

رأيته أولًا، الوغد الملعون المتكبر، يجلس في الصف الثاني، بقرب صديقه اللعين دالتون، أو رايان، أيًا يكن بحقِّ الجحيم اسمه.

لكن لم تكن سلوان جالسةً بقربه، بل رأيتها جالسةً في الزاوية البعيدة من الصف الخلفي بمفردها. ابتسمت لها، ولكنها حوَّلت بصرها ما إن وقعت عيناها عليَّ.

هناك سبب من اثنين لعدم جلوسها بالقرب من لوك؛ فإما أنها قد اكتشفت هراءه بحلول الآن، ولا تريد أن تكون معه، وإما أنهما قد نُصحا بألا يجلسا معًا في قاعة المحكمة، بسبب حماقتهما الصغيرة التي ارتكباها من خلف ظهري.

سأختار الخيار الأول.

اتخذت مكاني، ولكنني أبقيت عينيَّ على سلوان. سمعت صوت أبواب تُفتح، وخطوات تقترب، لكنني، اللعنة، لن أنظر إلى هذا الرجل إلى أن تنظر سلوان بعينيَّ. إنها ترتدي فستانًا جديدًا، فستانًا أسود، وتبدو وكأنها ذاهبةٌ إلى جنازةٍ لعينةٍ. شعرها معقود إلى الخلف، ومرفوع إلى أعلى بحركة التوائية، تبدو راقية المظهر، ومثيرة كالجحيم. اشتعلت الرغبة داخلي، وتمنيت لو بإمكاني أن أطلب استراحة لقصد الحمام، وأن آخذها معي إلى ممرٍ ما، ثمَّ أرفع فستانها إلى خصرها، وأضغط وجهي اللعين بين ساقيها.

أشعر بالشوق إلى رائحتها، أشتاق إلى وجودي معها.

- يمكنك أن تجلس.

جلست.

اللعنة، الجو حارٌّ كالجحيم هنا.

سمعت القاضي قد بدأ بالكلام في اللحظة ذاتها التي مرَّر لي فيها بول قطعةً من الورق، أخفضت نظري إليها بما فيه الكفاية لأتمكَّن من قراءة ما كُتب فيها.. «عليك أن تنظر إلى الأمام احترامًا للقاضي».

ضحكت بخفوت، وجذبت قلمًا وكتبت.. «اللعنة على القاضي، وعليك يا بول».

مرَّرت الورقة إليه، وأعدت تركيز نظري على سلوان.

كانت تنظر إليَّ الآن، التقت عيناها بعينيَّ، وقد ضمَّت شفتيها بقوَّة، جعلتها تبدو متوتِّرةً بحق. يعجبني هذا، بل إنني في الحقيقة أحبه. إنها تشعر بشيء ما وهي تنظر إليَّ، ويمكنني أن ألاحظ أنها لا تفكر بلوك نهائيًّا الآن.

حرَّكت شفتي بلا صوت: «أحبك».

نزلت عينا سلوان إلى فمي، وابتسمتُ لها، ثمَّ وقف ذلك اللعين الغبي ابن الحرام، ومشى إلى مؤخِّرة قاعة المحكمة، تمامًا إلى حيث كانت تجلس. عبر طريقه على طول الممر إلى أن وصل إليها واستقرَّ بقربها، لفَّ ذراعه حول خطيبتي اللعينة، وقد أغمضت هي عينيها، ودفنت وجهها على كتفه، وكأنها قد شعرت بالراحة لانتقاله إلى قربها. التقت عيناي بعينيه، الوغد اللعين ابن اللعينة غاسل الأدمغة، وانحنى إلى الأمام، حاجبًا سلوان عن مدى نظري، حدَّق إليَّ بقوَّة، وكأنه يهدِّدني لأدير وجهي.

أريد أن أقتله، ولبضع ثوانٍ كنت أفكر بطريقةٍ لفعل ذلك: كأن أسحب سلاح الحارس، وأطلق النار عليه. أو أن أجري إلى مؤخرة قاعة المحكمة، وأكسر عنقه اللعين. أو أن أمسك القلم الذي كتبت به للتَّوِّ ملاحظة لبول، وأقحمه مباشرةً في شريانه السباتي.

لكنني لم أفعل ذلك، بل أحجمت عنه، لأنني متأكد من أن هذه القضية ستسري لمصلحتي، وأنني سأكون حُرًّا بإطلاق سراح مشروط حتَّى موعد الجلسة التالية.

يمكن لقتله أن ينتظر.

يجب أن أخطط لعملية قتله بدقّةٍ، وإحكامٍ، دون أن أكون تحت مراقبة عيني القاضي.

قرَّرت أن أستدير، وليس لأن لوك قد هدَّدني لفعل ذلك من خلال تلك النظرة اللعينة على وجهه، ولكنني يجب أن أقنع القاضي بأنه يتخذ القرار الصحيح عندما يسقط هذه القضية، ويعزوها إلى الدفاع عن النفس.

حاولت أن أتابع عندما وقف كل من المحاميَّيْن وتحدَّثا، وحاولت أن أتابع عندما رَدَّ القاضي على كل منهما. ابتسمت عندما نظر القاضي إليَّ، ولكنني من الداخل كنت أغلي، لمعرفتي أن لوك هنا، جالسًا بالقرب منها، يحتضنها. هذا يعني أنها على الأرجح كانت معه خلال الليل، في حين كنت أنا وحيدًا في زنزانتي. كما يعني أنه على الأرجح قد ضاجعها، وتذوَّق وأخذ ما هو لي، وما كان يفترض أن يكون لي وحدي.

استعر نبضي عندما طرق القاضي بمطرقته، وقال: «رُفعت الجلسة».

سحبت نفسًا بطيئًا عبر أنفي، وأطلقته عندما نظرت إلى بول قائلًا: «ما الذي بحقِّ الجحيم قد حدث للتَّوِّ؟».

نظر إليَّ بتعبير على وجهه وكأنه يخبرني أنه عليَّ أن أُبقي صوتي منخفضًا. انتقلت عيناي إلى مؤخِّرة القاعة، عندما سمعت سلوان تبكي، رأيت لوك يساعدها على الوقوف، ولكن ذراعيها ملفوفتان حوله، وهي تبكي، وتنوح.

إنها محبطة، لا يمكن أن تكون هذه أخبارًا جيدة فيما يتعلَّق بقضيتي، إنها محبطة من أجلي، سألت بول: «هل سترفع القضية إلى المحكمة؟ لقد سبق وقلت إن الأمر لن يصل إلى محاكمة لعينة!».

هزَّ بول رأسه الصغير الضئيل، وقال: «لقد قرَّر القاضي ألا يرفعها إلى المحكمة، هذا يعني أن ادعاءك بالدفاع عن النفس قد صمد. يجب أن تعود إلى زنزانتك، ولكن فقط إلى أن أتمكَّن من دفع كفالة التهم الأخرى الموجهة إليك، قد يستغرق الأمر أربع أو خمس ساعات، ولكنني سآتي لآخذك ما إن تُعلن الكفالة الخاصة بك».

نظرت مجدَّدًا إلى سلوان، ورأيتها بينما كان لوك يساعدها لتخرج من القاعة. لماذا تبكي إذَنْ؟ إن كانت التهم الموجهة ضدي قد أسقطت، فلماذا تبكي؟

- كم باعتقادك يحتاج الشخص من الوقت ليتعافى بعد تعرضه لغسيل دماغ لعين كامل؟

نظر بول إليَّ، وأجاب: «ما الذي تتحدث عنه يا آسا؟».

- أعني أنه برأيك كم المدة التي يحتاجها أحدهم من العلاج النفسي في سبيل التعافي من غسيل الدماغ الذي تعرض له؟ بضعة أسابيع؟ أشهر؟ أكثر من سنة؟

حدَّق إليَّ بول للحظة، ثمَّ هزَّ رأسه، وأجاب: «سأراك خلال بضع ساعات يا آسا».

وقف، فوقفت، وقد قادني الحراس الأربعة ذاتهم خارج قاعة المحكمة.

يجب على الأرجح أن أشعر بأنني سأطير من الفرح لأن هذه القضية قد أسقطت. القضية الأخرى يجب أن تكون أسهل حتًى، لأن بول قد أشار إلى أن قسم لوك لم يتقدَّم بالشكوى، لذا ما إن أبرم صفقة الإقرار بالذنب، وأخضع لبعض الفحوصات السخيفة، وأعطيهم المعلومات التي يريدونها بخصوص جون وكفين، فإنني على الأرجح لن أُتَّهم بإطلاق النار على صدر لوك اللعين.

هذا الأمر يبين الكثير فيما يتعلق بنظام المحاكم لدينا. لقد أتيت إلى هنا بعد أن كدت أن أقتل، بدمٍ باردٍ، شابًا بفارق ستة سنتيمترات، وقد خرجت حرًّا لمجرَّد القليل من الثرثرة وادِّعاء المرض العقلي؟

إنني أحب الولايات المتحدة الأمريكية بشدَّة.

ولكن، يبدو وكأن كل جهودي قد ذهبت هباءً منثورًا في الريح. فمنذ اللحظة التي بدأت شكوكي تتشكل فيها بأن أحدهم قد غسل دماغ سلوان، بدأت باختلاق هذه الخطة المحكمة، ولم أحصل على التقدير. إذ تعيَّن عليَّ أن أنكر أي صلة بيني وبين المداهمة المزيفة، الأمر الذي كان صعبًا جدًّا على كبريائي. إنني فخور جدًّا بخطتي، وأرغب أن أتباهى أمام العالم بأنني نفَّذتها من دون أخطاء.

ناهيك بذكر الهراء المتعلق بانفصام الشخصية: استحم بثيابك، تحقق من قفل الباب عدَّة مرات، وسيظن الناس أنك تفقد صوابك. ولكن كان عليَّ أن أفعل ذلك، فأنا أعرف نفسي جيدًا، وقد أدركت أنني إن اكتشفت أن شكوكي في مكانها، وأن سلوان كانت تضاجع شخصًا آخر، فعلى الأرجح سأفقد

صوابي وأقتله. لا يمكنني أن أقتل أحدهم، وأخاطر بأن أحاكَم كشخصٍ بالغٍ سليم العقل، كان عليَّ أن أجهِّز خطةً بديلةً، كي لا أتعفن في سجنٍ لعينٍ كما فعل والدي معظم فترات حياته.

ربما ليس الأمر محض هباء، فقد أصبح «انفصام الشخصية» منجًى لي ألجأ إليه إن احتجته يومًا. والذي على الأرجح سيحدث قريبًا، لأن لوك ما يزال يتنفس.

عندما وصلت إلى زنزانتي، سقطت على سريري، في حين قرقعت القضبان منغلقةً خلفي. لا يمكنني أن أمنع نفسي من الابتسام.

هذا الأمر برُمَّته يتحوَّل إلى شيءٍ جميلٍ، ستحتاج سلوان إلى بعض الوقت لتعود إلى رشدها مجدَّدًا، ولكنني على ثقة من أنها ستفعل، لا سيما عندما يصبح لوك خارج الصورة إلى الأبد. يجب عليَّ بطريقةٍ ما، أن أتجاوز حقيقة مضاجعة لوك لها، على الرغم من ذلك يمكنني أن أخرجه منها، كل ما عليَّ فعله هو أن أضاجعها كثيرًا، وبكل وضعية إلى أن أكفَّ عن التفكير به كلما نظرتُ إليها.

سمعت صوتًا يسألني: «ما سبب سعادتك الزائدة هذه بحقِّ الجحيم؟».

أدرت رأسي ونظرت إلى شريكي في الزنزانة، لا يمكنني أن أتذكر اسمه، لقد سألني قرابة المليون سؤال منذ أن وُضعت في هذه الزنزانة معه، ولكن هذه هي المرَّة الأولى التي أجيبه فيها، حيث قلت وأنا أنظر إلى السقف، بابتسامةٍ عريضةٍ للغاية على وجهي: «إنني على وشك أن أصبح رجلًا حُرًّا. ممَّا يعني أنني سأتمكَّن أخيرًا من عقد قراني على خطيبتي، في زفافٍ حقيقيٍّ، مع قالب كيك من جوز الهند بثلاثة طوابق».

لا يمكنني أن أكف عن الضحك بمجرَّد التفكير في الأمر.

إنني آتٍ من أجلك يا سلوان، سواء أكنتِ تفكرين أنكِ تريدينني أن آتي أم لا.

لقد وعدتِني بأن تحبيني.

إلى الأبد.

وستفعلين ذلك.

***

سلوان

رفعت كوب القهوة إلى فمي، يداي ترتعشان بشدَّة، وبالتالي يتطاير رذاذ القهوة الناعم على جانبي كوبي.

نظرت إلى الساعة الموجودة على الجدار البعيد، وكانت تشير إلى الثالثة صباحًا. لقد مضى يومان على إسقاط قضية آسا، وقد دُفعت كفالته وخرج عصر هذا اليوم، وأُرسلت أنا ولوك إلى هذه الشقة في المدينة من أجل الحماية إلى أن يحين موعد جلسة الاستماع التالية.

إنها شقَّةٌ جميلةٌ، ولكن بما أنني أخشى أن أخطو خارجها، أو حتَّى أن أنظر من النافذة، فإنها تبدو لي مثل السجن. لقد أكَّد لي لوك مرارًا وتكرارًا أنه يستحيل على آسا العثور علينا هنا، ولكن ما لا يعرفه لوك هو أنه حتَّى لو أن آسا قد وُضع في السجن لبقية حياته، فإنني سأستمر بالنظر من فوق كتفيَّ. إن لم يتمكن آسا بنفسه من إلحاق الأذية بي أو بلوك، فأنا لا أستبعد البتَّة أن يوظِّف أحدهم للقيام بذلك.

أدرت رأسي عندما سمعت صوت باب غرفة النوم يُفتح، وخرج منه لوك، وهو يفرك عينيه ليبعد شبح النوم عنهما. كان يرتدي سروالًا رياضيًّا أسود اللون، معلَّقًا عند أوراكه، وصدره عارٍ، بينما تغطِّي ضمادات جرحه جزءًا من صدره، وهو يسير على الأرض الخشبية الصلبة عاري القدمين متقدِّمًا نحوي.

وصل إلى ظهر الأريكة، وأملت رأسي إلى الخلف، ورفعت نظري إليه. انحنى إلى الأمام، وقبَّل جبيني من الأعلى، وسألني: «هل أنتِ بخيرٍ؟».

هززت كتفيَّ، وأجبت: «لا أستطيع النوم. مجدَّدًا».

أظهرت عيناه تعاطفه معي، وقد رفع يده وراح يبعد شعري عن جبيني، وقال بهدوء: «سلوان، ليس عليكِ أن تقلقي وأنتِ هنا، لا يمكنه العثور علينا. إننا بمأمن حتَّى موعد المحكمة التالي، أعدكِ بهذا».

أومأت مجدَّدًا، ولكن كلماته لم ترحني إلا قليلًا، لن أطمئن لآسا أبدًا، مهما كان مستوى الأمان الذي ينبغي أن أشعر به.

استدار حول الأريكة، وجلس، وسحبني إلى حضنه إلى أن أصبحنا متشابكين، ولف يده حول أسفل ظهري، وقال: «ما الذي يمكنني فعله لأساعدك كي تنامي؟».

ابتسمت. أحب أساليبه في الإلهاء. وأجبت: «لقد مضى أسبوعان فقط على خروجك من المشفى، ما يزال أمامك أسبوعان آخران».

كوَّر مؤخرتي بين يديه من تحت قميصه الواسع الذي كنت أرتديه، ومرَّر أصابعه تحت حافة سروالي الداخلي، مسبِّبًا رعشةً في جسمي، ومبعدًا آسا للحظات عن رأسي، وقال: «لم أكن أفكر بممارسة الجنس معكِ، بل كنت أفكر أكثر بما الذي يمكنني فعله من أجلك».

انزلقت إحدى يديه حول بطني، ومن ثمَّ إلى صدري، بينما كان لسانه في الوقت ذاته ينزلق عبر شفتيَّ. قبَّلني بعمق، ثمَّ تراجع ما إن بدأت أشعر بالدوار. وقال: «سأكون حذرًا، سأستخدم يديَّ ولساني لفعل كل شيء، ولكنني سأحرص على أن أترفَّق ببقية جسدي. حسنًا؟».

أعلم أنه يجب عليَّ أن أشجِّعه على الانتظار إلى أن يتعافى، ولكن كلما لمسني فإن لمسته تهدِّئني، وتقلِّل من توتُّري.

إنني بحاجة إلى هذا الآن.

همست: «حسنًا».

ابتسم وهو يخلع بلوزتي، ثمَّ دفعني إلى أن أصبح ظهري على الأريكة، وهو يحوم فوقي. مَرت شفتاه على شفتيَّ، وعنقي، وصدري، وقد أدفأت

أنفاسه كل جزء مني، في حين شقَّت يده طريقها إلى داخل سروالي. فتحت عينيَّ في اللحظة التي انزلقت فيها أصابعه داخلي، فأصدرت أنينًا وأنا أكافح لإبقاء عينيَّ مفتوحتين، فهو يحب التواصل بالعينين.

وأنا أحبه أيضًا، وأجده أمرًا جديدًا بالنسبة إليَّ.

في الماضي، مع آسا، كنت دائمًا ما أُبقي عينيَّ مغلقتين بشدَّة لأنني لا أرغب في النظر إليه.

أما مع لوك، فأخشى أن يفوتني شيء ما، لا أريد أن تفوتني الطريقة التي ينظر إليَّ بها، والطريقة التي يتفاعل بها مع أصواتي. إنني أحب التواصل البصري.

يجب أن نُبقي على التواصل البصري لمدَّة دقيقتين فقط، لأن هذا الوقت هو كل ما تحتاجه لمسته لتجعلني أفقد السيطرة. ما إن بدأت بالارتعاش تحته، حتَّى حصد فمي بفمه، وهو يتلقَّى به اسمه الذي كان يطفو من بين شفتيَّ، قبلني إلى أن انتهى الأمر، ثمَّ أنزل جسده إلى أن أصبح فوقي تمامًا. شعرت بانتصابه تحت سرواله الرياضي، وقد خلق هذا الأمر رغبةً جديدةً داخلي.

قال وهو يحرك وركيه فوقي: «أعتقد أنني أفضل حالًا. إنني متأكد تمامًا أنه من الآمن أن ألج جسدك الآن».

كان صوته أجشَّ ينضح بالرغبة، وسيكون من السهل جدًّا أن أُبعِدَ سرواله الرياضي، وأدعه يكمل الأمر. ولكنني سأشعر بشعورٍ مريعٍ إن حدث أي شيءٍ سيئٍ، نتيجة قلَّة صبرنا، واستهتارنا فيما يتعلق بالالتزام بالوقت الموصَى به من قِبل الطبيب. قد لا يكون قلبه قويًّا بما فيه الكفاية لفعل هذا بعد.

- ما رأيك أن نعقد اتفاقًا؟ ننتظر أسبوعًا واحدًا، ثمَّ نفعل الأمر ببطءٍ شديدٍ.

أصدر لوك أنينًا على عنقي، ولكنه تراجع إلى الخلف، وقال موافقًا: «أسبوع واحد إضافي. ولكن عندها هيِّئي نفسك لفعل الأمر عدَّة مرَّات في اليوم الواحد. لديَّ الكثير لألحق به».

ضحكت بينما انزلق هو إلى جانبي، ساحبًا إياي نحوه، أصبحت مواجهةً له، ويداي على صدره، ورحت أمرر أصابعي حول حواف ضمادته. وهمست: «أتساءل كيف سيبدو شكل ندبتك».

وضع يده على شعري، ومررها بين خصلاته، وصولًا على ظهري، ومرورًا على ذراعي، وقال: «لا أعرف. إنني آمل فقط أن تُقَبِّليها كثيرًا».

ضحكت وأجبت: «لا تقلق، ما إن نصبح على بَرِّ الأمان، سوف تواجه أوقاتًا عصيبةً لإبعاد فمي عنك. إنني أحب جسدكَ كثيرًا». ثمَّ رفعت نظري إليه، وسألته: «هل هذا شيءٌ سطحيٌّ؟ أن أحب النظر إليكَ وأنت بلا قميص؟».

هزَّ رأسه ضاحكًا وقال: «لا، فأول ما جذبني إليك كان مؤخرتك».

- ظننت أن أول ما جذبك إليَّ هو خط اللعاب الذي كان يسيل على ذقني عندما أيقظتني في الصفِّ في أول لقاءٍ لنا.
- أجل، أنتِ محقَّة. إنه اللعاب بلا شك.

ضحكتُ، كم أحب أنه يجعلني أضحك في وقتٍ كهذا. التقت شفتانا وقبلنا بعضنا قبلةً استمرت لخمس دقائق متينة، إلى أن بدأ بالضغط عليَّ مجدَّدًا، أكره أن أراه ملوَّعًا، لكنني لن أسمح له، بأي حالٍ من الأحوال، بمخالفة توصيات الطبيب، فأنا أريده أن يكون بأفضل حالاته الصحية، بأسرع ما يمكن. دفعته بعيدًا، وحاولت أن أدير دفَّة الحديث إلى ناحية قد تساعده على التعافي: «أتعتقد أنك سترى أمكَ قريبًا؟».

كثيرًا ما يذكر أمه في حديثه، وأنا أكره أننا محتجزان هنا، فهذا يعني أنه لن يتمكن من رؤيتها إلى أن تنتهي جلسة الاستماع التالية، وأن يصبح آسا، كما نأمل، خلف القضبان مجدَّدًا. بالطبع، ما يزال احتمال أن يستعيد حريته مجدَّدًا قائمًا، ولكننا لا نأتي على ذكر هذا الاحتمال.

- سنراها عندما ينتهي كل هذا، وسوف تحبكِ شريكةً لي.

ابتسمت، وأنا أتساءل كيف سيبدو الأمر عندما يكون لديك أمٌّ تحبك، بدأ تفكيري يستحضر عائلتي، وستيفن، ثمَّ تلاشت ابتسامتي.

لاحظ لوك ذلك، لأنه مرَّر ظهر أصابعه على خدي، وسألني: «ما الخطب؟».

حاولت أن أبعد قلقه بقولي: «إنني فقط أفكر بستيفن. على أمل أن يكون بخير خلال كل هذا، أكره أنني لا أتمكّن من زيارته».

عثرت يد لوك على يدي، ومرَّر أصابعه بين أصابعي، وقال: «إنه بخير يا سلوان، فهو يخضع للحماية على مدار أربع وعشرين ساعةٍ في اليوم. ليس عليكِ أن تقلقي بشأنه، إنني حريص على ذلك».

أكره أن آسا قد وضعنا في هذه الحالة، حالة لا يمكنني فيها حتَّى أن أرى أخي، ولوك أيضًا لا يمكنه حتَّى أن يرى أمه، لا يمكننا أن نغادر هذه الشقة، وعلينا أن نؤمِّن حماية لأي أحد نحبه.

هذا ليس أمرًا صحيحًا.

أكره آسا جاكسون، أكره أنني قد التقيتُه يومًا.

- أريده أن يدفع ثمن كل شيءٍ سبق وفعله يا لوك.

لا يمكنني أن أنظر في عينيه عندما يكون صدري معتملًا بهذا الكم من الحقد، وتابعت: «أريده أن يعاني بأسوأ طريقةٍ ممكنة، وهذه الرغبة تجعلني أشعر بأنني شخص شديد السوء».

وضع شفتيه على جبيني، برقَّةٍ ولطفٍ، وقال: «إنه يستحقُّ أن يقضي بقية حياته في السجن يا سلوان، لا ينبغي أن تشعري بالذنب لرغبتك بهذا».

تراجعت قليلًا، ونظرت في عينيه، وقلت له: «لا، ليس هذا ما قصدته بالانتقام، فالسجن لن يؤثر فيه كما يؤثر في الناس الآخرين. أريده أن يتأذَّى بحق، أن يعرف أنني لا أبادله مشاعره المريضة الاستحواذية بأي شكل من الأشكال. أريده أن يرى إلى أي مدى أحبكَ، فقط كي يناله مقدار الأذى ذاته الذي سببه لكل شخص مرَّ في حياته. أريده أن يُجبر على معرفة أنني أحبك، وأنني سأختارك أنت لا هو. هذا سيجرحه في الصميم».

لمعت نظرةٌ من التأمل في عيني لوك، وهو يتطلع إليَّ، وقال: «إن كانت رغبتك هذه تعني أنك شخص سيئ، عندها فنحن الاثنان شخصان شريران، لأنني سأقدِّم له أي شيء كي أجعله يعاني هكذا».

أعرف أن هذا يبدو غريبًا، لكن كلماته رسمت ابتسامةً على وجهي. أعتقد أنك عندما تتعرض لضغط كبير بما فيه الكفاية، يصبح الانتقام هو الشيء

الوحيد الذي بإمكانه مساعدتك على المضي قدمًا، وأعرف أن هذا ليس بالأمر الصحي، ومتأكدة من أن لوك يعرف أيضًا، ولكن إدراكك للفرق بين الصحيح والخاطئ لا يغير شعورك، بل يجعلك تشعر بالذنب لأن هذه المشاعر انتابتك في المقام الأول.

دسست نفسي في حضنه، وأرحت رأسي على صدره، وهمست: «أحيانًا تخطر لي بعض الأفكار السيئة ...».

توقَّفت عن الكلام، لأنني لست واثقةً من أنني يجب أن أقول بصوتٍ عالٍ ما أنا على وشك قوله. وضع لوك شفتيه على قمة رأسي، وقال: «أخبريني».

- ستظن بي سوءًا.

- لا يمكنني ذلك البتَّة.

أغلقت عينيَّ، غير واثقة ممَّا سيظنه لوك بي بعد اعترافي، ولكنني سأشعر بشعور جيد إن أخرجتُ ما داخل قلبي، وأطلعت أحدهم على مقدار الضغينة التي أخفيها داخلي، فقلت: «أحيانًا... أتمنَّى لو يمكن لمرَّةٍ واحدةٍ فقط... أن يشاهدك آسا وأنت تضاجعني، هذا هو الأمر الوحيد الذي سيقتل ما تبقَّى من روحه. أتمنَّى لو يمكن إجباره بطريقةٍ ما على رؤيتك وأنت تأخذ ما ظن أنه ملكه».

مرَّ وقت طويل ولم يجب لوك، بدأت أشعر بالإحراج لاعترافي بالأمر بصوتٍ عالٍ، فأنا لا أرغب بأن يعتقد أنني لدي هذه الرغبة بأن يرانا آسا من أجل المتعة، فالأمر مختلف تمامًا عن هذا. بعد كل ما جعلني آسا أمر به، أعرف أن هذا الأمر سيؤذيه أكثر من أي شيء آخر، وبالتالي فإن رغباتي الجامحة تنحصر كلها بكونها طريقة أستطيع من خلالها أن أنتقم منه شر انتقام.

وأخيرًا قال لوك: «سلوان، لقد فعل بك الكثير وأنتِ لا تستحقين ذلك، أكثر بكثير ممَّا ينبغي لأي أحد أن يتحمَّله، لذا فمن الطبيعي جدًّا بالنسبة إليكِ أن ترغبي بأن يعاني. إياكِ أبدًا أن تشعري بالذنب، أبدًا».

تنهدت براحة بعد أن سمعت كلامه، وقلت: «ما هو أقسى انتقام بالنسبة إليك؟».

ضحك لوك قليلًا، وأجاب: «انتقامي الوحيد سيكون برؤيتي لكِ وأنتِ تُنزلين به الانتقام القاسي الذي تريدين. أريد فقط أن أراكِ تحصلين على انتقامكِ المرجو وتثأرين. لذا فأنا أريد أي شيء يوصلك إليه».

إنني أحبه، أحبه بالفعل، أحبه كثيرًا. أبعدت رأسي عن صدره، وقلت: «أحبك يا لوك».

كوَّر وجهي بين راحتيه، وقال: «أنا أيضًا أحبكِ يا حبيبتي».

ثمَّ تبادلنا القُبلات، لكننا توقفنا على صوت قرع.

قرع عالٍ على مركز باب الشقَّة، سيطر عليَّ الرعب في الحال، وسرت الرعشة في جسدي بأكمله، وعاد الرجفان إلى يديَّ.

رأيت لوك واقفًا، ولم أكن قد لاحظت عندما قفز عن الأريكة أنه رمى إليَّ قميصي، ومشى عبر غرفة المعيشة، ثمَّ أحضر مسدسه عن القاطع.

ازداد الطرق على الباب.

أشار إليَّ بأن أنهض، وأقف بقربه، وفعلت ذلك. سألته: «من يعرف أننا هنا؟».

أجابني وهو يسير نحو الباب الأمامي: «رايان فقط».

لحقته، انحنى ونظر من العين الساحرة، ثمَّ تراجع إلى الخلف وأسند ظهره إلى الجدار قرب الباب، وقال: «إنه رايان».

همستُ: «الحمد لله».

لم يتحرَّك لوك، وظلَّ مسدسه مرفوعًا أمامه، وعيناه تحملقان بعينيَّ.

- ما الخطب؟

سحب لوك نفسًا سريعًا، ثمَّ زفره، وقال: «إنه لا يفرك عنقه».

***

لـوك

بدت سلوان محبطةً للغاية، فهي تعرف الحركة بيني وبين رايان للإشارة إلى أن كل شيء آمن، وقد أدركت الآن أن لا شيء آمن.

نظرت مجدَّدًا من العين الساحرة، آملًا أنني لم ألحظ إشارتنا المعتادة في أول مرَّة، لكنه لم يكن يفرك عنقه هذه المرَّة أيضًا، والساعة الآن تشير إلى الرابعة صباحًا. ما الذي قاده إلى هنا في هذا الوقت؟

قال رايان: «افتح الباب يا لوك، أعرف أنك في الداخل».

رايان ينظر مباشرةً في العين الساحرة، ولكنني أعرفه حق المعرفة لأدرك أنه يأمل ألا أفتح الباب.

إن كان آسا خلف هذا، ما الذي دفع رايان لإحضاره إلى هنا؟

نظرت مجدَّدًا عبر العين الساحرة، ورأيت رايان ينظر إلى يساره وكأنه يستمع إلى شخص ما يعطيه الأوامر. سحب رايان نفسًا، ثمَّ أعاد بصره إلى الباب مجدَّدًا، وقال: «لقد أخذ تيللي، إن لم تفتح الباب سيأمرهم بقتلها. إنه الوحيد الذي يعرف أين هي».

همست وأنا أسقط رأسي على الجدار: «اللعنة. اللعنة».

لا أصدِّق أن رايان قد وضع سلوان في هذا المأزق، لا يمكنني تصديق أنه قد أحضره إلى هنا، لا بُدَّ أن ثمَّة تتمَّة لهذا، فرايان قد يضع حياته هو نفسه

بخطر قبل أن يخاطر بحياة شخص آخر. نظرت إلى سلوان، وكانت الدموع تتقاطر من عينيها، وتسيل على خديها، وعيناها متسعتان من الخوف. نظرت مجدَّدًا من العين الساحرة، في اللحظة التي دخل فيها آسا إلى مجال رؤيتي، وهو يوجه مسدسه إلى رأس رايان، وقال بصوت عال بما فيه الكفاية لأسمعه من خلف الباب: «لا تنسَ أن تخبره من لديَّ أيضًا».

أغمض رايان عيناه بأسف، وقال: «لوك، ثمَّة شخص من طرفه واقف أمام منزل أختي الصغرى. أنا آسف يا لوك، أنا آسف للغاية».

أغلقت عينيَّ، فأخت رايان الصغرى هي الشخص الوحيد الذي قد يحميه أكثر من أي أحد آخر في العالم، لقد أصبح الأمر منطقيًّا الآن. وحقيقة أن آسا كان ذكيًّا بما فيه الكفاية ليستخدمها كورقة ضغط، جعلتني أقلق على حياة سلوان. أمسكت هاتفي لأتصل بالنجدة.

- إن اتصلت بالشرطة، وتم اعتقالي، فاعتبرهما هما الاثنتان بعداد الأموات. تيللي، وأخت رايان. ورايان أيضًا. رجالي لديهم أوامر حازمة. لديك ثلاث ثوانٍ لتفتح الباب.

بدأت سلوان تبكي بحرقةٍ الآن، وهي تهُزُّ رأسها، وتتوسَّل إليَّ ألا أفتح الباب، مشيت خطوتين إلى أن أصبحت أمامها مباشرةً، مررت إبهامي على شفتي السفلى، وهمست لها: «أنا آسف للغاية يا سلوان».

ثم أمسكت ذراعها وسحبتها نحوي، وأنا أضغط المسدس على جانب رأسها، وفتحت الباب.

- يا ابن اللعينة.

تراجعتُ إلى داخل المنزل، وأنا أسحب سلوان معي، بينما شق آسا طريقه إلى الداخل، وهو يمسك مسدسه موجِّهًا إياه إلى رأس رايان.

- يبدو أننا في مأزق.

هززت كتفيَّ، وقلت: «ليس حقًّا، ما لديك ويخصُّني يمكن استبداله، أما ما يخصُّك فلا».

سلوان ترتعش بشدَّة بين يديَّ، واللعنة، يقتلني شعوري أنني أفعل هذا بها، لكنها تعلم أنها أداة التفاوض الوحيدة التي يمكننا استخدامها، فهو لن

يرغب البتَّة بقتلها، لذا فأنا آمل أنها مدركة كونها وسيلتنا الوحيدة للخروج من هذا المأزق.

إنها مخاطرة، لكنها الخيار الوحيد المتاح أمامنا.

ثبَّت آسا نظره بقوَّة عليَّ، وهو يقول: «دعها يا لوك، سأطلق سراح رايان، وأغادر برفقة سلوان، ويعود كل شيء إلى وضعه الطبيعي.

لن أسلِّمها أبدًا إلى يديَّ آسا، ولو على جثتي. قلت وأنا أرجعها بعيدًا عنه: «آسا، هل تذكر المرَّة الأخيرة التي كنا محبوسين فيها في غرفة واحدة معًا؟ لقد كنت تشعر بفضول شديد لمعرفة تفاصيل أول علاقة حميمة بيني وبين سلوان».

ابتلع ريقه بصعوبة.

- أما زلت مهتمًّا بالاستماع إلى تلك التفاصيل؟

وجَّه آسا مسدسه بحركة تهديدية، دافعًا إياه تحت ذقن رايان، مجبرًا رأسه على الارتفاع، وقد فعلت الأمر ذاته لسلوان، ممَّا جعلها تبكي بحرقةٍ أكثر، وقلت: «أول مرَّة قبَّلتها كانت في غرفة نومك، تمامًا بقرب سريرك».

صاح آسا: «أغلق فمك اللعين القذر يا لوك، سوف أفجِّر دماغه اللعين، وأدع شظاياه تتناثر في كل أرجاء الشَّقَّة».

أومأت، وقلت: «إن فعلت هذا سترى تمامًا كيف تبدو أحشاء سلوان».

كشَّر وجهه، فعلمت أنني بدأت أوثر به، فقلت: «أتظن أنني أهتم إن ماتت؟ هناك ملايين الفتيات الأخريات مثلها يا لوك. إنها لا تعني لي شيئًا، لقد قربتني أكثر منكَ، وهذا كل ما يهمني. إنها مجرَّد عاهرة من البيض الفقراء وقد استغلتك من أجل أموالك. أتظن حقًّا أنني قد آخذ فتاة كهذه إلى منزلي وأقدمها إلى والدتي؟».

أخفض آسا رأسه، إلى أن أصبحت عيناه ضيِّقتَيْن تنظران باتجاهي، وقال: «أتظن أنني أصدِّق هذا؟ محاولة جيدة يا لوك. أعلم أنك تريد الاحتفاظ بها لنفسك، وإلا ما كنت لتبقى معها هنا. والآن، قل لي، ما المقابل الذي تريده لتسلِّمها لي.. حية؟».

- لا يمكنني بعد فعل هذا يا آسا، أنت محقٌّ؛ فأنا لا أرغب بالتخلّي عنها. فلم يتسنَّ لي بعد أن أضاجعها سوى مرَّة واحدة، وهي مدينة لي بمضاجعة جيدة أو اثنتين.

طقطق آسا عنقه، أستطيع أن ألاحظ أن تركيزه بدأ ينصبُّ أكثر عليَّ، وأقل على رايان، لذا ضغطت عليه أكثر قائلًا: «أتريد أن تعرف كيف كانت مضاجعتي الأولى لها، أم لا؟ هذه فرصتك الأخيرة».

هزَّ آسا رأسه، وقال: «ليس تمامًا، ما أريده حقًّا هو ألا أضطر إلى قتلك أنت أو شريكك، ما أريده هو أن تسلِّمني سلوان، لنتمكن من المضي قدمًا بحياتنا».

- لقد كان مغمًى عليك في سريرك في الطابق العلوي.

ضغطت خدِّي على خدِّ سلوان، تحسَّست دموعها، وامتلأ قلبي الملعون بالندم على كل ثانية وضعتها فيها في هذا الوضع، ولكن ليس أمامي خيار آخر.

- كانت سلوان قد خرجت للتَّوِّ من بركة السباحة، وحمَّالة صدرها وسروالها الداخلي مبلَّلين بشدَّة، أتعرف ماذا فعلت يا آسا؟

لم يُجِب، لذا أكملت: «مشت نحوي مباشرةً، وألصقت جسدها بجسدي، ثمَّ صاحت بي مشيرةً إلى أنها عرفت أنني عميل متخفٍّ، وهدَّدتني بأن تخبرك، لذا فعلت ما قد يفعله أي شاب في وضع كهذا، سحبتها إلى جانب المنزل، ودفعتها على الحائط، ثمَّ قبلتها كي أسكتها».

أجبرت نفسي على الابتسام، وتابعتُ: «لقد أحبت ذلك يا آسا، وقد أصدرت أنينًا عاليًا إلى درجةٍ خشيت معها أن توقظك، ثمَّ لفَّت ساقيها حولي، لتجعلني أدرك إلى أي درجة ترغب بي. حملتها إلى سيارتي، وامتطت حجري. لقد ضاجعتني على المقعد الخلفي في سيارتي، بينما كنت أنت تغطُّ بالنوم في الطابق العلوي، لقد ضاجعتني يا آسا. لم تضاجع كارتر، بل لوك، الشرطي. لقد ضاجعتني وهي تعرف أن سبب وجودي في منزلك هو الإيقاع بك».

دفعت سلوان خطوة إلى الأمام، مقتربًا أكثر بقليل من آسا، وأنا أغرز سكيني عميقًا أكثر في قلبه بقولي: «كيف تشعر حيال هذا؟ كيف تشعر حيال

أن معرفتها بكوني شرطيًّا متخفِّيًا يؤسِّس قضية ضدك قد أثارتها أكثر من ظنها أنني مجرَّد تاجر مخدرات مثلك؟».

اتسع منخارا آسا، وراح يحدِّق إلى سلوان، والغضب يتأجَّج في عينيه، وقال: «هل هذا صحيح يا حبيبتي؟».

سلوان محقَّة، فهي الشيء الوحيد الذي يمكن أن يحطمه.

- هل كنتِ تعلمين أنه شرطيٌّ عندما ضاجعتِه؟

سلوان تحدِّق إلى آسا، والخوف يجبر صدرها على الارتفاع والانخفاض بشدَّة، أومأت، وهمست: «هذا صحيح يا آسا، وقد حصلت على أفضل نشوة في حياتي من هذه المضاجعة».

لجزءٍ من الثانية رأيت بأم عيني كلماتها وهي تكسر قلبه، وهي تقسم روحه بأكملها إلى نصفين، تباعد حاجباه، ونفث هواءً من صدره رافضًا تصديق الكلمات التي قالتها له للتو.

هذا الجزء من الثانية هو كل ما تطلَّبه الأمر لأوجِّه مسدسي إليه، سحبت الزناد، وأطلقت النار على يده التي يحمل فيها مسدسه، وفي اللحظة التي أصابته فيها الرصاصة، تحرَّر رايان من قبضته، وأمسك مسدس آسا، وأطلق رصاصةً على كل ساقٍ من سيقانه ليتأكَّد من عجزه عن الحركة.

لفَّت سلوان نفسها حولي، وأمسكتها بقوَّة بإحدى ذراعيَّ، بينما كانت الذراع الأخرى موجَّهةً مباشرةً إلى رأس آسا، أصبعي فوق الزناد، وقد تطلب الأمر كل ما لدي من الحكمة وضبط النفس لأمنع نفسي من إطلاق النار على رأسه، وإنهاء حياته اللعينة عديمة القيمة إلى الأبد.

رأى رايان ذلك على وجهي، وقال لي: «لا تفعلها يا لوك».

سقط آسا على الأرض، وكان رايان فوقه، وهو يكبِّل يديه خلف ظهره، وقال آمرًا: «أين تيللي؟».

نظر آسا بعينيه، لديه ثلاثة جروح من أثر الرصاص في جسده، ولا واحد منها بالضرورة مهدد للحياة، ولكن كانت ثمَّة نظرة ثابتة على وجهه، وكأنه لا يشعر بالألم الجسدي، وقال: «اللعنة إن كنت أعرف».

مدَّ رايان يده مجدَّدًا وضرب جانب رأس آسا بعقب مسدسه، تناثرت الدماء على الجدار، وأخرج بعدها هاتف آسا من جيبه، وقال:

- ستتصل بهم وتوقف الأمر الآن! ستحرِّر تيللي وأختي، أيها القاذورة اللعين!

حدَّق آسا إلى الأعلى نحو رايان ضاحكًا، وقال: «كانت أختك مجرَّد تخمين نابع من الحظ، عثرت عليها على الإنترنت، وبحثت عن عنوانها، ليس لديَّ حتَّى أشخاص يتربَّصون بمنزلها، أيها الساذج الملعون. الصورة التي أريتها لك قد التُقِطَت في الليلة الماضية».

نظر إليه رايان طويلًا وبقسوة، ثمَّ أخرج هاتفه، وطلب رقمًا، وقال: «هل أنتِ بخير؟».

توقَّف قليلًا، ثمَّ قال: «تيللي، بحقِّ الجحيم هل أنتِ بخير؟ هذه ليست مزحة! أين أنتِ؟».

أغلق رايان عينيه، وفي جزء من الثانية، ضرب بمسدسه رأس آسا من جديد، وهو يقول: «أيها اللعين المثير للشفقة!».

أغلق الخط، واتصل بأخته قائلًا: «مرحبًا، سأرسل رجال الشرطة إلى منزلك، لا تهلعي، أريد فقط أن أحرص على أنكِ بخير».

عندما أنهى مكالمته، نظر إليَّ، وهزَّ رأسه قائلًا: «أنا آسف يا لوك، لم تكن أمامي طريقة لأعرف ما إن كان يكذب أم لا، لم أستطع المخاطرة».

- كنت لأفعل الشيء ذاته.

تأكَّد رايان من أن أصفاد آسا مشدودة إلى رفِّ المدفأة، ثمَّ مشى نحو الباب، وقال: «سأكلم القسم ليأتوا ويلتقطوا هذا الوغد، سأريهم الطريق، ابقِ مسدسك موجَّهًا نحوه إلى أن يصلوا ويأخذوه».

ما إن أُغلق الباب حتَّى سحبت سلوان إليَّ، وضممتها بشدَّة، قائلًا: «أنا آسف، آسف لأنني فعلت هذا، آسف لأنني وجهت مسدسًا إلى رأسكِ، وقلت تلك الأشياء».

وقفت على رؤوس أصابعها، وقبَّلتني.

- لقد أنقذت حياتي يا لوك، لا تعتذر، أعلم ما الذي تفعله.

زمجر آسا: «ابعد يديكَ عنها».

نظرنا كلانا إليه، يداه مكبلتان إلى رفِّ المدفأة، وسرواله ملوَّث بالدم السائل من ساقيه، ولكنه ما زال يبدو وكأنه غير مهتمٌ بحقيقة أنه أصيب بثلاث طلقات نارية. كان يحدِّق إلى سلوان، والغضب يتَّقد في عينيه. كل ما يمكنني التفكير به هو سلوان، وكم أشعر بالراحة لأن هذا الوغد سيزجُّ الآن في السجن لا محالة.

على الأقل ستشعر بالأمان.

لكنها لن تشعر بأنها قد ثأرت لنفسها.

***

آســـا

رأيت الوغد اللعين وهو يضع يديه عليها، ويمرِّر شفتيه بين خصلات شعرها، أشعر وكأن ثمَّة من يضرب معدتي من الداخل بمنجلٍ لعين، في كل مرَّة يلمسها يزداد شعوري بالغثيان. قلت له آمرًا: «أبعد يديك عنها».

التقت عينا سلوان بعيني، ومشت بتلقائية نحو الباب وأقفلته، ثمَّ عادت إلى لوك وأسندت ظهرها إلى صدره، ثمَّ جذبت يديه إلى وسطها، وقالت: «لا أريده أن يبعد يديه عني، إنه يولِّد لديَّ مشاعر يا آسا، مشاعر لم تستطع أنت البتَّة توليدها».

رفعَت بلوزتها، وأدخلت إحدى يديه تحتها.

ما الذي تفعله بحقِّ الجحيم؟

أجد صعوبةً شديدةً في السيطرة على أنفاسي الآن، لم يسبق لي أن كرهت شيئًا إلى هذه الدرجة، لو تطلَّب منِّي الأمر الذهاب إلى الكنيسة فقط لأومن أن ثمَّة جحيمًا سيتعفَّن داخله لوك، ما كنت لأفوِّت قُدَّاسًا.

ثبَّت لوك نظره بعيني، وهو ينزل فمه إلى عنقها، يمكنني رؤية يده تتحرَّك داخل بلوزتها، مرتفعةً مباشرةً إلى صدرها، يداعب نهديها بين يده، فتقيأتُ، وقلت بصوتٍ بائسٍ: «سلوان، حبيبتي، توقَّفي، توقَّفي عن السماح له بلمسك هكذا، أنتِ لا تحبين الأمر».

رحت ألوي معصميَّ بقوَّة شديدةٍ، محاولًا كسر هذا الرَّفِّ اللعين، وبدأت الدماء تسيل من أثر الجروح التي تركتها الأصفاد فيها.

أمالت سلوان رأسها إلى الخلف، حتَّى استراح على كتف لوك، لكن نظرها ظَلَّ موجَّهًا نحو الأسفل إليَّ، وقالت: «أتتذكَّر أول مرَّة مارسنا فيها الجنس يا آسا؟ الليلة التي سلبتني فيها عذريتي؟».

هززت رأسي، راغبًا بإسكاتها. كان هذا أمرًا خاصًّا، ولا يجب أن يسمع لوك به منها، إنه شأني، هذه الليلة هي من شأني لأشاركها، الفتيات الجيدات لا يتكلمن كما تتكلم هي الآن، فقط العاهرات من يتكلمن بهذه الطريقة.

مرَّر يده الأخرى على بطنها، وبدأ ينزلها رويدًا رويدًا، وهي تئنُّ أمامي مباشرةً.

اللعنة، يا للجحيم.

تابعت سلوان كلامها: «أخبرتكَ أنني لم أكن جاهزة، لكنني عندما استيقظت وجدتكَ فوقي».

هززت رأسي، وقلت: «توقَّفي سلوان، لا تتكلَّمي معي هكذا يا حبيبتي، أنتِ لا تعنين ما تقولينه».

- كلما فكرت في تلك الليلة، أتقيأ مرارتي، إن الأمر يحرق حنجرتي كلما فكرت كيف أخذت شيئًا مميزًا مني، وعاملتني وكأنه شيء يخصك لتتصرف به كما ترغب.

راقبتُ يد لوك وهي تختفي تحت سروالها الداخلي. شعرت بأشياء على وجهي، قذارة باردة، دموع. اللعنة سأقتله ببطءٍ شديدٍ، حتَّى يتوسل إليَّ أن أنهي حياته.

بدأت عضلاتها تضطرب تحت يد لوك.

رفعت يدها فوقها، ولفتها على عنقه، وقالت: «أكرهك يا آسا، أكرهك بشدَّة. عندما كنت ترغب بمضاجعتي، كنت أبكي. ولمَّا تأوي إلى السرير ليلًا، كنت أصلي ألا تضع يدك عليَّ. عندما تقبِّلني، كنت أتساءل أيهما أَمَرُّ طعم الموت أم شفتيك!».

استدارت، وانحنت على الأريكة، وسحبت لوك إليها، تركته يقبِّلها بينما يده ما تزال داخلها.

اللعنة، لا يمكنني مشاهدة هذا.

أدرت رأسي، وقال لوك: «افتح عينيك يا آسا».

- تبًّا لكَ!

سمعت خطواته وهو يتقدَّم نحوي، ثمَّ شعرت بيده تمسك شعري، خبط رأسي بقوَّة على رفِّ الموقد خلفي، وظل ممسكًا به هناك إلى أن نظرت إليه.

- ستشاهد برغبتك، أو سأفقأ عينيك اللعينتين لتبقيا مفتوحتين!

عاد إلى سلوان، وأنزل سروالها الداخلي حتَّى وصل إلى كاحليها، فركلَتْهُ متخلِّصةً منه.

كنت أرغب بأن أدير وجهي، لكنني لا أزال غير مصدِّقٍ أنها قد تفعل هذا. ما من احتمال لعين أنها قد تفعل هذا بي، هذا ليس من شيمها.

أوه، يا إلهي.

لن تفعل هذا.

لن تسمح له أن يلج جسدها.

لن تفعل هذا بي أبدًا.

أمسكت سلوان شعره بيديها الاثنتين، وقالت: «خذني إليك يا لوك، خذ الجسد الذي أصبح ملكك الآن».

لا يمكنني أن أتنفس.

يا إلهي، لا. قالت وهي تتنهَّد: «لوك».

لا.

حبيبتي، لا.

صدري يؤلمني

اللعنة.

اللعنة.

لا.

لا، لا، لا!

راحت أنفاسي تتقطَّع، وأنا أشهق محاولًا إدخال ما يكفي من الهواء إلى صدري لأستطيع أن أتوسَّل إليها أن تتوقف، ولكن لا يمكنني أن أتكلم.

ضربت رأسي بعنف برفِّ الموقد خلفي.

مرَّة.

لأجعلها تتوقَّف.

مرَّتين.

لأجعله يتوقَّف.

قالت سلوان: «لوك! لم أكن أعلم أن الأمر يمكن أن يكون بهذه الروعة».

ثلاث مرَّات.

أربع مرَّات.

لا يقارن الألم الجسدي، ولو قليلًا، بالألم الهائل الذي تسبِّبه لي بما تفعله الآن، لفَّت ذراعيها حول عنقه، وكذبت عليه قائلةً: «أحبك».

كانت أسنانه على كتفها عندما قال: «أنا أيضًا أحبك يا حبيبتي».

خبطت رأسي مجدَّدًا للمرَّة الخامسة.

المرَّة السادسة.

قالت: «سحأحبك إلى الأبد يا لوك، أنت فقط».

وعندها أخرجت قلبي من صدري، رمت رأسها إلى الخلف وأنَّت.

أريد أن أموت.

سمعته يتأوه، يتأوه فوق عنقها، وهو مدفون داخلها، دون حتَّى أن يستخدم واقيًا ذكريًّا لعينًا، إنه يشوِّهها، إنه يفسدها.

اللعنة، أريد أن أموت.

أغلقت عينيَّ كي لا أرى النتيجة، وهمست: «اقتلوني، اللعنة.. اقتلوني وحسب».

سمعت صوت صفَّارات الإنذار.

اللعنة! آخر ما أرغب بفعله هو أن أعيش برفقة هذه الصورة في سجنٍ لعينٍ.

فتحت عينيَّ في اللحظة التي كانت فيها سلوان تعيد ارتداء سروالها، وهمهمت: «عاهرة لعينة!».

ثم صرخت: «أيتها العاهرة اللعينة! اقتليني وحسب!».

قبلت سلوان لوك مرَّة أخرى، ثمَّ وقفت باستقامةٍ، ومشت نحوي، انحنت أمامي، كنت أرغب بأن أمُدَّ يدي وأخنقها، ولكنني على ثقة من أنني فقدت الكثير من الدماء إلى درجة يتعذَّر عليَّ معها أن أرفع يدي حتَّى.

- لن يقتلك أحد يا آسا، أريدك، ولبقية حياتك، في كل مرَّة تغلق فيها عينيك في زنزانة السجن تلك، أريدك أن تراني، مع لوك، وأنا أمارس الحب مع لوك، وأنا أتزوَّج من لوك، وأنا أنجب أطفال لوك.

انحنت أكثر مقتربةً منِّي إلى أن شممت رائحته تنبعث منها، وهمست وهي تنظر بقوَّة في عينيَّ: «وفي كل سنة، في العشرين من شهر أبريل، ستحتفل عائلتي الجميلة بعيد ميلادك، من خلال قالب حلوى كبير ضخم ولذيذ وبنكهة جوز الهند، أيها الوغد اللعين».

فتح لوك قفل الباب قبل أن يُدفع مفتوحًا بلحظات.

المسدسات مرفوعة.

موجهة إليَّ.

ولكن كل ما أراه هو سلوان.

العاهرة تبتسم، وابتسامتها هي كل ما أراه.

***

سلوان

قبل سنتين وبضعة أشهر

لقد مضى أسبوعان منذ أن بدأ ستيفن في الحصول على تمويل من أجل العيش في المأوى، وقد وصل هذا التمويل في أفضل توقيت ممكن، إذ تزامن مع بدء فصلي الدراسي الأول في الجامعة.

سأكذب إن قلت إنني لم أشعر بالقلق لكونه سيعيش بعيدًا عني، ولكن عيشه بعيدًا أكثر راحةً بالنسبة إليَّ بآلاف المرَّات من فكرة أن يكون في المنزل مع أمي. هدفي الأساسي، بالطبع، هو أن أنقله ليعيش معي في نهاية المطاف، ولكن من الصعب فعل ذلك في الوقت الحالي، وأنا لا أملك حتَّى مكانًا للاستقرار فيه.

طوال حياتي كنت الشخص الذي يعتني بستيفن، لذا، وخلال نموِّي، لم يخطر ببالي أن الجامعة ستكون خيارًا متاحًا أمامي. حدث الأمر قبل شهر من تخرُّجي من المدرسة الثانوية، حيث علمت من خلال مستشار المدرسة عن مساعدات مالية، وأنه يمكنني أن أحصل على مساعدة مالية من الحكومة من أجل ستيفن. من الواضح أن هذا الخيار سبق وأُتيح لوالدتي، ولكن لماذا قد تفعل أي شيء يتطلَّب منها أن تبذل جهدًا؟ ناهيك باعتمادها عليَّ في العناية به.

افترضت، انطلاقًا من أن أمي هي ولية أمره الرسمية، وأنه كان بعمر السادسة عشرة، افترضت أنه سيضطرُّ إلى البقاء معها إلى أن يبلغ من العمر ما يسمح له بالحصول على بعض المساعدة بصفته شخصًا بالغًا.

ولكن الآن، ها نحن ذا، لقد حصلت على مساعدة مالية، وأنا الآن طالبةٌ جامعية بشكلٍ رسميٍّ. مشكلتي الأساسية هي أنني لم أحصل على ما يكفي من المساعدة لتغطية تكاليف العيش في السكن الجامعي، لذا بقيت في المنزل مؤقّتًا.

نوعًا ما.

أنام أحيانًا عند بعض الأصدقاء (حسنًا، إنهم أقرب ما يكونون إلى الزملاء)، لأن منزلي يبعد قرابة الساعة عن الجامعة. عادةً ما أستقلُّ الحافلة للوصول إلى الجامعة، ولكن ذلك يحدث حين يتوفَّر لديَّ المال لاستخدام وسائل النقل، أما في الأيام التي تتوالى فيها الدروس ليومين على التوالي، أحاول فقط أن أجد أحدهم لأتطفَّل عليه، وقد تكرَّر هذا الأمر مرارًا وتكرارًا، لأنني كلما اجتمعت بأمي في غرفةٍ واحدةٍ يتحوَّل الجدال بيننا إلى قتال، لذا حاولت أن أتحاشاها قدر استطاعتي، والآن بعد انتقال ستيفن من المنزل، أصبح من الصعب بمكانٍ بالنسبة إليَّ أن أبقى هناك.

عندما أفكر بحياتي كثيرًا يصيبني نوع من التوتر، حقيقة أنني لا أعيش في السكن الطلَّابي، وأنه لم يعد بحوزتي الكثير من مال المساعدة يخولني لأستأجر شقة، وأنني أتطفل وأنام على أرائك الناس على أمل أن أتمكَّن من التنقُّل بين هذه المنازل بما فيه الكفاية كي لا يدركوا أنني أعيش بلا منزل، وأن كل ما أملك من أمتعةٍ هو ما أحمله في حقيبة ظهري، وذلك فقط لأتجنَّب العودة إلى منزل أمي.

ولكنني أشعر أن الكارما لا بُدَّ أن تقف إلى جانبي في نهاية المطاف، وربما قد بدأت بذلك الآن، فليس عليَّ أن أقلق على ستيفن كما في السابق، بعد أن أصبح في المأوى، ممَّا يعني... ربما أصبح لدي الوقت الآن لأحيا حياتي. في أثناء نموِّي كان كل يوم يشابه سابقه وتاليه في الروتين، حيث أستيقظ، أرتدي ملابسي، وأساعد ستيفن في ارتداء ملابسه، ثمَّ نستقل الحافلة وأنزله عند مدرسته، وأذهب بعدها إلى مدرستي، وعند انتهاء الدوام أمرُّ على ستيفن

وأصحبه ونستقل الحافلة في طريق العودة، وفي المنزل أحضِّر العشاء، وأساعده ليتناول عشاءه، ثمَّ أعطيه أدويته، وأحمِّمه، وأجهزه للنوم، ثمَّ أنجز وظائفي، وأنام، لأكرر الشيء ذاته في اليوم التالي.

ولكن الآن، أشعر بالحرية نوعًا ما. لا أعني بذلك وكأن ستيفن قد سبق وكان عبئًا بالنسبة إليَّ، فأنا أحبه، وقد أفعل أي شيء من أجله، ولكن من الجيد أن أحظى أخيرًا ببعض الوقت لنفسي، إنني آمُل فقط أن أعرف ماذا سأفعل بهذا الوقت، فأنا أشعر بالضياع بعد انتهاء الحصص الدراسية، وأقضي معظم وقتي في المكتبة، وقد تقدمت للحصول على عملٍ خاصٍ بالطلاب في الكلية، وأنا الآن على قائمة الانتظار، من أجل منصبين. كما أنني تقدمت إلى وظيفةٍ في مطعم ماكدونالدز في أسفل شارع الكلية، ولكن من الواضح أن كل طالب جامعي آخر فقير مثلي يرغب في العمل هناك أيضًا.

في الوقت الحالي، وإلى أن أتمكَّن من الحصول على واحدة من هاتين الوظيفتين، وأبدأ بادخار المال للحصول على مكان إقامة لي ولستيفن، سأحاول فقط أن أتدبر أموري، وآمُل أن يطوِّر ستيفن بمرور الوقت مشاعر حب تجاه مؤسسة العناية به الجديدة. حلمي الأكبر الآن سيكون ألا تنقطع المساعدات التي يحصل عليها، وأن يحب وجوده هناك بمرور الوقت، وأن يقدموا له العناية التي يحتاجها، لأنني لم أتمكن بأي طريقة من الطرق أن أزوِّده بحاجاته إن عاش معي، بينما أنا أحاول أن أذهب إلى الكلية، وأحصل على عمل.

بشكلٍ عامٍّ، حياتي ليست مثالية في الوقت الحالي، إنها تتحسن ببطءٍ، ولكن بثبات.

وجلوسي بجانب ذلك الشاب الذي يظهر من وقت إلى آخر في فصل التاريخ، هو إحدى المتع القليلة التي أحصل عليها من الحياة الآن.

دائمًا ما أشعر بالخجل الشديد عندما يظهر في الفصل، وآمل ألا ينظر البتَّة ناحيتي، إذ لم تتوفر لي يومًا النقود اللازمة لأشتري ملابس جميلة أو أسوِّي شعري أو أظفاري، أنا لا أشبه البتَّة الفتيات اللواتي يغازلنه في الفصل. شعري أسود وسابل، وبما أنني لا أستطيع البتَّة أن أقصَّه أو أسرِّحه، لذا تركته ينمو بقدر ما يمكنني إلى أن أصبح من السهل عليَّ أن أشذِّب أطرافه بنفسي.

أحيانًا أشعر أنني ملحوظةٌ بشكل كبير في هذه الكلية، وليس على نحوٍ جيدٍ، فأنا أفضل أكثر أن أندمج، وأختفي داخل الحشد.

أريد أن أكون العكس تمامًا من هذا الشاب. أعتقد أن اسمه هو آسا، وهو على الأرجح واحد من أوسم الشباب الذين سبق ورأيتهم في حياتي الواقعية، ولا يعزى جماله ككل إلى هيئته الخارجية فقط، بل إلى ثقته العالية بنفسه، التي لم يسبق أن رأيت مثلها، إنه يمشي في الصَّفِّ بثقةٍ عمياء، كتفاه العريضتان مشدودتان إلى الخلف، ورأسه مرفوع لأعلى، ويمسح غرفة الصَّفِّ بعينيه، وكأنه يتحدَّى أحدًا أن يقول أي شيء حول أنه نادرًا ما يظهر في الفصل بمعدَّل مرَّة في الأسبوع، حتَّى الأساتذة كانوا يفشلون في توبيخه، ويبدو وكأن توبيخه يوتِّرهم.

عندما يدخل أيٌّ من الطلاب الآخرين إلى الفصل، تكون رؤوسهم منخفضة، وعيونهم مسبلة إلى الأرض، وهم يهرولون إلى مقاعدهم كي لا يلاحظوا تحديق الجميع إليهم، ولكن آسا يبدو أنه يريد أن يحدِّق الجميع إليه، وكأنه سيحبط إن لم ينل اهتمام جميع من في الفصل. بحسب ما أراه فما من داعٍ ليقلق حيال الأمر، فهو يحظى بالاهتمام الذي يرجوه، وأكثر منه.

كنت أحدِّق إليه، بينما المعلم يتكلَّم ويشرح ويزيد عن الحرب العالمية. لدى آسا شعر جميل بالفعل، لا يمكنني أن أمنع نفسي عن التفكير بهيئته وهو مبلَّل، وكيف سيكون الأمر إن مررت أصابعي به، كيف سيكون الأمر إن وقف أمامي وجهًا لوجه، وهو يحدِّق إليَّ وكأنه يرغب أيضًا في لمس شعري.

لست واثقةً ممَّا إن وقع نظره عليَّ حتَّى، ولكنني أحب تخيُّل فكرة أنه ينظر إليَّ أحيانًا، وأتخيَّل كيف يبدو الأمر عندما أكون محور تركيز أي شخص، بحق. لم يسبق أن توفَّر لديَّ الوقت للالتفات إلى الشُّبَّان، بسبب عنايتي بستيفن، فالأمر كان أشبه بعمل جليسة أطفال بدوامٍ لا ينتهي، وليس لديها عطلات نهاية أسبوع أو أعياد. كان الشبان في المدرسة الثانوية يطلبون منِّي الخروج في موعد غرامي معهم كثيرًا، ولكنني لم أجد يومًا شخصًا يمكنه العناية بستيفن في أثناء غيابي. إلا أنني رغبت بالمواعدة، رغبت بكل الأشياء الطبيعية التي ترغب بها فتيات المدرسة الثانوية، مثل حبيب، وقبلة أولى، وكل ما يأتي مع هذا.

في مرَّة من المرَّات راودني شعور مستميت بالأمل لنيل تلك القبلة الأولى، وذلك عندما سألني أخيرًا الشاب الذي كنت معجبة به، الخروج في موعد معه، واقترحت أن نذهب إلى منزلي عوضًا عن الخروج إلى مكانٍ ما، فبهذه الطريقة يتسنَّى لي أن أتعرف أكثر بالشاب، وأن أبقي عيني على ستيفن في الآن ذاته. لم تكن أمي في المنزل تلك الليلة، لذا قبل أن يصل الشاب استعددتُ أحسن استعداد لاستقباله، ولكن، وقبل أن يرن الجرس مباشرةً، أصيب ستيفن بانهيار على طاولة المطبخ، تطلب الأمر كل ما لديَّ لأتمكن أخيرًا من السيطرة عليه، ولكن بحلول ذلك كنا قد أصبحنا كلانا في حالة فوضى، يغطينا الطعام، وشعري ملوَّث بالبطاطا الحلوة، وبلوزتي ممزَّقة عند الكم.

فتحت الباب بحالتي هذه، وأنا ألهث من الإعياء، ألقى الشاب نظرةً واحدةً إليَّ، ونظرةً إلى ستيفن والفوضى التي سببها في المطبخ، وتراجع حالًا إلى خارج المنزل، واقترح قائلًا: «ربما أزورك مرَّة أخرى».

ولكنه لم يطلب منِّي الخروج في موعدٍ آخر لاحقًا، وأنا واثقة من أنه قد أخبر كل شابٍّ في المدرسة بما حدث، لأن أحدًا آخر لم يسألني بعدها الخروج في موعدٍ قط.

أحيانًا يكون الشباب أوغادًا بحق.

أبعدت نظري عن آسا، ونظرت إلى اللوح، محاولةً لحاق ما فاتني من المحاضرة بينما أنا غارقة في أفكاري، كنت شديدة التركيز في الكتابة في دفتري عندما نفد الحبر من قلمي.

هززته وحاولت الكتابة مجدَّدًا، لكنه لم يستجب.

لم أكن قد أحضرت حقيبتي معي إلى الصَّفّ، لذا لم أملك قلمًا احتياطيًّا، استمررت بمحاولة جعله يكتب، ولم ألاحظ أنني أصدر ضجيجًا بخربشتي بالقلم على الورقة إلا عندما شعرت بآسا يحدق إليَّ.

لم أرفع نظري لأتأكَّد، إذ أمكنني الشعور بعينيه المسلَّطتين عليَّ، وهو يلتقط بهما ملابسي الرثَّة، وأظفاري السيئة، وشعري الفوضوي، وقلة المكياج على وجهي، أردت أن أزحف تحت المقعد وأختبئ من تفحُّصه لي، ولكن فات الأوان.

- إليكِ.

اللعنة.

لا أريد أن أنظر إليه، ولكن ها هو ذا يمُدُّ يده بقلم إليَّ، محاولًا إعطائي إياه. شعرت في الحال بالحرارة تغمر جسدي بأكمله، ابتداءً من بشرتي وصولًا إلى قعر معدتي.

عندما رفعت نظري إليه، والتقت عيناي بعينيه للمرَّة الأولى، شهقت. وجهه مثالي، يتمتع بذقنٍ قويٍّ، وشفتين ملآنتين كانتا مبللتين وجذابتين، عندما ابتسم لي ظهرت غمازتان عند زاويتي فمه، معطيتان ملامحه القوية الخشنة اللمسة المناسبة من السحر الصبياني.

يمكنني أن أستمرَّ إلى ما لا نهاية بوصف مثالية حضوره الجسدي، ولكنني لست هذا النوع من الأشخاص. لست سطحية إلى هذه الدرجة.

أليس كذلك؟

لا يهمني أن شعره سميك بما فيه الكفاية ليملأ قبضة يدي، لا يهمني أن ذراعيه بعضلاتهما تبدوان لي وكأنهما يمكن أن تحملاني دون أي جهد، لا يهمني أن قميصه الأزرق المرقَّط الذي كان يرتديه يناسبه تمامًا، ولست بحاجة حتَّى لأدخل أصابعي تحت قميصه لأستطيع تمييز حدود كل عضلة من عضلات بطنه.

لا شيء من هذا يهم، فأنا لست من هذا النوع من الأشخاص.

إذَنْ لماذا أجد صعوبةً شديدةً في التنفُّس؟

ما تزال يده ممدودةً، وهو يحاول أن يعطيني القلم، ضحِكَ بخفوت على عدم استجابتي، ثمَّ رفع نفسه عن الكرسي بما فيه الكفاية ليضع القلم على مقعدي، غمز لي بعينه، وأعاد تركيز بصره إلى الأمام.

نظرت إلى القلم، ثمَّ إليه، لأجد أنه لم يعد يسجل الملاحظات.

هل أعطاني قلمه الوحيد؟

أمسكت القلم، وأجبرت نفسي إجبارًا على متابعة تسجيل الملاحظات، كنت شديدة التركيز من قبل، وأدوِّن الملاحظات بانسيابية، أما الآن فقد

سيطرت على تفكيري حقيقة أنني يجب أن أعيد إليه قلمه وأشكره، ممَّا يعني، بالضرورة، تجاذبنا لأطراف الحديث.

عندما أنهى الأستاذ محاضرته، كانت يداي ترتعشان، إنني ساذجةٌ بالمطلق. لملمتُ أشيائي وقبل أن يقف حتَّى، مررت به، وهمهمت بكلمة «شكرًا»، وأنا أضع القلم على مقعده وأسير مبتعدةً على عجل.

خرجت من غرفة الصَّفِّ على ساقين ضعيفتين واهيتين، وعندما ابتعدت بقرابة قدمين عن الباب، شعرت بيدٍ على مرفقي.

- مرحبًا.

أغلقت عينيَّ لأن هذا الصوت بدا لي أكثر إثارةً عندما يكون موجهًا إليَّ، من هذا القرب. عندما استدرت، ونظرت إليه، كان يحدق من الأعلى إليَّ، وغمازاته تغوصان أعمق في وجهه بفعل ابتسامته، مرت عيناه على قسماتي واحدةً تلو الأخرى، وكنت لأدفع أي ثمن لقاء أن أعرف ما الذي يجول في خاطره وهو يتأملني، انحنى على الخزانة بقربي، وقال: «ما اسمك؟».

أوه، يا إلهي!

سيطلب منِّي الخروج في موعدٍ معه.

الشاب الذي لم أظن يومًا أنه سيلاحظ وجودي قد لاحظه، ولسبب ما، يريد أن يطلب منِّي الخروج في موعدٍ معه، ظننت أنني سأرغب بالموافقة، لكنني لا أرغب، ليس بعد أن رأيته عن قرب، ليس بعد أن شعرت بما يفعله صوته فقط عند سماعه بأحشائي، أنا لا أملك ما لديه من خبرة، يمكنني أن أعرف من خلال نظرة عينه أنه يمكن أن يأكلني حية.

يجب أن أمهِّد طريقي لشخصٍ مثله، لا يمكنني أن أغوص في عالم المواعدة مع شخص مثله كمحاولة أولى لي، أنا التي لم يسبق لي حتَّى أن قبَّلتُ شابًّا.

استدرت في الحال، ومشيت في الاتجاه المعاكس، وبعد بضع خطوات، شعرت مجدَّدًا بيدٍ على مرفقي، وقال وهو يضحك هذه المرة: «مرحبًا».

توقَّفت مجدَّدًا وواجهته، وقلت: «لقد شكرتك بالفعل لأنك أعرتني قلمك».

لماذا أتصرَّف معه بوضاعة؟

ما تزال تلك الابتسامة الحلوة الغبية مطبوعةً على وجهه، حتَّى أسنانه مثيرة، من الذي بحقِّ الجحيم لديه أسنان مثيرة؟

قال: «أعرف، وأنتِ على الرحب والسعة، ولكنني الآن بحاجةٍ نوعًا ما لأن تردِّي لي الجميل».

ربما لا أعرف شيئًا عن المواعدة، ولكنني أعرف معنى أن يطلب شاب مثله معروفًا.

- لقد أعرتني قلمًا، إنها خدمة بالكاد تستحق الرد.

رفع أحد حاجبيه، وقال: «لقد أعرتكِ قلمي الوحيد، والآن أحتاج نسخةً من الملاحظات التي دوَّنتِها».

أوه، ربما لا يريد أن يطلب منِّي الخروج في موعد.

- إنك تحضر واحدًا من كل أربع صفوف، والآن أنت قلِقٌ أن تفوتك عشر دقائق من الملاحظات؟ حقًّا؟

ضاقت زاويتا عينيه قليلًا، وقال وهو ينحني إلى الأمام: «في الحقيقة، إنني أحاول أن أغازلك، ولكنكِ تصعِّبين الأمر قليلًا».

أوه.

عضضت على زاوية فمي للحظة، محاولةً إخفاء رَدِّ الفعل الذي ولَّدهُ لديَّ تعليقه، لكنه على الأرجح معتادٌ على ردود أفعال مشابهة، لأنني على ثقة من كوني الفتاة الوحيدة المتبقية في الكلية التي لم يغازلها بعد.

- أُدعى سلوان، ولست مهتمةً بأن يُغازلني أحد.

كرر اسمي مع ابتسامة: «سلوان، جميلٌ جدًّا».

حقًّا؟ كيف يمكن لهذه الكلمات الثلاث أن تسبب رعشةً على طول ذراعيَّ؟

اقترب منِّي خطوةً أخرى، رائحته كرائحة النعناع، وقال: «سلوان... يجب أن تذهبي إلى العَشاء معي الليلة، أعدك أن أكون رجلًا محترمًا ما دمتِ تريدين ذلك».

نفَّرني تعليقُه وأثارني في الآن ذاته، لا أعرف كيف. شعرت وكأن جسدي ووجداني يتصارعان في حرب، لا سيَّما الآن وأنا أحدِّق إلى فمه، وأتساءل

ما إن سيكون هو أول رجل أقبّله. أتخيَّل أن تقبيل رجل يشبه قليلًا شعورك عندما تأكل ثمرة أناناس، مشبع ولزج نوعًا ما، ولكن الفرق أنه يمكنك الشعور بالقُبْلَة على لسانك لساعات طويلة بعد حدوثها.

لقد أعارني قلمًا، وها أنا ذا تراودني أحلام اليقظة حول تقبيله؟ أفكاري ليست آمنة وأنا بقرب هذا الشاب.

هززت رأسي، واستدرت لأمشي مبتعدةً.

ليست لديَّ أيُّ فكرة عن السبب الذي دفعني لرفضه، فليس لدي ما هو أفضل لأفعله الليلة، ولكن شيء ما بِهِ أوحى لي بأن هذا الطريق سيورطني فيما هو أكبر مني. إنه غير آمن، لا يشبه مياهًا ضحلةً يخطو فيها الناس على رؤوس أصابعهم، بعمق الكاحل، بل عميق بعمق المياه في نهاية البحر، تلك التي تسبح فيها أسماك القرش، وإن وافقت على الخروج معه، فسأمشي على اللوح الخشبي الخارج من السفينة مباشرة إلى أعماقه الحالكة.

كيف سأفعل ذلك وأنا لا فكرة لدي أصلًا إن كنت أستطيع السباحة؟

إنه أمامي الآن، ممَّا جعلني أتوقَّف فجأةً، تقدم خطوةً إلى الأمام، فتراجعت مثلها إلى الخلف. وقال: «ليس علينا أن ندعوه موعدًا غراميًا، اللعنة، إنني فقط منجذبٌ إليكِ بشدَّة، وأرغب أن أتناول وجبةً وأتمكَّن من التحديق إليكِ وأنا أتناولها. أتسمحين لي باصطحابك الليلة لأتمكن من التحديق بكِ وأنا آكل طعامي؟».

ظهرت ابتسامةٌ مرحةٌ على وجهه، ولم أستطع منع نفسي من الضحك عليه، تبًّا، لديه لسان قذر، لماذا أجد هذا الأمر مثيرًا على نحوٍ لا يصدق؟

شكَّل بشفتيه كلمة «رجاءً»، وهو ينظر إليَّ مستميتًا، لا أعرف لماذا أحببت أنه قد شكَّل الكلمة دون أن ينطقها بصوته.

استغرقت دقيقةً للتفكير في كل الأشياء التي كنت أقولها لنفسي سابقًا في غرفة الصَّفِّ، أشياء مثل أنني شابة، وهذه فرصتي الأولى لاختبار الحياة ما دام ستيفن يحظى بعناية على مدار الأربع والعشرين ساعة. إن لم أبدأ باختبار الأشياء قريبًا، فسيفوتني قطار العمر.

نفخت نَفَسًا، وقلت: «حسنًا، سأسمح لك بمشاهدتي وأنت تأكل، أيها الغريب الأطوار. أقلَّني من أمام وحدة التلاميذ في السابعة».

هزَّ رأسه قائلًا: «سأمُرُّ بكِ في الثامنة والنصف، فأنا متفرِّغ حينها».

- هذا موعد متأخر بالفعل.

ابتسم وقال: «سنخرج في موعدٍ إذَنْ».

ثم انحنى إلى الأمام وقرَّب شفتيه من أذني، وقال: «أرجوكِ أن ترتدي الفستان الذي ارتديتِه إلى الفصل يوم الثلاثاء الماضي، الفستان المزيَّن بأزهار صفراء».

مرَّ من أمامي ومشى مبتعدًا عني، ولم يتسنَّ لي حتَّى أن أرى تعابير وجهه بعد هذه الكلمات، أشعر وكأن هذه الكلمات أرسلت شحنة من الكهرباء سرت خلال جسدي.

ألاحَظَ ما كنت أرتديه في الأسبوع الماضي؟

غطيت ابتسامتي بيدي، ومشيت باتجاه صفِّي التالي.

***

جهَّزت نفسي في غرفة الغسيل.

ما أحزن هذا!

الفستان الذي طلب منِّي آسا أن أرتديه متَّسخ، ولا أستطيع استعمال الغسَّالة أو المجفِّف في منزلي، أو في منزل الفتاة التي كنت أقيم عندها في الأيام القليلة الماضية. لذا جمعت ملابسي المتَّسخة، وذهبت إلى غرفة الغسيل، وسوَّيتُ شعري ومكياجي في حمَّام المغسلة، بينما تُغسل ملابسي. أتساءل ما إن كان سيظل منجذبًا إليَّ إن عرف بهذا.

لاحظت اسم العلامة التجارية للملابس التي يرتديها، وزوجَي الأحذية الجديد الذي ينتعله عندما يقرِّر أن يحضر الدرس، حتَّى القلم الذي أعارني إياه يبدو أغلى ثمنًا من فستاني هذا.

ما زلت لا أعرف السبب الذي يدعوه للرغبة في الخروج معي، لا تفهموني على نحو خاطئ، فأنا ليست لدي مشكلات كبيرة مع حب الذات، لكنني فقط

أتساءل لماذا، لماذا سألني أنا من بين كل الفتيات اللواتي يغازلنه، للخروج في موعدٍ معه. أنا لست صاخبةً، ولا أسعى للفت الانتباه، ولا أرتدي ملابس باهرة، بل وإن كان أي شيء فأنا أفعل كل ما بإمكاني لتجنب الشباب من أمثاله، لأنني أكره المجهول.

عندما تقضين حياتكِ دون أن تتفاعلي مع الشباب في مجال المغازلة أو العلاقات، تصلين إلى مرحلة تشعرين معها أنكِ متأخرة كثيرًا، وأنه ما من طريقة ستتمكَّنين من خلالها من اللحاق بركب الأشخاص المماثلين لعمرك.

أشعر أنني من جيل مختلف تمامًا عنهم. حدقت إلى كل الأشخاص الذين مرُّوا بي وهم داخلين إلى الحرم الجامعي، أو خارجين منه، بعضهم بادلني النظرات، وبعضهم لا، كما سألني شابان إن كنت بحاجة إلى المساعدة.

لا أعرف إن كانا يبديان إعجابهما بي، أم أنهما كلماني لأنني كنت أقف هنا لمدة نصف ساعة، واحدة من الأشياء التي لا أحبِّذها البتَّة في شخص هي التأخر، لقد خسر نقطةً بحلول الآن، هذا ولم يبدأ موعدنا بعد. سأعطيه عشر دقائق أخرى، وإن لم يظهر سأذهب.

مرَّت دقيقة.

ثلاث.

سبع.

ثمان.

تسع.

انتهى الوقت، أيها الوغد.

علَّقت حقيبتي حول كتفي، واستدرت باتجاه موقف الباص، وبينما كنت أنعطف عند الزاوية سمعت صرير عجلات سيارة وهي تدخل المرأب ثمَّ تتوقَّف، تلاها صوت غلق الباب، لكنني لم أستدر، بل تابعت السير.

- سلوان!

سمعت خطواته وهو يجري خلفي، وشعرت بالراحة لأنه هنا، ممَّا يعني أنه لم يتخلَّف عن موعده معي، ولكنه ما يزال متأخِّرًا خمسًا وأربعين دقيقة.

توقّفت عندما انبثق أمامي، وقال وعيناه تتفحّصان جسدي بابتسامة: «مرحبًا، هل أنتِ جاهزة؟».

ضحكت ضحكةً مرتابة، أيتكلّم بجدية؟ ألن يعتذر حتّى عن تأخره؟

أجبته بحنقٍ: «انتظرتك لأربعين دقيقة، شعرت بجوعٍ شديدٍ، والآن قد تجاوزت مرحلة الجوع وحان موعد نومي. تصبح على خير يا آسا».

ظهر تعبير الأسف في عينيه حالًا، وأمسك كتفيَّ، قائلًا: «لا، لا، لا تقولي هذا. أنا آسف، لقد أعاقني أمر ما، كنت لأكلمك، لكنني لا أعرف رقم هاتفك».

- ليس لديَّ هاتف.

رفع أحد حاجبيه مستغربًا، وقال: «لماذا لا تحملين هاتفًا؟ من ذا الذي لا يملك هاتفًا محمولًا هذه الأيام؟».

- الناس الفقراء يا آسا، الناس الذين لا يمكنهم تحمُّل كلفة الكماليات العصرية، الأشخاص الذين أنفقوا آخر ثلاثة دولارات لديهم في المغسلة، لغسل الفستان الذي طُلب منهم أن يلبسوه من قبل الشاب الذي أتى متأخِّرًا، الناس الذين ليس لديهم ما يكفي من الوقت ليبقوا مستيقظين حتّى هذا الوقت المتأخر، لأن وسيلة النقل الوحيدة المتاحة لهم هي الحافلة، والحافلة الأخيرة تغادر خلال عشر دقائق من الآن، لذا إن كنت تعذرني، يجب أن أذهب إلى موقف الحافلة الآن.

حاولت أن أندفع متجاوزةً إيَّاه، لكنه وضع يديه على وجهي، وقال: «أرجوكِ لا ترحلي، لقد كنت أتطلع لهذا اللقاء طوال اليوم، لقد بذلت كل جهدي لأصل على الموعد، وأعرف أنني تأخرت، ولكن ها أنا هنا. لذا أيمكننا رجاءً أن نبدأ من جديد؟ أيمكننا التظاهر أنني قلت إن الموعد في التاسعة وعشر دقائق، وأنني قد وصلت على الموعد تمامًا، وأنك متحمِّسة بالفعل لتعرفي إلى أين سآخذكِ؟».

نقَّل بصره بين عينيَّ الاثنتين برجاء، إنه بالفعل محبَّب على الرغم من غروره، يا له من مزيجٍ عنيفٍ!

أجبرت نفسي على الابتسام، وقلت: «إلى أين ستأخذني؟».

ارتسمت الابتسامة على وجهه بالكامل، وأجابني: «شكرًا لك، إنها مفاجأة، وسوف نصل إلى المكان مشيًا على الأقدام، هل يناسبك هذا؟».

أومأت، وحاولت أن أتجاوز حقيقة أنه قد تأخر، من الممكن أن تحدث الكثير من الأشياء وتجعله يتأخر لمدة نصف ساعة، وهو محق، فها هو ذا هنا، لذا من الواضح أنه لم يتأخر عمدًا، يجب عليَّ غالبًا ألا أقسو عليه كثيرًا.

أنزل يده إلى الأسفل، وشبك أصابعه بأصابعي، بالنسبة إليه، فإن هذه الحركة على الأرجح شيء عادي يفعله مع كل فتاة يخرج برفقتها، ولكن بالنسبة إليَّ، فالأمر أكثر بكثير من مجرَّد شيء عاديٍّ، إنه شيء هائل، فهذه المرَّة الثانية في حياتي كلها التي أمسك فيها يد شاب، المرَّة الأولى كانت في عمر الثانية عشرة، لذا لا أعلم حتَّى إن كانت تُحتسب أم لا.

قال وهو يبدل يديه ليستطيع المشي خلفي ببضعة خطوات، ويعبر عن إعجابه بفستاني: «تبدين مذهلةً».

تفحَّصَت عيناه جسدي، وتوقَّفتا للحظة عند الحافة على فخذيَّ، ثمَّ ارتفعتا مجدَّدًا لينظر في عينيَّ، ابتسم لي، ثمَّ بدَّل يديه مجدَّدًا ليمشي بمحاذاتي.

- عندما رأيتكِ في هذا الفستان أول مرة، لم أستطع أن أظل ساكنًا في الصف، وحاولت أن أتواصل معك عند انتهاء الحصَّة، لكنني أضعتُك في الممشى.

ابتسمت، وقلت: «لم ألاحظ».

ضحك قليلًا، وأجاب: «إنك لا تلاحظين الكثير من الأشياء يا سلوان، كوني على ثقة».

- أشياء مثل ماذا؟

نظر إليَّ بطرف عينه، وقال: «أوه، فقط حقيقة أن كل ذكر لعين في صفِّ التاريخ لا يمكنه أن يشيح نظره عنكِ، ومن بينهم أنا».

بالتأكيد كنت لألاحظ لو أنه حدَّق إليَّ.

- إنك تتوهَّم.

هزَّ كتفيه قائلًا: «أفضِّل أن أكون موهومًا وأنا في موعد غرامي معك، على أن أكون رشيد العقل مع أي فتاة أخرى في العالم».

أسكتني قوله هذا، لا أعرف إن كان يجب أن أشعر بالإطراء أو الإهانة ممَّا قاله، إنه شديد التملُّق، وأنا واثقة من أنه استخدم كل الحيل الكلامية التي يجيدها مع أكثر من فتاة واحدة، وأكثر من مرَّة، أنا لست مميزةً بالنسبة إليه.

إذَنْ لماذا تُحدِث الكلمات التي يقولها أثرًا شديدًا فيَّ؟

معدتي تؤلمني، وأشعر بالحرِّ الشديد، بغَضِّ النظر عن حقيقة أن الطقس بارد نوعًا ما، وأنا أرتدي فستانًا بلا أكمام.

ولكن بجد، من الواضح أن الانجذاب هو ما يوقع الفتيات بمتاعب مع شباب مثله، أعرف أن ما يقوله زائفٌ كدولار مطبوعة عليه صورة كيني ويست، ولكنني سأكذب إن قلت إنني لم أحب الإطراء قليلًا، حتَّى وإن لم يُفْضِ هذا الموعد إلى شيء، ما زلت أستمتع بسماع بعض الإطراء لبعض الساعات الإضافية.

يجب فقط أن أحاول الاستمتاع بالأمر، لقد مَرَّ عليَّ وقت طويل دون أن أفعل الأشياء الطبيعية التي تفعلها الفتيات في عمري، يجب أن أستمتع بالأمر الليلة، على الرغم من أنني في عمق عقلي أعرف أن الأمر مجرَّد انجذاب، هو لا يعرفني على الإطلاق، إنه فقط يعرف أنه يحب الهيئة التي يبدو فيها هذا الفستان عليَّ.

قال أخيرًا: «المكان في نهاية هذا الشارع».

كنت أذهب إلى الكلية في معظم أيام الفصل الدراسي، ولم يسبق لي أن مررت بهذا الطريق من قبل، إنه لطيف. أضواء عيد الميلاد معلقة على الأشجار، على الرغم من أن موسم الأعياد لم يقترب بعد، ثمَّة صوت موسيقى يصدح من مكبرات صوت موصولة إلى أعمدة الإنارة. يمكنني رؤية المطعم عند نهاية الشارع، وأنا أشعر ببعض الخيبة لأننا وصلنا وسنتوقف عن المشي، فقد مَرَّ عليَّ الكثير من الوقت دون أن أستمتع بهواء منعش كالآن.

أتساءل: ما الذي سنتحدث عنه ونحن نأكل؟ وإن كان هذا كل ما سنفعله فهل سنأكل ثمَّ نفترق؟ لم يسبق لي أن كنت في موعدٍ غراميٍّ، لذا فأنا لا أعرف الخطوات.

حاولت أن أحصل على بعض المعلومات منه، محاولةً ألا أُظهر جهلي بالأمر، فقلت: «ما هو جزؤك المفضل في المواعدة؟».

نظر إليَّ وابتسم، وأجاب: «القبلة يا سلوان، القبلة بلا شك».

إذَنْ هل سيقبِّلني الليلة؟

اختفت شهيتي للطعام فجأةً، لأنني شعرت بالتوتر، سيشعر بخيبة شديدة عندما يرى أنني لا أجيد استخدام لساني داخل فمه. نظَّفت حنجرتي، وقلت: «أيحدث هذا الأمر دائمًا في نهاية الموعد؟».

- الأمر يعتمد على الثنائي، فأحيانًا يحدث تبادل القبل خلال الموعد، أحيانًا لا يحدث بالمرة، أحيانًا يحدث في بداية الموعد.

ألن يكون هذا جميلًا؟ الانتهاء من الأمر في البداية؟

- متى تتوقَّع أن نتبادل القُبَل؟

ابتسمت وتساءلت ما إن كان واضحًا أنني أغازله. سحبني من يدي، وانعطف بحدَّة بين مبنيين. كنا على بعد قرابة ثلاثين خطوة من المطعم، لذا اندهشتُ لأننا انعطفنا.

أصبحنا في زقاق الآن، زقاق ضيِّق للغاية، وفارغ، استدار ليواجهني، وشهقت عندما رأيت النظرة في عينيه، وضع يديه على وركيَّ، والتصق بعدها ظهري بجدار المبنى. وقال مباشرةً قبل أن يلتقي فمه بفمي: «أعتقد أن الوقت الآن مناسبٌ».

قبضت يداي على قميصه بشدَّة وتوتر، مرَّ لسانه على شفتيَّ المغلقتين بإحكام، ممَّا جعلني أذوب فوقه، وانفرجت شفتاي، وتنهَّدت في اللحظة التي لامس فيها لسانه لساني.

لم أعُد أشعر بالتوتر حتَّى، تحرَّكت لديَّ غريزة لم أكن أعرف بوجودها حتَّى، وقد تبعت فقط قُبْلَتَه والمكان الذي تأخذني إليه. قابلتُ كل لمسة بمثلها، وكل نفس بمثيله، فعلت كل ما يفعله، كنت على ثقة من أنني قد

تعلَّمتُ مهارة التقبيل بعد قرابة ثلاثين ثانية، ولكنني ما إن تأكَّدت من ذلك، أبعد فمه عن فمي.

ضغط يده على الجدار خلفي، ولامس جانب رأسه جانب رأسي، وشعرت بأنفاسه السريعة ترتطم بأذني، إنني سعيدة لأنه لا ينظر إليَّ، لأنني كنت أبتسم.

كان هذا أمرًا جميلًا، لم يكن قريبًا حتَّى من مستوى الرهبة الذي ظننت أنه عليه، أشعر بثقةٍ كبيرةٍ، ولا أعرف السبب الذي دفعني لأقول بصوت مسموع «لقد كانت هذه قُبلتي الأولى»، لأنني في الحال شعرت بتوتُّره، وندمت على قولي ذلك.

تراجع إلى الخلف، وكانت عيناه الداكنتان أكثر حدَّة بعد أن قبَّلنا بعضنا، وسألني: «أنتِ تمزحين أليس كذلك؟».

كان يجب أن أضحك، وأقول بالطبع، لكنني هززت رأسي بالنفي عوضًا عن ذلك.

- لم يسبق لكِ أن كنتِ مع شابٍّ؟

هززت رأسي مجدَّدًا، وأجبت: «لا».

أمال رأسه وهو يخفض عينيه، ويحدِّق إليَّ، وسألني: «هل يعود السبب إلى أمر دينيٍّ غريبٍ؟».

ضحكت، وقلت: «لا، على الإطلاق. أنا لست متزمِّتةً، ولا أصون نفسي حتَّى الزواج من أجل سبب ما، لقد كنت فقط... منشغلةً. طوال حياتي كنت منشغلةً منذ الصباح إلى الليل. لم يكن لدي ثانية واحدة من الوقت لأنفقها على المواعدة».

نظر إليَّ غير مصدق، وقال: «إذَنْ... لم يسبق أن لمسك شاب؟ أو قبَّلكِ أي شاب؟».

هززت رأسي مجدَّدًا، وقلت: «مطلقًا، كانت هذه المرَّة الأولى. أنت... قُبلتك، هذه أكبر تجربة سبق ومررت بها، لذا لا تقسو بحكمك عليَّ إن كنت سيئةً في التقبيل».

زفر نفسًا بطيئًا متأنِّيًا، وقال: «يا للجحيم!».

ثم، وفي الحال، عاد وقرَّب فمه من فمي، وبقوَّة أكبر هذه المرة، ممَّا فاجأني للحظة، لكنني لم أحتج إلى وقت طويل للتلاؤم معه.

إنه يلتهمني الآن، يقبلني بيأس، يضغط نفسه عليَّ، رميت ذراعيَّ على عنقه، لأن قوَّة القبلة هذه المرَّة أفقدتني توازني، شعرت أن جسدي يضعف، لا يمكنني أن أعتمد عليه بعد الآن ليحملني.

لا يمكنني أن أجاريه، فها أنا ألهث لأحصل على القليل من الهواء، بينما هو يقبِّل ذقني، نزولًا إلى عنقي، عائدًا إلى فمي مجدَّدًا. يداه في شعري، ويداي في شعره، راح يئن وهو يترك شعري وينحني، ويمسك بساقي ثمَّ يحملني، رافعًا إياي بضع بوصات على الجدار.

من المذهل الاختلاف الذي حدث بين قُبلتنا الأولى والثانية، أتساءل كيف ستكون القُبلة الثالثة.

لفَّ ساقيَّ حوله، ومرَّر يديه على طول فخذيَّ، إلى أن أمسك بي من تحت الفستان، متأكدًا من ثباتي على الجدار. عندما وضع شفتيه على عنقي مجدَّدًا، تركت رأسي يسقط إلى الخلف على المبنى، وهمست: «آسا، إننا على الأرجح يجب أن نأكل في وقتٍ ما».

شعرت به يضحك على عنقي، وتمتم: «أعرف، لا يمكنني التحكم بالأمر، بعد معرفتي أنكِ... أنكِ... اللعنة يا سلوان، لا يمكنني التوقُّف عن تقبيلك، إنني أحاول».

وضع فمه على عنقي مجدَّدًا، ولم يعد تركيزي منصبًّا على الطعام أو القُبلة، بل على الطريقة التي تلتفُّ بها ساقاي حوله، الطريقة التي يندمج بها جسدانا معًا، الطريقة التي بدأت للتَّوِّ أحرِّك جسدي بها لأشعر بأشياء لم يسبق لي أن شعرت بها».

همست وأنا ألفُّ نفسي حوله بقوَّة أكبر: «يا يسوع المسيح!».

– اعتقدت أنه لم يكن أمرًا دينيًّا.

جعلني تعليقه أضحك وهو يقبِّلني، وضحكتي جعلته يتنهَّد، ثمَّ حملني بعيدًا عن الحائط، وأنزلني على قدميَّ. طبع قُبلةً على جبيني، ثمَّ تراجع إلى

الخلف، ووضع جبينه على جبيني، وهو ينظر من فوق إليَّ. شبك يده بيدي، ودون أن يقول أي شيء سحبني للخروج من الزقاق، والمشي باتجاه المطعم.

لا أعرف إن كان السبب يُعزَى إلى الوقت المتأخِّر، أو إلى أن المطعم ليس جيدًا بما فيه الكفاية، ولكن عندما دخلنا من الباب لاحظت أننا الزبونان الوحيدان هنا، قدَّم النادل من غرفة خلفية، وأحضر معه قائمتَيْ طعام، إنه أكبر عمرًا منا، أعتقد انه في منتصف الثلاثينات من العمر- وقال لآسا: «اعتقدتُ أنك لن تأتي البتَّة».

هزَّ آسا كتفيه، وأجاب: «لقد تعطَّلنا».

أومأ الرجل، وأشار إلى غرفة تقود إلى خارج منطقة الطعام الرئيسة، وقال: «من هنا».

اتجهنا إلى غرفة فارغة أخرى، على طول الطريق إلى اليسار، ثمَّة مقعد دائري موضوع بخصوصية في الزاوية، وقد زُوِّدَ بزجاجة نبيذ مدسوسة في الثلج، وكأسين لاحتساء النبيذ، أردت أن أشير إلى أنني لست كبيرة بما فيه الكفاية لتناول المشروبات الروحية، ولكنني شعرت بأن قولي ذلك لن يُحْدِث أيَّ فرق.

تركني آسا أنزلق بداية في المقعد، ثمَّ انزلق بقربي، ووضع يده على ركبتي. وضع النادل قائمتَيْ الطعام أمامنا، ثمَّ باشر فتح زجاجة النبيذ، وسكب لكلٍّ منا كأسًا.

بالكاد سبق لي يومًا أن تذوقت مشروبًا كحوليًا، ولكن الليلة تبدو مناسَبةً جدًّا بما فيه الكفاية للشرب، لا سيَّما أن أحدًا لن يطلب أن يرى هويتي. رفع آسا كأسه وكأنه يرغب باقتراح نخبٍ عليَّ، لذا رفعت كأسي عندما قال: «نخب القبلات الأولى، والمواعيد الغرامية الأولى، وأول... أيًّا يكن بحقِّ الجحيم ما تسمحين لي بفعله».

ضحكت وقلت: «تحلية على الأقل».

قرعنا كأسينا معًا، ثمَّ تذوَّقت النبيذ، ليس حلوًا كما توقَّعته أن يكون، ولكنني أحبه. عندما وضعت كأسي من يدي، انحنى آسا، وقبل زاوية فمي.

- ربما كان يجب أن أنتظر إلى نهاية الموعد كي أقبِّلك.

- لماذا؟

- لأن تقبيلك هو كل ما يمكنني التفكير به الآن. لكن ثمَّة الكثير الذي لا أعرفه عنكِ، ويجب أن أكون مواعِدًا جيدًا وأسألك ملايين الأسئلة.

أشعر أن حياتي ليس فيها الكثير الذي يستحق الحديث عنه البتَّة.

قلت: «عمري ثماني عشرة سنة، عيد ميلادي في الشهر القادم، لدي أم كان يجب أن تُلزَم بإجراء اختبار صلاحية إنجاب الأطفال، وعندي أخ أحبه بشدَّة. الآن أصبحت تعرف عنِّي أكثر من أيِّ شابٍّ آخر في الوجود، ما رأيك بهذا؟».

نظر إليَّ للحظة، وعيناه ثابتتان بعينيَّ، وقال: «إنني معجبٌ بكِ».

ثم عُدْنا وقبَّلنا بعضنا.

كانت قُبلتنا هادئة هذه المرَّة، بينما أصابعه تستكشف ظاهر فخذي، أصبحنا، وبطريقةٍ ما، وجهًا لوجه في المقعد، والشيء الوحيد الذي أبعدنا عن بعض كان حضور النادل الذي نظَّف حنجرته قائلًا: «هل قرَّرتما ما الذي ترغبان في تناوله؟».

ضحك آسا قبل أن يبتعد عني، وقال: «أجل اللعنة. في الوقت الحالي سيأخذ كل منا الطبق الخاص».

أومأ النادل ومشى مبتعدًا.

رشفت بعض الرشفات من كأسي، في حين فعل آسا الشيء ذاته، وسألته: «لقد طلبت للتَّوِّ الطبق الخاص من أجلي؟ ماذا إن لم يعجبني؟».

ابتسم، وأجاب: «عندها سأطلب لكِ شيئًا آخر».

قرب فمه من فمي مجدَّدًا، وعُدنا لتبادل القبل، ازدادت يديه شجاعةً هذه المرَّة، أو أن النبيذ قد قلَّل من مقاومتي.

دامت قُبلتنا طويلًا، لم ألحظ حتَّى متى انفلتت يده إلى داخل فخذي، راحت أصابعه تداعب فخذي ببطء صعودًا وهبوطًا، راسمةً دوائر، وهي تتجرأ أكثر وأكثر، أظن أنه يفعل ذلك لأنني أشهق في كل مرَّة ترتفع أصابعه أكثر على طول فخذي مقتربةً من سروالي الداخلي.

همست: «آسا».

هزَّ رأسه قائلًا: «أعرف، أعرف ما أنتِ على وشك قوله. سوف أتمهَّل».

وقد تمهَّل لبعض الوقت، ولكن ربما حدث هذا فقط لأن طعامنا قد وصل.

إنه طعام هندي، يا لها من ضربة حظٍّ له، فالطعام الهندي هو المفضَّل بالنسبة إليَّ، حاولنا أن نأكل دون مقاطعة، ولكنه كان ينحني بين الحين والآخر، ليمرِّر شفتيه على ذقني أو أذني، وكلما فعل ذلك ازدادت حاجتي إلى شرب النبيذ.

انتهينا من تناول الطعام مع كأس النبيذ الثالثة لي، وطلب التحلية، ولكنه طلب ألا تصل التحلية قبل خمس عشرة دقيقة، يمكن أن تكون هذه كأسي الرابعة، لم أعد متأكدة من أنني أعدُّ على نحو صحيح.

كل ما أعرفه هو أن التقبيل يعطي شعورًا جيدًا، بل رائعًا، أكثر بكثير ممَّا تخيَّلته، ولا سيَّما أنها تجربتي الأولى فيه.

جمَّدتني هذه الفكرة، فماذا لو سمحت له بفعل الكثير؟ لا أعلم، فلا فكرة لديَّ عمَّا تفعله الفتيات بعمر الثامنة عشرة في المطاعم مع الشباب الذين يبدو أنهم يعرفون تمامًا الكلمات المناسبة لقولها، والطريقة المثلى لتحريك أفواههم فوق أفواههن.

سألني متراجعًا: «ما الخطب؟».

حاولت أن أصُبَّ تركيزي على عينيه، ولكن تركيزي كان محصورًا بيده التي عادت لتستقر على فخذي مجدَّدًا، وهي ترتفع رويدًا رويدًا.

- أنا...

أخرجت نفسًا سريعًا، وتابعت: «لا أعلم، أعتقد أنه ربما يجب أن نتمهَّل».

ما تزال أصابعه ترسم دوائر على فخذي، وقد راودتني الكثير من المشاعر، لا أعرف كيف يمكنني أن أسأله التمهل الآن، ولكن يجب عليَّ ذلك، لا يجب أن أسمح له بلمسي بهذه الطريقة بعد.

أيجب عليَّ ذلك؟

قال وهو يمشِّط خدي بإبهام يده الثانية: «سلوان، ألا تحبين المشاعر التي تراودك الآن؟ ألا يبدو هذا جيدًا لك؟».

أومأت، وأجبت: «نعم، ولكن... لقد تبادلنا القُبَل لأول مرَّة منذ عدَّة ساعات. أشعر أنني أسمح للأمر بالتطوُّر بسرعة».

مرَّر أنفه على أنفي، ثمَّ تراجع قائلًا: «مضحك، فأنا أشعر أنني لا أتجاوز الحدود بما فيه الكفاية».

- ولكن...

أغمضت عينيَّ، وقلت: «أشعر بالغباء لسؤالي هذا».

فتحتهما مجدَّدًا، وتابعت: «هل هذا أمر طبيعي؟ أعني... هل أتصرَّف بطريقةٍ شديدة... الصفاقة؟».

شعرت بالضحك يعتمل في صدره، فقبَّل فمي ثمَّ تراجع، عيناه لعوبتان ومليئتان بالحماس، وقال: «أنتِ امرأةٌ ناضجةٌ يا سلوان، إن كنت تشعرين أن الأمر جيد فهذا كل ما يهم، هذا الموعد الغرامي يخصُّنا، ولا علاقة لأيِّ أحد آخر به».

قبَّل ذقني، وسألني: «أتريدين أن أكفَّ عن تقبيلك؟».

هززت رأسي، وأجبت: «لا، ليس حقًّا».

وصل فمه إلى أذني، وقال: «جيد، فأنا لا أرغب بالتوقُّف، وهذا لا يجعلك ساقطةً يا سلوان، فمن الصعب أن تكوني عاهرة، وأنتِ لم يسبق لكِ أن قبَّلتِ شابًّا سواي، أليس كذلك؟».

منطقه يبدو عقلانيًّا، نوعًا ما، حسب ما أعتقد. أشعر بالتشويش.

عادت أصابعه للتحرُّك على فخذي مجدَّدًا، تراجع وهو يعضُّ على شفته السفلي، تركَّزت عيناي على فمه، حرَّرت أسنانه شفته، وابتسم لي.

- الشيء الوحيد الذي يجب أن تضعيه بعين الاعتبار هو إن كانت الطريقة التي ألمسك بها تعجبك، حسنًا؟

زفرت، وأومأت، في اللحظة التي راحت فيها أصابعه تكمل طريقها صعودًا على طول فخذي، وهمس: «أيراودك شعورٌ جيدٌ الآن؟».

تركت رأسي يسقط إلى الخلف على المقعد، وهمست: «أجل».

أنفاسي ثقيلةٌ، وقد ارتعش جسدي بأكمله عندما لامست أصابعه سروالي الداخلي، إنه لا يقبِّلني، بل يراقبني، وعيناه مركَّزتان على فمي وهو يسحب أحد أصابعه إلى سرَّتي، خارج سروالي، جعلني ذلك أنتفض. همس: «ما رأيك بهذا؟ أيمنحك شعورًا جيدًا؟».

حاولت أن أقول «أجل»، لكنني لم أستطع سوى أن أتأوه.

فكرت بحقيقة أننا في مكان عام، فكرت بحقيقة أن النادل سيحضر لنا الحلوى في غضون بضع دقائق، فكرت بحقيقة أنني لا يجب أن أتصرَّف على هذا النحو هنا والآن.

ولكن بعد ذلك سألت نفسي لِمَ لا؟

بالكاد لامست شفتاه شفتيَّ وهو يقول: «أريدك أن تؤكِّدي هذا لي؛ ألم يلمسك أي شاب آخر على هذا النحو؟».

وصلت أصابعه إلى حافة سروالي، وأقحم أصابعه داخله، ثمَّ جذب القماش، وقد شهقت عندما قال: «لا أحد يعرف ملمسك؟».

قلبي ينبض في كلِّ جزءٍ من جسدي، لكن نبضي يخفق بين ساقيَّ، إنه يرغب في أن يكون هو أول من يلمسني. أحارب وعيي الذي يخبرني أن الأمر لا يجب أن يحدث هنا، إلا أنني أشعر بالراحة لأن رغبته لم تفتر بفعل قلة خبرتي، بل على العكس يبدو لي أن هذا الأمر قد أثاره أكثر، وهذا شيء لم أكن أتوقعه.

همست: «لا أحد يا آسا، لم يسبق أن لمسني أحد هكذا، أنت الشخص الوحيد».

تنهَّد بثِقَل، وأدركت أنني محقَّة، تعجبه فكرة أنه الأول، بل ربما يحبها. غاص لسانه داخل فمي في اللحظة ذاتها التي شعرت فيها بالضغط بين ساقيَّ، أقحم أصابعه داخلي على نحو غير متوقَّعٍ لكنني لم أفعل شيئًا لإيقافه، وابتلع فمه تأوُّهاتي وأنيني وأنا أحاول أن أسترخي على يده، حاولت أن آلفها، وآلف الطريقة التي تتحرَّك فيها عليَّ.

همس على شفتيَّ: «هذا هو الأمر، استرخي، دعيني أجعلك تشعرين بالرضا».

تشنَّجت ساقاي بشدَّة، فانزلقت بعيدًا عنه، لم يردعه ذلك، بل تحرَّك مقتربًا أكثر، شادًّا فمه على فمي بقوَّة أكبر.

صدمتني الطريقة الغرائزية التي راح جسدي يتحرَّك بها على يده، وعندما فعلتُها للمرَّة الأولى أصدر أنينًا، لذا استمررتُ بها.

صوته يثيرني بشدَّة، صوت عميق ومملوء بالرغبة، مرر شفتاه على عنقي وهو يقول: «لا يمكنني الانتظار أكثر، إنه لأمر يقتلني أنني لا أستطيع مضاجعتك هنا الآن».

يا يسوع، أعتقد أنني ربما أحب الكلام القذر، وهذا أمر مفاجئ بالنسبة إليَّ. سماعه يتحدث عن رغبته بي، جعلني أريد أن أمنحه جسدي الآن، ولكن لم يحن الوقت بعد، وبالتأكيد لن يحدث ذلك الليلة، فنحن بالفعل قد تعجلنا كثيرًا، إلا أنه يجعل الأمر يبدو مثاليا للغاية.

همس: «أريد أن أتذوَّقكِ، أريد أن أتسلَّق من تحت هذه الطاولة اللعينة وألتهمك».

همستُ: «آسا!».

هذا كل ما يمكنني قوله، لأنني أخشى إن حاولت أن أقول أكثر من هذا سأفسد المزاج، لا أعتقد أنه يمكنني الكلام مثله، الطريقة التي يتكلَّم بها...

- أيعجبك هذا؟

- أجل.

يجب أن تقتصر كلماتي على ما يرغب في سماعه تمامًا، لأن الثواني الثلاثين التالية مرَّت بضبابية، لسانه يلتهم لساني، ويده تلمسني بالنقطة المثالية ممَّا جعلني أرتعش وأرتجف، سيطر الارتعاش عليَّ، وحاولت أن أبتعد عنه لأن المشاعر التي سيطرت عليَّ كانت كثيرة، لكنه تبعني بمزيدٍ من القوَّة، وهو يبتلع أنيني كما يرتشف النبيذ.

انتظرت لألتقط أنفاسي وأسترجع صوتي، ثم، ولا أعرف سبب ذلك، اخترت أن أقول: «ماذا يحدث الآن؟».

قلت هذا غالبًا لأنني لا أعرف إن كان يجب أن أفعل شيئًا له، واحدة بواحدة، رد معروف، أشعر أنني غبية، غبية وصبيانية.

ابتسم وقال: «الآن... نأكل بعض الحلوى اللعينة».

ما إن فارقت الكلمات شفتيه، ابتعدت يده عني، وظهر النادل عند الزاوية. جلست باستقامة، محاولةً إخفاء حقيقة أن شعري فوضويٌّ، وأنني ما زلت ألهث.

تظاهر النادل بأنه لم يلاحظ أن ثمَّة خطأً ما، وقد قدَّرتُه لفعله هذا، وضع طبقًا فيه قطعة كبيرة الحجم من كعكة جوز الهند أمامنا، ثمَّ ترك شوكتين على الطبق، وقال: «استمتعا بحلواكما».

التقط آسا شوكته، ثمَّ التقطت شوكتي، والتهمت لقمة وابتسمت.

إنه يعجبني، يجعلني أشعر... لا أعلم. بالرضا والخطر، قد لا يكون مزيجًا جيدًا، ولكنه جميل الآن. هنا، الليلة، ما أسوأ ما يمكن أن يحدث؟ إنني في سِنِّ الثامنة عشرة، ليس الأمر وكأنني سأقضي مستقبلي معه.

ابتلع لقمة، وقال: «اقضي الليلة معي».

لم أجبه.

كنت أفكر بدعوته، إذ ليس لدي مكان لأقضي ليلتي فيه اليوم، وقد تأخر الوقت كثيرًا للعثور على حافلة تقلُّني إلى المنزل، وسوف أشعر بالسوء إن قصدت منزل أحد أصدقائي في وقت متأخِّر كهذا.

- بشرطٍ واحد.

أومأ قائلًا: «أعدك أنني لن أطلب منك فعل أي شيء لا ترغبين بفعله».

لم أحتج للإفصاح عن شرطي حتَّى، فقد ذكره لي. قلت: «حسنًا».

وضع شوكته، وصاح: «الحساب رجاءً!».

***

كنا نتبادل القُبَل في أثناء دخولنا إلى المنزل، لم يتسنَّ لي أن أنظر جيدًا إلى المنزل، ولكنني تطلعت حولي بما فيه الكفاية لأعرف أنني لست مصدومةً على الإطلاق من المنزل، وذلك بالاستناد إلى الملابس التي يرتديها، والسيارة

التي يقودها، هذا المنزل ليس مختلفًا جدًّا عن محفظته، ولكن الشيء الوحيد الذي يبدو غريبًا هو أنه يملك هذا المنزل، هذا ما أخبرني به في طريقنا إلى هنا.

رفعني وحملني وصعد بي السلالم، وهو يقبِّلني على طول الطريق إلى غرفة نومه، أخبرته في طريقنا إلى المنزل أنني لست مستعدَّةً بعد لممارسة الجنس، وأنني قد اختبرت الليلة أكثر ممَّا يمكن لرأسي أن يستوعب.

أكَّد لي أن هذا لن يحدث، وأننا سنتبادل القُبَل فقط إلى أن نغطَّ بالنوم، ولكن راودني شعور بأنه سيحتاج إلى أكثر من مجرَّد تقبيل بسيط.

لا أعرف ماذا، لم يسبق لي أن داعبت شابًّا من قبل، لذا فأنا أشعر أن كل شيء يسير أسرع ممَّا خططت له للسنة المقبلة. لكنني أشعر بالذنب، فقد أخذت أكثر ممَّا أعطيت الليلة.

أصبحنا في غرفة نومه الآن، أغلق الباب، ثمَّ استندتُ بظهري عليه، وهو فوقي، يداه على فستاني، وقد أخلعني إياه من فوق رأسي.

اللعنة.

لم أتوقَّع أنني سأكون نصف عارية بهذه السرعة.

على نحو طبيعي، حاولتُ أن أغطِّي نفسي، لففتُ ذراعيَّ حول حمالة الصدر، ما إن فعلت ذلك، أدركت أنه تصرُّف غبي، لكنني فقط لم أكن أتوقع ذلك.

أمسك رسغيَّ، وأبعدهما، قائلًا بصوتٍ لطيفٍ: «أريد أن أراكِ يا سلوان».

ثم تراجع خطوةً إلى الخلف، وحدَّق إليَّ. لحسن الحظ كنت قد غسلت حمالة صدر وسروالًا داخليًّا متطابقين قبل الموعد.

همس: «اللعنة».

كانت عيناه تتابعان ساقيَّ ببطءٍ، وسألني: «هل أنتِ واثقة أنكِ لا تريدين مضاجعتي الليلة؟».

اقترب خطوةً إلى أن أصبحت يداه على سروالي، وهو ينزله فوق وركيَّ باتجاه ساقيَّ.

الأمر يحدث بسرعة شديدة. همست: «آسا، توقف».

ما يزال عقلي مشوَّشًا من النبيذ، لكن حتَّى وأنا في حالة سكر، أعرف أن السروال الداخلي يجب أن يظل في مكانه لفترة أطول، حتَّى أكون في أتمِّ الجاهزية لخلعِه.

الأمر الذي قد لا يحدث الليلة.

انزلق على جسدي، وتوقف لتقبيلي في عدَّة أماكن مختلفة، وعندما وصل إلى فمي، همس: «ما الخطب؟».

زفرت، وكان نفسي مرتعشًا، ومتوتِّرًا. وأخبرته وأنا أضغط عليه: «هذا كثيرٌ عليَّ، الليلة بأكملها... لم أكن جاهزة لهذا الشيء كله، أشعر وكأن...».

أمسكت لساني ورحت أدقِّق في كلماتي لأجد الكلمات المناسبة تمامًا، كان آسا ما يزال يواجه الباب، ونفث نفسًا بطيئًا يبدو محبطًا. قلت: «أشعر أنك تظنني من نوع مختلف من الفتيات عمًّا أنا عليه، ولكنني لست معتادة على فعل هذه الأشياء يا آسا، ليست لديَّ خبرة، لست مرتاحة كما أنت الآن، إنكَ توترني، وهذا ليس خطأك، أعتقد فقط أنني مختلفة عنك. ربما... ربما يجب أن تقلَّني إلى المنزل».

استدار ليواجهني مجدَّدًا، فتمكَّنت من رؤية العبوس الذي اعتلى وجهه، وكأنني لم أختر الكلمات المناسبة. يا للجحيم! ربما لم أحسن اختيار كلماتي، لا أعرف ما الذي أفعله، أو ما الذي أقوله، هذه الليلة برُمَّتها كانت عبارة عن تذكير ضخم لحجم الاختلاف بيني وبينه، وكم أنَّ خبرته في الحياة أكبر من خبرتي، وكوني سمحت له بالوصول إلى الكثير لا يعني أن الطريق قد أصبح مفتوحًا أمامه لنيل ما يريد.

يجب أن أكبح الفرامل، بغض النظر ما إن كان هذا الأمر سيغضبه أم لا، أعتقد أن هذا التفكير أنانيٌّ بطريقةٍ أو بأخرى، ولكنني لا أستطيع التحكُّم بشعوري المفاجئ بعدم الراحة، لبقائي في منزل رجلٍ بالكاد أعرفه، وإمضائي الليلة معه.

ظننت أن احتمال أن يحضر مفتاحه، ويسرع بإيصالي إلى المنزل أكبر من احتمال أن ينخرط في محادثةٍ ناضجةٍ حول أن حصولي على قُبلتي الأولى، وفقداني لعذريتي في الليلة ذاتها قد يكون كثيرًا، وباكرًا.

مرَّر إحدى يديه في شعره، ثمَّ أمسك مؤخَّرة عنقه وهو يحدِّق إليَّ من طرف الغرفة، ثم، ومظهرًا العزم المطلق مشى نحوي ببطءٍ، وأمسك وجهي، مجبرًا إياي على النظر إليه. وقال بصوت هادئ وراسخ، بينما عيناه تتفحصان وجهي بأكمله: «أتعتقدين أنني لا أعرف أيَّ نوع من الفتيات أنتِ؟ كنت أراقبكِ في الصَّفِّ لأسابيع يا سلوان، أعرف بالضبط أي نوع من الفتيات أنتِ، لقد درستكِ، وأعجبت بكِ، وفكرت بكِ كثيرًا. ومؤخَّرًا، تكوَّنت لديَّ فكرة أنكِ أنت تمامًا الشيء الناقص في حياتي. أنتِ الفتاة التي حلمت بها، وأنتِ النوع من الفتيات الذي لم أستطع التصديق بوجوده فعلًا لمرحلةٍ طويلةٍ من حياتي، ولكن أنتِ حقيقية و... وأنت بالفعل مميَّزة جدًّا بالنسبة إليَّ. في حياتي، من الصعب أن أحصل على الأشياء المميَّزة، من الصعب جدًّا، قد تكونين أنتِ أول شيء مميَّز أقترب إلى هذه الدرجة من الحصول عليه لنفسي، لذا إن كنت أقترب منكِ بقوَّة أو سرعة، فهذا هو السبب. لا علاقة للأمر بتوقُّعاتي لليلة، ولا علاقة له بخبرتكِ. لا أستطيع إبعاد يديَّ عنكِ لأنني أخشى حتَّى الموت أنني إن تحرَّكت ببطءٍ شديدٍ... إن لم أسرع بالحصول على الأشياء... سيكون الأوان قد فات».

لم أسمح للهواء بالدخول أو الخروج من رئتيَّ. انتظرت إلى أن تسنَّى لي الوقت لأستوعب كل كلمة قالها لي، وقبل أن أتمكَّن من الغوص في كل شيء، تابع كلامه: «ابقي الليلة معي، رجاءً. يمكنك أن ترتدي سروالك وفستانكِ. يا للجحيم، يمكنكِ أن تخلعي حمالة صدرك وتنامي عارية بالكامل، لا يهمني ذلك، فكل ما أريده فقط هو أن تبقي في سريري، هذا كل ما في الأمر. أقسم يا سلوان، أريد فقط أن أغفو بقربكِ».

تعبير وجهه صادق، وكلماته أكثر صدقًا حتَّى، وهذا ما دفعني لأن أومئ... لأنني، ولسببٍ ما، أثق به الآن، ولم يسبق لي أن وضعت ثقتي في الناس بسهولة. قلت: «حسنًا».

وعوضًا عن لبس فستاني، مددت يدي خلف ظهري، وفككت حمالة صدري، تركتها تسقط على الأرض، جالت عيناه على جسدي كله، وأنا أقف أمامه عارية بالمطلق. همس بصوتٍ أجشّ: «هيا إلى النوم».

مشيت نحو سريره، وتسلّقت تحت الأغطية، عندما نظرت إليه، كان قد خلع قميصه، وهو يخلع بنطاله الآن، وظَلَّ مرتديًا سرواله الداخلي وهو يصعد إلى السرير معي، تحرّك إلى جانبي، وقال: «استديري لأتمكّن من احتضانك من الخلف».

ضحكت، وتدحرجت على جانبي، لم أكن قد توقّعت أن تنتهي هذه الليلة باحتضان كهذا، ولكنني أحب الأمر.

لفّ ذراعيه حولي بشدّة، وطبع قبلةً على رأسي، وهمس: «أحلام سعيدة».

- لكَ أيضًا.

***

لا أعرف هل أحب شعور السُكر أم لا، فهذه المرّة الأولى التي أحتسي فيها أكثر من كأس نبيذ واحدة في ليلةٍ واحدة، اللعنة، أظنُّ أنني قد احتسيت خمس كؤوس على العشاء فقط، أعتقد أنني شربت كثيرًا، لأن الكحول هدأ أعصابي، وجعلني أرتاح أكثر مع نفسي، ربما أكثر بكثير ممّا يجب، لأنني أتأرجح على طول حبلٍ، من أحد طرفيه أشعر أنني في سكون مدقع، ومن الطرف الثاني أجد نفسي تعتمل بالصخب الذي يمنعني من النوم.

كل شيء يبدو أكثر ثقلًا عندما تكون سكرانًا، يثقل رأسك، ويصبح جسدك أثقل بكثير من أن تستطيع التحكُّم به، والآن أصبح الهواء أثقل، وكأن العالم بأكمله يترنح فوقي وأنا أكافح لأفتح عينيّ.

ولكن ثمّة ميزات أيضًا لأن تكون سكرانًا، فبطريقةٍ ما، وفي ظِلِّ شعورك بكل هذا الثقل، تشعر أنك خفيفٌ من الداخل، خفة تذكرني بريشةٍ، تدغدغ قلب معدتي، وشفتيّ، تجعلني أحنُّ إلى ذلك الضغط... اللمسة. شعرت بشعور جيد الليلة عندما لمسني آسا، جعلني الكحول أستمتع بالأمر، على الرغم من أن سرائري كانت تكافح لتحذيري من أنه أمر لا يجب عليَّ فعله.

حتَّى الآن... وفي خضمِّ النوم... أشعر بها. أشعر بدفئه، وبقوَّة يده، وبنبرة صوته.

أنا عالقة في مكانٍ ما بين الواقع والأحلام، ولا يمكنني بعد أن أحدد أين أنا منهما الآن، وأنا حقًّا لا أرغب في الاستيقاظ، ولكن هذا يبدو حقيقيًا للغاية، يداه على صدري، وفمه بين ساقيَّ، أشعر أنه أمرٌ حقيقيٌّ للغاية، تغضَّن وجهي لأن لحيته قد جرحت الجلد الطري لفخذيَّ.

شهقت.

قلبي يتخبَّط في أنحاء صدري، ويداي تمسكان الملاءة من جانبي.

إنني لا أحلم.

هذا يبدو حقيقيًا للغاية.

باكرًا جدًّا.

سريعًا جدًّا.

همست: «آسا».

أنا حائرة أين هو بالضبط، أشعر بيديه عليَّ... وقد تحرَّكتا من صدري إلى خصري.

إنه... أوه، يا إلهي.

همست مجدَّدًا، وجسدي بأكمله متشنِّج: «آسا».

كيف حدث هذا؟ متى وصلنا إلى هذه النقطة؟

بغَضِّ النظر عن الشعور الذي يمنحني إياه لسانه، تبدو لي حقيقة أن أستيقظ على شيء كهذا أمر خاطئ. صحيح، وخاطئ بشدَّة، هل طلبت منه هذا؟ في أثناء نومي؟ أم هل أخذ هو ما يرغب به من تلقاء نفسه؟

حاولت أن أغلق ساقيَّ بالقوَّة، مجبرةً إيَّاه على إبعاد فمه عني، ولكنه أمسك خصري بقوَّة أكبر، وأقحم لسانه داخلي، ببطء.

تنهَّدتُ.

أردت أن أبكي، ولكنني عوضًا عن ذلك تنهدت، صوتي خائن، ومن بين أنفاسي الثقيلة همست بكلمة مخنوقة: «رجاءً».

شعرت بلسانه يبتعد عني، وضغط شفتيه برقة على فخذي من الداخل، أشعر الآن بالحذر الشديد من كل حركةٍ يقوم بها، لأنني لا أستطيع أن أفهم كيف أريد بشدَّة أن أبعده عني، وفي الآن ذاته أريد أن يعود فمه ويقترب مني.

لفحت أنفاسه الدافئة فخذي من الداخل، وهو يهمس: «استرخي، أنتِ تستحقين هذا. أنتِ تستحقين كل الأشياء الجميلة يا سلوان».

الغرفة تدور من حولي، ويداه تمرَّان على بطني، تداعبانني، تجعلانني أشعر أن تفكيري بأن هذا خاطئ هو تفكيرٌ خاطئ في المقام الأول.

انزلقت راحة يده إلى وركيَّ، مرورًا بفخذيَّ، ثمَّ إلى رُكبتيَّ. ضغط على ساقيَّ من الداخل، فاتحًا إياهما أكثر.

- أغلقي عينيكِ فقط، واسترخي. أرجوكِ دعيني أفعل هذا لكِ.

قبل أن أتمكَّن من الموافقة أو الرفض، عاد فمه إليَّ، وتعمَّق لسانه داخلي، وهو يشقُّ طريقه إلى الأعلى على طول الطريق، ثمَّ إلى الأسفل. تقوَّس ظهري مشكلًا مسافةً بيني وبين السرير، وما زلت أقبض على الملاءة بقوَّة.

لم يسبق لي أن شعرت بشيءٍ كهذا، أغلقت عينيَّ بشدَّة، وشعرت أنني بدأت أتقبل الأمر، تركت الثقل والخفة اللذين نتجا عن تأثير الكحول يأخذانني إلى حيث يشاءان، وبعد مرور عدَّة ثوانٍ سمحت لصوتي بخيانتي على نحو مسموع أكثر.

تنهدت، قائلةً: «آسا».

إنني أشهق.

تركت يداي الملاءة، وبحثتا عن شعره، ثمَّ أمسكتا به وشدَّتاه، رغبةً منِّي بأن يقترب أكثر. على الرغم من أن حدسي الداخلي كان يصرخ بي «توقَّفي!»، إلا أن صوتي قال له: «لا تتوقَّف».

لا تتوقَّف.

توقَّف.

لا.

أجل.

لا.

سقط رأسي على وسادة آسا، وأنا أقول: «أجل».

استسلم جسدي له تمامًا، في حين أن صوتي الداخلي كان بطيئًا جدًّا لمواكبة الحدث، بدأت أرتعش بطريقةٍ مختلفةٍ هذه المرة، يداي كلتاهما في شعره الآن، في حين أن جسدي بدأ يستجيب بطرق جديدة كليًّا. إنه على حق، هذا جيد، إنه يمنحني شعورًا جيدًا للغاية، شعورًا رائعًا. لم أسمح لنفسي بالتفكير بنتائج الأمر عندما ينتهي.

لا أحصل على أشياء جيدة في حياتي، إنني بحاجة إلى هذا، أحتاج إلى أن أشعر بشيءٍ جيدٍ.

إنني أرتعش الآن، جسدي بأكمله يرتعش، لسانه وشفتاه تتحرك عليَّ بشغفٍ شديدٍ، وكأن رغبته الوحيدة في العالم الآن هي أن يسعدني. بدأت المشاعر تتكاثف... وازدادت أنفاسي عشوائية، وتعاظمت شدَّة تأوُّهاتي.

ثم حدث الأمر.

شعرت به عميقًا جدًّا، وتساءلت ما إن كنت حقًّا مستيقظة، لا بُدَّ من أنني أحلم، لا شيء في الحياة الواقعية يمكن أن يشابه هذا الشعور. إنه شعور حاد، تجمدت وسمحت لهذا الشعور بالانتقال عبر جسدي، توقَّفت عن التنهد، توقَّفت عن الارتعاش، توقَّفت عن التنفُّس. مرَّت ثوانٍ وهذا الشعور مسيطر عليَّ بشدَّة، مرَّت بضع ثوانٍ أخرى وإذ به يطلقني، يحرِّرني، يتركني أنهار.

عاودني الارتعاش واللهاث مجدَّدًا، أبعد فمه عني، وتسلَّق جسدي إلى أن وصل فمه إلى فمي؛ لسانه داخل فمي، وشفتاه الرطبتان على شفتيَّ.

تمتم داخل فمي: «اللعنة. لقد كنت مخطئًا، ليست كعكة جوز الهند، بل هذه هي نكهتي الجديدة المفضَّلة».

غاص لسانه أعمق داخل فمي، وقد ابتلعت تأوُّهاته وهو يسوِّي نفسه فوقي. إنني أجاهد للحصول على الهواء، فقد نفد الهواء من رئتيَّ قبل أن يقبِّلني، والآن لا يمكنني التقاط أنفاسي لأنه يقبِّلني بقوَّة شديدة تمنعني من التنفُّس. رأسي ثقيل، ولكن أفكاري خفيفة، وأريد أن أطلب منه أن يتمهَّل، أريد أن أخبره أن يمنحني ثوانٍ لألتقط أنفاسي، أرغب بقول العديد من الأشياء،

ولكن الغرفة تدور بي، وأنا أغرق في الشعور بالذنب لسماحي بحدوث ما حدث للتو، في حين أنني لم أكن متأكدةً من رغبتي بحدوثه.

أبعد فمه عن فمي أخيرًا، وشهقت لإدخال الهواء إلى رئتيّ وهو يضغط خده على خدي.

- احبسي أنفاسك يا سلوان، قد يؤلمك هذا.

شعرت براحة يده تضغط على بطني، ولم تكن لدي أدنى فكرة عمّا يفعله، أو ما الذي سيؤلمني.

- ما الذي قد يؤلمني؟

سمعت جوابي في صرختي نفسها.

مزّقني الألم وهو يقحم نفسه بالقوّة داخلي بدفعة واحدة غير ممتعة. ثمّ ألحقها بدفعةٍ أخرى، وصرخت: «آسا!».

عثر فمه على فمي من جديد، في اللحظة التي خطّ فيها الدمع مساره على وجهي. تمتم وهو يعلّق شفتيه على شفتيّ، ويندفع إلى داخلي مرّة ثالثة: «سلوان».

ثم دفعة رابعة، حاولت أن أغلق ساقيّ، حاولت أن أبعده عنّي بقوّة، ودفعته من كتفيه باستخدام يديّ، عثرت يداه على يديّ، يد تلو الأخرى، ثمّ رفعهما فوق رأسي، وهو يضغطهما على مفرش السرير.

لا يمنحني هذا شعورًا جيدًا، فاقتحامه لي مختلف تمامًا عن شعوري عندما كان يداعبني بفمه. همس: «اللعنة، إنكِ مدهشة يا سلوان، شكرًا لكِ. أشكركِ جزيل الشكر لمنحي هذا».

منحي هذا؟

هل منحته هذا؟ لا أتذكّر حتّى أنه سألني إن كنت مستعدة، إن كنت أرغب بهذا، أخذ فقط ما يرغب به.

أعتقد.

من قد يفعل هذا؟ كل ما سبق وقاله لي جعلني أصدق أنه مستعدٌ للانتظار. أغلقت عينيّ بقوّة وحاولت أن أفكّر، كل ما يمكنني الشعور به هو الضغط

داخلي، فخذاي يحرقانني نتيجةَ إجبارهما على التباعد، في حين كنت أحاول أن أضمهما معًا.

لقد استيقظت على هذا، عليه وهو يلمسني... ويقبلني. ولم أوقفه.

قلت أجل.

نطقت هذه الكلمة بصوت مسموع.

قلت له ألا يتوقَّف.

لقد أساء فهمي، أساء فهم ما كنت أطلبه منه، ما كنت مستعدة لفعله.

لم أكن حذرة بانتقاء كلماتي، وهذا ليس خطأه، بل خطئي. لم أعد عذراء، ولا يمكنني أن ألوم أحدًا آخر سوى نفسي.

انزلقت شفتاه على خدي، وشعرت بلسانه يتتبَّع خط دموعي، وهمس: «لن تشعري بالألم في المرَّة القادمة».

ثم نقل فمه إلى الجهة الأخرى من وجهي، وأضاف: «أعدك بذلك».

إن فكَّر للحظة بأنه قد سلبني للتَّوّ عذريتي دون أن أسمح له بذلك، فلن يتصرَّف بهذه الطريقة. إنه يشكرني على منحي إياها له، إنه واعٍ تمامًا لما حدث بيننا، وأنا ما أزال نصف نائمة، ومرتبكةً، ولا أعرف إن كان ذلك قد حدث بالتراضي، يجب أن يكون كذلك.

لم يكن ليفعلها لو لم أوافق، إن لم أرغب بحدوث هذا الأمر، فما الذي أفعله بنومي بقربه؟ عارية؟ فأنا بالكاد أعرفه.

كان يجب أن أكون أكثر تأهُّبًا.

استعدادًا.

شهقت، لم نكن مستعدَّيْن.

إنه لا يرتدي واقيًا ذكريًّا حتَّى، حاولت أن أحرِّك يديَّ من بين قبضته فوق رأسي، لكنه لم يتزحزح، وكنت أنزف: «آسا، واقٍ ذكريٌّ!».

تأوه على عنقي، وقال: «لقد وضعته يا حبيبتي، لا تقلقي».

شدَّ على يديَّ، وابتعد، وهو يحدِّق إليَّ من الأعلى، وقال: «أنتِ رائعة للغاية، يا له من حلم!»

أو كابوس.

أفلت يديَّ. طوال وقت ممارسته للجنس معي، لم أخبره ولو مرَّة واحدة أن يتوقَّف.

ولا حتَّى مرة.

ولست واثقة حتَّى من أنني أريد أن أوقفه الآن. ما جرى قد جرى، لم أعد عذراء بعد الآن، وسأشعر بالسوء إن سألته التوقُّف الآن. ليس وهو يعتقد أنني أريد هذا، سأشعر بأنني أقل نضجًا وخبرةً منه إن أوقفته الآن، فبهذا أكون قد وصلت إلى النشوة... مرَّتين الليلة... وأوقفته عندما حان دوره؟

أصبحت إحدى يديه خلف ركبتي الآن، وهي ترفع ساقي، وتلفها حول وسطه. عبست، لأن هذه الوضعية الجديدة ستسمح له بالغوص أعمق في داخلي. همس: «أيؤلمك هذا؟».

- أجل.

ابتسم قليلًا، وشعرت أن هذه الابتسامة تمزقني. لماذا يبتسم؟

- ستشعرين بألم أشد إن توقَّفت. لن يكون الأمر هكذا في المرَّة القادمة، أعدك. فقط تنفسي، حسنًا؟

سيسوء الألم أكثر إن توقَّف؟ أوه، يا إلهي. لم يسبق أن عرفت أن المرَّات الأولى تكون هكذا. لماذا سبق وشعرت بأنني مثيرة للشفقة لانتظاري طويلًا؟ كنت لأنتظر طوال حياتي، وبسعادة، لو أنني علمت أن المرَّة الأولى تؤلم إلى هذه الدرجة.

قال لي: «ضعي ساقكِ الأخرى حولي، سيكون الأمر أفضل إن توقَّفت عن المقاومة».

فعلت كما قال لي، وحاولت أن أسترخي، قد أفعل أي شيء في سبيل تخفيف الألم قليلًا. نزلت شفتاه على شفتيَّ، وجذبت أسنانه شفتي السفلى بلطف، وأغلقت عيني، وفعلت كل ما بوسعي لأمنع جسدي من المقاومة، كيف يمكن لي أن أرغب فيه بشدَّة قبل أن يبدأ هذا، ثمَّ تتحوَّل رغبتي إلى العكس تمامًا؟ هذا بحق ليس أمرًا عادلًا له. من الأنانية الشديدة أن آخذ ما يبدو جيدًا لي، ثمَّ أرغب بمنعه من أخذ ما يبدو جيدًا له.

- أنتِ حلوة للغاية يا سلوان، حلوة جدًّا.

أصبحت دفعاته أسرع، وأقوى، آمل أن هذا يعني اقتراب الأمر من نهايته.

أمسَكَتْ إحدى يديه بمسند السرير العلوي، ورفع نفسه مستندًا إليه، وبسبب ثقله المركَّز على المسند، راح يهتز ويخبط الجدار مع كل مرَّة يندفع فيها إلى داخلي. شعرت وكأنه يُثار بالصوت، وتأكدت حقيقة أنه على الأرجح سيترك علامات على الجدار، لأنه راح يدفع بقوَّة أكبر.

تنهَّد قائلًا: «يا للجحيم».

لا يمكنني أن أغلق عينيَّ، فمشاهدتي له وهو فوقي، ورؤية انغماسه في المشاعر التي تراوده وهو داخلي، كل ذلك ساهم في جعل الألم يتلاشى تقريبًا.

تقريبًا.

حاولت أن أجد المتعة في الأمر، وأعتقد أن جزءًا منِّي قد استمتع بالفعل، الطريقة التي ينظر إليَّ بها، وهو يشخر، ويلمسني بيده الحرة، وقد كوَّر صدري براحة يده، وسألني: «هل بدأ الأمر يعجبك؟».

أصدرت أنينًا، كردٍّ بالإيجاب، فجزء صغير منِّي بدأ يحب الطريقة التي ينظر بها إليَّ. ضاجعني بلطفٍ هذه المرة، وهو بالكاد يتحرك داخلي.

هذا أفضل.

لا يؤلم كثيرًا.

- أتحبين هذا يا سلوان؟

أومأت أخيرًا، فابتسم، ووضع شفتيه على شفتي، وقال وهو يندفع اندفاعة بطيئة داخلي: «شكرًا لكِ. شكرًا لثقتكِ بي، شكرًا لأنكِ أعطيتني الشيء الذي لم ترغبي يومًا في إعطائه لأي رجلٍ آخر».

انزلق لسانه برقة على شفتي السفلى، في حين مرَّت يده على صدري صعودًا إلى أن لفَّها حول حلقي.

على الرغم من أن قلبي قد قفز في صدري عندما شعرت به يشدُّ قبضته على حلقي، إلا أنها كانت قبضة لطيفة.

لا بُدَّ أنه قد رأى الخوف في عينيَّ، لأنه همس: «أحتاج أن ألمس حلقكِ، لن أوذيكِ، ولكنني أريد أن أضع يدي هنا. هل يمكنني؟».

لا فكرة لديَّ عمَّا هو الطبيعي، وما هو غير الطبيعي خلال ممارسة الجنس، فكل خبرتي في الأمر لا تتعدَّى العشر دقائق.

ابتلعت ريقي، ثمَّ أومأت برفق.

أغلق عينيه، وضغط جبينه على جبيني، وبالكاد لامست شفتاه شفتيَّ، لكنه لم يقبِّلني. بدأ فقط بالتحرُّك ببطء داخلي، وهكذا، بدأت كل حركة من حركاته تتسارع، وتصبح مدروسةً أكثر بقليل. راح يتنفَّس بثقل على فمي، في حين أن يده ما تزال على حلقي، ولكن برقة، إنه شعور من نوع مختلف، شعور بالرغبة أن يكون قد أعجبه هذا، وطريقة شعوري تجاهه.

تركت عيني مفتوحتين طوال الوقت، مذهولةً بحماسته، ترك رأسه مسنودًا إلى رأسي، وظلت شفتاه على الحياد من شفتي، وراحت يداه تمسكان ني بقوَّة أكبر.

همس على فمي: «اللعنة. اللعنة».

بدأ يرتعش وهو يقذف، وقد ماثلت أنفاسي أنفاسه في الشدَّة، رحت أشهق معه بينما سيطر الارتعاش عليه، واندفع داخلي مجدَّدًا، ثبَّت نفسه في حين أراح شفتيه بين شفتيَّ، وتلاطمت أنفاسه بأنفاسي.

انهار فوقي، ودفن وجهه فوق عنقي لدقيقةٍ كاملةٍ، قبل أن يضع فمه على بشرتي، ويهمس: «شكرًا لكِ».

لم أقل له على الرحب والسعة.

حدَّقت إلى السقف، متسائلةً لماذا أشعر بالتناقض الشديد، تعجبني فكرة أنني أعطيته شعورًا جيدًا، وأحببت عندما سبق ومنحني هذا الشعور، ولكنني لا أحب ما تبقى.

أعتقد أن هذا هو السبب الذي يُعزَى إليه الاختلاف الذي قرأت عنه بين الجنس في الحياة الواقعية وبين الجنس في الكتب والتلفاز. ففي الحياة الواقعية، يكون غير مريح، وغريبًا، وحتَّى إنه أحيانًا يبدو خاطئًا، وغير مرغوبٍ به. آمل أنه لن يكون هكذا في كل مرة، آمل أن يصبح أفضل بمرور الوقت.

وضع يده على جانب رأسي، بينما ضغط شفتيه على أذني، وقال: «ستجدين صعوبةً في التخلُّص منِّي الآن».

ابتسمت، فهو على الأقل قد أقنعني أن ما حدث بيننا قد عنى له شيئًا ما، وأنه لم يعتبرني مجرَّد نزوة لليلة واحدة، لا بد أن يكون هذا أمرًا إيجابيًّا، ما زال يصعب عليَّ أن أميِّز إن كان جيدًا أم لا. أحيانًا تكون الأشياء الجيدة مغطاة بثوب السلبية، والعكس صحيح. ما يزال عبارة عن غيمة ضبابية غامضة بالنسبة إليَّ، ولكنني لا أملك في ماضيَّ تجربةً من هذا النوع لأقارن تجربتي معه بها، ولا شخص آخر لأقارنه به.

قال وهو يدفع نفسه خارج السرير: «سأعود في الحال».

وقف، وكانت هذه المرَّة الأولى التي أراه فيها بوضوح وهو عارٍ، كل عضلةٍ من عضلات جسده مفصَّلة ومحدَّدة، مدَّ يده إلى الأسفل، وبحذرٍ أزال الواقي الذكري، ثمَّ رماه في سلة القمامة.

لا أتذكَّره حتَّى وهو يضعه، لا بُدَّ أنه قام بذلك عندما أخبرته إنني سأمارس الجنس معه، هذا ما حدث، أليس كذلك؟ فأنت تناقش في البداية إن كنت ستمارس الجنس، ثمَّ تضع الواقي الذكري، لا بُدَّ أنني كنت شبه نائمة.

أكره أنني شككت به للحظات هذه الليلة، فهو لم يعاملني سوى باللطف، والصراحة، إنني أعاقبه على مشاعري الصامتة بالتردُّد، كيف يمكن له أن يتوقَّف وأنا لم أعثر على صوتي لأقول لا؟

غادر آسا غرفة نومه، ولكنه عاد بعد أقل من دقيقة. أغلق الباب خلفه، وسار نحو السرير، وانحنى بقربي، وهو يحمل شيئًا ما، ثمَّ مال إليَّ وهو يضع يده على ركبتي، ويباعد بين ساقيَّ، ثمَّ ضغط شيئًا دافئًا عليَّ، شيئًا مبلَّلًا.

وقال بعينين ملآنتين بالقلق: «أريد أن أساعد في تخفيف ألمك، دعيني أضع هذه هنا لدقيقة أو اثنتين».

أومأت، وأرخيت ساقيَّ، وهو يمسك بالمنشفة الدافئة من أجلي، لم نتكلم، فالأمر برُمَّته غريب نوعًا ما، وسريالي، ولا أريد أن أزيد غرابته بالكلمات، فلا فكرة لدي حتَّى عمَّا يجب قوله الآن.

قبَّل قمة ركبتي، واستخدم المنديل لتنظيفي، وقال: «لقد نزفتِ قليلًا، ولكن لا بأس، فقد توقَّف الدم الآن».

رمى المنديل في السلة، واستلقى بقربي، ثمَّ رفع الأغطية فوقنا، وكنا نواجه بعضنا.

سألني وهو يبعد خصلة من شعري عن وجهي: «هل استمتعتِ؟».

لم أرغب في جرح مشاعره، لذا كذبت، وهمست: «أجل. لقد شعرت بالألم، لكن الأمر أعجبني».

قبَّل خدي، وقال: «حسنًا، أنا أحببته».

لفَّ ذراعه حولي، وكوَّر مؤخِّرتي بين يديه، وشدني إليه، هامسًا: «سآخذك إلى منزلك غدًا، ولكنني أتمنَّى أن تبقي بما فيه الكفاية لأجعلك تحبي الأمر، وأعدك بأنكِ ستحبينه، فالمرة الأولى هي دائمًا الأصعب».

مرَّت شفتاه خلال الدقائق القليلة التالية، مرَّت على كل نقطة من عنقي وكتفي، ولكنه لم يستخدم لسانه البتَّة، بل مرَّر شفتيه فقط، بلطفٍ ورقةٍ، على جلدي، لم أشعر يومًا أنني مرهفة الحسّ إلى هذه الدرجة. كلما ظننت أنه قد نام، وكنت على شفا النوم، تعود شفتاه لتلمسا بشرتي مجدَّدًا، وكأنه يخشى أن ينام نتيجة خوفه من أن يستيقظ ويجد أن الأمر كله كان مجرَّد حلم.

كنت قد غفوت تقريبًا عندما وضع فمه مجدَّدًا على عنقي، وهزَّني موقظًا إياي. همست له: «عد إلى النوم يا آسا، لن أغادر».

شعرت به يتحرَّك فجأةً، لذا فتحت عينيَّ، ورأيته مستندًا إلى مرفقيه الآن، وهو يحدِّق إليَّ من الأعلى بشدَّة، لا أعرف ما الذي قد قلته للتَّوِّ وقد أغضبه، أو ربما ما قلته ترك تأثيرًا معاكسًا تمامًا للغضب، لست متأكدةً.

قال وعيناه تحدِّقان إليَّ: «هل تقسمين؟ أتقسمين بأنك لن ترحلي؟».

أومأت، لأنه بدا لي بحاجة إلى التأكيد، وقلت: «أقسم».

زفر، وترك جبينه على جبيني مجدَّدًا، ثمَّ راح يقبِّلني بعدها، وقال بين القبلات: «لا أريدك أن ترحلي، إياكِ أن تتركيني يا سلوان».

لا تعجبني نبرة صوته، والخوف الظاهر في توسُّلِه إليَّ، لا فكرة لديَّ لماذا يقول هذا، وما إن كان يتحدث فقط عن الآن، عن هذه الليلة، أم عن الأبد.

بالتأكيد لا يقصد الأبد.

أيًا يكن ما يعنيه، فهو يجعلني أتساءل عمَّا سبق وحدث في حياته وجعله شديد التوتُّر هكذا. إما أن يكون قد أحب بعمق، أو كره بعمق، آمل أن يكون الخيار الأول هو الصحيح.

قال وهو يقبِّلني من جديد: «عديني، قولي إنك لن ترحلي».

أمسكت وجهه بين يديَّ، وهمست: «لن أرحل يا آسا، أعدك. سأكون هنا عندما تستيقظ».

شدَّني إليه، وضمَّني بقوَّة طويلًا، ولم يخفف قبضته إلى أن غطَّ في النوم أخيرًا.

حدَّقت إليه للحظة، إذ يبدو وهو نائمٌ أقل رجولة، وأقرب ما يكون إلى صبي صغير ضعيف، وتبدو ملامحه أرقَّ، ففمه ليس مشدودًا بقوَّة، وهو مرتاحٌ في نومه، مسترخٍ، وأنا بين ذراعيه.

عدلت وضعيتي ببطء إلى أن أصبحت على معدتي، ما تزال ذراعه ملفوفةً حولي، لكنني استدرت إلى الجهة الأخرى لأواجه الجدار، تاركةً ذراعي تتدلى خارج السرير. ثمَّ أغمضت عينيَّ، ورحت أفكر في هذا اليوم.

لقد قبِّلت للمرَّة الأولى.

خرجت في أول موعد غرامي لي.

مارست الجنس لأول مرة.

وحتَّى وإن لم يكن مشابهًا البتَّة لتصوُّري حول كيف يجب أن تكون أول مرَّة، إلا أن آسا قد عاملني على نحو أفضل ممَّا سبق وعاملني أي أحد آخر طوال حياتي. لم يمضِ على معرفتي به سوى يوم واحد، إلا أنني أشعر أن أهميتي بالنسبة إليه أعلى من أهميتي بالنسبة إلى أمي.

وجدت نفسي مستمتعةً بالطريقة التي يحضنني بها، فمن الجيد أن تشعر أنك مرغوب، والشعور الأفضل من هذا هو أن تشعر أن ثمَّة من هو بحاجة إليك، كنت على وشك النوم عندما شعرت به يتحرَّك قربي، وضع شفتيه على منتصف ظهري، وطبع قُبلةً لطيفةً.

وهمس: «أتنامين على بطنك؟ لا أعرف لماذا، إلا أنني أحب الأمر بشدَّة».

أراح رأسه على ظهري، ضاغطًا خده على جلدي.

وهكذا غفونا.

أنا على بطني.

وهو فوقي تقريبًا، ليتأكَّد من أنني لن أرحل، حتَّى في نومه.

***

نهاية النهاية

آسا

ضجَّت الأخبار مؤخرًا بقصة شاب ما اغتصب فتاةً. وقد عُوقب بقضاء بضعة أشهر فقط في السجن، لأنه أبيض البشرة، أو لأنه قد ربح بعض الأوسمة، أو بسبب تضامنٍ لعينٍ من هذا القبيل.

جُنَّ جنون الأُمَّة اللعينة بأكملها بسببه، فأينما نظر أي أحد وفي أي مكان، لا يرى سوى حكمه المخفَّف، سيطر هذا الخبر على نشرات الأخبار لأسابيع، لا أعرف تفاصيل الموضوع كلها، ولكنه لا يتمحور حول كون الشاب مغتصبًا متسلسلًا، وأنا واثق للغاية من أن هذه الفعلة كانت المرَّة الأولى أو الثانية له، ولكن الجميع تعامل مع الأمر وكأنه «هتلر».

لا أعني بذلك أن الوغد لا يستحق الفترة التي قضاها في السجن أيًّا يكن طولها، أو حتَّى حكمًا أطول، أنا لا أدافع عن هذا الحقير، أنا فقط منزعج من أن قضيتي لم تحصل على تغطية إعلامية ولو لثانية من قِبَل الأخبار الوطنية. لقد قتلت شابًّا ولم أُعاقب، وأنا أدير أكبر حلقة مخدِّرات في الكلية منذ اختراع مفهوم الكلية حتَّى، ولم تُلصَق بي التهم، وحتَّى بعد أن رفعت المسدس على رايان، أطلق القاضي سراحي بشرط الإقامة الجبرية حتَّى يحين موعد محاكمتي.

إقامة جبرية. لمدَّة ستة أشهر مجيدة.

إنها مزحة، هذه الأمة بأكملها والمنافقون العنصريون الذين يقودونها عبارة عن مزحة، والشباب مثلي هم المستفيدون من ذلك. كنت لأشعر بالعار لانتمائي لهذه الأمة لو لا أنني أحبها كثيرًا بسبب قلة التداعيات فيها.

وبما أننا في خضم الحديث عن الشباب بيض البشرة الذين يمارسون الجنس عنوةً مع الفتيات، دون أن يعاقبوا... أنا واثق من أن أصابعي لا تكفي لأحصي عليها عدد الفتيات اللاتي ضاجعتهن دون إذن. يا للجحيم! لا يمكنني حتَّى أن أحصي عدد المرَّات التي ضاجعت فيها جيس من دون أن تكون راغبةً بي. لأكون صادقًا تمامًا، هذا هو السبب الوحيد الذي كان يدفعني إلى مضاجعتها، إذ يعجبني أنها تبغضني بشدَّة.

أنا فقط لا أفهم لماذا يمكنني أن أنجو بفعلتي، دون أن يُحدث أحدهم ضجة كبيرة حول الموضوع، أنا أكثر وسامةً من معظم الشباب الذين يحظون بتغطية وسائل الإعلام الوطنية، كما أنني لست جبانًا... في حين يبدو لي معظمهم جبناء. ما السبب الذي يجعل الشباب البيض القبيحين ينعمون بلا شريك بالاستحواذ على وقت الشاشة بأكمله؟

هل السبب أنني لم أنحدر من عائلة ثرية؟

على الأرجح هذا هو الأمر، فقد نشأت يتيمًا مع أبوين سيئين كل السوء. وسائل الإعلام تدرك أن الناس لا يعطون اهتمامًا لقصَّةٍ كقصتي، وذلك ببساطة لأنني لا أملك أبوين ثريين يدعمانني ويقفان إلى جانبي.

نستنتج أن هذه هي فرصتي الوحيدة للشهرة، وما يزال والداي يفسدان الأشياء عليَّ.

أخبرني محاميَّ اللعين بول، إنه لأمر جيد أن القصَّة لم تصل إلى وسائل الإعلام، وقد ذكر أنه عندما تضع وسائل الإعلام قبضتها على قصة ما، فإنها تلويها وتديرها كما تشاء بطرق مختلفة، وسيجد القاضي نفسه مجبرًا على إنزال حكم أقسى بالمتهم. أعتقد أن الأمر منطقي كنوع من التحذير، لكنني لست واثقًا من أن بول يدرك التأثير الذي أُحْدِثُه على الناس، فأنا أتمتع بسحر شديد، وسوف تحبني وسائل الإعلام، وعندها ستجبر سلوان على متابعة

القصة لأنها ستجدها معروضةً على كل محطة في أي لحظة تشغِّل فيها التلفاز.

اللعنة، لقد فعلتها مجدَّدًا، سمحت لها باختراق رأسي والحضور في أفكاري مجدَّدًا، كنت أعمل جاهدًا على تطبيق نصائح طبيبي النفسي... بأن أحاول أن أبعدها عن أفكاري. كلما فكرت بها أشعر وكأنني عجوزٌ هَرِمٌ يُعاني من السمنة المفرطة، وارتفاع هائل لنسبة الكوليسترول في الدم، عجوز هَرِم يهوي ميتًا نتيجة ذبحة قلبية، حيث ترتفع اليد إلى القلب، وتتوق الرُّكَب لملاقاة الأرض.

أختنق بفعل غضبي وألمي كلما فكرت فيما فعلته بي.

سلوان خاصَّتي.

هذا خطئي، كان يجب أن أتعلَّم ألا أحب شيئًا ما بالقوَّة التي أحببتها بها، ولكنني لم أستطع التحكُّم بمشاعري، بدا وكأنها قد خُلِقَت من أجلي، وكأنها قد وضعت على الأرض لتعوِّضني عن كل الهراء الذي تحملَّته في أثناء نشأتي. ظننت لبعض الوقت أنها عفو الله المطلق عني، وكأنه قد أنزلها من الجنة مباشرةً، قائلًا: «إليك يا آسا، لقد خلقت شعاع النور هذا لأعوضك عن كل الظلام الذي حلَّ عليك بفعل والديكَ. إنها هديتي لك يا ولد، ومعها سيتلاشى ألمك».

وقد تلاشى بالفعل، لأكثر من سنتين كنت أملك قطعتي من الجنة كلما رغبت بها، سلوان كانت مثل حواء قبل أن يفسدها الثعبان اللعين، كانت حلوة وبريئة، ولم تُمَس، ملاكي الصغير في هيئة بشر.

إلى أن ظهر لوك.

لوك هو الشيطان الذي أفسد حوَّاء خاصَّتي، الثعبان، وقد أغراها بتفاحته، وعرَّفها على الخطيئة، وأفسدها.

عندما أفكِّر بسلوان، الأمر الذي يحدث في كل دقيقة لعينة من كل يومٍ ألعَن، أفكِّر بسلوان التي عرفتها قبل ظهور لوك، سلوان التي أحببتها، سلوان التي كانت تشعُّ كشجرة عيد الميلاد كلما أعرتُها أدنى قدر من الاهتمام، سلوان التي أعدت لي كعكة جوز الهند والمعكرونة وكرات اللحم، فقط لأنها تعرف

أن هذا سيرسم ابتسامةً على وجهي، سلوان التي كانت تنام في سريري كل ليلة، منتظرةً منّي أن آتي وأوقظها من خلال ممارسة الحب معها، سلوان التي عبَّرت عن حبها لي من خلال عنايتها بمنزلي كما تفعل النساء الجيدات، النساء اللواتي لسن عاهرات، اللعنة.. كم أحب أن أشاهدها وهي تنظِّف! لم تشتكِ يومًا من الضيوف الذين كانوا يتصرفون كالخنازير ولا يحترمون منزلي، بل كانت فقط تنظِّف من بعدهم، لأنها تعرف كم أحب البيت المرتب الأنيق.

إنني أشتاق إليها، أشتاق كم كانت تحب أن تحبني، أشتاق إليها عندما كانت بريئة... ملاكي... عفو الله المطلق عني.

ولكن الآن... بعد أن وقعت في فَخِّ الثعبان... أريد أن أراها ميتةً. أريد أن أقتلهما كليهما، إن ماتت لن يتحتَّم عليَّ أن أفكر كيف تغيرت عن تلك الإنسانة التي وقعت بحبها. إن ماتت، لا تسيطر على تفكيري الأصوات التي تصدرها وهي تضاجع لوك. إن ماتت، يمكنني أن أتجاوز الحقد الذي أحسه تجاه نسخة سلوان بعد لوك، والتي سيطرت على كل أجزائها التي سبق ووقعت بحبها.

إنها مجرَّد تمنِّيات، فقد استولى عليها، وليس جسديًّا فقط، بل فكريًّا أيضًا. لقد جعلها تعتقد أنه أفضل مني، وأنه يمكن أن يقدم لها أكثر ممَّا أستطيع، لست واثقًا من رغبتي بمسامحتها على هذا الغباء المدقع.

لقد تلاشى بريقها، وأصبحت دمية مملَّةً وباهتةً، لعب بها العديد من الأطفال.

يا للعار!

ولكن لن يستمرَّ الأمر طويلًا، فقد عرفت أين هما، ولم يبقَ أمامي سوى أن أجد طريقةً للوصول.

استلقيت على الأريكة، وأغمضت عينيَّ، انزلقت يدي داخل سروالي، ورحت أتساءل متى سأتوقَّف عن الحاجة إلى التفكير بسلوان لأصل إلى النشوة، على الرغم من كرهي لها بهذه الشدَّة، إلا أنها الشيء الوحيد الذي يمكنه أن يؤجِّج رغبتي.

فكَّرت بسلوان قبل أن يدنِّسها لوك، فكرت بأول قبلةٍ لنا في ذاك الزقاق، فكرت بحقيقة أن شفتيَّ كانتا أول شفاه تلمس شفتيها، فكرت كم كانت طرية

وبريئةً، وكم كانت مذهلةً معي، وكيف نظرت إليَّ وكأنها لا تكتفي، وكأنني المسيح نفسه!

أشتاق إلى سلوان التي وقعت بحبها.

في اللحظة التي وصلت فيها رغبتي إلى أوجها، طرق أحدهم على بابي. سحبت يدي من سروالي، وأنا أصرخ قائلًا: «اللعنة!».

لقد اختار الطارق أسوأ وقتٍ على الإطلاق. وقفت، وأنا أتساءل إن كنت سأكف يومًا عن الشعور بالغرابة من وزن جهاز المراقبة المثبت كالسوار على كاحلي، لقد مرت ثلاثة أشهر على ارتدائي له وما زال يفقدني صوابي، ما من طريقة يمكنني من خلالها أن أتحمَّل الأمر لثلاثة أشهر أخرى، ربما قد أستثمر مخزوني من الدواء المنوِّم، وأقضي الأشهر الثلاثة الباقية نائمًا.

نظرت عبر العين الساحرة، ثمَّ فتحت الباب لأسمح لأنثوني بالدخول. سبق وأعلمت أنثوني ألا يقول الشيء الكثير بصوتٍ مسموعٍ، فأنا لست غبيًّا، وأعرف أن أولئك الملاعين على الأرجح قد زرعوا أجهزة تنصُّت في منزلي.

قلت وأنا آخذ حقيبة الظهر منه: «أهلًا يا رجل».

أجاب وهو يتلفَّت حوله كأحمق مذعورٍ: «أهلًا. لقد عثرت على كعكة جوز الهند التي كنت تبحث عنها».

كلمة «كعكة جوز الهند» هي شيفرة للكومبيوتر، و «المخبز» هي شيفرة لسلوان. رفضت أن أستخدم أيٍ من الكومبيوترين اللذين ما يزالان في منزلي، فعندما يحاول المدَّعون العامُّون أن يجمعوا أدلَّة لقضية ضد أحدهم، لا يتركون ببساطة كومبيوترات المتهم في منزله، بل يصادرونها، وحقيقة أن جهازَي الكومبيوتر خاصتي ما يزالان هنا، تبين أنهم يريدونني أن أستخدمهما للبحث عن أشياء، وأنني تحت المراقبة. وفقط من أجل إغضابهم، فقد رحت أقضي ساعةً كاملةً من كل يوم وأنا أستخدمهما للبحث عن أشياء مثل: «كيف يمكن العثور على الخلاص من خلال يسوع المسيح؟».

حتَّى إنني قد ضغطت على بثٍّ صوتيٍّ خاصٍّ بالكنيسة، واستمعت إليه كي يظنوا أنني قد تغيرت بالفعل نحو الأفضل. اللعنة، لقد تطرَّفت كثيرًا بالأمر في الليلة الماضية، وأنشأت حساب بنترست (Pinterest)، هذا صحيح، آسا

جاكسون لديه حساب بنترست، كما أنني ثبَّت وصفات طعام، واقتباسات لمدَّة ثلاث ساعات متواصلة، فقط لأحيِّرهم.

يا له من عالم سخيف لعين!

جلست إلى الطاولة في غرفة الطعام، وفتحت حقيبة الظهر. استمر بحثي لمدة شهرٍ كاملٍ لأعثر أخيرًا على شاب لن يشي بي، إذ أعرف الكثير عنه، وبالتالي سيقضي حياته في السجن إن وشى بي، بالإضافة إلى أن أنثوني يائسٌ بما فيه الكفاية لتحصيل المال بأية طريقة كانت، وعلى الأرجح سيوافق على قتل سلوان ولوك، لقاء مبلغٍ أقل حتَّى ممَّا دفعته له ثمنًا للحاسوب المحمول. عيبه الوحيد هو أنه استغرق الكثير من الوقت ليستطيع أخيرًا تحديد مكان سلوان أو لوك، وبطريقة ما عثر على شاب تمكَّن من تحديد عنوان لهما، لم أسأله الكثير من الأسئلة، فكلما قلَّت معرفتي بوسائله، كان ذلك أفضل بالنسبة إليَّ، في حال حاولوا أن ينتقموا مني. ولكنني واثقٌ أنه ثمَّة واشٍ في قسم لوك، مستعدٌ لتقديم المعلومات لقاء مبلغٍ أقل حتَّى ممَّا طلبه أنثوني مني.

هذه طبيعة البشر، نحن جميعًا مستعدون لفعل أشنع الأشياء من أجل المال.

سألته: «هل عثرت على المخبز؟».

أومأ.

يا للجحيم.

لقد عثر على المخبز اللعين.

ابتسم بخبث، وقال: «لقد ذهبت وتحققت من الأمر بنفسي، إنك على حق، فهو مخبزٌ جميلٌ بالفعل».

تجاهلت حقيقة أن أحشائي قد ارتفعت إلى حلقي بعد إخباري أنه رأى سلوان، وركزت على حقيقة تأكدي من أنه قد قال للتَّوِّ إن سلوان مثيرة. من يظن نفسه هذا الوغد؟

سألني وهو يركل ساقيه إلى الخلف في الكرسي: «بجميع الأحوال، ما الشيء المميَّز بشأن هذا المخبز؟».

يريد أن يعرف لماذا دفعت، على مضض، أكثر من عشرة آلاف دولار لقاء أن يحضر لي كومبيوتر محمول، ويعثر على عنوانها. كما وعدته بخمسة آلاف إضافية إن تمكن من إعطائي دليلًا مصوَّرًا يثبت وجودها في ذلك العنوان.

أجبته وأنا أخرج الكومبيوتر المحمول من الحقيبة: «هذا المخبز فريدٌ من نوعه يا أنثوني».

دوَّن أنثوني كل التعليمات اللازمة لي لأتمكن من الوصول إلى الفيديو الذي صوره في أثناء المراقبة، بالإضافة إلى أنه زودني بصندوق واي فاي مسجَّل باسمه، لإبعاد أي شبهات عني.

سألته: «هل حصلت على أيٍّ كعكاتٍ صغيرةٍ من المخبز؟».

«الكعكات الصغيرة» هي شيفرة لصور المراقبة. نبدو كآلتين ونحن نتحدث عن كل بضائع المخبز هذه، ولهذا السبب أبدل الموضوع في كل مرَّة يأتي فيها لزيارتي، ففي الأسبوع الماضي كانت الشيفرة تتمحور حول برامج التلفاز.

ابتسم بخبثٍ مجدَّدًا، وقال وهو يخرج المزيد من الأوراق من حقيبة الظهر: «أجل، إنها في الحقيبة».

فتح إحدى الأوراق، وأشار إلى عنوان بريد إلكتروني وكلمة سر، دالًا إياي أين يمكنني أن أعثر على صور المراقبة.

تدافع نبضي داخلي، وحاولت أن أهدئه، لكنني شعرت وكأن قلبي يقيم حفلًا موسيقيًا صاخبًا.

أريد أن يرحل أنثوني لأتمكَّن من استخراج الفيديو، أحتاج إلى أن أراها، فقد مضت ثلاثة أشهر منذ أن رأيتها آخر مرة، أحتاج إلى أن أراها.

وقفت وسرت في الممر لأحضر الأموال التي أدين له بها، رميتها على الطاولة وأشرت إلى الباب، ليعلم أنني لم أعد بحاجته اليوم، دسَّ المظروف في جيبه الخلفي، وقال: «أتحتاج إلى أي شيء آخر؟ يمكنني المرور عليك غدًا».

هزرت رأسي، وأجبته: «لا. سأخبرك عندما ينفذ مخزوني من الكعك».

ابتسم، واتجه نحو الباب الأمامي. شغلت الواي فاي، وسجَّلت الدخول إلى الحساب الذي أعطاه لي، ثمَّة رسالة مترافقة مع البريد الإلكتروني المربوط بالدروب بوكس، الرسالة من أنثوني، وجاء فيها:

«لقد سجلت فيديو بطول ثماني ساعات تقريبًا بالأمس، ثمَّ قصصته ليقتصر الأمر على اللقطات التي يظهر فيها الثنائي بوضوح. تُظهر دقيقتان من الفيديو شابًّا ما وهو يغادر ثمَّ يعود، وفي منتصف التسجيل سترى الفتاة تُخرج القمامة، ليظهر كلاهما معًا في نهاية التسجيل. يمكنني أن أستمر بمراقبتهما، وإن رغبت يمكننا أن نعد تسجيلًا مباشرًا، تستطيع الدخول إليه من خلال هذا الكمبيوتر. يمكن إنجاز هذا الأمر خلال دقيقتين، كل ما عليك فعله هو إعطائي جوابًا».

أرسلت إليه الرد قبل حتَّى أن أحمِّل الفيديو:

«بالطبع أريد بثًّا مباشرًا. لماذا بحقِّ الجحيم لم تخبرني بذلك سوى الآن؟».

ضغطت على زرِّ الإرسال، ثمَّ بدأت بتحميل الفيديو، تطلب الأمر قرابة خمس دقائق لعينة، لينتهي أخيرًا من تحميل الفيديو في الدروب بوكس، وما إن انتهى، نهضت وأقفلت الباب الأمامي، فأنا لا أريد أيَّة مقاطعة.

وأعددت مشروبًا أيضًا، لأن فمي كان شديد الجفاف. شعرت وكأنني على وشك التقيؤ، بمجرَّد تفكيري بأنني سأراها للمرَّة الأولى بعد ثلاثة أشهر.

جلست إلى الطاولة، وأسندت ظهري، ثمَّ ضغطت زر التشغيل. الفيديو عبارة عن ثلاث عشرة دقيقة، ثلاث دقائق منها استُهلكت من خلال محاولة أنثوني تركيز الكاميرا على الباب الأمامي لشقتهما، وقد اختار زاوية عالية وكأنه يسجِّل من الطابق الثاني للمجمَّع السكني.

علمت أنه أينما يكن المكان الذي يقيم فيه لوك وسلوان، فإن لوك سيكون حذرًا بشدَّة، وأنه على الأرجح سيعين أحدهم ليتأكد من عدم تعرض الشقة للمراقبة في أثناء غيابه. لذا استأجرت لأنثوني شقَّةً فارغةً في المجمَّع بإطلالة تُظهر باب شقتهما الأمامي، ليتمكَّن من الحصول على فيديو جيد دون أن يلاحظه أحد إن جلس في سيارةٍ مركونةٍ.

فُتح باب الشَّقَّة في الدقيقة الثالثة وإحدى وثلاثين ثانية في الفيديو، وخرج لوك ونظر إلى يساره، ثمَّ إلى يمينه، يعجبني أنه مرتاب، يعجبني أنه في كل مرَّة يفتح فيها باب الشقة، يفكر بي، متسائلًا إن كنت هناك، جاهزًا لأقدِّم انتقامي.

انقطع التسجيل ثمَّ عاد.

وعندها رأيتها. بدأ الباب الأمامي يُفتح، رأيت ذراعها وهي تؤرجح كيس قمامة، وترميه على الأرض بجانب الباب، وبالكاد حظيت بلمحةٍ سريعةٍ لشعرها، وهي تصفع الباب ليغلق مجدَّدًا، بدا الأمر وكأنها تحاول الاختباء، وكأنها تخشى من أن تكون مُراقَبة، إنها تخاف أن تبقى في الشَّقَّة وحيدةً.

اللعنة، لقد تركها لوك هناك، وحيدةً تمامًا، وعلى الأرجح يفعل ذلك يوميًّا لعدَّة ساعات في اليوم. لا يهمني إن كان يجب عليه أن يعمل ليدفع فواتيرهما، فلو كنت في مكانه مع سلوان، وأعرف أن ثمَّة رجلًا ما يشكل خطرًا عليها في الخارج لعثرت على طريقةٍ لحمايتها، ولما رضيت بأن تغيب عن نظري لحظةً.

هذا أول دليل على أنه لا يحبها كما أحبها أنا.

كما كنت أحبها.

لم أعد أحبها بعد الآن.

هل أحبها؟

اللعنة.

أعدت الفيديو بما لا يقلُّ عن عشرين مرَّة، وأنا أشاهد تلك الذراع وهي تؤرجح كيس القمامة إلى الخارج، وأرى شعرها يتمايل على كتفها وهي تغلق الباب. تتسارع نبضات قلبي مع كل مشاهدة، وتكاد تتوقَّف كلما أُغلق الباب.

يا للجحيم! إنني أحبها، ما زلت أحبها.

إنني أحبها، وتقتلني معرفتي بأنها وحيدةٌ في تلك الشقة، خائفة بشدَّة إلى درجة تخشى معها أن تفتح الباب على مصراعيه. ذلك الأحمق الوغد الغبي قد ترك سلوان خاصتي وحيدةً وخائفةً، بينما أنا محبوسٌ في هذا المنزل اللعين، لا يمكنني الوصول إليها، وذلك بفضله.

همست محدِّثًا شاشة الكومبيوتر: «إنني أراكِ يا حبيبتي. لا تخافي».

بعد أن أعدت الفيديو من بدايته حتَّى هذه النقطة عدَّة مرات، تركته أخيرًا يتابع، وقد تخطى بضع ساعات إلى الأمام، ركن لوك سيارته أمام المجمع، ثمَّ نزل وفتح صندوق السيارة، وبدأ بإخراج البضائع منه.

يا للطفه! الوغد ذهب ليتسوَّق البقالة، من أجل عائلته الصغيرة المزيَّفة.

مشى بعدها نحو الباب، واستخدم مفتاحه ليفتح القفل، حاول أن يدفع الباب، لكنه ظَلَّ مقفلًا من الداخل.

فتاةٌ ذكية، لا تثق مطلقًا بقفلٍ واحدٍ.

فتحت سلوان الباب لتسمح له بالدخول، واختفى لوك خلف الباب في حين مشت سلوان، لا بل وثبت إلى السيارة. إنها تبتسم، ومدت يدها إلى صندوق السيارة لتخرج بعض البقالة، في اللحظة التي خرج فيها لوك، وهو يرفع يديه، وكأنه يخبرها أن تتوقف، وأنه سيحضر هو البقالة. أشار نحوها، نحو بطنها، وقال شيئًا ما جعلها تضحك، وضعت يديها على بطنها، وعندها رأيتها.

اللعنة عندها رأيتها.

أوقفت الشاشة.

وحدَّقت إلى يديها الموضوعتين على بطنها، ونظرت إلى الابتسامة التي اعتلت وجهها وهي تتطلَّع إلى يديها، ممسكةً ببطنها. بالكاد يمكن ملاحظته تحت قميصها بالكاد.

- ابن العاهرة.

لقد تجمَّدت، وأنا أعد الأيام والأشهر محاولًا أن أمنطق الأمر في رأسي.

- ابن اللعينة.

لا أعرف الكثير عن دورة الحياة، فالمرة الوحيدة التي جعلت فتاةً فيها حامل، أجبرتها على الإجهاض، لأنها لم تكن سلوان. ولكن ثمَّة شيئًا أعرفه كحقيقة... يتطلَّب الأمر بضعة أشهر لفتاة بحجم سلوان ليظهر عليها الحمل.

منذ بضعة أشهر... كنت أنا من يضاجعها، كنت أنا من يمارس الحب معها في الليل.

أما لوك فحظي بها لمرَّة واحدة خلال ذلك الوقت.

وأنا كنت أحظى بها يوميًا.

قلت مجدَّدًا وأنا أبتسم: «ابن اللعينة».

لا يمكنني التحكُّم بابتسامتي، ارتسمت ضحكةٌ عريضةٌ على وجهي بأكمله، نهضت وأنا أشعر بالحاجة إلى لحظة لألتقط فيها أنفاسي، وأستعيد إحساسي بالمحيط. فللمرَّة الأولى في حياتي أشعر أنني على وشك أن أفقد وعيي.

قلت وأنا أحدِّق إلى شاشة الكومبيوتر المثبَّتة على صورة سلوان: «يا للجحيم، سوف أصبح أبًا».

جلست مجدَّدًا، ومرَّرت يداي في شعري، وحدَّقت إلى الشاشة طويلًا إلى أن بدأت تصبح مشوَّشة.

اللعنة، هل أنا أبكي؟

مسحت عينيَّ، والدموع التي بلَّلت يديَّ أثبتت أنني بالفعل أبكي.

لا يمكنني التوقُّف عن الابتسام، قرَّبت الصورة إلى بطنها، ثمَّ رفعت يدي إلى الشاشة، ووضعتهما فوق يديها الاثنتين المثبتتين على بطنها، وهمست لطفلنا: «بابا يحبك، بابا قادمٌ من أجلك!».

***

قبل شهرين

لوك

فتحت قفل الباب من الخارج، وانتظرت أن تفتح سلوان الأقفال الداخلية، الأقفال الخمسة.

أكره أن الريبة أصبحت جزءًا من حياتنا، أكره أنني أضطرُّ إلى مكالمتها كل ساعةٍ فقط لأطمئن عليها، على الرغم من معرفتي أن سيارات المراقبة مركونة على امتداد النهار والليل بطول الشارع. أكره أننا مجبران على الاختباء على الرغم من أن آسا هو من يخضع للمراقبة، والإقامة الجبرية حتَّى يحين موعد محاكمته، والتي، دون شكٍّ، ستُفضي إلى وضعه خلف القضبان لبعض الوقت.

لا أعرف كيف أثَّر الشهران الماضيان على سلوان، حاولت أن أكلِّمها بشأن ذهابها لمراجعة معالج نفسي، لكنها أصرت على كونها بخير، أو أنها ستكون كذلك ما إن يوضع آسا خلف القضبان.

لا يمكن بأيِّ طريقة من الطرق أن يتمكَّن أحدهم من إزالة جهاز المراقبة المثبَّت بالكاحل دون أن تدري الشرطة، وبالتالي فهذا الجهاز هو عنصر الطمأنينة الوحيد لدينا. إن فعل آسا شيئًا غبيًّا، وحاول أن يغادر منزله،

سنعرف بغضون تسعين ثانية، ولكنني لست قلقًا من آسا نفسه، بل من الأشخاص المحيطين به، والمستعدِّين لتنفيذ هذا العمل من أجله.

بعبارةٍ بسيطةٍ، يمكن القول إن نظام القضاء في هذا البلد فاسدٌ، إذ يبدو أن سلوان هي الشخص الذي يعاقَب، وذلك فقط لأن أشخاص مثل آسا يعتبرون بريئين إلى أن تثبت إدانتهم في محكمة قانونية. على الأقل يمكننا اعتبار أنفسنا محظوظين لأنه حصل على الإقامة الإجبارية، إذ كان يمكن أن يسمح له القاضي بدفع كفالته ومن ثمَّ التجوُّل حُرًّا طليقًا إلى أن يحين موعد المحاكمة.

على الأقل، لدينا هذا الأمر في صالحنا.

لم يصل الأمر إلى هذه الدرجة من السوء إلا منذ بضعة أيام. فقبلها كان آسا في المستشفى يتعافى من الجروح التي سبَّبتها الرصاصات في جسده، ولكن الآن، وبمعرفتنا أنه قد تعافى وأصبح في المنزل، ومسموح للآخرين بزيارته كيفما يشاؤون، لم نعد نشعر بالأمان كما في السابق. لقد أضفتُ الأقفال الأربعة الداخلية بالأمس من أجل زيادة مستوى الحماية.

يبعد المكان الذي نسكن فيه الآن قرابة الساعتين عن منزل آسا، ولا أحد من خارج الشَّقَّة يعرف أين نقيم. أحتاج إلى أكثر من ساعة كل يوم للوصول إلى المنزل، وذلك لأنني أتخذ طرقًا فرعية عديدةً، لأحرص على ألا أكون مراقَبًا. إنه لأمرٌ منهكٌ، لكنني سأفعل كل ما بمقدوري لإبقائها بأمان، حتَّى ولو احتجت إلى دخول منزل آسا، وإطلاق النار على رأسه.

سمعت صوت الأقفال وهي تُفتح، وما إن بدأت بسحب الباب، حتَّى انزلقت إلى الداخل وأغلقته. ابتسمت سلوان، ووقفت على رؤوس أصابعها لتقبِّلني، لففت إحدى ذراعيَّ على خصرها، وبادلتها القبل وأنا أديرها لأتمكَّن من الوصول إلى الأقفال وقفلها. حاولت ألا أدعها تلاحظ ذلك، لأنه كلما ازداد قلقي، سيزداد قلقها بالتبعية.

انسحبت من بين يدي وأنا أقفل آخر الأقفال، وتمكَّنت من رؤية القلق في عينيها وأنا أعيد توجيهها.

قلت ناظرًا إلى المطبخ: «رائحة شهيَّة. ما الذي تطهينه؟».

سلوان طبَّاخةٌ ماهرةٌ على نحوٍ مذهلٍ، وطبخها أشهى حتَّى من طبخ أمي، لكنني لن أخبر أمي بهذا.

ابتسمت وأمسكت يدي، وشدتني نحو المطبخ، وقالت: «لأكون صريحةً، لا أعرف تمامًا ما الذي أطبخه. حساء، لكنني قد رميت في القِدر كل ما بدا لي جيدًا».

فتحت غطاء القِدر، وأدخلت ملعقةً، ثمَّ ملأتها ورفعتها إلى فمي، قائلةً: «تذوَّقها».

رشفت من الملعقة، وعلَّقت: «يا للجحيم! إنه شهيٌّ».

ابتسمت وأعادت الغطاء إلى مكانه، وقالت: «أريده أن يغلي لبعض الوقت، لذا لا يمكنك أن تأكل منه بعد».

أخرجت مفتاحي وهاتفي المحمول من جيبي، ورميتهما على الطاولة، ثمَّ انحنيت وأمسكت سلوان، وحملتها بين ذراعيَّ، وقلت وأنا أسير بها نحو غرفة النوم: «يمكنني الانتظار لآكل».

وضعتها برفقٍ على السرير، وزحفت على جسدها، وسألتها وأنا أطبع قبلةً على عنقها: «هل كان يومك جيدًا؟».

أومأت وأجابت: «لقد خطرت لي اليوم فكرة، لكنها قد تكون حمقاء، لا أدري».

تدحرجت على جانبي، ونظرت إليها وسألتها: «ما هي؟».

وضعت يدي على بطنها، ورفعت قميصها قليلًا لأتمكَّن من لمس بشرتها. لا يمكنني الاكتفاء منها، لا أتذكَّر أنه سبق لي وكنت مع فتاة دون أن أستطيع الكفَّ عن لمسها. حتَّى ونحن جالسين هنا فقط نتبادل الحديث، أجد نفسي أرسم أنماطًا بيدي على بطنها، أو صعودًا وهبوطًا على ذراعيها، أو ألمس شفتيها بأصابعي. يبدو لي أنها تحب ذلك، لأنها تتصرَّف بالطريقة ذاتها، وأنا بالتأكيد لا أمانع.

– أنت تعرف أنني أجيد طبخ كل شيء، صحيح؟

أومأتُ، فقَولُها صحيح.

- فكَّرت بتجميع بعض وصفاتي، وتصنيفها في كتاب طبخٍ.

- هذه فكرةٌ رائعةٌ يا سلوان.

هزت رأسها، وقالت: «لم أنتهِ بعد».

ثم رفعت جسدها على مرفقيها، وتابعت: «ثمة الكثير من كتب الطبخ تغزو السوق، لذا أريد شيئًا يبرز ويصمد في السوق، أريد لكتاب الطبخ خاصتي أن يكون مختلفًا عن بقية الكتب، لذا فكرت بإبراز حقيقة أنني تعلمت الطبخ على نحوٍ جيدٍ عندما كنت عمليًا مجبرة على الطبخ كل ليلة من قبل آسا. يمكن أن يكون العنوان شيئًا مضحكًا، مثل «وصفات تعلَّمت طبخها في أثناء إقامتي مع حبيبي السابق الوغد والمتحكم» وبعدها يمكنني التبرُّع بنصف الإيرادات لضحايا العنف الأسري».

منحتها لحظةً لأتأكَّد أنها قد أنهت طرح فكرتها. بصراحة، لا أستطيع تحديد رأيٍ واضحٍ تجاه الفكرة، فجزء منِّي يريد أن يضحك، لأنها محقة، عنوان كهذا سيكون ملفتًا للنظر بطريقة غريبة، وجزئي الآخر منكمش بعد معرفتي أن آسا هو سبب إجادتها للطبخ، لأنه كان متحكِّمًا، بينما لم يكن بيدها حيلة، ذكَّرني هذا بأول مرَّة اصطحبتها لتناول الغداء، وتصرفت وكأنها لم يسبق لها أن أكلت في مطعم من قبل. قالت وهي ترتمي على وسادتها من جديد: «لا بُدَّ أنك تراها فكرةً غبية».

هززت رأسي، وأجبت: «لا يا سلوان، لا أجدها فكرةً غبية».

كوَّرت خديها بيدي لتنظر إليَّ، وتابعت: «إنه عنوانٌ جذابٌ، وبالتأكيد سيلفت انتباه الناس، أنا فقط أكره أنه... حقيقي للغاية. سيكون مضحكًا بالنسبة إليَّ لو أنه دعابةٌ، لكنه ليس كذلك. هذا هو السبب الحقيقي لإجادتك الطبخ، وأنا أبغض ابن اللعينة هذا أشدَّ البغض».

ابتسمت على مضض، وقالت: «بفضلك، لم تعُد تلك الحياة حياتي اليوم».

- بفضلكِ أنتِ، لم تعد تلك حياتكِ.

أضطرُّ باستمرار إلى تذكيرها بأنني لم أنقذ حياتها.

ابتسمت مجدَّدًا، ولكن منذ لحظة دخولي من باب البيت، لاحظت أن ابتسامتها لم تكن حقيقية، ثمَّة شيء أكبر من موضوع كتاب الطبخ يزعجها،

ولا أعرف ما هو. لا يمكن أن يكون التوتُّر الناجم عن بقائها محبوسةً في الشقة طوال الوقت، سألتها: «هل أنتِ بخير يا سلوان؟».

مرَّت ثوانٍ طويلةٌ جدًّا قبل أن تومئ، ممَّا جعلني أدرك أنها ليست على ما يرام.

- ما الخطب؟

جلست باستقامة على السرير، مجهزةً نفسها لمغادرته، وقالت: «أنا بخير يا لوك، يجب أن أقلِّب الحساء».

أمسكت ذراعها لأوقفها، ظلت جالسةً عند أقدام السرير، لكنها لم تستدر لتنظر إليَّ.

- سلوان.

تنهَّدت بكامل جسدها، فتركت ذراعها، واقتربت منها، وقلت: «سلوان، لا يمكنه أن يغادر منزله إن كان هذا ما يزعجك، سنعرف إن غادره، ذلك بالإضافة إلى كاميرات المراقبة في الخارج. أنتِ بأمان».

هزَّت رأسها، لتخبرني أنها ليست مستاءةً لهذا السبب. إنها لا تبكي، لكنني أدركت من خلال الارتعاش الخفيف في شفتها أنها على وشك البكاء.

- هل أنت منزعجة من أجل أخيكِ؟ سنذهب لرؤيته هذا الأسبوع، سنذهب برفقة حراسة لنحرص على سلامتنا، وما يزال حرَّاس الأمن رابضين أمام غرفته للتأكد من سلامته.

وضعتُ خصلةً من شعرها خلف أذنها، رغبةً منِّي بأن تعرف أنني هنا، معها، وأنها بأمان، هي وأخوها.

أخفضت رأسها أكثر، وانثنت على نفسها بطريقةٍ ما، وهي تمسك ذراعيها بيديها، وقالت: «أظن أنني قد أكون حبلى».

***

لم ترغب أن تبقى في المرحاض خلال الدقيقتين اللتين يجب علينا انتظارهما قبل أن تظهر النتيجة، لذا بقيت وحدي أحدِّق إلى الشريط، منتظرًا النتيجة.

ما إن أخبرتني أنها ربما تكون حبلى، شعرت أنني قد خذلتها، وكأن كل ما فعلته من أجل حمايتها لم ينفع بشيء. جلست هناك والدموع تسيل على خديها،

وانخفض رأسها، وبالكاد كان صوتها يعلو الهمس، ولم أجد أي شيء لأقوله فأخفف به من خوفها. لا يمكنني أن أسألها ألا تقلق، لأن هذا الأمر، وبلا شك، يستدعي القلق. إن أخذنا الحقائق بعين الاعتبار، فقد كانت مع كل منِّي وآسا خلال الشهرين الماضيين، واحتمال أن يكون الطفل منِّي أقل بكثير من احتمال أن يكون من آسا، لذا سأكون كاذبًا إن أخبرتها أنه ما من حاجة إلى القلق.

أشدُّ ما هي في غِنًى عنه الآن هو التوتر الناتج عن كونها تحمل في بطنها جزءًا من ذلك الرجل، جزءًا سيربطها به إلى الأبد، آخر ما هي بحاجته الآن هو أن تعتني بطفل بغَضّ النظر عن هوية والده. الأشهر القليلة القادمة ستكون ضرورية جدًّا لسلامتها، حيث ستبقى محبوسةً داخل الشَّقَّة، تنتظر موعد المحاكمة، ذلك بعيدًا عن ذِكْر أنها إن كانت حبلى، فسوف يتزامن وقت تقديم شهادتها في المحكمة مع اقتراب موعد ولادتها.

تنفَّست ببطءٍ، وأنا أحدِّق إلى الأسفل نحو شريط كشف الحمل، لم يكن من النوع الذي يعتمد نظام الخطوط لإظهار النتيجة، بل في الحقيقة تظهر شاشته بوضح كلمة «غير حامل»، أو «حامل». ذهبت إلى المتجر ما إن أخبرتني، فآخر ما أريده هو أن تعيش لحظةً واحدةً في الحيرة، كلما عرفت أبكر، ستستطيع أن تقرر بسرعةٍ أكبر ماذا تريد أن تفعل.

انتظرت، وأنا أمرِّر يدي في شعري، وأخطو بقدمي على أرض الحمام الصغير، كنت أنظر إلى الناحية الأخرى عندما طنَّ المنبه على هاتفي، معلنًا انتهاء وقت الانتظار.

زفرت لأهدِّئ نفسي، وعندما استدرت ورأيت كلمة «حامل»، شددت يدي على هيئة قبضةٍ، مستعدًّا للكم الحائط، أو الباب، أو أي شيء آخر، لكنني عوضًا عن ذلك، لكمت الهواء، وشتمت بيني وبين نفسي، لأنني أعرف أنه يجب عليَّ أن أخرج من هذا الحمَّام، وأكسر قلب هذه الفتاة.

لا أعرف إن كان بمقدوري فعل ذلك.

خطر ببالي أن أبقى هنا لخمس دقائق أخرى، إلى أن أتمكَّن من التخلُّص من الغضب، لكنني أعرف أنها في الخارج خلف هذا الباب، خائفةً، وعلى الأرجح مثارة الأعصاب أكثر ممَّا أنا عليه. فتحت الباب، لكنها لم تكن في غرفة

النوم، دخلت إلى غرفة الجلوس، ورأيتها في المطبخ، تقلِّب الحساء مجدَّدًا. مضى على غليانه أكثر من ساعةٍ الآن، لذا أدركت أنها تستخدمه حجةً لإضاعة بعض الوقت. سمعت صوت خطواتي، لكنها لم ترفع نظرها إليَّ، بل استمرت بتقليب الحساء، منتظرةً أن تسمع الخبر مني.

لا أستطيع. فتحت فمي لأتكلَّم ثلاث مرات، لكنني لم أجد الكلمات المناسبة لإخبارها. أمسكتُ مؤخرة عنقي، وأنا أراقبها للحظة، منتظرًا أن ترفع نظرها إليَّ. عندما رفضت أن ترفع نظرها، ولم أعثر أنا على الكلمات المناسبة، اقتربت منها، ولففت ذراعيَّ حولها من الخلف، وجذبتها إلى صدري، توقَّفت هي عن تقليب الحساء، وأمسكت ذراعيَّ الملفوفتين حولها، وشعرت بجسدها كاملًا يهتزُّ وهي تبكي في صمت، إذ كان صمتي بمنزلة تأكيد مطلق لها، وكل ما استطعت فعله هو أنني احتضنتها بقوَّة، وطبعت قبلةً على شعرها، وهمست: «أحبك يا سلوان».

استدارت ووضعت وجهها على صدري، وهي تبكي، فأغمضت عينيَّ، واحتضنتها.

لا ينبغي أن يكون الأمر على هذا النحو، لا ينبغي أن يكون هذا الشعور المؤلم هو ما يعتري الفتاة عندما تدرك أنها ستصبح أمًّا، وشعرت أن جزءًا من المسؤولية في حزنها يقع على عاتقي.

أعرف أنه سيتسنَّى لنا الوقت للحديث بهذا الشأن لاحقًا، ومناقشة كل الخيارات المطروحة أمامنا، ولكنني الآن أفضِّل أن أصب تركيزي كاملًا عليها، لأنني لا أملك أدنى فكرة عن مدى صعوبة هذا الأمر عليها.

قالت وهي مستندةٌ إلى صدري: «أنا آسفة للغاية يا لوك».

ضممتها بقوَّة أكبر، محتارًا من سبب اعتذارها.

- لماذا تقولين هذا؟ ما من شيء لتعتذري عنه.

رفعت رأسها، وهي تهزه، وتتطلَّع إليَّ، وقالت: «أنت في غِنًى عن هذا التوتر، إنك تفعل ما بوسعك لإبقائنا بأمان، والآن قد جعلتُ الأمر أسوأ».

ابتعدت عني، والتقطت الملعقة اللعينة، وعادت إلى التقليب مجدَّدًا، وهي تتابع كلامها: «لن أسمح بأن أدعك تخوض في هذا، لن أرضى بأن تراني أحمل طفلًا أنت لا تعرف حتَّى إن كان منك أم لا، هذا ليس عادلًا لك».

تركت الملعقة، وأمسكت منديلًا وراحت تمسح تحت عينيها، واستدارت ونظرت إليَّ، وكان وجهها ينضح بالعار.

- أنا آسفة، يمكنني...

ابتلعت ريقها وكأنها تجد صعوبة شديدة بنطق الكلمات التالية، وتابعت: «يمكنني أن أجري اتصالًا غدًا، وأسأل عمَّا أحتاجه لإجراء... لإجراء عملية إجهاض».

اكتفيت بالتحديق إليها، تاركًا إياها تتوغَّل في أفكارها.

أتعتذر منِّي؟

أتعتقد أنني أنا من سيتوتَّر بسبب هذا الموضوع؟

تقدَّمتُ خطوةً إلى الأمام، ومرَّرتُ يديَّ في شعرها، رافعًا نظرها إليَّ، وبدأت دمعة جديدة بالتشكُّل في عينها والانحدار على خدها، لذا مسحتها باستخدام إبهامي، وقلت لها: «إن تمكَّنَّا بطريقةٍ ما من معرفة أن هذا الجنين مني، أترغبين عندها بإبقائه؟».

تغضَّن وجهها، وهزَّت كتفيها، ثمَّ أومأت، وقالت: «بالطبع سأبقيه يا لوك، هذا التوقيت سيئٌ، لكن لا يمكنني لوم الطفل عليه».

بقدر ما رغبت بأن ألف ذراعيَّ حولها في هذه الثانية، لكنني استمررت باحتضان وجهها بين يدي، وقلت: «وإن تأكدتِ الآن أن هذا الطفل هو ابن آسا، هل ستبقينه؟».

مرَّت لحظة قبل أن تجيب، ثمَّ هزَّت رأسها، وأجابت: «لن أفعل هذا بك يا لوك، فليس بالتصرُّف العادل في حقك».

سألتها بصوتٍ حازمٍ: «إنني لا أسألكِ عني، بل أسأل إن عرفتِ أنه طفل آسا، هل سترغبين أنتِ بإبقائه؟».

انهمرت دمعة أخرى من عينها، وتركتها تتدحرج على خدها، وأجابت بهدوء: «إنه طفل يا لوك. إنه طفل بريء، ولكن كما سبق وقلت، لن أفعل هذا بك».

سحبتها إليَّ، وقبَّلت جانب رأسها، وظللت محتضنًا إياها على هذه الحال للحظة، وعندما رتَّبتُ الكلمات التي أريد أن أقولها لها، تراجعت وأجبرتها

على النظر إليَّ، وقلت: «إنني أحبكِ يا سلوان، إنني أحبكِ بجنون، وبما أن هذا الطفل يتشكل في داخلكِ فهو جزء منكِ، أتعرفين إلى أي درجةٍ سأكون محظوظًا إن سمحتِ لي بحب شيءٍ كان جزءًا منكِ؟».

أنزلت راحة يدي إلى بطنها، وأبقيتها هناك، وأنا أقول: «هذا الطفل طفلي يا سلوان، وهو طفلك، إنه طفلنا. وإن قرَّرتِ أن تبقيه وتربيه، عندها سأكون أفضل أبٍ عرفته البشرية. أعدكِ بذلك».

رفعت يديها في الحال إلى وجهها، وبدأت تبكي. بكت بشدَّة لم يسبق لي أن رأيتها تبكي بها، حملتها، وسِرتُ بها إلى غرفة النوم، حيث وضعتها على السرير مجدَّدًا، ضممتها إليَّ، وانتظرت إلى أن هدأت دموعها، وبعد عدَّة دقائق كان الهدوء قد ساد الغرفة.

كانت مستلقية، ورأسُها على صدري، وذراعها ملفوفةٌ حولي، رفعت رأسها ونظرت إليَّ، وقالت: «لوك؟ أنت إنسانٌ رائعٌ ومن أنبل الناس على الإطلاق، وأنا أحبك كثيرًا جدًّا».

قبَّلتها، مرَّتين. ثمَّ أخفضت وجهي إلى بطنها، ورفعت قميصها، وقبَّلت بشرتها، وابتسمت لأنها تمنحني شيئًا لم يسبق لي أن أدركت أنني أريده. وبقدر ما أتمنَّى أن يكون هذا الطفل منِّي لا من آسا من أجل راحة سلوان، إلا أنني حقيقةً لا أهتم، لا أهتم لأن هذا الطفل هو جزء من الشخص الذي أحبه أكثر من أي أحد آخر في هذا العالم. يا لي من رجلٍ محظوظٍ!

زحفت صعودًا قربها مجدَّدًا، وقبَّلت خدها، لم تعُد تبكي بعد الآن. أبعدتُ خصلات الشعر عن جبينها، وقلت لها: «سلوان؟ أتعلمين أن الأعمدة الخرسانية تذوب وتتحوَّل إلى كعك في كل مرَّة تسقط فيها ساعة من رأس سلحفاة؟».

ضحكت بقوَّة، وبابتسامة عريضة قالت: «حسنًا، النصر ليس نصرًا إن كانت الغرفة الفارغة تعجُّ بجوارب متَّسخة، عندما تكون كعكة الفواكه الخاصَّة بعيد الميلاد فاسدة».

سيحظى طفلنا بأغرب أبوين في العالم برمته.

***

اليوم

آسا

لا أعرف إن كنت قد ورثت ذكائي عن أمي أم عن أبي، لأنك إن سألتني عن رأيي، فسأقول لك إنهما كانا عبارة عن زوج من الأوغاد اللامبالين، واللذين نجحا بطريقةٍ ما في فعل أمر واحد صائب فقط خلال سنوات عيشهما معًا على هذه الأرض، ألا وهو إنجابي.

لم أعرف جدَّيَّ، لكن يطيب لي أحيانًا أن أتخيَّل هيئة جدِّي لأبي، كشخص يشبهني كثيرًا. يقولون إن الصفات تنتقل عبر الأجيال، لذا فأنا على الأرجح أشبهه كثيرًا، وأتصرَّف كثيرًا كما كان يتصرَّف، كما أن واحدًا من أوجه الشبه بيني وبينه هي أنه على أغلب الظن كان مثلي يشعر بخيبة الأمل بعد أن اتضح له أن ابنه، والدي، عبارة عن وغدٍ لعينٍ.

لكنه بالتأكيد فخور بي، وهو على الأرجح واحد من الناس القلائل، سواء الأحياء أم الأموات، الذين يقدرون أي عبقري أنا.

دعوني أشرح لكم...

من المستحيل التغلُّب على جهاز المراقبة الذي يُربط بالكاحل، فإن حاولت قطع هذا الجهاز سيلقى القبض عليك حالًا. حيث ترسل الألياف الضوئية

الموجودة داخله إشارةً فورية ما إن يتم التلاعب بها، ليظهر رجال الشرطة على بابك في غضون ثوانٍ.

لا يمكنك أن تدع البطارية لتفرغ من الشحن، لأن الشرطة سيصلها إشعار بذلك، لا يمكنك بتاتًا أن تدع الجهاز ينزلق من قدمك، لأن الأقدام لا يمكن ثنيها كما المعاصم، فالله لم يأخذ بالحسبان جهاز المراقبة عبر الكاحل عندما صمم الهيكل العظمي للبشر، لا يمكنك أن تغادر النطاق المُحتجز ضمنه دون علم الشرطة، يا للجحيم! لا يمكنك حتَّى أن تسكر، فمعظم أجهزة المراقبة الموصولة بالكاحل مزودةٌ بحساسات تختبر على نحو دوري مستوى الكحول في دمك، لست مستاءً من هذا الأمر، فأنا لم أكن يومًا من الأشخاص الذين يحتاجون إلى الكحول، بل أستمتع به فقط، إلا أنني يمكنني الاستمرار من دونه.

إن لم تكن مهووسًا بالتكنولوجيا، ولديك مستوى معرفة أعلى ممًّا كان لدى الوغد المهووس الذي اخترع الجهاز، فما من طريقة، ولا سبيل ممكن، لأن تتمكَّن من الالتفاف عليه دون أن تجد الشرطة في عقبك حالًا.

وهذا أمر مزرٍ، لأنه وبحسب معرفتي بلوك، أعلم أنه قد أعده بحيث يتم إعلامه حالًا ما إن يشير جهاز المراقبة خاصَّتي إلى أنني قد غادرت المنزل، أو في حال تمَّ العبث بالجهاز بأي طريقة. ما من سبيل لأتمكَّن من الوصول من هنا إلى منزلهما دون أن يكونا قد حصلا مسبقًا على العديد من التحذيرات. وأجل، يمكنني أن أرسل أحدهم إلى منزلهما ليؤدي لي العمل، ولكن أين المتعة في ذلك؟ أين المتعة في رؤية رصاصة توقِّف قلب لوك عن العمل، إن لم أكن أمامه، وتتعشَّق رائحة البارود في أنفي؟ ما المتعة في جعل سلوان تدرك أي طريق مثير للشفقة قد اختارت لحياتها، إن لم أكن الشخص الذي يتذوَّق دموعها وهي تبكي طلبًا للرحمة؟

من الجيد أنني مُخطِّط محترف، وأخطِّط لكلِّ شيء، أدرس كل السيناريوهات الممكنة، وأطوِّر طرقًا بالاستناد إليها قبل أن يقع الأمر حتَّى، وذلك لأنني عبقري وغد، فقط مثل جدِّي لأبي.

أتذكَّر مرَّة عندما كنت طفلًا، ظننت للحظة أنني على وشك الموت، إذ كنت قد تسلَّلت إلى غرفة أمي، وسرقت بعضًا من حبوبها. اللعنة، كنت صغيرًا

للغاية، ولم يكن بمقدوري بعد أن أقرأ حتَّى، لم أعرف ما هذا الشيء الذي تناولته، عرفت فقط أنني أريد أن أشعر بالشعور الذي تشعر به هي، أردت أن أطارد الشعور الذي تحبه أكثر من ابنها.

استيقظت بعد عدَّة ساعات من تناولي للحبوب، وكان كاحلاي يبدوان مثل كرتي بيسبول لعينتين، وكل من ساقيَّ متورِّمتان، فكرت عندها أن هذه الأعراض تشير إلى أنني أموت، ودمائي كلها مجتمِّعة في قدميَّ، ولكنني الآن أعلم أن ذلك قد حدث بسبب الحبوب التي ابتلعتها، مضادَّات الاكتئاب، ومسكِّنات الألم، وحاصرات قنوات الكالسيوم، فجميعها تسبِّب تورُّمًا ووذمةً، الأمر الذي كنت أتوقَّعه كطفلٍ، لكنني لم أدرك ذلك في حينها.

قبل عدَّة أشهر، أخبرني بانسي بول أنه ثمَّة فرصة لأحصل على الإقامة الجبرية في انتظار موعد المحاكمة. يعرض عادةً على معظم المتهمين بأوضاع تشبه وضعي دفع كفالةٍ من نوع ما ليتمكَّنوا من التجوُّل بحرية، لكن وبسبب سجلِّي، فقد كان شبه متأكدٍ من أنني سأُلْزَم بالإقامة في منزلي إلى حين التوصُّل إلى قرار في المحكمة. وهذا واحد من الأشياء القليلة التي أشعر بالامتنان لبانسي بول من أجلها. التحذير المسبق. فذلك منحني أسبوعًا متواصلًا لأومن وأستهلك قدر ما يمكنني من الحبوب، وأضمن بذلك زيادة بقدر بوصتين في حجم كلِّ كاحل، لم أجد صعوبة في ذلك بما أنني كنت بالفعل في مستشفى، الشكر لذينك الوغدين اللذين اعتقدا أنها ستكون فكرةً جيدةً أن يطلقا النار عليَّ. أوغاد.

منذ أن رُبط جهاز المراقبة بكاحلي، تحتَّم عليَّ أن أتابع تناول الحبوب كي لا يثير أي شيء الريبة في نفس ضابط إطلاق السراح المشروط. الوغد الغبي لم يفكِّر البتَّة بأن حجم كاحلي وساقي بحجم جذعي شجرة. اسم الضابط هو ستيوارت، من بحقِّ السماء يسمي ابنه ستيوارت؟ يعتقد ستيوارت أنني ببساطة «سمين»، وأبتهج بغبائه مع كل زيارة. كما أنه يعجبني نوعًا ما، لأنه يشعر بالأسى نحوي، إنه يعتقد أنني شابٌّ جيد لأنني أضحك على دعاباته السخيفة وأتكلَّم معه عن المسيح، فستيوارت يحب المسيح حبًّا شديدًا، كما أن أنثوني أحضر لي صليبًا بناءً على طلبي، وقبل أن يزورني ستيوارت هذا الصباح علَّقته على حائط غرفة المعيشة، فوق التلفاز ذي الشاشة المسطَّحة،

الذي أشاهد عليه الأفلام الإباحية لساعات طوال. أمر مثير للسخرية، أليس كذلك؟ عندما رأى ستيوارت المسيح على صليبه، علق عليه، وأخبرته أنه كان ملكًا لجدي، الذي كان واعظًا معمدانيًا، وأنني أشعر بالراحة عندما أنظر إلى الصليب وأعرف أن جدي ينظر إليّ.

هذا كلامٌ كاذبٌ بالطبع، أشك بأن جدّي قد سبق وخطا خطوةً واحدةً في كنيسة، وإن سبق وملك صليبًا، فعلى الأرجح كان يستخدمه ليضرب الناس به. ولكن رغم ذلك يحبه ستيوارت، وقال لي إنه يملك واحدًا مشابهًا له تمامًا، لكنه أصغر حجمًا، كما تحقّق من جهاز المراقبة الموصول بكاحلي، وأخبرني أن كل شيء على ما يرام، وأنه سيراني في غضون أسبوع، وقد أعطيته قطعةً من كعكة جوز الهند قبل أن يغادر.

الآن ها أنا ذا أقف هنا، أحدق إلى زجاجة هيدروكلروتيازيد بين يدي، يجب أن أكون ذكيًّا بالتعامل معها، لأن تناولي الكثير منها قد يسبب انخفاضًا حادًّا بضغط دمي، ولكن يجب أن أتناول ما فيه الكفاية للتخلُّص من الورم، بما يكفي لخلق فجوةٍ بين كاحلي وجهاز المراقبة، لأتمكّن من خلعه، ودسه في معصم أنثوني.

هنا يأتي دور العبقرية، أن يتمكّن شخص ما من خلع الجهاز دون العبث بالألياف الضوئية، فبذلك يكون احتمال أن يلتقط الجهاز ذلك ضعيف جدًّا إلى معدوم. تتابع أجهزة مراقبة الكاحل دوريًّا خلال اليوم، وتكون مربوطةً بمؤقتات وأشياء من هذا الهراء، لذا لن تلاحظ البتَّة عملية نقلها من كاحلي إلى معصم أنثوني، طالما أن القطعة الرئيسة في الجهاز لم تُمَس. يعتقد رجال الشرطة أن أجهزة المراقبة الموصولة بالكاحل مضمونة تمامًا، لأنها لا تنخلع من كاحل الناس ذوي معدل الذكاء المتوسط، لكن يجب أن يقلقوا أكثر بشأن العباقرة من أمثالي، الآن كل ما بقيَ عليَّ هو أن أستطيع الثقة بأن أنثوني لن يغادر منزلي، أو يشرب الكحول قبل إعلامي له بانتهاء الأمر، وبعدها سأعيد ارتداء جهاز المراقبة في كاحلي، وسيبدو وكأنني لم أغادر منزلي البتَّة.

في الوقت الحالي ما يزال أمامي المزيد من التخطيط. فتحت الزجاجة، وأخرجت أربع حبات، ثمَّ شغلت الكمبيوتر المحمول خاصتي، ورحت أبحث عن أطباء التوليد، في حين أجريت مكالماتٍ هاتفية لقرابة الساعتين بشكلٍ

متواصلٍ، وفي الوقت الذي توصلت فيه إلى طبيب التوليد الذي تراه سلوان كنت قد تبوَّلت أربع مرات، وبدأ جهاز مراقبة الكاحل يرتخي بالفعل، اعتقدت أن الأمر سيتطلَّب بضعة أيامٍ، ولكنني أدرك الآن أن الأمر يمكن أن يتم بحلول صباح الغد.

وضعتني السيدة التي أجابت على الهاتف على الانتظار، بينما راحت تفتِّش في الملف عمًا أفترض أنه سياسة خصوصية المريض، وفقًا لقانون الرعاية الصحية، وكل هذا الهراء.

سألت لترى إن كنت ما أزال على الخط: «سيدي؟».

- أنا هنا.

- ما هو اسمك؟

- لوك. أنا الوالد.

أجل! ضحكت بيني وبين نفسي على كل دعابات حرب النجوم التي اضطر ذلك الملعون إلى تحمُّلها في حياته.

سألتني: «أيمكنكَ تأكيد عنوانكَ وتاريخ ميلادك؟».

أكَّدتُ كليهما، لأنني، وبفعل عبقريتي، أعرفهما. ما إن تمَّ التأكُّد من «هويتي»، قالت: «وما الذي كنت ترغب بمعرفته؟».

- موعد الولادة. إنني أحضِّر فيديو لعرضه على عائلتي لإعلان الحمل، ولا أريد أن أسأل سلوان، لأنها ستغضب لنسياني الموعد. لذا فأنا آمل لو بإمكانكِ إطلاعي على هذه المعلومة، لتنقذيني من النقمة.

ضحكت المرأة، يعجبها أنني رجل محب ومهتم، ومتحمِّس لموعد ولادة طفلي، وقالت ضاحكةً: «يبدو أن الحمل قد حدث في شهر مارس (آذار)، وموعد الولادة هو... يوم عيد الميلاد! لا يمكن تصديق أنك نسيت هذا أيها الأب».

ضحكتُ أنا أيضًا، وقلت: «هذا صحيح. يوم عيد الميلاد، معجزتنا الصغيرة. شكرًا لتحقُّقكِ من الأمر».

- على الرحب والسعة.

أغلقت الهاتف، ونظرت إلى التقويم، كانت سلوان في شهر مارس (آذار) ما تزال تعيش معي.

وكان لوك موجودًا في المنزل حينها، كان يحضر كثيرًا.

لست واثقًا متى بدأ غسيل الدماغ، أو متى سلَّمت نفسها له، ارتعش جسدي برُمَّته عند تفكيري بالأمر، لا يمكنني تصديق أنه قد ضاجعها. سلوان خاصتي.

لا يمكنني تصديق أنها قد سمحت له، لا أعرف إن استخدما واقيًا ذكريًا حتًى. ما أعرفه أن ابن اللعينة لم يستخدم واحدًا عندما قرَّر أن يحصل عليها أمام...

لن أسمح لنفسي باستحضار تلك اللحظة.

لن أسمح لهذه الصورة بأن تتكرَّر داخل رأسي، أسوأ لحظة في حياتي برمتها. أستمرُّ بإخبار نفسي أن الأمر كان محض كابوسٍ لعينٍ، وأن كل شيءٍ رأيته، والكلمات التي خرجت من فمها، والأصوات التي أصدراها، كل ذلك كان محض كابوسٍ. لقد تعرَّضت لأربع رصاصاتٍ لعينةٍ، وخسرت الكثير من الدماء، من الممكن أن الأمر لم يكن حقيقيًا، من غير الممكن أن تلك اللعينة قد وقفت أمامي وسمحت لرجلٍ آخر بـ...

لن أسمح لدماغي بالعودة إلى هناك.

وقفت وأنا مجتقن بغضب متجدِّد، رفعت الكرسي الذي كنت أجلس عليه للتَّوِّ، ورميته عبر الغرفة، ورأيته وهو يتحطَّم نتيجة اصطدامه بالباب، جريت إلى غرفة المعيشة، وأنزلت الصليب اللعين عن الحائط، وضربت التلفاز به، فتصدَّعت الشاشة.

إنه شعور جيد، كانت سلوان معي عندما اشتريت هذا التلفاز، ومن الجيد أن أحطِّمه. بحثت عن شيءٍ آخر لأحطمه. مرآة. ركضت نحو المرآة، وضربتها بالصليب ثلاث مرَّات إلى أن تحطم زجاجها بالكامل، وتناثر متهشِّمًا على الأرض.

ساقطة لعينة، لا أصدق أنها تجاسرت على فعل هذا أمام عينيَّ.

اصطحبت صليبي عبر الممر باتجاه الحمام، حدَّقت إلى انعكاسي في المرآة، متسائلًا ما إن كان الطفل الذي ينمو في داخلها طفلي، وبمجرَّد معرفتي أن ثمَّة احتمالًا ولو ضئيل أن يولد هذا الطفل على هيئة لوك، فإن هذا الاحتمال وحده كافٍ لأن أكرهه بالفعل. معرفتي أن هذا الطفل كان داخلها عندما ضاجعها لوك أمام عينيَّ، تجعلني أكره هذا الطفل.

أرجحت الصليب قرب المرآة، ثمَّ حطمتها مرارًا وتكرارًا.

ساقطة لعينة.

صعدت إلى الطابق العلوي، وفعلت الشيء ذاته بالمرآة هناك.

لا أريد هذا الطفل اللعين، لقد كان داخلها منذ شهر مارس (آذار)، ولا أعرف كم مرَّة قد ضاجعها لوك منذ ذلك الحين. حتَّى ولو أنه طفلي، فقد دنَّسَه لوك بالفعل. أنا واثق أن الأجنَّة لديها آذان، وفي كل مرَّة يتحدَّث بها لوك بصوت مسموع على مقربة من سلوان، على الأرجح يظن هذا الطفل أن صوت لوك المقزِّز هو صوت والده.

عندما تربِّي سلوان طفلي داخلها، لن يكون لوك في الجوار ليفسد الطفل.

مشيت في كل غرفة من غرف البيت، باحثًا عن المزيد من الأشياء التي يستطيع صليبي الصغير تحطيمها. مصابيح؟ تم. مزهريات؟ حُطمت. الصليب في حالة هياج.

ساقطة لعينة.

طفل لعين.

لوك لعين.

كل شيء جميل لعين سبق وامتلكته في حياتي قد دُمِّرَ على يد هذا الرجل. إمبراطوريتي، وحب حياتي، وطفلي المحتمل. كل شيء سبق وعنى لي شيئًا أصبح الآن خاليًا من المعنى بالنسبة إليَّ بسببه.

عندما عدت إلى المطبخ، فتحت الزجاجة، وابتلعت حبَّةً أخرى. كلما تمكَّنت من التخلُّص من جهاز مراقبة الكاحل أسرع، سأعجل بتخلُّصي من الأشياء التي دمَّرها ببطء.

سأصبح أبًا عندما أكون مستعدًا لذلك، وسأمنح أبوتي لطفلٍ ليس بأي شكل من الأشكال جزءًا من قطعة القذارة المثيرة للشفقة (لوك).

الشيء الذي ينمو في رحم سلوان الآن، لم يُصنع ليُحَبَّ، حتَّى ولو كان مني، فإنه لم يَشكَّل بنقاء. إذ كانت تسمح لرجل آخر بإفسادها بينما أمارس أنا الحب معها في الليل. لو علمت ذلك، لأحجمت عن مضاجعتها، كنت لأنهي حياتها قبل أن تتخذ كل تلك القرارات الغبية التي اتَّخذتها. ما كانت لتمتلك رحمًا صالحًا لخلق حياة في داخله لو أنني علمت ما الذي كانت تفعله من خلف ظهري.

الآن، عليَّ فقط أن أضع حدًّا للأمر. نظرت إلى شاشة التوقُّف على كومبيوتري المحمول، وكانت عبارة عن لقطة شاشة لسلوان وهي تضع يدها على بطنها، وتنظر إليه مبتسمةً للقاذورة التي تنمو في بطنها. سحبت كرسيًا جديدًا، وجلست، ثمَّ غيرت صورة شاشة التوقُّف، حيث عثرت على صورة قديمة لسلوان تعود للأيام التي كانت فيها ما تزال عذبةً وحلوةً، واخترتها شاشة توقف، ورحت أحدق إليها، متسائلًا كيف سمحت بحدوث هذا الأمر. كيف ما تزال هذه الساقطة تملك الجرأة لتبتسم وهي لا تعرف ابن من تحمل في بطنها؟

- ساقطة لعينة.

أخفضت نظري إلى الصليب في يدي، وقلت: «يا يسوع المصلوب، أتريد أن تذهب في رحلة صغيرة معي غدًا؟ أعرف فتاةً يجب أن تتوب توبةً حقيقية».

***

سلوان

طبختُ وصوَّرتُ خلال الأسبوعين الأخيرين سبعًا وعشرين وصفةً. ربما لأنني أحاول أن أشغل نفسي عن حقيقة منعي من مغادرة الشَّقَّة، ولكن فكرة كتاب الطبخ هذه قد سيطرت على تفكيري تمامًا، وذلك بالطبع عندما لا أفكر بالحمل، وهو الأمر الذي يحدث كل لحظةٍ.

لا أعرف ماذا كنت لأفعل بلا لوك، وجزء منِّي يعتقد أن رجلًا بهذه الروعة لا يمكن أن يكون حقيقيًّا، فالرجال من أمثاله غير موجودين في الواقع، وكأن الأمر كله محض تفكيرٍ حالمٍ من قِبَلي. أعيش في خوفٍ مستمر من كونه قد جُلب إلى حياتي، لأتحمل ألم إخراجه منها. إنني أكره هذه الأفكار، وأحاول ألا أفكر فيها، لكنني أفكر فيها، على نحو مستمر، فأنا أخشى فقدانه، أكثر ممَّا أخشى الموت.

ولكن في عصر كل يوم، عندما يعود لوك إلى المنزل، ويلفني بين ذراعيه، يسأل كيف «حالنا»، داعمًا بكل جوارحه ادعاءه بأن هذا الطفل طفله، بغض النظر عن الشخص المسؤول بيولوجيًّا عن الحمل، إلا أن لوك يحبه، ببساطة لأنه داخلي. وهذا أمر كافٍ بالنسبة إليه، وبطريقة ما، يجعلني أعتقد أنه كافٍ بالنسبة إليَّ. عندما أكون في حضرة لوك، أشعر بشيء من احترام الذات، أشعر بكل الأشياء التي جرَّدَني منها آسا.

لا أعرف هل أنا جيدة في المسامحة كما يبدو لوك جيدًا بها، إنه حتَّى لا يدعني أشعر بالعار، ولا حتَّى لثانية. ويستمر بتذكيري كم أنه محظوظ، على الرغم من معرفتي أن الأمر عكس ذلك. يستمر بإعادة توجيه أفكاري عندما يساورني القلق من أن يعرف آسا بأمر الحمل، أو عندما أقلق بشأن المحاكمة القادمة. ولكن عندما لا يكون هنا، كما الآن، فإن الأمر الوحيد الذي يشغل عقلي عن تلك الأفكار الحالكة هو كتاب الطبخ هذا.

طبق الليلة هو اللازانيا، وقد اخترت ألَّا أوجِّه الوصفات في كتاب الطبخ خاصتي إلى نوع معين من الطعام، كالإيطالي أو الآسيوي، بل أضمِّن فيه كلَّ أطعمتي المفضَّلة، وأضمِّن حتَّى بعض الأطعمة المفضَّلة عند آسا، مثل كعكة جوز الهند اللعينة. أحب أن وصفاته المفضَّلة ستوضع في كتاب طبخ والذي بدوره يهاجم طبيعته البشرية، حيث أشعر أنه نوع من انتقامٍ مصغَّرٍ. كل دولارين أجنيهما من كتاب الطبخ هذا، سيذهب دولار منهما لمساعدة امرأة عانت على يدَيْ رجلٍ مثل آسا.

لذا، أجل، سأضمِّن في الكتاب وصفة كعكة جوز الهند اللعينة، وطبق المعكرونة الغبي، وكرات اللحم، بل وحتَّى مخفوق البروتين اللعين، الذي كان يوقظني قبل طلوع الفجر لأعده له. بقدر ما كرهت كل المرَّات التي أُمرت فيها بالطبخ من أجله، على الأقل ثمَّة شيء جيد سينتج عنها. كتاب الطبخ هذا بمنزلة رفع إصبعي الوسطى في وجه آسا جاكسون.

إنها فكرةٌ جيدةٌ في الحقيقة، أظن أنني، وبطريقةٍ ما، سأدرج يدًا ترفع الإصبع الوسطى على كل الصفحات، رمز تعبيري صغير لطيف لإصبعي الوسطى.

عندما انتهيت من ترتيب المعكرونة والصلصة على هيئة طبقات، رفعت الوعاء لألتقط صورةً أخرى، أخذت بضع لقطات، ثمَّ وضعت الطبق في الفرن.

- ما هذه الرائحة الزكية؟

قبضت على الطاولة عندما سمعت صوته.

خلفي مباشرةً.

لا. لا. لا. لا. لا. لا. لا.

هذا غير ممكنٍ، الباب ما يزال مقفلًا بإحكام، وجميع النوافذ مقفلةٌ من الداخل. إنني أحلم، إنني أحلم، إنني أحلم.

شعرت بنفسي وأنا أهوي ببطءٍ على أرض المطبخ، حيث أن جسدي بدأ يخونني، إنني أدخل في صدمة يمكنني الشعور بذلك، يمكنني الشعور بذلك. لا، لا، لا.

أنا على الأرض، مررت يدي عبر شعري، وفوق أذنيَّ، نبضي يرتعش. حاولت أن أمنع صوته من الوصول إليَّ، إن لم أسمعه فهو ليس هنا، ليس هنا، ليس.

أصبح أقرب الآن، وهو يقول: «يا للمسيح يا سلوان، ظننت أنكِ ستكونين أكثر حماسًا لرؤيتي».

أغلقت عينيَّ بشدَّة، لكنني سمعت صوت حركته وهو يرفع جسده ويجلس على الطاولة بجانبي، فتحت عينيَّ ورأيت قدميه تتأرجحان على مسافة قريبة من الأرض بعد أن دلى ساقيه إلى جواري. جهاز مراقبة الكاحل ليس في مكانه، يريدني أن أرى هذا، أعرف كيف يعمل عقله المريض.

كيف حدث هذا؟

أين هاتفي؟

أشعر أنني سأتقيأ. أجبرت نفسي على التنفُّس كي لا أفقد وعيي نتيجة الخوف.

رمى شيئًا ما على الطاولة، وهو يقول: «لزانيا إذَنْ؟ لم يكن يومًا طبق اللازانيا الذي تعدِّينه من أطباقي المفضلة، فأنتِ تكثرين دائمًا من صلصة الطماطم».

إنني أبكي الآن، زحفت مبتعدةً عنه، غير قادرة على استجماع قوَّتي للوقوف على قدميَّ، استمررت في الزحف، ورغم معرفتي أنني لن أستطيع الذهاب إلى أي مكان، فإنني أملت أن أتمكَّن من الفرار بطريقةٍ ما. سألني: «إلى أين أنتِ ذاهبة يا حبيبتي؟».

حاولت أن أرفع نفسي عن الأرض، ولكن ما إن استقمت نصف استقامة، حتَّى قفز عن الطاولة، ولف ذراعيه حولي من الخلف، وقال رافعًا إيَّاي بلا جهد عن الأرض: «دعينا نذهب ونحظى بدردشة صغيرة».

بكيت بشدَّة نتيجة خوفي، لأجد مباشرةً يدًا تغطِّي فمي، وقال وهو يحملني عبر غرفة المعيشة باتجاه غرفة النوم: «أريدك أن تكوني هادئةً في أثناء دردشتنا».

لم أنظر إليه حتَّى هذه اللحظة.

لا أريد.

إنني أرفض أن أنظر إليه.

لوك، أرجوك يا لوك، عد إلى المنزل. عد إلى المنزل. عد إلى المنزل.

رماني آسا على السرير، ورحت حالًا أزحف إلى الجهة الأخرى، لكنه أمسكني من كاحلي، وجرَّني إلى الخلف. مستلقية على بطني، حاولت أن أركل يده بعيدًا عني، أمسكت بأي شيء وصلت إليه يدي سواء ملاءة أو وسادة لأزيد من عزم الدفع، لكن قوَّتي الصغيرة فشلت بحمايتي منه. قلبني على ظهري ببطءٍ وكأنني في مشهد يُصَوَّر بآلية الحركة البطيئة، وثبَّتني إلى الأسفل باستخدام ركبتيه، وهو يمدِّدني. جلس فوقي، مركزًا ضغطه على بطني، وعندها أدركتُ أنه يعرف. فحَملي ليس بالشيء الذي يمكنني إخفاؤه في هذه المرحلة.

هذا هو سبب وجوده هنا.

شعرت بأصابعه تضغط على جفنيَّ، وأجبرني على فتحهما، وعندما رأيت وجهه كان يبتسم، وقال: «مرحبًا أيتها الجميلة، من الوقاحة ألا تنظري بعين أحدهم، وهو يحاول أن يجري محادثة جدية معكِ».

إنه مجنون لعين، ولا يمكنني فعل أي شيء لحماية نفسي، أو حماية طفلي.

سعلت إلى أن خرجت عصارتي الصفراوية مع دموعي. على الرغم من حقيقة أنه كان يثبِّتني على السرير، وأنني تمامًا تحت رحمته، إلا أن رأسي ما يزال يومض ببعض الأفكار السليمة الواضحة. الآن، في هذه اللحظة، وجدت

نفسي أتساءل كيف يمكن أن تعني حياتي الكثير لي، كيف يمكن لفكرة الموت أن تملأني بخوفٍ عظيمٍ كهذا، في حين أنني وقبل بضعة أشهر من الآن، ما كنت صراحةً لأهتم. فقد اعتدت أن أصلي ليقتلني آسا ببساطة، ويخلصني من بؤسي. كان هذا فيما مضى، في الأيام التي لم أملك فيها شيئًا لأحيا من أجله.

الآن لدي كل شيء لأحيا من أجله.

كل شيء.

سقطت الدموع وجرت من عيني إلى شعري، نظر إلى الدموع التي تنحدر على وجهي، ثمَّ انحنى إلى الأمام، وقرَّب وجهه من وجهي، وأدار فمه إلى صدغي، وشعرت بلسانه يلعق بعض دموعي، وعندما أبعد وجهه كانت ابتسامته قد تلاشت. وهمس: «ظننت أن طعم دموعكِ سيكون مختلفًا».

رحت أشهق، وتسرع نبضي كثيرًا، وكأنه أصبح الآن مجرَّد نبضة واحدة مستمرَّة، أو ربما قد توقَّف نهائيًّا. أغلقت عينيَّ مجدَّدًا، وهمست: «انْهِ الأمر وحسب يا آسا. أرجوك».

تناقص الضغط قليلًا فوق بطني، وكأنه يعدِّل وضعيته فوقي، ثمَّ شعرت به يرفع قميصي، ويضغط بيده على بطني، وهو يقول: «مبارك. هل هو منِّي؟».

أبقيت عينيَّ مغمضتين، ورفضت أن أجيب على سؤاله. فرك بطني بيده لعدَّة ثوانٍ، ثمَّ شعرت به يتحرَّك مقتربًا مجدَّدًا، وقال وفمه عند أذني: «هل تتساءلين كيف بحقِّ الجحيم دخلتُ إلى شقتكِ؟».

كنت أتساءل، ولكنني الآن أتساءل كيف بحقِّ الجحيم يمكنني إخراجه من هنا.

- هل تتذكَّرين عندما سمح صديقك الطيب لوك هذا الصباح لعامل الصيانة بالدخول لتبديل جهاز التنقية في مكيف الهواء؟

رجل الصيانة؟ ماذا؟ لا، هذا غير ممكن. سأل لوك عن أوراق إثبات شخصيته، وتحقَّق من هويته مع المدير. إننا نعرف جميع العاملين في هذه المنشأة، وقد عمل ذاك الرجل هنا لأكثر من سنتين.

- أسداني معروفًا صغيرًا، وفتح قفل النافذة عندما أدار لوك ظهره. أتعرفين كم دفعت له لقاء ذلك؟ ألفي دولار. ولم يطرح أي سؤال. لقد عرف أنكِ هنا، وعرف أنكِ حبلى، وقد عرف أنني أخطِّط لفعل شيءٍ سيئ، وإلا ما الذي يدفعني لأعطيه ألفي دولار لقاء التظاهر بأنه يقوم بتبديل روتيني لجهاز تنقية الهواء؟ لم يهتم يا سلوان. كل ما أراده هو ألفَي دولار، ثمَّ مضى في طريقه، ولم يسأل سؤالًا واحدًا حتَّى.

أنا مثيرة للاشمئزاز.

مقرفة.

الجنس البشري مثيرٌ للاشمئزاز.

لو عرف ذاك الرجل الأشياء التي يستطيع آسا فعلها، لما قام بفعلته قط. ما كان البتَّة ليفتح قفل النافذة. لا بُدَّ أنه اعتقد أن آسا يرغب باقتحام المنزل ليسرق تلفازًا.

ربما تصاعدت حدة بكائي بحلول هذه اللحظة، نتيجة خيبة أملي بالبشرية، التي فشلت حتَّى بالوصول إلى أقل مستوى من الأخلاق.

- لم يَرَني حارسك الصغير في الخارج حتَّى، لأنه، وللأسف، لا يعتقد لوك أنكِ تستحقين أن ينفق عليك مالًا بما يكفي ليوظِّف حارسًا أمام كل مدخل يفضي إلى هذه الشَّقَّة. أيظنني غبيًا إلى درجة الدخول من الباب الأمامي اللعين؟

كلما تكلَّم أكثر، سمعت أقل. خدَّرني الخوف على نحوٍ ما، لا أشعر بجسدي بعد الآن، ولا أشعر بثقل آسا فوقي.

بدأت ببطءٍ أفقد إحساسي بأي شيء.

ولكن وعيي ما يزال حاضرًا. وما زلت واعية.

إنني واعية لحقيقة أنه يجردني من ملابسي، قطعةً تلو الأخرى.

أنا واعية لحقيقة أن لسانه أصبح داخل فمي.

إنني واعية لحقيقة أنه يفعل هذه الأشياء بي على السرير الذي أتشاركه مع لوك، وفي الشَّقَّة التي ظننت، بسذاجةٍ، أنها آمنة.

إنني واعية لحقيقة أنه أصبح داخلي الآن.

لا يمكنني الشعور به.

لا يمكنني رؤيته.

لكنني أعرف.

أنا واعية.

إنني واعية بأن موتي هكذا سيكون، وبأن حياتي المزرية الأشبه بنكتةٍ مقيتةٍ ستنتهي الآن. هكذا ستنتهي حياة طفلي، لأنني لم أستطع أن أقدِّم ما فيه الكفاية لحمايتنا.

أنا لا أستحق لوك، لو كنت أستحقه لما حصل أي من هذا. لقد وُضِع لوك في حياتي فقط لأختبر حلاوة الحياة معه، وأتألَّم بالتالي أكثر بما لا نهاية له عند معرفتي أنني أخسره.

لا أعرف ماذا فعلت في حياتي كي أستحق هذا. ولكن كي يكون آسا هنا، الآن، ويفعل هذه الأشياء بي، لا بُدَّ أنني اقترفت ذنبًا عظيمًا في هذه الحياة، أو في حياةٍ ماضية.

إنني أستحق هذا، إنني واثقة من هذا.

اختنقتُ بدموعي، اختنقتُ بلسانه.

إنني واعية، والوعي هو آخر ما أرغب به الآن، إنني أفضِّل أكثر بكثير أن أكون ميتة.



آســا

- راودني شعورٌ مختلفٌ هذه المرة.

ما زلت ألهث، نتيجة اللحظة غير المخطط لها التي حدثت بيننا، انسحبت منها، وانهرت فوقها.

لم تحاول يومًا إيقافي بتاتًا، سمحت لي بمضاجعتها ببساطة، ولم تقل يومًا لا.

عاهرة لعينة.

كان الأمر أفضل في السابق، في الأوقات التي كنت أعلم فيها أنني الوحيد الذي يضاجعها، ولكن بعد ذلك فقط، بدأت أشعر أنني كلما ضاجعتها وكأنني أتشاركها. معرفتي أن لوك قد تذوَّق طعم جسدها، وعرف هذا الشعور، تؤجِّج الرغبة داخلي لأن ألف يدي حول عنقها وأخنقها، منهيًّا حياتها وحياة الجنين. كنت على الأرجح لأفعل ذلك لو أنها قاومتني، لكنها لم تفعل.

إنها مشتاقة لي، فأيُّ امرأة أخرى في العالم كانت لتقاومني، وتقاتل لمحاولة إبعادي عنها، أي امرأة غير سلوان. إنها تعرف إلى أين تنتمي، تحتي، وحولي.

استلقيت بقربها، ورفعت جسدي بالاستناد إلى مرفقيَّ، ما تزال عيناها مغمضتين، وجسدها يرتعش، ولا أعرف إلى أي شيء أعزو ارتعاشها: إلى الخوف، أم إلى أنني جعلتها تقترب من بلوغ النشوة. على الأرجح الأمرين معًا.

أكره أنها ما تزال جميلةً للغاية، ولم يَقِل جمالها عن الوقت الذي كانت فيه بريئة، الشعر الأسود اللامع ذاته، الطويل بما فيه الكفاية ليغطي صدرها، والشفاه الحلوة الناعمة نفسها، التي سبق وانتمت إليَّ وحدي ولجسدي. سحبت إصبعي نزولًا على بطنها، وفوق الانتفاخ الصغير فيه، واستمررت بالنزول. تنهَّدَتْ عندما نظرتُ إليها، اللعنة كم اشتقت إليها! إنني أكرهها كرهًا شديدًا، لكنني أشتاق لها.

- انظري إليَّ يا سلوان.

أصدرت أنينًا، وحاولت أن تبتلع دمعةً جديدةً.

- سلوان، انظري إليَّ.

نظرت إليَّ ببطءٍ، وفتحت عينيها المملوءتين بالدموع، وأمالت رأسها بما يكفي فقط لتنظر إلى عينيَّ.

- اشتقت إليكِ يا حبيبتي.

مرَّرتُ يدي بين ساقيها، وأنا أتكلم معها، لأذكِّرها بالشعور الذي اعتدتُ أن أمنحها إياه. ربما إن تذكرت كم كنا رائعين معًا، قد نتمكن بطريقة ما من استعادة ذلك الماضي.

- اشتقت أن ألفَّ نفسي حولك خلال الليل وأنا نائم، أتعرفين إلى أي درجةٍ أشعر بالوحدة في منزلنا يا سلوان؟ الوحدة قاتلة هناك من دونك. إنني أكره هذا الشعور.

أغلقت عينيها مجدَّدًا، وابتسمتُ، لأنني أعرف كم من الصعب أن تبقيهما مفتوحتين عندما تعطيها يدي مشاعر كهذه. أحب أن أراقب المراحل التي تمُرُّ بها، إلى أن تشد جفنيها أكثر، وتصرخ باسمي. وكما كنت آمل، رأيتها تشدُّ عينيها وتزيد إغلاقهما.

طبعت قبلةً رقيقةً على شفتيها، وقلت، وأنا أفكر بالأمس: «ظننت أنني قد تخطَّيتكِ».

تذكّرت هيجان الغضب الذي ملأني، وجعلني أفكر بقتلها باستخدام الصليب، وتابعت: «لقد كرهتك يا سلوان، لا أحب أن أكرهكِ يا حبيبتي».

أدخلت دفعة كبيرة من الهواء إلى رئتيها، وكان فمي قريبًا جدًّا من فمها، فسرقت بعضًا من أنفاسي، أعطيتها المزيد، ثمّ ضغطت فمي على فمها، وقبّلتُها، وملأت فمها بلساني. رفضت أن تبادلني القبلة، فهمست وأنا أحرّك شفتيّ على شفتيها: «سلوان، حبيبتي، أريدك أن تبادليني القبلة، يجب أن أعرف إن كنت ما أزال أعني أي شيء بالنسبة إليكِ».

حافظت على صبري، واستمررتُ بلمسها، ومراقبتها. فتحت عينيها أخيرًا، وتدحرجت على خدها دمعةٌ كبيرة الحجم، أكبر من كل سابقاتها. وبعدها تذكّرتْ، ورفعت رأسها، وباعدت بين شفتيها لاستقبال شفتيّ.

تذكّرت كم فعلت من أجلها، تذكّرت كم بحقّ الجحيم قد أحببتها، وبأيّ شدّة. عندما انزلق لسانها على لساني، أردت أن أبكي. اشتعلت النار في صدري، وشعرت أنني بحاجة إلى مضاجعتها مجدّدًا وإلا فإنني سأحترق. قلت لها: «لقد اشتقت إليكِ كثيرًا يا حبيبتي».

لكنني صمتُّ بعد ذلك، لأنها راحت تقبلني كما اعتادت أن تقبّلني في السابق، قبل أن يتم إفسادها. إنها تقبلني كما قبلتني في ليلتنا الأولى في ذلك الزقاق، حيث كان فمي أول فم يلمس شفتيها ويعرّفها على التقبيل.

إنها تتحرّك الآن، ترفع ذراعيها، وتمرّر يديها على عنقي. شابكت أصابعها في شعري، وكنت بحاجة ماسةٍ إلى ذلك. كان الأمر يستحق المخاطرة بإزالة جهاز مراقبة الكاحل، يستحق بجدارة. أعرف أنني أتيت إلى هنا بنية مختلفة، ولكن ذلك لأنني كنت غاضبًا. ولّد لوك داخلي شعورًا هائلًا بالبغض، ممّا جعلني أخلط بين مشاعري تجاهه، ومشاعري تجاه سلوان، وجعلني أعتقد أنها شريرةٌ، لكنها ليست كذلك.

إنها ضحية.

إنها ببساطة ضحية لوك، وكانت بحاجة لأن أذكرها كم يختلف الشعور عندما أحتضنها أنا، كانت بحاجة لأن تشعر بجسدي كي تتذكر أنها تعرضت لغسيل دماغ لتنساني. لكنها لم تنسني.

إنها تتذكر.

همست، وهي تقول اسمي برغبة: «آسا، أنا آسفة».

تراجعت، وانا مصدوم من قدرتي على النطق بالكلام، بينما أنا بحاجة ماسةٍ إليها، إلى درجة أعجز معها عن التنفُس، وقلت وأنا أبعد خصلات شعرها عن وجهها: «لا تعتذري يا حبيبتي، لا بأس، سنتخطى هذا الأمر، لقد جعلك تكرهينني، وللحظة، جعلني أنا أيضًا أكرهكِ، ولكننا لسنا كذلك يا سلوان. أنتِ لا تكرهينني يا سلوان».

هزَّت رأسها، وقالت: «لا يا آسا، أنا لا أكرهك».

رأيت اعتذارها في كل ملامح وجهها، رأيت ندمها في كلماتها، وفي الدموع التي ما تزال تنهمر من عينيها.

قالت: «أحبك».

وقتلتني تمامًا بهذه الكلمة.

- أعتذر عن كل شيء، لقد اشتقت إليكَ كثيرًا.

قبَّلتها مجدَّدًا، ثمَّ انزلقت فوقها لأن كلماتها تلك قد أججت الرغبة داخلي بالفعل، ولم أعد أستطيع التفكير باستقامة. ضاجعتها بهدوء، وراحت تشهق لتدخل الهواء إلى رئتيها، لم أقسُ عليها كما في المرَّة السابقة، حينما ظننت أنني أكرهها.

قبَّلتها، وكنت لطيفًا معها، لأنها مرت بالكثير. مارست الحب معها، وكنت أنظر إلى وجهها طوال الوقت، لأنني أحبها. إنها الشيء الوحيد الجميل الذي حدث لي يومًا، وكدتُ أنسى ذلك. قلت لها: «كنت مخطئًا يا حبيبتي. لا يراودني شعور مختلف، بل إنه الشعور ذاته الذي اعتدت عليه، إنكِ رائعة».

أجبرت نفسها على الابتسام، لكن من الصعب عليها أن تبتسم لأن الأمر برُمَّته حادٌّ للغاية. أن يلتم شملي بها هكذا، وأن أشعر بيديها عليَّ، والطريقة التي تلف ساقيها بها حولي، وتشدني إليها. إنه أكثر شعور باعث على التوتر سبق وشعرت به، إنه أشرس شعور سبق وعشته، ويبرر كل ما عانيته في الأسابيع القليلة المنصرمة.

هذه هي الجنة، هذا هو عفو الله المطلق عني.

همست: «إنني أسامحك».

ولم أكن متأكِّدًا إن قصدت سلوان أم السماء بِفعل المسامحة، ربما أسامح كليهما، لأن ما يحدث الآن يستحق كل المسامحة التي في العالم. إنها تعطيني شعورًا رائعًا الآن، حتَّى أنني بدأت أفكر بمسامحة لوك.

حسنًا، هذا ليس حقيقيًا، لن أسامح هذا القذر يوما، لكنني سأؤجل التعامل معه إلى وقت لاحق، فأنا الآن منشغل بحب حياتي، أتذكر كل انحناءٍ في جسدها.

حاولت أن أطيل الأمر، أن أمارس الحب معها كما تستحق، لكنني اشتقت إليها كثيرًا. ضغطت وجهي على عنقها، وانتظرت أن تصدر أنينًا، فهي دائمًا ما تئن في هذه المرحلة.

ما إن غادر الصوت العزيز حنجرتها، حتَّى فقدت السيطرة على نفسي، وقلت: «اللعنة، اللعنة كم أحبك يا سلوان. أحبك كثيرًا يا حبيبتي. يا للجحيم!».

كانت هذه الثواني أفضل ثلاثين ثانية في حياتي. ظلَّت قابضةً عليَّ وهي ترتعش، أحب أنني أستطيع أن أجعل جسدها بأكمله يرتعش مع جسدي. أحب هذا، وأحبها.

قلت بهدوء: «لا تتركيني مجدَّدًا يا سلوان».

تدحرجت على جانبي، وجذبتُها إليَّ. لا يمكنني أن أصف روعة الأمر حتَّى، لقد ظننت أنني أحببتها من قبل، لكن مشاعري في حينها لا تقارن مع مشاعري في هذه اللحظة، ولا مع حدتها وهي تتدافع عبر شراييني. قلبي ينبض من أجلها، إنها السبب الذي يجعل قلبي ينبض حتَّى هذه اللحظة، ولست متأكدًا من إدراكي لهذه الحقيقة فيما سبق كما أدركها الآن.

- إياكِ أن تتركيني مجدَّدًا، إن أخلفتِ بوعدكِ مجدَّدًا، لا أعرف إن كنت سأستطيع أن أكون غفورًا حينها.

ربما شعوري مختلف الآن، لأن حبي لم يعد مقتصرًا على سلوان وحدها، فأنا أحب هذا الذي ينمو داخلها، الشعور الذي راودني وأنا أضاجعها أكبر من المشاعر التي ظننت أنني أستطيع الشعور بها، ولا أعتقد أنني قد أدركت سبب ذلك قبل هذه اللحظة، ألا وهو أنه الآن أصبح بين يدي المزيد من سلوان لكي

أحبه. لدي الآن سلوان، ولدي أيضًا قطعة الجنة الصغيرة التي شكَّلناها معًا تنمو داخل جسدها. واللعنة على لوك، لن يستطيع لوك أن يخلق حياةً يكون موعد خروجها للنور في ليلة الميلاد.

أعرف أنني خلقت هذا الطفل معها، لأنني ما كنت لأشعر بهذه الطريقة لو كان طفل لوك. هذا الشعور جيد، شعوري بمعرفتي أن جزءًا منِّي يعيش داخل سلوان، وأنني يجب أن أفعل كل ما بوسعي لأحميهما كليهما من لوك.

ضغطت خدي على بطن سلوان، ووضعت راحة يدي على بشرتها، ثمَّ أغمضت عيني بقوَّة، لكن الدموع ظلت تنهمر منهما. اللعنة، لا أصدِّق أنني أبكي في هذه اللحظة، ما هذا بحقِّ الجحيم؟ هل معرفة الرجال أنهم على وشك أن يصبحوا آباء تحولهم حالًا من رجال إلى ضعفاء مثيرين للشفقة؟!

احتضنتها بقوَّة، وقبَّلت طفلي، قبلتها مرارًا وتكرارًا، بطنها جميلٌ جدًّا، وأعرف أن الحياة التي خلقناها معًا والتي تنمو في بطنها ستكون جميلةً، مثل سلوان تمامًا. مررت يدها في شعري، والكلمات التالية التي همستها لي، لن تغادر روحي البتَّة، حيث قالت: «سوف تصبح أبًا يا آسا».

ضحكت، واستمرت نوبة بكائي اللعينة، ثمَّ اعتليتها مجدَّدًا، ورحت أقبلها.

- أنتِ جميلةٌ جدًّا يا حبيبتي، أنتِ جميلةٌ جدًّا. لو علمت إلى أيِّ حدٍّ سيجعلك الحملُ جميلةً، لكنت تلاعبت بوسائل منع الحمل الخاصَّة بكِ قبل وقتٍ طويلٍ من الآن.

شعرت بها تتجمَّد للحظة، وقد أضحكني الأمر، تراجعت إلى الخلف ونظرت إليها، لكنها ابتسمت لي ابتسامةً ناقصةً، وقالت: «ماذا؟».

تهدَّج صوتها قليلًا، ووجدت ذلك لطيفًا للغاية. ضحكت وقبَّلتُها مجدَّدًا، قائلًا: «لا يمكنكِ أن تغضبي منِّي يا سلوان».

أعدت وضع يديَ على بطنها، ونظرت إليها وتابعت: «فعلت ذلك من أجلنا، كي لا تتركينني مجدَّدًا».

ظلَّت تبكي لسببٍ ما، ولكني أنا نفسي كنت أبكي أيضًا، ضحكتُ مجدَّدًا، ماسحًا بعض الدموع عن خديها، وتابعتُ: «انظري إلينا الآن، لقد مررنا بالجحيم ذاته، ولكن ها نحن ذا سننجب طفلًا».

اقتربت منها مجددًا، وقبلتها ببطءٍ، وعمقٍ، مقدِّمًا لها وعودي. عندما انتهيت تركت شفتيَّ ملامستان لشفتيها، وقلت: «لن تتركيني مجددًا يا سلوان، ليس وأنتِ تحملين طفلي في أحشائكِ، أليس كذلك؟».

هزَّت رأسها حالًا، وأجابت: «لن أتركك يا آسا، أعدك. أحبك، ولن أتركك أبدًا».

لا أعرف كيف حدث الأمر للمرَّة الثالثة، لكن سماعي لهذه الكلمات التي نطقتها قد أجَّج الرغبة داخلي من جديد. كنت بالفعل فوقها، لذا تحركت قليلًا لأبدأ بمضاجعتها، أغلقت عينيَّ بشدَّة، وأبعدت الدموع المنهمرة على خديها بقبلاتي، وتحركت داخلها مرارًا وببطء، وأنا أشعر بالحاجة للتعويض عن كل الليالي التي كنا فيها بعيدين عن بعضنا. شعرت بقلبي يرفع معدل ضرباته داخل صدري، وأُنهكَ جسدي بأكمله لأن المرَّة الثالثة لنا استمرَّت طويلًا، وبدأت أشعر بالإعياء، لكن يمكنني أن أمارس الحب معها على هذا النحو إلى الأبد، وسوف أفعل ذلك.

إلى الأبد.



سلوان

حدث الأمر في لحظةٍ بعينها، في جزء من الثانية، لحظة سريعةٌ جدًّا بحيث تصعب ملاحظتها. اللحظة التي ابتعد فيها آسا عني، ونظر إليَّ، وهو يرجوني كي أبادله القُبَل. كانت لحظة إحباطٍ، وقد قرَّرت انتهازها.

عرفت أنني إن حاربته الآن سأُهزم، على الرغم من أن محاربته هي الشيء الوحيد الذي صرخ بي كل جزء من روحي لأفعله. كانت روحي تصرخ بي لأحاربه، لأدفع عن نفسي، منذ اللحظة التي وطأت فيها قدما آسا هذه الشقة، لست واثقةً حتَّى ما إن كان قد مَرَّ على وجوده هنا ساعة أم أقل، لكني أشعر وكأن هذا الوقت هو الأبدية. يمكنني أن أشعر بروحي وهي تنشب مخالبها، وتخدشني من الداخل، وهي تتوسَّل أن أحررها من هذا الجسد المثير للشفقة، الذي علقت به منذ لحظة ولادتي.

ولكن في هذه اللحظة أدركت أنه يجب أن يتوحَّد جسدي مع روحي، في هذه اللحظة يجب أن يتلاءم جسدي مع بقيتي، لتهدئة توتري، ولحماية الطفل الذي ينمو داخله، وللمحافظة على حياتنا أنا وهو طويلًا بقدر الإمكان. والطريقة الوحيدة لحدوث ذلك هي بمنح جسدي لآسا.

هذا كل ما أفعله الآن، إنه مجرَّد جسد، أما روحي فما تزال قوية، وتحارب بالمتاح لها الآن، لكن جسدي يجب أن يستسلم... أن يستسلم لما يكفي من الوقت لإنقاذي.

أخبرته ما كان بحاجةٍ إلى سماعه، ولمسته كما كان بحاجةٍ لأن يُلمس، وأصدرت الأصوات التي دربت نفسي على إصدارها من أجل إرضائه، وقلت له الأكاذيب التي هيئت نفسي لقولها.

لقد تظاهرت بحبي له مدة سنتين، فما المشكلة بفعل ذلك ليومٍ إضافيٍّ واحدٍ؟

أخيرًا، وبعد أن انتهى... مجدَّدًا... شعرت به؛ شعرت بشيءٍ من السلام. وسيطر عليَّ هدوءٌ عذبٌ لإدراكي أن روحي وجسدي وعقلي وصبري قد اتحدوا جميعًا وتناغموا. سوف نحارب آسا بالسلاح الوحيد الذي يفوقه قوَّة؛ سنحاربه بالحب.

استلقى إلى جانبي مجدَّدًا، وأدارني نحوه فأصبحت أمامه وجهًا لوجه، ابتسمت، وكوَّرت خده بيدي، وقلت: «ماذا الآن؟».

وكنت في أثناء ذلك ألاطف خده باستخدام إصبعٍ تمكَّنت على نحوٍ ما بإقناعه أن يكفَّ عن الارتعاش، وتابعت: «كيف سنخرج من هذه الفوضى يا آسا؟ لا يمكنني أن أخسرك مجدَّدًا».

أمسك يدي، وقبلها، وأجاب: «نرتدي ملابسنا ونغادر من الباب الأمامي يا سلوان، الأمر بهذه البساطة، وبعدها نذهب إلى مكانٍ ما... أي مكان، نذهب بعيدًا عن هنا».

أومأت، وأنا أُعمِل عقلي لاستيعاب كل ما قاله للتو.

إن آسا غبيٌّ بشدَّة، لكنه أيضًا، وبطريقةٍ ما، واحد من أذكى الأشخاص الذين سبق وقابلتهم يومًا. لقد تحتَّم عليَّ دومًا أن أحاول البقاء متقدِّمةً خطوةً عنه، ولا يختلف الأمر الآن عمَّا مضى، فكل حركةٍ يقوم بها من الآن وتاليًا هي اختبار.

حلَّلت كلماته وقلَّبتها في رأسي؛ إنه يعلم استحالة تمكُّننا من الخروج عبر الباب الأمامي، إذ يعرف بوجود الحرس، ولهذا السبب دخل عبر النافذة.

هززت رأسي، وقلت محاولةً أن يبدو القلق عليه في صوتي: «آسا، لا يمكنك أن تخرج من الباب الأمامي، إذ إن لوك يُخضعني للمراقبة، إن رآني الشخص الذي عيَّنه للمراقبة في الخارج، فسوف يتصل به حالًا».

ابتسم آسا.

لقد كان ذلك اختبارًا.

انحنى إلى الأمام، وقبَّل جبيني قائلًا: «سنخرج من النافذة إذَنْ».

- يجب أن أحزم أمتعتي أولًا.

حاولت أن أنهض لكنه جذبني وأرجعني إلى السرير. وقال: «سأحزمها أنا، لا تغادري السرير اللعين».

وقف وجال ببصره في الغرفة، ورأيت عروق رقبته تنتفخ وهو يرى أغراض لوك هنا وهناك، لذا حاولت أن أشتِّته عن غضبه، وقلت: «ثمَّة حقيبة أعلى الخزانة».

أشرت نحو الخزانة، ورأيت عينيه تقيسان المسافة بين السرير وغرفة المعيشة، مشى باتجاه الخزانة، وصفق باب غرفة النوم بطريقه، وكانت هذه طريقته في إعلامي أنه من الأفضل لي ألا أهرب.

استوعبت طريقة جلوسي على السرير، وأدركت أنني أبدو على وشك القفز في أي لحظة. لا يبدو وضعي الفيزيائي مقنعًا بما فيه الكفاية.

استلقيت على وسادتي، وحاولت أن أبدو مسترخية. خرج من الخزانة، ومسحني بعينيه، ثمَّ ابتسم إذ أعجبه أنني لم أحاول الهرب، وتخلَّى عن رقابته.

رمى الحقيبة على السرير وقال: «إنك جميلة للغاية يا حبيبتي. ماذا تريدين أن أضع في الحقيبة؟».

جال ببصره في الغرفة، ووقعت عيناه على منضدة الزينة، وتحديدًا على الصورة التي أظهر بها برفقة لوك، حيث كنت قد طبعتها قبل أسبوع من الآن ووضعتها ضمن إطار. رأيت حنجرة آسا تتحرَّك وهو يبتلع ريقه، وقال وهو يسير نحو باب الغرفة: «اعذريني للحظة».

عدلت جلستي على السرير وأنا أسأله: «إلى أين أنت ذاهب؟»

فتح الباب، ومشى في غرفة المعيشة، وأجابني: «لقد تركت المسيح المعلَّق على الخشبة قرب النافذة. إنني بحاجة إليه».

ماذا بحقِّ الجحيم؟

عاد قبل أن يتمكَّن عقلي من استيعاب ما قاله، وكان يحمل شيئًا ما في يده.

- هل هذا صليب؟

ما الذي يحدث بحقِّ الجحيم؟

ابتسم وهو يومئ بالإيجاب، ثمَّ حمل الصليب فوق رأسه بيديه كلتيهما، وأنزله بقوَّة مباشرةً على أعلى الصورة الموضوعة ضمن إطار على المنضدة. جفلت مع أول صوت ناجم عن ارتطام الصليب بالإطار، لكنه ضربه بعنف مرارًا وتكرارًا إلى أن تهشَّم الإطار إلى العديد من القطع الصغيرة.

اجتاحني الرعب بلا شك، لكنني أجبرت نفسي على الضحك، لا أعرف كيف نجحت بذلك، كل جزء صغير منِّي يرغب بالصراخ من الرعب الآن، لكنني أعرف أن هذا سيكون أسوأ شيءٍ أفعله. إنني أمثل دورًا، والشخصية التي أؤدي دورها يجب أن تضحك لآسا، لأنه يجب أن يعرف أنني لا أكنُّ أيَّ مشاعر لهذه الصورة.

حدَّق إليَّ، واستمتع بالابتسامة على وجهي، إذ اتسعت ضحكته على مساحة وجهه بالكامل، لذا أشرت إلى الطاولة قرب السرير، وقلت: «ثمة واحدة أخرى هنا أيضًا».

حطت عيناه على الصورة المؤطَّرة، وجرى عبر الغرفة، ثمَّ أرجح الصليب وكأنه مضرب، وضرب الصورة لترتمي عن الطاولة وتخبط في الحائط مباشرةً، وعلى الرغم من معرفتي أن هذا سيحدث بعد أن أشرت إليها إلا أنني فزعت. انكمشت خوفًا من كمية الحقد التي يكنُّها للوك.

طوال الوقت المنصرم كنت أُصلِّي في سري أن تحدث معجزةٌ، ويعود لوك باكرًا إلى المنزل، لكنني الآن أصلي ألا يحدث ما تمنَّيته، لأنني لم أعد واثقةً من أن رجُلي يمكن أن يتصدَّى للشخص الذي أصبح آسا عليه الآن، إنه غير عقلاني البتَّة، وخالٍ من التعاطف أو الشفقة، وغارق في الوهم، وخطير،

وإنني أفضل أن أُخرج آسا من هذه الشقة وأُجبر على مرافقته، على أن يكون هنا عندما يعود لوك إلى المنزل.

نظر آسا حول الغرفة، وعندما لم يجد شيئًا آخر يمكنه الانتقام منه رمى الصليب على السرير، وقال: «متى يعود لوك إلى المنزل؟».

إنه يعرف متى يعود لوك إلى المنزل.

يمكنني أن أكذب وأقول إنه سيعود في أي دقيقةٍ الآن، ولكن بما أن آسا قد عرف عنواننا بطريقةٍ ما، فإنه على الأرجح يعرف كل حركةٍ نقوم بها، ويعرف أن لوك يعود إلى المنزل في السادسة من كل مساء. قلت له: «الساعة السادسة».

أومأ وأخرج هاتفه من جيبه ليتحقق من الوقت، وقال: «أمامنا وقت طويل من الانتظار. ماذا تريدين أن نفعل خلال الساعات الباقية قبل وصوله؟».

مهلًا... ماذا؟

– هل سننتظره؟

رمى نفسه على السرير بقربي، وقال: «بالطبع سننتظره يا سلوان. لن أقطع كل هذه المسافة لأستعيد فتاتي، دون أن أنتقم من الوغد الذي سرقها مني».

بطريقةٍ ما قال كل ذلك دون أن تغادر الابتسامة شفتيه.

ابتلعت خوفي مجدّدًا، وقلت: «يمكننا أن نتناول اللازانيا، إن لم أخرجها من الفرن خلال الدقيقتين القادمتين ستصبح غير صالحة للأكل».

انحنى آسا فوقي، وطبع قبلةً على شفتيّ، محدثًا صوتًا عاليًا عند إبعاد شفتيه.

– أنتِ عبقرية بحقٍّ يا حبيبتي.

انزلق آسا عن السرير، وسحبني من يدي قائلًا: «إنني أتضوَّر جوعًا. يمكنكِ أن ترتدي ملابسكِ إن رغبتِ».

أفلت يدي، وتوجَّه إلى المرحاض، ترك الباب مفتوحًا، وظلَّ يراقبني طوال فترة استعماله للمرحاض. أعدت ارتداء ملابسي، محاولةً أن أوقف يديَّ عن

الارتعاش على نحوٍ ظاهرٍ للغاية. ضغط على مكبس الماء، وعاد إلى غرفة النوم، ليتوجَّه منها إلى غرفة المعيشة، وهو يقول: «كنت أمزح سابقًا، فأنا لا أكره اللازانيا التي تعدِّينها، أشعر بالسوء الشديد لقولي ذلك، كنت فقط غاضبًا منكِ بشدَّة».

مررت من أمامه، ووقفت على رؤوس أصابعي لأطبع قبلةً على خده، وقلت: «أعرف يا حبيبي. نقول جميعنا أشياء لا نعنيها عندما نكون غاضبين».

دخلت إلى المطبخ، لكن آسا لم يكن بعيدًا خلفي. أنا واثقة أنه في أثري تمامًا، لأنه غير مقتنع بأنني لن أخرج سكينًا لأستخدمها كسلاح. إنه ذكي، لأنه لو لم يكن على بعد خطوةٍ مني، لكنت بالتأكيد تسلحت بسكينة. جمعت مغلفات مكونات طبق اللازانيا الفارغة المتناثرة على الطاولة، ورميتها نحو سلة القمامة، ولكن ما إن فعلت ذلك، أدركت أنه لا يوجد كيس يبطن السلة.

هذا لأنني أخرجت القمامة من السلة.

نظرت إلى كيس القمامة، ورأيته مربوطًا من أعلاه، وموضوعًا بالقرب من السلة الفارغة.

نظرت إلى السلة الفارغة.

بدأ نبضي يتسارع، وفعلت كل ما في وسعي لإخفاء الأمر.

لقد نسيت القمامة اللعينة!

اهدئي. اهدئي. ارتديت قفازًا خاصًّا بالفرن، وفتحت بابه، ووضعت صينية اللازانيا على أعلى الفرن. مدَّ آسا يده فوق كتفي، وفتح خزنةً ليخرج منها طبقين لنا، وقبَّل قمة رأسي في أثناء فعله ذلك، أحضر ملعقة سكبٍ مسطحةٍ، واستخدمها لتقطيع اللازانيا، رافضًا أن يدخل سكينًا إلى المعادلة. ظللت أحدِّق إلى السلة الفارغة طوال فترة تقطيعه للازانيا.

لم أخرج القمامة.

***



لوك

نظرت إلى هاتفي مجدَّدًا، وقال رايان معيدًا انتباهي إليه: «إنكَ لا تصغي لما أقوله».

وضعت هاتفي على الطاولة ووجهه للأعلى، وقلت: «إنني أصغي».

ثبَّتُّ نظري على الهاتف، متظاهرًا بأنني أصغي لما يقوله رايان، لكنه على حق، فأنا لا أسمع كلمةً ممَّا يقول. فرقع رايان أصابعه، وقال: «ماذا بحقِّ الجحيم يا لوك؟ ما خطبك؟».

هززت رأسي.

- لا شيء، فقط...

لا أريد حتَّى أن أقولها بصوتٍ مسموع، لأنني سأبدو غبيًّا. فالإجراءات التي نعتمدها أنا وسلوان لنشعر بالأمان إجراءات سخيفة، حتَّى بالنسبة إلى معاييري.

- لقد مرَّت خمس دقائق.

أرجع رايان ظهره إلى الكرسي، ورشف رشفةً من مشروبه. كنا في مطعم بيتزا يبعد بضعة أميال عن شقَّتي، نناقش ما نناقشه دائمًا كلما اجتمعنا؛ قضية آسا. ستجرى محاكمته خلال بضعة أشهر، وسأشعر بالحماقة إن لم نفعل كل ما في وسعنا لجعل هذه المحاكمة بيِّنةً وواضحةً بقدر الإمكان. كلما

كانت عقوبته أطول، وكلما ازدادت التهم الموجهة إليه، ستكون سلوان في حال أفضل.

سألني رايان: «مرَّت خمس دقائق على ماذا؟».

- إنها الثانية عشرة وست دقائق الآن.

نظرت إلى هاتفي، وكانت الساعة تشير إلى 12:06، ولم تخرج سلوان القمامة بعد. انحنى رايان إلى الأمام، وقال: «وضِّح رجاءً ما تتحدث عنه، لأنك بدأت بالفعل تثير غضبي فعقلك سارح في مكان آخر طوال فترة محادثتنا».

- الشاب الذي يقوم بمهمة المراقبة النهارية... توماس... إنه يراسلني دومًا عند الظهيرة ليعلمني أن سلوان قد أخرجت القمامة. إنها تضعها أمام الباب يوميًّا عند الظهيرة، لتعلمني أن كل شيء على ما يرام.

التقطت الهاتف، ورحت أراسل توماس، وسألني رايان أكثر سؤال منطقي في هذه اللحظة: «لماذا لا تهاتفها ببساطة وتطمئن عليها؟».

- إنه نوع من الحماية الزائدة، فلو حدث شيء سيئ، وكان أحدهم برفقتها، يمكنه أن يجبرها على إجابة المكالمة والتظاهر بأن كل شيء على ما يرام. إننا نفعل أشياء أخرى بالإضافة إلى المكالمات الهاتفية لزيادة مستوى الطمأنينة.

حدَّق إليَّ رايان للحظة بعد أن ضغطت على زرِّ الإرسال وبعثت الرسالة، أعرف أنه يظنني أبالغ بريبتي الآن، لكن بالطبع لا يمكنه أن يلومني، فآسا مجنون لعين، ولا يمكن التنبُّؤ بتصرُّفاته، ولا أعتقد أن أيَّ أحد البتَّة يمكن أن يكون آمنًا في المطلق عندما يتعلَّق الأمر به.

قال رايان: «هذا تصرفٌ عبقريٌّ بالفعل».

- أعرف.

تابعت وأنا أستعدُّ للاتصال برقم سلوان: «لقد كانت فكرتها، وحتَّى الآن لم يسبق لها أن فوَّتت يومًا واحدًا. إنها تخرج القمامة يوميًّا على الموعد بدقةٍ كالساعة».

وضعت الهاتف على أذني، وانتظرت وهو يرن. لم يسبق لها البتَّة أن أحجمت عن الإجابة على هاتفها.

انتظرت.

لم تجب على هاتفها. وفي اللحظة التي حوَّلت فيها إلى البريد الصوتي، وصلتني رسالة من الحارس..

«ما زلت أنتظر. لم تُخرج القمامة بعد».

سقط قلبي اللعين على الأرض، وقد لاحظ رايان ذلك، ووقف معي في اللحظة ذاتها، وقال وهو يرمي النقود على الطاولة: «سأتصل لأطلب الدعم».

كنت قد خرجت من الباب قبل أن أستطيع الإجابة، وأصبحت في سيارتي، أشتم زحمة السير، وأضغط على البوق، وأفعل كل ما في وسعي لأصل إلى هناك.

أربع دقائق.

أربع دقائق موجعة لعينة.

هذا هو الوقت الذي سأستغرقه للوصول إلى هناك.

أدخلت رقمًا على هاتفي وضغطت على زرِّ الاتصال. أجابني: «أجل؟».

- هل أخرجتها أم بعد؟ هل وضعت القمامة اللعينة في الخارج أم لا؟

إنني أحاول أن أحافظ على هدوئي، لكنني لا أستطيع.

- ليس بعد يا رجل.

لكمت عجلة القيادة بقبضتي، وخرجت الكلمات من فمي على هيئة صراخ، على الرغم من محاولتي الجادة للبقاء هادئًا.

- هل دخل أحدهم عبر الباب الأمامي اليوم؟

- لا، لم يدخل أحد منذ أن غادرتَ هذا الصباح.

صحت: «اذهب إلى الخلف! تحقَّق من النوافذ!».

لم يقُل أي شيء.

- الآن! تحقَّق من النوافذ بينما لا أزال معك على الهاتف!

نظَّف حنجرته، وقال: «لقد وظَّفتني من أجل المراقبة، ليس لديَّ مسدس حتَّى يا رجل، لن أذهب البتَّة إلى الخلف ما دام الأمر يقلقك إلى هذه الدرجة؟».

شددت قبضتي على الهاتف، وصرخت به: «اللعنة، هل أنت جاد؟».

انقطع الخط.

- ابن اللعينة!

ضغطت على دواسة الوقود والطاقة في أثناء إضاءة الإشارة الحمراء، إنني الآن على بعد مربعين سكنيين من منزلي، وكنت عند التقاطع تقريبًا عندما حدث الأمر. ارتعش جسدي برمته من تأثير الاصطدام، رأيت الشاحنة ذات الثماني عشرة عجلة بزاوية عيني، ثمَّ اختفت. انفتحت وسادتي الهوائية، وبدأت سيارتي بالدوران. أعرف أن الأمر برمته حدث بسرعة أكبر من أن يتمكَّن أي أحد شاهده من استيعابه، ولكن بالنسبة إليَّ فقد وقع الحادث معي ببطءٍ شديدٍ.

استمر واستمر.

في الوقت الذي توقَّفت فيه سيارتي، كانت الدماء بالفعل تندفع إلى عينيَّ، سمعت صوت أبواق سيارات، وصراخ أشخاص، مددت يدي لأحرر حزام الأمان لكنني لم أستطع تحريك ذراعي اليمنى. إنها مكسورة.

حللت وثاق حزام الأمان باستخدام يدي اليسرى، وضغطت كتفي اليسرى على باب السائق الجانبي ودفعته ليُفتح.

مسحت الدماء عن جبيني.

صاح رجل من خلفي: «يا سيد! سيدي، يجب أن تبقى في سيارتك!».

أمسك أحدهم كتفي، وحاول أن يوقفني، فصحت: «ابتعد عني!».

حاولت أن أستعيد إحساسي بالمكان بما فيه الكفاية لأعلم أي اتجاه أواجه، وقعت عيني على محل الوجبات السريعة إلى يميني، استدرت نحو اليسار، واندفعت بين الحشود التي بدأت تتجمع حول سياراتي. صرخ الناس بي لأتوقف عن الركض، لكن لا يمكنني أن أركض بسرعةٍ كافية.

مربَّعين سكنيين.

يمكنني فعل هذا بأقل من دقيقة.

طوال وقت جريي نحو شقتي، كنت في عقلي أختلق أعذارًا لعدم إجابتها على الهاتف، صليتُ من أجل أن أكون مخطئًا، وأن ما أشعر به ناجم عن المبالغة لا أكثر. لكنني أعرف سلوان، ثمَّة خطب ما، وإلا ما كانت لتمتنع عن إجابة هاتفها.

ما كانت لتهمل إخراج القمامة على الساعة الثانية عشرة.

ثمَّة خطب ما.

عندما وصلت أخيرًا إلى المجمَّع، لم أكن أقود مركبةً، لذا لم يلتقط الحسَّاس الموجود على البوَّابة إشارة ويفتحها لأمُرَّ، نظرت حولي لأجد بابًا أدخل منه، لكنه كان مقفلًا. تراجعت عدَّة خطوات إلى الخلف، ثمَّ جريت ناحية البوابة، وتسلقت متمكِّنًا على نحو ما من رفع جسدي بالاستناد إلى ذراعي السليمة، وعندما هبطت على الجانب الآخر، لم أهبط على قدميَّ، بل على كتفي الأيمن اللعين، وضربني الألم كصاعقةٍ من البرق، طاردًا الهواء من صدري، وأُجبرت على التوقُّف للحظة حتَّى أستطيع إدخال الهواء إلى صدري من جديد، ثمَّ عدت واستقمت على قدميَّ.

رأيت توماس، رجل المراقبة، كان يقف خارج سيارته، واتسعت عيناه عندما رآني، ثمَّ رمى يديه إلى الأعلى قائلًا: «إنني آسف يا رجل، كنت على وشك الذهاب للاطمئنان عليها».

تراجع إلى الخلف، ولم أستطع منع نفسي عن لكْمِه باستخدام يدي السليمة على منطقة الحلق، وتابعت سيري وهو يسقط على باب السيارة. صحت من فوق كتفي: «أحمق لعين!».

جريت نحو الشُّقَّة، وتجاوزت الباب الرئيسي وانعطفت إلى جانب المبنى، وصولًا إلى الحائط الذي يحوي نافذتَيْ غرفة المعيشة، والنوم. أسرعت إلى نافذة غرفة المعيشة، وتطلَّب الأمر كل ما أملك كي لا أصرخ باسمها عندما رأيت القفل الداخلي للنافذة.

إنه غير مقفل.

عرفت في الحال كيف حدث ذلك. رجل الصيانة، إنه غلطي اللعين الوحيد. كان يجب أن أتقدَّم خطوةً على آسا. لم أعطِ نفسي الوقت للاستغراق بالتفكير، ضغطت ظهري على الحائط بالقرب من النافذة، وحاولت أن أسمع.

مددت يدي وسحبت مسدسي، أغمضت عينيَّ، وتنفَّست.

سمعت أصواتًا.

سمعت صوت سلوان، رغبت بأن أبكي وأترك دموعي تنهمر كنهر عند معرفتي أنني لم أتأخَّر، لكنني سأؤجل الأمر إلى وقت لاحق. أما الآن، فرفعت نفسي بمقدار بوصة، وحاولت أن أختلس النظر إلى الداخل، بالكاد يمكنني رؤية أي شيء بسبب الستائر.

اللعنة.

تسارعت نبضات قلبي، يمكنني سماع صوت صفارات الإنذار في المدى البعيد، ولا أعرف إن كانت الشرطة في طريقها إلى هنا لأن رايان قد اتصل بهم، أم بسبب الحادث الذي سببته عند التقاطع، بكلتا الحالتين، إن لم أفعل شيئًا ما خلال الثواني الخمس التالية، فسيسمع صوت الصافرات أيًا يكن داخل الشقَّة الآن.

وبالتالي سيُجبَر على التصرُّف.

ركعت على رُكبتيَّ، وحملت المسدس في يساري بينما فتحت النافذة بمقدار بوصة باستخدام يميني، نظرت إلى الداخل ورأيت سلوان، كما رأيت شخصًا آخر، ظهره مواجهٌ للنافذة، وهو يضحك.

اللعنة إنه يضحك، وعرفت في الحال أنه هو، هنا في الداخل مع سلوان. لم يؤذِها بعد، وكانت تقف في المطبخ.

إن سمع صوت صفَّارات الإنذار، سوف يؤذيها، سوف يهلع، ويفعل شيئًا غبيًّا. لا أعرف كيف جعلته بهذا الهدوء، لكن الأمر لا يفاجئني، فسلوان خاصَّتي حادَّة الذكاء.

رفعت النافذة بمقدار بوصةٍ أخرى، ولجزءٍ من الثانية، التقت عينا سلوان بعينيَّ.

جزء من الثانية.

نظرة.

أوقعت شوكتها، وعرفت أنها فعلت ذلك عمدًا، وفي اللحظة التي أفلتت الشوكة من يدها، قالت: «اللعنة!».

انحنت لالتقاطها. رفعتُ النافذة أكثر قليلًا، في حين دار آسا حول كرسي البار، وراح ينعطف حول البار لسببٍ ما. أيفعل ذلك ليتأكَّد من أنها لا تخطِّط لشيءٍ ما؟ رفعت مسدسي، وبالكاد تمكَّنت من القبض على الزناد بيدي اليمنى.

أخذ الشوكة منها، ورماها في حوض الجلي، ثمَّ أعطاها واحدةً نظيفةً. مباشرةً، وبعد أن أخذتها منه، هوت على الأرض، وصرخت: «الآن!».

قبل أن يستوعب آسا ماذا يحدث، ضغطت على الزناد. لم أنتظر حتَّى لأرى في أي مكان أصابته الرصاصة، بل رفعت النافذة، وتسلَّقت إلى الداخل، وجريت عبر غرفة المعيشة خاصَّتنا إلى أن وصلت إليها، وكانت تزحف حول البار باتجاهي.

صاحت بيأس: «مجدَّدًا! أرجوك يا لوك! أطلق النار عليه مرَّة أخرى!».

آسا ممدَّد على الأرض، واضعًا يده على عنقه، والدماء تندفع من بين أصابعه، وتسيل على ذراعه، وصدره يعلو ويهبط بثقلٍ، وهو يحاول إدخال الهواء إلى رئتيه. وجهت المسدس نحوه، وكانت عيناه متسعتين، تحدِّقان فيما حوله بحثًا عن سلوان.

إنها تقف خلفي الآن، وهي تقبض على قميصي من الخلف خائفةً. حطَّت عيناه عليها، وتمكَّن من أن يتمتم: «عاهرةٌ لعينةٌ. لقد كذبت، إنني أبغض اللازانيا اللعينة التي تعدِّينها».

ضغطت على الزناد.

صرخت سلوان، ودفنت وجهها في ظهري. استدرت وجذبتُها إليَّ، راحت تبكي، وهي تحضنني بكل ما تملك من قوَّة.

فقدت القدرة على البقاء واقفًا.

أمسكت البار، وأخفضت نفسي وسلوان إلى الأرض، ثمَّ ضممتها إليَّ بقوَّة، وتكوَّرت على نفسها بين أحضاني. حاولت أن أتجاهل الألم في ذراعي وأنا

أضمُّها، قربت وجهي من شعرها، وتنفَّست رائحتها، وأنا أقول: «هل أنتِ بخير؟»

كانت تنتحب، لكنها تمكَّنت من الإيماء.

- هل تأذَّيتِ؟

حاولت أن أتفحَّصها، لكنها بدت على خير ما يرام. وضعت يدي على بطنها، وأغلقت عينيَّ، وزفرت قائلًا: «أنا آسف للغاية يا سلوان، أنا آسف للغاية».

شعرت وكأنني قد خذلتها، فعلت كل ما في وسعي لحمايتها، لكنه تمكَّن بطريقةٍ ما من الوصول إليها.

لفت يديها بقوَّة حول عنقي، وشعرت بها تهزُّ رأسها، وهي تقول: «شكرًا لكَ».

إنها تضمُّني بكل ما تستطيع من قوَّة، وتابعت: «شكرًا لك، شكرًا لك، أشكرك يا لوك».

أصبح صوت الصافرات مباشرةً أمام المنزل.

قرع أحدهم على الباب.

تسلَّق رايان عبر النافذة، وقيَّم الوضع، ثمَّ سار نحو الباب الأمامي وفتح القفل. دخل العديد من عناصر الشرطة، وراحوا يتصايحون بالأوامر، حاول أحدهم أن ينكبَّ عليَّ وعلى سلوان، لكن رايان دفعه جانبًا، وقال: «امنحهما دقيقةً. اللعنة!».

فعلوا ذلك، منحونا دقائق عديدة. احتضنتها إلى أن دخل المسعفون، أمسكت بها في أثناء تحقُّقهم من نبض آسا، وظللت كذلك عندما أعلن أحد المسعفين وقت موت آسا.

ظللت أحضنها عندما انزلق آسا على الأرض بقربنا.

قال مشيرًا إلى الحادث: «رأيت سيارتك، هل أنت بخير؟».

أومأت، وسألته: «هل تأذَّى أحد؟».

هزَّ رأسه، وأجابني: «فقط أنت كما يبدو».

تراجعت سلوان ونظرت إليَّ، ثمَّ قالت وهي تضغط راحة يدها على رأسي: «أوه يا إلهي، لوك. إنه مصاب! ليساعده أحدا!».

ابتعدت عن أحضاني، وأسرع أحد المسعفين إليَّ، عاين رأسي لبضعة لحظاتٍ، وصرَّح: «يجب أن نأخذك إلى المشفى».

ساعد رايان المسعف في رفعي عن الأرض، أمسكت يد سلوان بيدي وأنا أمر من أمامها، وقد تمسَّكت بها بيديها كلتيهما. أصبحت أمامي الآن، تمشي إلى الخلف وهي تنظر إليَّ محمومةً، وقالت: «هل أنتَ بخير؟ ماذا حدث؟».

غمزتها بعيني، وأجبت: «مجرَّد حادث بسيط. لا يمكنك أن تغرق في مياه فريد، إن كانت الباخرة السياحية مليئة بالشطائر المكسيكية المحشوة بسمك السلمون».

ابتسمت سلوان، وشدَّت على يدي. تأوه رايان، ونظر إلى أحد المسعفين قائلًا: «يجب أن تفحصه وتتأكَّد من عدم تعرُّضه لارتجاج في الدماغ، لقد فعل الأمر ذاته في إصابته الأخيرة، وبدأ يقول أشياء عشوائية ليس فيها أيُّ منطق».

وضعوني في الجزء الخلفي من سيارة الإسعاف، لكنني ظللت ممسكًا بيد سلوان. جلست بقربي وانحنت فوقي، وقرَّبت شفتيها من شفتيَّ، ثمَّ تراجعت وابتسمت لي من فوق، وعيناها مليئتان بالقلق، وقالت: «هل انتهي الأمر يا لوك؟ هل انتهى هذا الكابوس أخيرًا؟».

أومأت، ورفعت يدي إلى خدها، وقلت: «لقد انتهى يا سلوان، انتهى حقيقةً هذه المرَّة».



لــوك

أمضيت ثلاثة أيام في المستشفى جراء الحادث، بقيت سلوان معي لأنني لم أرغب بأن تظلَّ وحيدةً في الشقة بعد كل ما حدث.

لم تتكلَّم بعد عمَّا حدث في ذلك اليوم قبل أن آتي، وعلى الرغم من رغبتي الشديدة بأن تفتح قلبها لي وتتحدَّث عن الأمر يومًا ما، إلا أنني لا أضغط عليها. أعرف ما الذي كان آسا قادرًا على فعله، ولا أحبِّذ أن أفكر حتَّى بما تعيَّن عليها تحمله. إنها تقصد معالجًا نفسيًّا، ويبدو الأمر مساعدًا بحق، هذا كل ما يمكنني أن أطلبه منها. أريدها فقط أن تستمرَّ بفعل كل ما في وسعها لمساعدة نفسها على تخطِّي هذا الوضع، وبأي وتيرةٍ تناسبها.

في اليوم الذي أُخرجت فيه من المشفى، عُقدت جنازة آسا، وكنا سلوان وأنا في الشقَّة صباحًا نحزم بعض الأغراض عندما اتصل بي رايان ليعلمني بذلك، نقلت هذه المعلومات إليها، لكنني علمت أنها لن ترغب في حضور جنازته بعد كل ما فعله بها.

في وقت لاحق من هذا الصباح، وفي أثناء قيادتي باتجاه منزل والديَّ، أخبرتني سلوان أنها ترغب بالذهاب إلى الجنازة، أخبرتني أن أدير السيارة، وبالطبع، حاولت أن أثنيها عن رأيها، كما أنني انزعجت قليلًا من رغبتها بتعريض نفسها لشيءٍ كهذا، لكن وجب عليَّ أن أذكِّر نفسي بأنها تعرفه أكثر من أي أحد آخر، وحتَّى وإن كانت ترتعب منه، إلا أنها كانت واحدة من الناس القلائل الذين عنوا له شيئًا، بمقدار ما كان سيئًا بالتعبير عن تلك المشاعر.

عندما وصلنا، كنا الشخصين الوحيدين اللذين حضرا إلى الجنازة.

حاولت أن أتخيَّل كيف يبدو الأمر بالنسبة إليه، ألَّا يملك عائلةً على الإطلاق، والأصدقاء الذين حوله ليسوا حتَّى أصدقاء حقيقيين، لم يكن لديه أحد ليقوم بتحضيرات الدفن حتَّى، لذا جرى الدفن بأبسط ما يمكن. لم يكن هناك أحد سوى كاهن من مكتب الدفن، وأنا وسلوان، وموظف آخر من المكتب. ولست واثقًا حتَّى من أن أي صلاة كانت لتُتلى لو لم نحضر.

لا أريد القول إن هذه الجنازة ساعدتني على فهمه على نحوٍ أفضل، لأنه هو نفسه السبب الذي جعل الآخرين يحجمون عن حضور جنازته، لكنني شعرت بالأسف عليه في هذه اللحظة أكثر من أي لحظة أخرى، لقد قام بإيذاء كل من ظهر في طريقه طوال حياته، ولا يمكنك أن تضع اللوم في هذا الأمر على أحد سوى آسا.

لم تبكِ سلوان خلال الجنازة، التي كانت عبارة عن جنازة بالقرب من القبر فقط، ودامت لمدة عشر دقائق لا أكثر. أقام الكاهن مراسم سريعة، وتلا صلاةً، ثمَّ سأل إن يرغب أيٌّ منَّا بقول شيء، فهززت رأسي، لأنني بصراحة لم أحضر إلى هنا إلا من أجل سلوان، لكن سلوان أومأت، ووقفت بقربي، يديها في يدي، وأخفضت نظرها إلى النعش، وزفرت نفسًا حذرًا قبل أن تتكلَّم وتقول: «آسا، لقد كان لديك الكثير من الإمكانات، لكنك قضيت كل يوم من حياتك وأنت تتوقَّع أن يدفع العالم ثمن بعض الأشياء المريعة التي اضطررت إلى التعامل معها في أثناء طفولتك، وهنا قد أخطأت. إن العالم ليس مدينًا لنا بأيِّ شيءٍ، إننا نأخذ ما نُعطَى، ونصنع منه أفضل ما يمكننا، لكنك أخذت ما أُعطي لك، وأسأت معاملته متوقِّعًا أن يمنحك المزيد».

تقدَّمتْ إلى الأمام، وتركت يدي، لم يكن ثمَّة أزهار، لذا انحنت وقطفت زهرة هندباء برية، ووضعتها أعلى النعش، ثمَّ همست بهدوء: «كلُّ طفلٍ يستحق الحب يا آسا، وأنا آسفة لأنكَ لم تُمنَح الحب يومًا. من أجل هذا فقط، أسامحك، كلانا نسامحك».

ظلت صامتةً لبضع دقائق، ولم أعرف ما إن كانت تتلو صلاةً من أجله، أم تودِّعه بصمت، لكنني انتظرتها. أخيرًا تراجعت إلى الخلف وأمسكت يدي، ثمَّ استدارت ومشت مبتعدةً وأنا بقربها. في هذه اللحظة شعرت بالفرح لأننا قرَّرنا الحضور، أعتقد أنها كانت بحاجة لأن تكون هناك أكثر ممَّا عرفت.

منذ ذلك اليوم، والذي مضى عليه الآن قرابة سبعة شهور، فكرت بتلك اللحظة كثيرًا، فكرت بأنني فهمت ما قالته في تلك اللحظة في جنازة آسا. ولكن الآن، وأنا أقف فوق سرير ابني، أنظر إليه وهو ينام في سلام، أعتقد أنني في هذه اللحظة فقط فهمت ما كانت تعنيه عندما قالت: «... إنني أسامحك، كلانا نسامحك».

في حينها اعتقدت أنها كانت تشير إلى كلينا؛ هي وأنا، تشير إلى أننا كلينا نسامح آسا على كل ما قاسيناه بسببه، لكنني الآن، وبعد أن أعدت النظر بالأمر، لم أعد واثقًا من أنها كانت تشير إليَّ. عندما قالت كلينا كانت تشير إلى نفسها وإلى ابننا.

أخبرت آسا أنهما يسامحانه، لأنه وعلى الرغم من عدم مُضِيٍّ أكثر من بضعة أشهر على حملها في وقتها، إلا أنني أعتقد أنها لطالما عرفت أن آسا على الأرجح هو الوالد البيولوجي لطفلنا. أعتقد أن سبب حاجتها للذهاب إلى الجنازة لم يكن يتعلَّق بحصولها على خاتمة لعلاقتها معه، بل ختام لعلاقة آسا بالطفل الذي لن يقابله يومًا.

لقد تحدَّثنا مرَّة واحدةً فقط عن حقيقة أن ابننا؛ دالتون، قد لا يكون ابني بيولوجيًّا، حدث ذلك بعد ولادته بأسبوعين. حيث اشترت سلوان جهاز اختبار أبوة، لأنها خافت أن تؤرِّقني فكرة جهلي ما إن كان دالتون ابني أم ابن آسا، خافت أن تزعجني الفكرة وتأكل دماغي، ولم ترغب بأن تكون ما يقف بيني وبين الحقيقة.

ظلَّ جهاز اختبار الأبوة على خزانة الحمَّام منذ ذلك اليوم، لم أفتحه بعد، وهي لم تسأل عنه. والآن، وفي أثناء نظري إلى طفلي الصغير وهو نائم، شعرت أنني أعرف الإجابة بالفعل؛ لا يهم من هو والد هذا الطفل، لأن سلوان هي أمه.

أتذكَّر تلك اللحظة، عندما قدمني آسا لأول مرَّة إلى سلوان، كانت تقف في المطبخ، تتأرجح إلى الأمام والخلف وهي تغسل المواعين، والسَّكِينة تملأ وجهها، بدت فاتنة بكل ما تعنيه الكلمة، لكنني لم أعلم إلا بعد حين أن هذه الحالة من الراحة نادرة للغاية بالنسبة إليها.

إنني أرى ملامح السكينة هذه نفسها على وجه ابني وهو نائم، فهو يتمتَّع بشعر أسود كشعرها، وله العينين ذاتهما، والروح عينها، وهذا كل ما يهمُّ

بالنسبة إليَّ. أتمنَّى أن تصدِّق هذا، أتمنَّى لو تصدِّق أنه أيًّا كانت نتيجة هذا الاختبار، وسواء أكان دالتون ابني أم ابن آسا بيولوجيًّا، فذلك لن يغير شيئًا. إنني لا أحب هذا الطفل هذا الحب لأنني مسؤول بيولوجيًّا عن منحه الحب، بل أحبه لأنني إنسان، ولا يمكنني التحكم بمشاعري، إنني أحبه لأنني أبوه.

مددت يدي من فوق السرير، ومرَّرتها على قمة رأس ابني.

- ماذا تفعل؟

استدرت لأرى سلوان متكئةً على مدخل غرفة الطفل، تريح رأسها على إطار الباب، وهي تبتسم لي. رفعت بطانية دالتون قليلًا إلى الأعلى، ثمَّ استدرت، ومشيت نحوها. أمسكت يدها وأغلقت باب الغرفة نصف إغلاق، شابكت سلوان أصابعها بأصابعي، وتبعتني وأنا أشقُّ طريقي مرورًا بغرفة النوم إلى الحمَّام.

كانت ما تزال خلفي، وتمسك بيدي، عندما فتحت الخزانة وأخرجت اختبار الأبوة. استدرت لأواجهها، ورأيت الخوف في عينيها، لذا قبَّلتها لأبعِد هذه المشاعر عنها، ثمَّ ظللت ممسكًا بيدها وأنا أشقُّ طريقي إلى المطبخ. تبعتني سلوان، وعند بلوغنا المطبخ فتحت باب الخزانة الصغيرة التي نضع فيها سلَّة القمامة، وأزلت الغطاء، ثمَّ رفعت اختبار الأبوة الذي ما يزال مغلقًا، ورميته فيها. بعدها أعدت الغطاء، وأغلقت الباب، واستدرت لأرى سلوان.

رأيت دموعًا في عينيها، وعلى الرغم من محاولتها الشديدة لإخفائها، إلا أنني رأيت ابتسامةً تشقُّ طريقها عبر زاوية فمها. لففت ذراعيَّ حولها لعدةِ ثوانٍ، ورحنا نحدِّق واحدنا إلى الآخر بصمت. هي ترفع بصرها إلى الأعلى، وأنا أنظر إلى الأسفل نحوها، وفي هذه اللحظة عرفنا كلانا كل ما نحتاج لمعرفته.

لا يهمُّ كيف أصبح أفراد عائلتي جزءًا من هذه العائلة.

ما يهمُّ أن هذه هي عائلتي، أننا عائلةٌ واحدةٌ، هي وأنا وابننا.

***



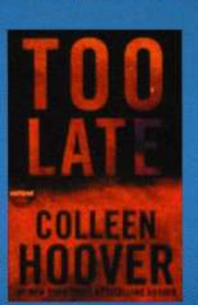
تمت

TOO LATE

بعد فوات الأوان

أحيانًا يستدعي طريق الخلاص أن تمرَّ عبر الجحيم، وهذا تمامًا ما سيحدث مع سلوان التي تجد نفسها عالقةً في علاقةٍ مع آسا جاكسون الخطر والفاسد أخلاقيًا، علاقة تحدُّها المخاطر من كلِّ حدبٍ وصوبٍ، سواء تلك المتمثلة بطبيعة آسا الشريرة، أو بطبيعة أعماله غير القانونية.

سلوان الصبية التي عانت طفولةً صعبةً ومراهقةً لا تقل صعوبةً، تنخدع بحبٍّ مشوَّه وتتركه يجرها إلى سجنٍ صعبٍ، بين يدَيْ حبيبٍ بعيد كل البعد عن الاستقرار النفسي، ويؤدي دور السجَّان ببراعةٍ وقسوةٍ، لتقضي سنتين من حياتها تصارع كي تجد مخرجًا.



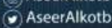
دربٌ صعبٌ مليءٌ بالمآسي، ولكن وكما قال لها كارتر فإن الحب يجدنا في المآسي، فهل سيجد الحب الحقيقي سلوان في النهاية؟ وهل سيكون كارتر هو منقذها؟ أم أن آسا سيتمكن من الاستحواذ عليها إلى الأبد كما يأمل؟

تصميم الغلاف كريم آدم karimadam.com


9 789779 923468






aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
AseerAlkotb
AseerAlkotb

AseerAlkotb